نجاة قصاب حسن

المذكرات «٢»

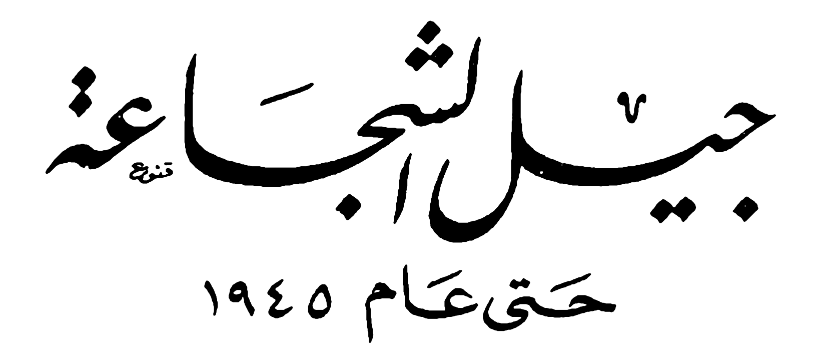
جيل الشجاعة

حتى عام ١٩٤٥



نجاة قصاب حسن

المذكرات « ٢ »



صمم الغلاف : الفنان المبدع تركي محمود بك

الطبعـة الأولى ـ ١٩٩٤
٢٠٠٠ نسخة
مطابع ألف باء ـ الأديب

جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥ / نجاة قصاب حسن ٠ ـ (دمشق : د.ن) ،
١٩٩٤ (مطابع ألف باء ـ الأديب) ٠ ـ ٥١٠ ص ؛ ٢١سم ٠ ـ (المذكرات ؛ ٢) ٠

١ ـ ٩٥٦,١١١ ق ص ١ ج ٢ ـ ٩٢٣,٤ : قصـاب حسـن ، نجـاة ق
٣ ـ العنـوان ٤ ـ قصـاب حسـن ٥ ـ السلسلة مكتبـة الأسـد

ع ـ ١٩٩٤/١/٨٩

تصحيحـات لا بـدّ منهـا

نرجو معونتكم فيها لعدم امكان تدبرها طباعياً

وقعت في الكتاب بعض أخطاء في المعلومات وبعضها الآخر في رسم الحروف · وقـد ساعدني زملائي وأصدقائي في تصحيحها ، ولا سيما الدكتور مشيل سابا ، البارع في كشف الجراثيم على صغرها ، فقد ساعدته دقتـه المهنية في (نكش) نحـو عشرٍ منها · كما وقعت بعض اعتراضات لم أجد سبيلاً الى تلافيها الا بمحو بعض الأسطر مما قطع الالتباس ، فاذا رأيتم بعض الأسطر فارغـة فـذلك لأنني استدركت خطأها ، والمحو أسهل ، أما الاضافة فصعبة ·

أول الأخطاء في المقدمة الجديدة صفحة (و) في السطر الأخـير : جاءت كلمة لا عـداء لها والصحيح لا عـداد لها ·

في الصفحة ١١ السطر ٣ : ثم أن تصبح رغم أن ·

في الصفحة ٢٣ السطر الأخير: كلمة (فرعا) تصحح فتصبح (فرعي)·

في الصفحة ٢٤ السطر ٦ : تبدل كلمة (الأرض) بكلمة (الأرمن) ·

في الصفحة ٤٩ السطر ١٧ : كلمة بـين تصبح بيـد ·

في الصفحة ١٤٨ : يضاف الى العنوان : وكانت وفاته في ١٩٣٥/١١/٢١.

في الصفحة ١٥٧ : السطر قبـل الأخـير صوابهـا : وتأسست مدينـة الاسكندرون بعدها في سنة ٢٣٣ ·

في الصفحة ١٦٠ : يوضح الأمر : بأن تقسيم النواب على الطوائف هو بهذه النسبة ، وتحذف كلمة وهو نائب أرمني في السطر ١٨ لأن الدكتور بيلوني عربي ٠

في الصفحة ١٨٤ : السطر ٤ ولما قامت الثورة الفرنسية تصحح وتصبح ولما قامت الثورة السورية ٠

في الصفحة ٢٤٤ : تضاف جملة : وكانت في أنطاكية مدرسة تجهيزية تدرس لغاية البكالوريا الأولى ٠

في الصفحة ٢٥٢ : السطر ١٣ : صححوا الرقم فهو ١٩٣٦ ٠

في الصفحة ٢٦١ : انتهى الكلام في تلك الصفحة فتضاف نقطة بعد كلمة تم ٠

في الصفحة ٢٦٤ : كلمة كل السلف تصحح معظم السلف ٠

في الصفحة ٢٦٦ : مدرسة الآسية في (القيمرية) بدلاً من (القصاع)، وتضاف ومدرسة العازارية في باب توما ٠

في الصفحة ٤٥٦ : تحذف كلمة (بالقطار) لأن القطار يصل الى رياق فقط وليس الى شتورا وتصحح كلمات (في تلك الفترة) بكلمات : وفي ١٩٣٧ ، قبل تلك الفترة ٠

في الصفحة ٤٦٣ : السطر ٤ : ولك أذكر تصحح ولذلك أذكر ٠
السطر ١٠ : في حياته تصحح في حياتي ٠

والباقي عليكم أيها الاخوة القراء مثل غياب النقاط عن غورو فيصبح اسمه عورو أحياناً ومنكم الاعتذار ٠

سعدالدين قصاب حسن

والد المؤلف

١٨٩٣ ـ ١٩٨٠



سبقت وعهدك أن تسبقا   وبتنا نَحِنُّ الى الملتقى
نعيش بظلِّك فيئاً رضيّاً   وننهل منك الصفا والنقا

المؤلف بين ١٩٢٨ و ١٩٤٥



١٩٢٨



١٩٣٣



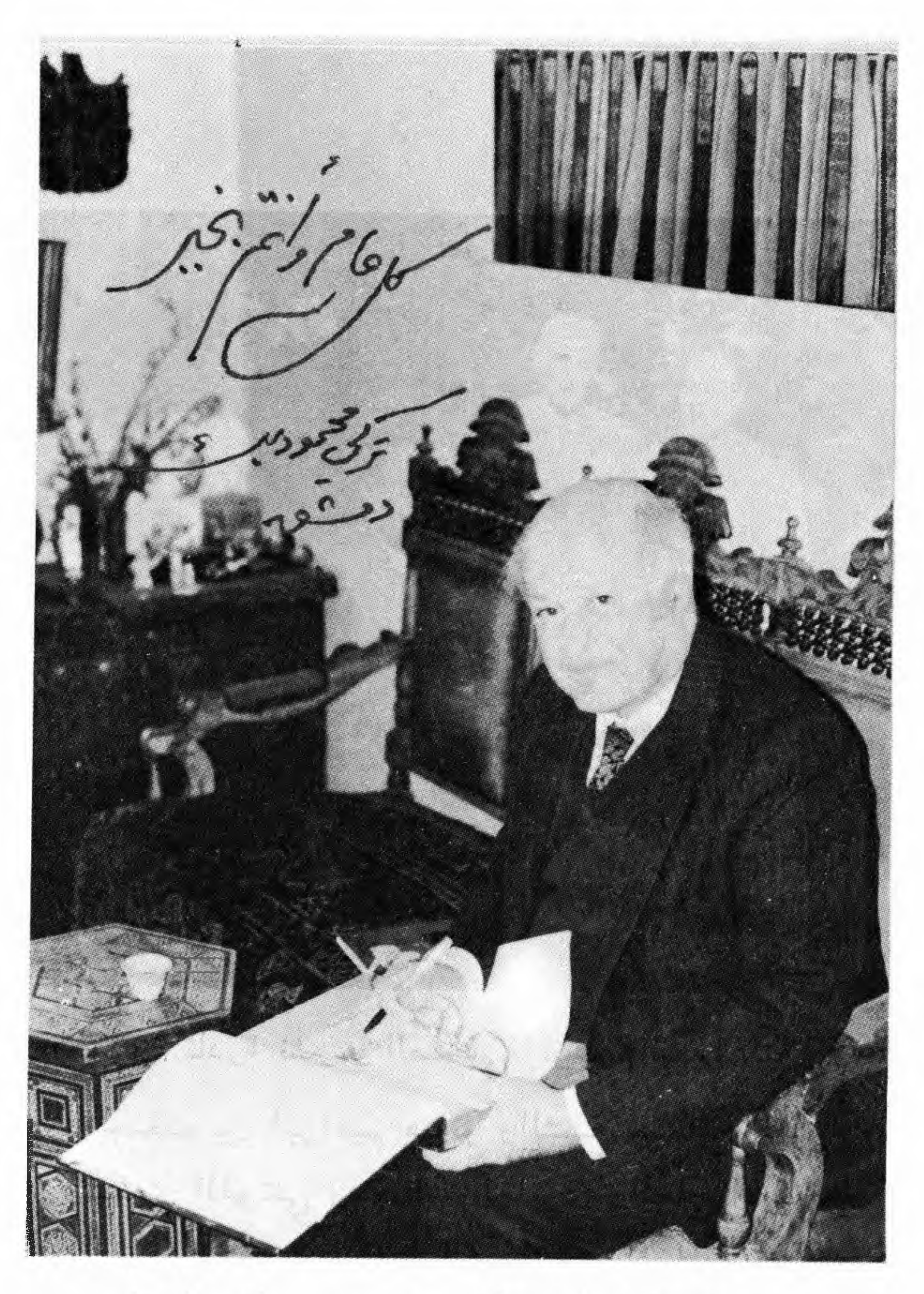
١٩٣٦



١٩٣٩



١٩٤٥



بعدسة الفنان تركي محمود بك وفي داره



« صورة نادرة نشرها الصحفي المرحوم سعيد التلاوي »

جمعت بين ابراهيم هنانو والشيخ صالح العلي
وشكري القوتلي وسعدالله الجابري والحاج أديب خير
ورضا الشربجي

مقدمة الطبعة الثانية

استقبل الجمهور بكرم ولهفة الطبعة الأولى من هذا الكتاب – ألف نسخة – وكان لزاماً أن نطبع الألف الثانية بعد شهر واحد ، مصحوبة في مقدمتها بتعليقات خطية وردتنا بترتيب التاريخ من السادة سعدي أبو جيب وريم الأطرش وعبدالسلام العجيلي ومنذر الموصلي. ان في هذه الرسائل مجاملة واضحة ومشجعة من الأصدقاء الذين كتبوها ولكنهم صدقوا التعبير في مجال الايضاح والنقد فرأيت أن الكتاب وهو اعادة عرض لمراحل من التاريخ الوطني يمكن أن يتضمن – بل يحسن أن يتضمن – مساهمة جادة ممن عاشوا هذا التاريخ بذاتهم أو عن طريق أهل أكارم كما هو الشأن بالنسبة لحفيدة سلطان الأطرش بطل الثورة السورية وقائدها . هذا ولا تحصى الملاحظات الشفوية التي وجهتني في هذه الطبعة الثانية .

ولذلك فعليَّ أن أتقدم بالشكر لكل من يتلطف فيبعث برأي أو نقد وتصحيح وبذلك يتحقق على نطاق واسع ما قاله الصديق المعتَّق الأستاذ زهير الشلق في مقال نشره في صحيفة (الشرق الأوسط) من أنه حين قرأ (حديث دمشقي) شعر أنه هو كاتبه ، وهذا أعمق أنواع التأييد الذي يصل الى درجة التبني .

ولا بد من توجيه شكر لادارة فنادق الشام التي دعت الى حفلات لتوقيع الكتاب كانت مناسبة للالتقاء بجمهور كريم وواسع جداً وأعطتني فرصة المذاكرة مع جمهور متميِّز أعتبر أنه هو المقصود بهذا العمل وهو الذي يقدِّر ان كان وفَّى صورة الأصالة في دمشق وسورية وفي كفاحهما المجيد .

●

بقي أن أعتذر عن أخطاء صغيرة وقعت في الكتاب بعضها مما يسهل على القارىء الحصيف تصحيحه بذاته ، وكلها مما لا يؤثر على أمرين : صدق النية ، والحرص على أمانة النقل · واذا كان في بعض الآراء التي أبديتها عـن بعض الأشخاص أو فيما سبق أسماءهم مـن أوصاف ما يزعج مـن لهم علاقة بهـم ، فانني مستعد لتلقي هـذه الملاحظات وتداركها في الطبعات المقبلة ، وأنا في الرواية التاريخيـة أقول ما أعتقده صدقاً أو ما نقلته عن أشخاص أعتقدهم صادقين ، ولا بد أن يكون هناك جـدل أحيـاناً ، وأي تاريخ خلا من الجـدل ؟

●

وبعد ، فانني لم أقدم في الكتاب الا صورة تذكارية واحدة لم تنشر من قبل على نطاق واسع ، وقد صدرت كتب كثيرة فيها صور كثيرة عن دمشق تغني عن نشر المزيد منها · ثم قدَّمت وفاءً لذكرى والدي وهو النجَّار البارع والعالِم المتديِّن الصافي والمربي الذكي الناعم صورة تمثله في قمَّـة الرجولة ، وأضفت صوراً خمساً لطفولتي وشبابي تري القـارىء ما يفعله الزمان بأهله ، وتؤنس أصدقائي الكثيرين الذين عرفوني في تلك المراحل . والذكرى تنفع ·

ولعلي في الجزء الثالث من هذه المذكرات (والأرجح أنه سيكون بعنوان « **الغليـــان** » وأرجو أن يصدر قريباً جداً) أستطيع الوفاء بحق التاريخ الاجتماعي والأدبي والفني بين الجـلاء والزمن الحاضر ، مع التركيز على تجاربي في المحاماة والاعلام والصحافة والأدب وفي مديرية الفنون وفي الرحلات الى العالمين الشرقي والغربي . اضافة الى فصل واسع عـن المسيرة الرحبانيـة ·

فالى اللقـاء

فقــرات مــن
رســالة من الأستاذ المحــامي ســعدي أبو جيب
القاضي وعضو محكمة التمييز الشرعية سابقاً

دمشق في ٢٢ آذار ١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الصديق الأستاذ الكبير نجاة المكرم

سلام عليك ورحمة من الله وبركة

وبعد : فقد أنهيت قراءة « جيل الشجاعة » ، فوجدت فيه الأدب الرقراق ، والنقلة الموفقة مــن حادث الى آخر ، حتى كأني كنت أسير معك من أيامك الأولى ، وأعاين من ذكرت من الرجال ، ولعلي عرفت بعضهم عــن قرب ، فأجد الصورة التي ذكرت ، والوصف الذي اقترب مــن الحقيقة والواقــع ٠٠ ولعـــل هـــذا الكتاب ، وشقيقه الأول « حديث دمشقي » من أبرز ما وقفت عليه من الكتب تصويراً للواقع الاجتماعي في النصف الأول مــن هــذا القرن ٠٠ وعندي أن كــل من يكتب سيرته الذاتية هو مــن رجال التاريخ ، ولو لم يكن يحمل شهادة بذلك ، لأن البحــر المحيط ليس الا مجموع ما فيــه مــن قطرات ..!..

وثمة رجاء أتوجه به اليك ٠٠ هو اعداد دراسة فكرية تتناول بنيــة هذا المجتمع ، وخصائصه المميزة ، وكيف تطور حــتى وصل الى

حال ، لو رآها أقرانك الذين طواهم الثرى ، لتذكروا أهـل الكهف ، ولا شك ٠٠ فكيف لو أطلع عليها من سبقهم ٠٠ بل اني ، وأنا الذي أدركت بعض الجيـل الذي عنـه تحدثت ، لتأخذني الدهشة من هـذا الواقع الذي نعيشه..!.. وليس هذا بعجيب ، لأن اليوم هو ابن الأمس، والغد هو ابن اليوم ..!..

أتراني أشق عليك في هذا الرجاء ، وفي الجواب على السؤال..؟. فان كان ذلك كـذلك ، فاكتبـه بتوقيع مستعار ، وتذكر كيف فعـل معروف الأرناؤوط ..!..

وأذكر لك بأني ضحكت من أعماقي عند قراءة ما كتبه عن عمّة الشيخ المستعار ، لأن ذلك ينطبق على ذقني ٠٠ فكم من عالم جاءني من هنا وهناك يريـد التعرف عليَّ ، فيصدم حين يجدني (أفندياً) بلا لحية ، ولا قفطان ، ولا عمامة ، ولا يكاد يصدق أني أنا هو أنا ٠٠ لأنه يتصورني كما تصور أولئك الناس صاحب « عمر بن الخطاب » ، و « صقر قريش » ، و « فتى العرب ٠٠ » فتأمـل ٠٠

وبمناسبة الحديث عن أمير البزق محمد عبدالكريم ، فإني ليؤلمني أن تموت ذكرى هذا الانسان العظيم ، الذي أضاف الى البزق وتراً ، وحمَّله أنغاماً لم يكن يحملها ، فكان بحـق أعجوبة قلَّمـا يجود بهـا زمان ٠٠ فما رأيك لو عملت على احياء ذكراه ..!. ذاك عمل يسجل ، ويخـلَّد ٠٠

وفي الختـام ، فان الحديث عـن « جيـل الشجاعـة » وما حوى يحتاج الى جلسة مع بعض من تحب ، وقديماً قيل : « لم يبق من مسرات الزمان غير اجتماع الاخوان » والى اللقاء ٠ والسلام عليك من أخيك ٠



رسـالة تعليـق

من الدكتور عبد السـلام العجيلي

أخي أبا سـلمى   الرقة في ١٠/٤/١٩٩٤

أطيب التحيـات :

قـولي لك أنني استمتعت أجمل الاستمتاع بقـراءة « جيـل الشجاعة » ، لن يكون غير شيء بديهي ومنتظر كل الانتظار ٠ تمنيت لو قدرت على أن أفعـل مثلك فأكتب بهـذه السلاسة والقدرة على التشويق أحـداث حياتي التي عشتها ، أو التي سمعت عنها ٠ ولكن بيني وبين ذلك ذاكرتك الحافظة للدقائق من الأحداث ، وللكثير من الأسماء ، أسماء الرجال والمواقع ٠ كما أن بيني وبـين ذلك قدرتك على (الأرشفة) وتنظيم الأفكار وتحديد الوقائـع ، بينما أنا جامـح الخيال، أذكر من الأمور نقاطها البارزة ، وأبني على الحبة منها قبـة٠ ملأت كتبي ومقالاتي ومحاضراتي بذكرياتي الكثيرة ، ولكنني أحطتها ، تقيـة" أو نقصاً في الحافظة ، بلفائف من الايهام والتخييل ، فلا يعرف قارئي ، وكثيراً ما لا أعرف أنا أيضـاً ، أين الواقع مـن المتخيـل ٠

ما علينا ٠ قرأت الكتاب مكباً عليه رغم أكوام الكتب والدوريات التي تنتظر دورها في اطلاعي عليها ٠ أكثرت من ترديد اسمي ، جزاك الله خيراً على تخليد هذا الاسم في ثنايا كتابك ٠ علي أن أعلق على بعض ما التفت اليه نظري أثناء القراءة ، واليك منها ما يلي :

- في صفحة (١٢١) رواية بدرالدين الشلاح التي يقـول فيها ما يفيد أن الجنرال ساراي كان محاصراً في قصر العظم ٠ أحب لو قرأت كتـاباً صدر في العـام الماضي عـن المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق ، رواية الفرنسيين عن الهجوم على

قصر العظم في ١٨ آب وفيها أن الجنرال ساراي لم يكن في القصر آنذاك ، كما فيها ادعاءات عن احراق القصر ونهبه غير التي أوردها الشلاح ، وذلك في الصفحة (٤١) من الكتاب ٠

- في صفحة (٢٦٧) يبدو أن سطراً أو أكثر سقط في التنضيد فأصبح عبدالنبي بهذا النقص رئيساً للوزارة !.(١)
- في صفحة (٣٤٠) ذاكرتي هنا أقوى من ذاكرتك ٠ كان ذلك في شتاء عام ١٩٥٥ ٠ اتصلتَ بي في فندقي « سميراميس » وقلتَ لي : ألم تقرأ ما قاله وصفي القرنفلي حول تحويل البرازيل الى ملعب للنيشان ، وما كتبتُه أنا في زاوية الرأي العام ؟ قلتُ لك : بلى ٠٠ قلتَ : اذن عليك أن « تؤاجر » ٠ وهكذا نظمت أنا تلك الأبيات ونشرتَها أنت في زاويتك ، ونشر « سليم سلامة » ، وهو أبو خالد رحمه الله (أي التلاوي) قصيدته المعارضة في جريدته « الفيحاء » ٠
- في صفحة (٣٧٨) ٠ الذي أعرفه أن منير الريس هو ابن عم نجيب وليس شقيقه ٠ وقد كرر منير الريس ايراد ذلك في مذكراته « الكتاب الذهبي » على ما أعتقد ٠
- هل هي نسختي وحدها التي نسي الطابع املاء الصفحة (٢٦٢)(٢) بكلامها ، أم أن كل النسخ مصابة بهذا النقص ؟ هكذا ترى أني افتقدت حتى هذه الأسطر التي أحسبها قليلة من كتابك الشيّق !

أكتب اليكَ هذه السطور ما دامت حيّة في ذهني، لأني لا أرى متى سآتيك الى دمشق وأقولها لك مشافهة ٠ جزاك الله عنا وعن التاريخ وعن الأدب خيراً ، والله يحفظك لاخوانك جميعاً ، على « علاّتك » التي لا عداء لها ! واسلم لواحد من أوائلهم ، المحب :

عبدالسلام العجيلي

---

١ ـ صحيح ، فهو رئيس ديوان الوزارة ـ صححوها رجاءً ٠

٢ ـ انتهى الكلام في تلك الصفحة ولم يكن له بقية ٠

رسـالة لطيفـة من الآنسـة ريـم منصور الأطرش

حفيدة القائد العام للثورة السورية سلطان الأطرش

دمشق في ١٧ نيسان ١٩٩٤

الأستاذ نجـاة قصاب حسن المحترم

تحيـة طيبـة ،

بعـد أن قرأت كتابك اللطيف والمؤثـر « حديث دمشقي » قبـل سنوات ، انتظرت طويلاً أن تظهر تتمة هذا الكتاب كي أقرأها وأسجّل انطباعاتي عنها في دفتر خاص خصصته لقراءتي الدائمـة ٠

وفعلاً ، حال ظهور « جيـل الشجاعة » ، أخذته لأقرأه ورأيت أن مقدمته معقولة ومنطقية ، وآمنت مباشرة أنه سيكون كتاباً **صادقاً وموثـوقاً** ٠ كما أنني وافقت معك على أهمية تلك الحقبة التاريخية مـن بلادنا ، واعتقدت أن رجوعك الى مراجـع عديدة و « موثوقة » سيفي بالغرض على أتمّ وجـه ٠

ولكن يبدو أن هناك مراجع لم تقصدها ، كما لم تقصد أشخاصاً ما زالوا على قيـد الحياة ، وقد عاشوا تلك المراحل بحلوها ومرّها وساهموا فيها مساهمة فعالة ، ومن هؤلاء مثلاً زيد الأطرش ، شقيق سلطان الأطرش ٠ ان زيد الأطرش ما زال على قيد الحياة وقد عاصر أحداث الثورة العربية الكبرى والثورة السورية الكبرى ؛ فقـد كان نائب القائد العام للثورة السورية الكبرى ٠ وسأورد لك ملاحظاتي بعد سؤال العم زيد وبعد الرجوع الى مراجع موثوقة ٠

ـ في الصفحة (٣٣) من كتاب « جيل الشجاعة » ، ورد بالحرف :

« ۰۰۰ وفي ۲۷ أيلول وصل الجيش العربي الى درعا ثم **تابعت** الى دمشق فلما وصلتها الطلائع وجدت أن دمشق سبقتهم الى اعلان الاستقلال ورفع العلم على السراي (۰۰۰) ۰ وتأخر دخول الجيش العربي الى دمشق ليلة بطلب من الانكليز حتى وصلت مفرزة من الخيّالة البريطانيين لتشارك في دخول دمشق ليكون احتلالها بقوات مشتركة لا عربية فقط ۰۰۰ » ۰

والحقيقة أن سلطان الأطرش ومعه يوسف الشويري (وهو جدّ والدتي) على رأس طلائع بني معروف ، قد دخلا دمشق في ۳۰ ايلول ۱۹۱۸ مساءً وذلك بناءً على كتاب من الأمير فيصل (الملك فيصل الأول فيما بعد) يحث فيه سلطان على الدخول الى دمشق قبل الانكليز ۰ وتمّ رفع العلم العربي في دمشق ، وقد رفعه كل من صالح طربيه (حامل بيرق القريّا) وعلي ذوقان الأطرش (شقيق سلطان ذوقان الأطرش) ۰

وطوال التحضير للثورة العربية الكبرى ، لم تنقطع المراسلات بين الأمير فيصل وسلطان الأطرش ۰ وقد شاركت طلائع بني معروف في هذه الثورة ودخلت **أولاً** الى دمشق ۰ ثم دخلت طلائع الجيش البريطاني في الساعة السادسة صباحاً من الأول من تشرين الأول عام ۱۹۱۸ وبعدها دخلت طلائع الجيش العربي بقيادة فيصل في الساعة التاسعة صباحاً من الأول من تشرين الأول عام ۱۹۱۸ ۰ وطبعاً يكون الجيش العربي هو الذي دخل أولاً لأن طلائع بني معروف تشكّل جزءاً منه ۰

- في الصفحة (۸٥) ورد في الكتاب فيما يتعلق بلجوء ابراهيم هنانو الى الأردن ما يلي :

« (۰۰۰) حتى أوصله بعد مغامرات الى الغوطة ومنها ذهب الى شرقي الأردن (۰۰۰) » ۰

وحقيقة الأمر أن ابراهيم هنانو قد لجأ الى القريّا والى سلطان

الأطرش الذي استضافه عنده ثم أمّنه بمصاحبة رفاقه من بني معروف الى الأردن ؛ وهذا ما سمعته بنفسي من جدّي قبل وفاته بزمن ومسجّل أيضاً في المراجع التي سأوردها في نهاية هذه الرسالة ٠

- في الصفحة (١١٨) ورد ما يلي :

« (٠٠٠) وكان أن أعدم الأتراك ابنه ذوقان عام ١٩١٠ » ٠ والحقيقة هي أن سلطان الأطرش قد عاد من الجندية عام١٩١٢ فوجد أن **والده** ذوقان قد شنقه الأتراك في دمشق في ساحة المرجة في آذار ١٩١٠ نتيجة مشاركته في انتفاضة ضد الأتراك قامت في الجبل ٠ ثم ان أحدهم من آل الأطرش من جرمانا قد استطاع أن يأخذ جثته ويدفنها في جرمانا ٠

- في الصفحة (١١٥) ورد ما يلي :

« ٠٠٠ أدهم خنجر من أبرز رجال مجموعة أحمد مريود حاول الالتجاء الى سلطان باشا الأطرش ، ولكن الفرنسيين لم يحترموا هذا (الجوار) ولا حق اللجوء فقبضوا عليه في ١٧ تموز ١٩٢٢ » ٠

والحقيقة أنه كان من الممكن متابعة هذا الموضوع ولو بشكل مختصر ، لأنه كان السبب المباشر في انتفاضة سلطان الأطرش الأولى عام ١٩٢٢ ضد الفرنسيين ٠

فحين استجار أدهم خنجر بسلطان ، كان هذا الأخير خارج القريّا ؛ فقبض الفرنسيون على أدهم خنجر ٠ علم سلطان بالنبأ ، فحاول بشتى الوسائل السلمية اطلاق سراح ضيفه ، فلم يفلح ٠ فذهب على رأس جماعة من بني معروف لتخليص أدهم خنجر بالقوة ٠ وحدثت معركة تل الحديد حيث تكبدت القوة الفرنسية خسائر مادية وخسائر في الأرواح ، اذ قتل

قائدها بوكسان وعدد من رجاله · وكان مع القوة الفرنسية ثلاث دبابات ، وثب مصطفى الأطرش من على جواده الى احداها وقتل قائدها ومعاونيه الاثنين (مصطفى هو شقيق سلطان وقد استشهد في معركة الكفر فيما بعد) ·

ومن هنا ألّف الشاعر القروي قصيدة بعنوان (سلطان الأطرش والتنك) لما كان لهذه المعركة من صدى كبير ؛ علماً بأن الشاعر القروي لم يكن يعرف سلطان الأطرش شخصياً ، وقد تعرّف الى سلطان حين زاره في القريّا في أوائل الثمانينات ·

وعلى إثر هذه المعركة لجأ سلطان الأطرش الى الأردن بعد أن قصف الفرنسيون قريته وقرى الجبل بالقنابل من الجو وأحرقوها · ثم عاد سلطان بعد عام كامل الى الجبل أي في عام ١٩٢٣ ·

ـ في الصفحتين (١١٥ـ١١٦) ورد ما يلي :

« وفي مطلع أيار ١٩٢٥ ، وكانت النفوس تهيأت في كل أنحاء سورية للتمرد على الحكم الفرنسي ، جرى اجتماع في دمشق في منزل الصحفي قاسم الهيماني ، ثم تتالت الاجتماعات وتقرر اعلان الثورة لتحقيق وحدة سورية واستقلالها · وبدأ سلطان الأطرش يجوب القرى لجمع المال والرجال والسلاح ··· » ·

وفي الحقيقة أنه قد جرت اجتماعات متتالية ، أحدها هو الذي ذكرت ، وأخرى متعددة في منزل الدكتور عبدالرحمن الشهبندر في دمشق مع عدد كبير من زعماء بني معروف وقد أخذت فيها المواثيق والعهود على تحقيق الوحدة والاستقلال من غير أن يكون للأحزب الرسمية أقل اتصال مباشر بهذه الاجتماعات · الا أن الشرارة انطلقت من الجبل بسبب تعنّت كاربيه والمفوض السامي الفرنسي ، وهذا ما لم يتوقعه الشهبندر بسبب عدم

استعداد دمشق للثورة ولكنه استحسنه جداً (مذكرات الشهبندر)٠ فقد انطلقت أول معركة من معارك الثورة السورية الكبرى من موقعة الكفر في ٢١ تموز ١٩٢٥ وكانت نصراً مظفراً لسلطان ورفاقه الثوار ٠ وقد كان السبب المباشر غدر ساراي بزعماء الجبل في ١٤ تموز ١٩٢٥ حيث استدرجهم الى دمشق واعتقلهم٠ وما أسميته أنت بمعركة صلخد ، يسمى عادة بمعركة الكفر ٠

وعلى أثر هذه الموقعة ، هرع الكومندان مارتان الى قلعة السويداء مع موظفيه وعائلاتهم للاحتماء في القلعة ٠ وفي ٢٨ تموز ١٩٢٥ حاصر ثوار بني معروف حامية القلعة مدة طويلة٠ وعندما حاولت الطائرات الفرنسية نجدة الحامية في القلعة ، أسقط الثوار هذه الطائرات ببنادقهم ٠

وبعد معركة المزرعة المظفرة التي قتل فيها آلاف الفرنسيين وأسر العديد منهم ، حاول الفرنسيون التفاوض مع سلطان الأطرش وقد وضع شروطاً حاسمة لهذا التفاوض تهم الجبل ، لأن الثورة وحتى تلك اللحظة قد بقيت وقفاً على الجبل ٠

وفي أواسط آب من عام ١٩٢٥، حضر وفد دمشقي الى سلطان في الجبل ، واتفقوا معه على ابقاء الثورة في الجبل بقيادته وأسموه القائد العام للثورة السورية الكبرى ، ثم اتفقوا على تعميم هذه الثورة الى دمشق وحماه ٠ وهنا أرسل سلطان الأطرش ، القائد العام للثورة السورية الكبرى ، ٥٠٠ فارس من بني معروف الى دمشق في ٢٣ آب ١٩٢٥ ٠ وكان الاتفاق مع زعماء دمشق أن يساند مجاهدو دمشق ثوار بني معروف حال وصولهم الى مشارف دمشق لكي يقوموا معاً بعمليات ضد الفرنسيين الذين كانوا سيؤخذون بين فكّي كمّاشة ٠

وهكذا ذهب الثوار الفرسان باتجاه دمشق ، وعلى مشارفها قصفتهم القوات الفرنسية بالطائرات وقتلت عدداً كبيراً منهم ٠

ومع ذلك تابع ثوار بني معروف طريقهم حتى وصلوا الى بوابة الله في حي الميدان ، وتابع الطيران الفرنسي قصفهم · ولكن للأسف لم يساندهم مجاهدو دمشق كما كان الاتفاق · وكان ذلك خسارة للثوار واحراجاً كبيراً للقادة الدمشقيين وخاصة للدكتور عبدالرحمن الشهبندر رحمه الله ·

- أما ما ورد في كتابك ص ١١٦ عن مجيء « وفد من وطنيي دمشق الى سلطان باشا وطلبوا منه عدم قبول الصلح » ؛ فمجيئهم كان بالدرجة الأولى لتعميم الثورة لأن سلطان الأطرش لم يكن في الأصل مع فكرة الصلح ؛ وقد جاء على رأس هذا الوفد أعضاء من حزب الشعب للاتفاق على تعميم الثورة المظفرة رغم أن أهل دمشق لم يكونوا مستعدين في ذاك الوقت كما أوردت لك ·

- ثم ان ما كتبته ص ١١٧ لا يعطي فكرة صادقة عما حدث : « لما سقطت صلخد جرت اجتماعات عديدة ثم في تشرين الأول عام ١٩٢٦ غادر سلطان الجبل الى عمان فوصل الى شرقي الأردن في ٢٤ تشرين الأول ثم الى السعودية » · والحقيقة أنه لمَّا انكسرت الثورة بسبب قلة السلاح والضغط العسكري الفرنسي ، دعت فرنسا الثوار الى الاستسلام اليها وتسليم سلاحهم · وهذا ما فعله عدد من ثوار الجبل والغوطة وغيرهم · الا أن سلطان الأطرش وبعض رفاقه الثوار رفضوا ذلك وفضلوا النفي ، فخرجوا بسلاحهم الى الأزرق في الأردن ثم الى وادي السرحان في السعودية وعاشوا في شظف وجوع وبرد ؛ وتلقوا في الأزرق قصف القوات الانكليزية من الجو · وقد استمر قصف القوات الانكليزية وضربها لهم بالرصاص ·

وهناك قصة تروى عن وجود عباءة سلطان الأطرش المليئة بالثقوب من شظايا الرصاص الانكليزي في متحف المسجد الأقصى في القدس ؛ وقد حملها الى هناك شخص من آل الخضرة ·

الأستاذ نجاة المحترم !

كل ما كتبتُه لك هنا هو بالاعتماد على وثائق وزارة الخارجية الفرنسية والبريطانية التي وثقتُها مع زميلة لي في مكتبة «الأسد الوطنية ، وعلى مذكرات الشهبندر ومنير الريس عن الثورة ، وعلى كتاب لحسن أمين البعيني بعنوان « سلطان باشا الأطرش : مسيرة قائد في تاريخ أمة » وهو موجود أيضاً في مكتبة «الأسد الوطنية · أما ما ذكرتَه أنت ، فهو بالاعتماد على وثائق أرادت ، عن قصد أو عن غير قصد ، حرمان أصحاب الحق من حقهم فيما قدموه عن ايمان ودون أهداف مادية أو سياسية ترجى ؛ وهذا معروف لدى الجميع في سيرة سلطان الأطرش ورفاقه الثوار ·

وأما تسميتك للثورات السورية فهو غير صحيح ، لأن كل ما جرى قبل الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ عبارة عن انتفاضات، وكل ما جرى بعدها عبارة عن امتداد لها وليس ثورة مستقلة عنها · وهذا ما يؤكده أعداؤنا الفرنسيون في أرشيف الخارجية الفرنسية وينفيه اعلامنا وفي ركبه كتّابنا ومؤرخونا ـ طبعاً ليس كلهم ـ (لغرضٍ ما في نفس يعقوب) ·

وويل للشعوب التي لا تعرف تاريخها حقاً أو التي تكتبه مشوّهاً بغير حق !!

هذا غيض من فيض ، أكتبه اليك من باب المحبة والاحترام والخوف على أجيال ستقرأ هذا الكتاب ·

وتفضل بقبول فائق الاحترام وعظيم المحبة ·

ريم الأطرش

●

أجزاء من رسالة تعليق من الصديق الأستاذ المحقق منذر الموصلي

أحد المؤرخين للحياة السياسية في سورية والعالم العربي

(الرسالة مطولة جداً وأفادتني ولكن ضاق المجال عنها كاملة)

أخـي نجـاة :

قرأت مذكراتك في جزئيها الأول والثاني فبهرتني نصاً ورواية وعرضاً · واذ سألتني : هل وجدت في كتابي (جيل الشجاعة) شيئاً يستحق النقد ؟ أقول بلى ، ولكن وجدت فيه أشياء وأشياء تستحق الاعجاب · فأنت أولاً الصديق القديم الذي عبَّر عن علاقتنا بكلمة اهداء الكتاب اليَّ اذ كتبت : الى أبي عصام الحبيب مع الود القديم المستديم ·

ثم أحسب أن كتابة المذكرات الشخصية ليست شيئاً جديداً في عالم الكتابة ولا سهلة الأداء · فهي قديمة قدم الانسان نفسه الذي لديه رغبة غريزية بأن يروي سيرة حياة الناس · ثم ان لها أكثر من نمط وأسلوب : فمنهم من يكتبها مباشرة بحبره وقلمه ، ومن يؤثر املاءها على سواه اما لعدم توفر الوقت أو لعدم اتقان أدب الكتابة كما فعل كبار القادة ومعظم الرؤساء في العالم · وقد تنقل أحياناً عن كتابات شخصية سجلها صاحبها ثم تعذر عليه جمعها وتدوينها لمشاغل أو مرض أو لرغبته في نشرها بعد وفاته · ولعل أقرب مثال على ذلك المذكرات التي خلـَّفها الوطني الراحل فارس الخوري ثم لم ينشرها لظروفه الصحية وهو الكاتب البارع والأديب المطبوع نثراً وشعراً وبلاغة ، فتولـَّت نشرها بعده حفيدته الكاتبة المعروفة السيدة

كوليت الخوري بعنوان منتقى هو (أوراق فارس الخوري) وقدمت لها بايجاز بليغ : « آن لهـذا الفارس أن يتنفس من جديد في حروفي .. في الكلمـات » .

وأود أن أشير الى النقص الملحوظ في تدوين المذكرات السياسية فعدد من كتبوها محدود بينهم فارس الخوري وخالد العظم وعادل أرسلان وبشير العظمة وعبدالرحمن الكيالي وكتب عبدالرحمن الشهبندر التي تنشر الآن ، وما يحضر الآن لدى عدد من ساستنا القدامى ...

★ ★ ★

كانت تلك الخطوات مقدمة لا بد منها لنقترب أكثر وأكثر من مذكرات نجاة قصاب حسن ، هذا الانسان المركب من مجموعة سمات وصفات وكمشة كفاءات ، أبرزها (صلعته) الشهيرة ووجهه المليح بلا غضون رغم سنواته السبعينية ، وابتسامته الدائمة وتحت كل الظروف . ان أكبر عيوبه وفرة كتاباته ومحاضراته ومرافعاته وأحاديثه ومواهبه في الموسيقا والرسم .

ثم ان تجربته الذاتية غنية فقد عمل معلماً ومدرساً وصحافياً وكتب ونشر الكثير وتحدث في ندوات اذاعية وتلفزيونية لا تحصى ، وعاصر ثلاثة أجيال : جيله ومن سبقه ومن لحق به . فاستفاد وأفاد وتضاعفت تجاربه وغدا معروفاً مشهوراً في بلاده وخارج حدودها ، فضلاً عن تمرسه بالسياسة وما عرّضته له السياسة من ملاحقات وسجون .

(وبعد أن تحدّث الأستاذ موصلي مطولا عن هذا الموضوع انتقل الى قوله) :

ان مذكراته تناولت الحدث التاريخي خطوة خطوة . فكانت كشريط سينمائي متصل الحلقات مترابط الأحداث ، واستوفى الأسماء والأماكن والدول والحكومات في كل العهود ، وتناول الاتفاقات

والمعاهدات وقدم الأحداث كلها مصحوبة بالتحليل والاستنتاج وحقق بذلك شيئاً مما يتحدث عنه الناس من ضرورة اعادة كتابة التاريخ ليظهر فيه دور الشعب ٠

(وبعد أن انتقد الأستاذ الموصلي بعض ما رآه نقصاً في الكتاب حول وصف بعض الملامح الانسانية ، وأعطى رأيه الايجابي في عدد من الأشخاص الذين مرّ ذكرهم بلا تعاطف في الكتاب الذي قرأه قال) :

لقد تفرّد نجاة قصاب حسن في عرض مذكراته مسجلاً نجاحاً كبيراً ومدعماً فيها أدب المذكرات الذي يشق الآن طريقه في عالم الكتابة والتأليف ، شأن (أدب السجون) الذي بدأ ينتشر الآن في عالم مفعم بالسجون والسجناء ، ونجح في تقديمه نابضاً بالحياة ٠ غير أنني أنتقد أشياء عفّ عن ذكرها أو تجاهله مع أن التاريخ يطلب الصدق في كل شيء ، فأناس كان يجب أن يذكرهم نسيهم وأناس ذكرهم وليسوا أهلاً لأن يذكروا ٠٠٠

(وقد أخذنا بعين الاحترام والمحبة ملاحظاته لتكون موضع العناية في طبعات قادمة ، مع التمسك ببعض ثوابتنا الأخلاقية فيما يتعلق بالرجال والأعمال ٠ والتاريخ ما لم يكن فيه مبدئية صارمة ، يصبح رواية لا تاريخاً) ٠

●

مقـــــدمة

ليس هذا الكتاب تاريخاً بمعنى الاحاطة، ولكنه كتاب تذكُّر وتذكير. فالتاريخ لم يعد من صنع افراد مختصين، وانما صار يلملم من مجموع ماكتبه الناس ولوكان ظاهره بعيداً عن سرد الحوادث متسلسلة. ان كتاباً عن مشاكل العائلة في وقت ما، يمكن أن يؤسس لدراسة (تاريخية) تربط الاحباطات في الاسرة بالاحداث الكبيرة؛ وكتاب يجمع الفكاهات التي استطابها الناس يدل على روحيتهم وردهم على ما جرى في ذلك الزمن؛ وقصة حب -على بعد ظاهرها عن التاريخ - تفيد تفاصيلها في إدراك الجو الاجتماعي وموقف الفئات المختلفة من الحرية الشخصية والاجتماعية. وهذا الكتاب يجمع أشتات الذاكرة في الفترة بين الاحتلال الفرنسي والجلاء أي من (١٩٢٠ إلى ١٩٤٦) وفيه كل هذا بوجه خاص.

وقد بدأت تسجيل ذكرياتي منذ بدأت ذاكرتي تتخاذل وتتكاثر فيها ثقوب تتسرب منها أحداث وأسماء إلى قاع النسيان، وكثيرا ما أكتب (رأس قلم) ثم أنسى ما يتعلق به، فما تقرأونه غيض من فيض مما شهدت وسمعت ولكنه صادق وموثوق. وأبادر إلى القول بأنني:

أقول الحقيقة، لاشيء غير الحقيقة، ولكن ليس كل الحقيقة!

ومن ينشد الباقي فليبحث عنه عند الآخرين الذين كتبوا عن هذه الحقبة.

وأضيف بأنني أكتب وأنا جالس أو واقف أو ماش أو أسوق سيارة، وأرى هذه الكتابة توثق فكراً ديناميكياً على طريقة (الفلاسفة المشّائين)...

لماذا التوسع في التاريخ السياسي ؟

إن التاريخ السياسي يأخذ نحواً من ثلث الكتاب، وهذا مقصود ومحمود لأن هذه الفترة كانت فترة نشاط عارم، وشعبنا شعب (مسيّس) ومهتم بمصير وطنه. ثم لا ننسى أن ربع القرن الذي رافق الاحتلال الفرنسي كاد ينسى إلا في ملخصات كتب التاريخ، لأن من شهد يوم الجلاء في (١٧ نيسان ١٩٤٦) وفهم مغزاه إذا كان ابن ثلاث عشرة، فإنه يكون اليوم في الستين من العمر وهؤلاء لا يزيدون عن عشر شعبنا. ومن جهة أخرى فإن تعاقب الأحداث السياسية الخطيرة على وطننا منذ ذلك الحين (الهجرة الفلسطينية وقيام إسرائيل، الوحدة، الانفصال، آذار (١٩٦٣)، حرب تشرين والمعارك الشعبية والانتفاضة حتى بلغنا حرب الخليج) كل ذلك له من الخطورة ما يدحر إلى مؤخرة الاهتمام ما سبق من احداث، ولذلك فمن واجب من عاشوا هذا الماضي أن يكتبوه قبل أن يذهبوا لأن حاضر الأمة موصول بماضيها.

وقد فعل ذلك عدد من الكتاب الذين حضروا تلك السنوات وأصدروا كتبا قيمة وجئت أنا أساهم بما أستطيع وما رأيت. ولذلك فإنني حين أقدم في مطلع الجزء الثاني من مذكراتي هذا التلخيص لتاريخ الأتراك ثم الفرنسيين في سورية على نحو يحاول الجمع بين التكثيف والوضوح إنما أفرغ ذاكرتي الاجتماعية والإنسانية والسياسية لتكون بين مثيلاتها شهادة موثقة، إضافة إلى الإسهام الشخصي بإضافة بعض التفاصيل المفيدة وحتى تبقى المذكرات الشخصية، الاجتماعية والثقافية، في إطارها

السياسي والتاريخي. وقد اعتمدت في التذكر والتفاصيل عددا كبيرا من المراجع قرأتها بعناية واخترت منها ما ينقصني من معلومات أو ما يثبت صحة ذاكرتي، والاختيار موقف صعب.

فكل حادثة صغيرة لها دلالة، وكل وتر يرنّ هو جزء من سنفونية المعاناة والكفاح العربيين المستمرين حتى الآن، وهي ملحمة تنقلنا نبراتها من الحماسة البالغة حد الهيجان حيناً إلى الإحباط الذي يلتبس بالاستسلام حيناً آخر.

ثم رأيت أخيرا أن المؤرخ لا الكاتب أفضل من أرجع إليه وآخذ منه ما ينقصني ولذلك كان جل اعتمادي على كتاب الصديقين الكبيرين أنور الرفاعي وشاكر مصطفى (تاريخ العالم) الذي صدر عام (١٩٥٠) أي على مقربة زمنية من الوجود الفرنسي حتى الجلاء، وهو مرجع يمتاز بالوضوح والتسلسل والدقة مع الإيجاز المطلق، كما اعتمدت على كتاب (المراحل) الذي كتبه الدكتور عبد الرحمن الكيالي وهو مرجع وثائقي لعمل الكتلة الوطنية وجاء في أربعة مجلدات، وعلى كتاب (أوراق فارس الخوري) وكتب أخرى من تأليف الأساتذة نجيب الأرمنازي وذوقان قرقوط ومنير الريس وفخري البارودي ووليد المعلم ووجيه كوثراني وفتح الله الصقال وغيرهم، وجميعهم كانوا من شهود الحوادث أو على مقربة منها واطلاع على وثائقها وحقائقها، والباقي من اطلاعي المباشر وأحاديثي مع الناس.

فالشكر لكل هؤلاء الوطنيين على ما أعطوني من إضاءات، وأكتفي بهذا التقديم وأراه أيضا قد طال.

القسم الأول

القسم السياسي والنضالي

القسم الأول - الباب الأول

الفصل الأول- سورية في ظل الحكم التركي، **٩** [1] - الانكشارية والسباهية والقبوقول، **١٨** - ضعف الدولة العثمانية، **١٩** .

الفصل الثاني- الجمعيات العربية، **٢٠**- مؤتمر باريس، **٢٢**- جمال السفاح في سورية، **٢٣**- إعلان الجهاد وموقف العرب منه، **٢٤**- الشهداء العرب، **٢٥**- إبراهيم قصاب حسن، **٢٦** .

الفصل الثالث- الثورة العربية، **٢٩**- مراسلات الحسين ماكماهون، **٣١**- بدء الثورة - القوات العربية تتقدم، **٣٢**.

الفصل الرابع- خيانة الحلفاء للعرب، **٣٤**- معنى الاتفاق بالنسبة لسورية، **٣٥**- وعد بلفور - فيصل في مؤتمر الصلح، **٤٠** .

الفصل الخامس- المؤتمر السوري، **٤٢**- لجنة كراين - لويد جورج كليمانصو، **٤٣**- المؤتمر السوري، **٤٤** - مؤتمر سان ريمو والانتداب، **٤٥**- مؤتمر سان ريمو، **٤٦**- إنذار غورو، **٤٧**- التمهيد للاحتلال، **٥١**- قبول الإنذار، **٥٢**- مقابلة غورو في عاليه، **٥٣**- لحظة الوداع، **٥٦**- تسارع الأحداث بعد ذلك، **٥٧** .

---

(١) الرقم الاسود هو رقم الصفحة .

الفصل الأول - جولة تاريخية

لما كانت ولادتي في (٨ آذار ١٩٢١)، فإنها تكون قد حدثت بعد عام يوما فيوما من إعلان استقلال سورية في (٨/ ٣/ ١٩٢٠). ولكنها لم تأت في زمن الاستقلال وإنما بعد ثمانية أشهر من الاحتلال الفرنسي.

وكان الناس قد فرحوا وابتهجوا لخلاصهم من الحكم التركي البغيض المتعسف ودخول القوات العربية إلى بلاد الشام وطرد فلول الأتراك منها. وأذكر عن ذلك- ولم أشهده بطبيعة الحال - ما حدثني به والدي عن بعض الأعمال الانتقامية من الجنود الأتراك المنسحبين، ولكن الأكثر هوما يتصل بموظفين أتراك نهبوا ما كان تحت يدهم من اموال الدولة العثمانية في سورية ثم لم يستطيعوا حمل ما نهبوه في فرارهم السريع فدفنوا هذه الأموال في أماكن يعتقدونها خافية كطمرها في بعض الجدران، أملا بأن يعودوا ذات يوم فينبشوها ويأخذوها.

وقد أفسح هذا الخبر الذي شاع مجالا واسعا لعمليات نصب واحتيال باسم التفتيش عن (الكنوز) أو بالأحرى المنهوبات المذكورة، وكثيرا ما دفع السذج أموالا طائلة في عمليات (ضرب المندل) والاستعانة بالجن والمشعوذين والتعاويذ لمعرفة أماكن هذه الطمائر، وقد ظللنا نسمع الى عهد قريب حوادث واحتيالات في هذا الميدان. يكون ضرب المندل -وربما كان أصل الكلمة اللجوء الى (من دل) على الشيء المختفي، بوضع نقطة زيت

في إناء وجو معتم ينظر إليها مبروك -وقد يكون طفلا- ويبربر الشيخ عبارات وأدعية يزعمون أنها تنتهي بأن يرى الناظر في النقطة وجه من فعل الفعلة المسؤول عنها أو المكان الموجودة فيه.

الأتراك لم ينزحوا كلهم. ذهب منهم من لم يرسل جذوره في هذا البلد وبقي عدد كبير ممن تزوجوا هنا وتملكوا واتخذوا مهناً ومتاجر. والأتراك الذين بقوا في سورية وأقاموا -ولا سيما في دمشق التي يسمونها(الشام شريف)- واستوطنوا واستعربوا لا يفترقون بشيء عن أهل البلد لولا معرفة اللغة التركية. وسورية امتازت في كل تاريخها بأمر فرضه عليها موقعها التاريخي إذ التقت وتزاوجت فيها الأقوام والجماعات وتصالبت فيها الأعراق والأنساب وخلقت هذا المزيج الذي نراه. وذات يوم سألت واحدة من سليلات الأسر القديمة العريقة: كيف حدث أن صرت جميلة إلى هذا الحد؟ فأجابتني: (إنه الطمي). وكانت تعني أنها من تراكم واختلاط الجمال الذي تفاعل في مئات السنين حتى تصفى كما يتراكم الطين الذي تجلبه الأنهار فكانت كما كانت!

والحكم التركي كان بغيضا منذ بدايته وحتى وصل إلى سياسة التتريك التي اتبعها مصطفى كمال وجمال وأنور وطلعت بعد خلع السلاطين وإعلان الجمهورية وتبني الحركة الطورانية.

والمشكلة لم تكن أبدا ولن تكون مشكلة الشعب التركي البسيط المتدين إلى أبعد الحدود وبصدق، والمحب للنبي العربي وآله، والذي يتبرك بالقرآن واللغة العربية. ألم تكن اللغة العربية هي التي أغنت اللغة التركية البسيطة

وأعطتها معظم الكلمات التي فيها الحضارة والعلم والفن والفلسفة؟

حتى الطورانيون حين أرادوا إعطاء هوية مستقلة للأتراك بدأوا بالكتابة العربية فألغوها واعتمدوا اللاتينية بدلا عنها. ثم أن الخط العربي ما عرف في تاريخه الطويل عناية وحبا كما أعطاه إياهما الخطاطون الأتراك وقد وصل على أيديهم إلى أعلى ذراه، وصار الخطاطون الأتراك ومنهم (رسا) أفندي أستاذ الخطاطين المشهورين في دمشق ممدوح الشريف وبدوي الديراني أرقى من نظرائهم في هذا الفن. وكذلك لما حاول الاتحاديون محو الكلمات العربية من لغتهم واقتباس بدائل عنها من الفرنسية وغيرها أعجزهم ذلك. ومن الفكاهات التي صاحبت هذه المحاولة ما شاع عن تأليف جمعية باسم (مكافحت لغت عربيت جمعية سي) وليس في اسمها لفظ غير عربي إلا كلمة (سي). وما تزال حتى اليوم وبعد أكثر من سبعين سنة من محاولات الأتراك الابتعاد عن العربية نجد كلماتها تملأ التركية الحديثة. فاسم الدولة (تركية جمهوريتي) وكلمة (جمهورية) عربية. وعندما يصل الزائر إلى مطار تركي أول كلمة تطالعه (هوا يوللري) وكلمة هوا من الهواء العربية ويول تعني الطريق.

إن التاريخ المشترك الطويل لأربعمئة عام فيه آلام كثيرة سنتحدث عنها، ولكن فيه الكثير من الأشياء المشتركة في اللغة والعادات والتقاليد والأطعمة وسواها.

ما نزال إذن في آخر أيام الحكم التركي. والدي حدثني كذلك عن فترة وجوده في الجيش العثماني أيام الحرب العالمية الأولى. كان (اسطه باشي) أي

رئيس المعلمين في ورشة النجارة في الجيش وعمل بهذه الصفة حتى انتهت الحرب. وكان الجوع قد عض الناس حتى صارت جثثهم تلم من الشوارع وصار رطل الخبز بليرة ذهبية فلا توجد الليرة ولا يوجد الخبز وذات يوم سمع والدي بأن جمال باشا الصغير سيزور الورشات. فأوعز الوالد إلى كل العمال بأن يضع كل منهم (جرزة) من العشب على المنضدة أمامه لعل الباشا يلتفت إليها ويسأل عن سبب وجودها فيقال له أن العمال صاروا يقتاتون بالأعشاب. وقال لي والدي يكمل القصة أن جمال باشا جاء ورأى الحشيش على المناضد كلها ومضى ولم يسأل، فقد كان يعرف السبب. وحدثني والدي أيضا أنه لولا قطعة الأرض الصغيرة في (بستان الكركة) حيث كان يسكن مع والدته وشقيقته وما تقدمه من خضر وفواكه وبعض الحبوب لكانت العائلة الصغيرة من آل قصاب حسن عضها الجوع.

وكان الأتراك قد جندوا أبناء الشام وبعثوا بهم إلى حروب عقيمة منذ استولوا على بلاد الشام، ولا سيما في الحرب العالمية الأولى حيث سيق الشاميون إلى مذابح المضائق وترعة السويس وحرب اليمن. وفوق ذلك فقد نهبوا قمح البلاد، وقطعوا الأشجار الحراجية والمثمرة لاحراقها في القاطرات الحربية بعدما انعدم الفحم، ومن قبل ذلك كانوا يقطعون الاشجار المثمرة بالآلاف لمعاقبة الأهلين على التمرد أو شبهة التمرد حتى صارت اكثر الجبال جرداء بعد أن كانت كاسية.

وحاولوا القضاء على اللغة العربية عن طريق التعليم. ومن الطرائف التي تذكر في هذا الصدد ان معلماً تركياً جاء الى دمشق ليعلم التلاميذ فيها

اللغة العربية. دخل الصف وكتب على اللوح الاسود جملة (البلابل تغرد بالاقفاص) وبدأ الشرح قائلاً: بلابل، يعني بلبللَر. تغرّد يعني تغريد ايدر. بالاقفاصي يعني: قفصلرن إيشنده. مفهوم؟! ورد التلاميذ بعده كلمة: مفهوم! وهذه القصة اكررها بعد ان ذكرتها في الجزء الأول اذ لها دلالتها هنا أيضاً.

واقتطع الحكام الاتراك الاراضي وملكوها لأبناء الأسر التركية الأصل التي استولت على اكثر الاراضي خصباً، واعتبروا كل الاراضي التي هي خارج المدن ملكاً للسلطان يُقطعها لمن يشاء. ومن هنا جاء كلمة الاقطاعيات والاقطاعيين.

ولكن صورة الحكم التركي كانت أكثر سوءا في ضمير الشعب، وتمتد إلى تاريخ طويل.

وقد رجعت إلى كتاب (خطط الشام) للعلامة الأستاذ محمد كرد علي فأخذت لكم منه الوقائع التاريخية التالية في إيجاز يعطينا صورة عن وضع بلاد الشام خلال أربعمئة عام وعامين، من (١٥١٦) تاريخ فتح سورية على يد السلطان سليم إلى (١٩١٨) تاريخ خروج الأتراك نهائيا.

لقد وصفت في الجزء الأول من هذا الحديث الدمشقي ما فعله تيمور لنك بحلب وحماه ودمشق، ولا سيما بالأخيرة. ولما ذهب تيمور لنك بعد أن أقام تسعة عشر يوما وهو يهدم دمشق ويقتل أبناءها ويحرقها وثلاثة أشهر في القطر الشامي بأسره، ظل الحكم للمماليك فكان السلطان في مصر ونائبه المملوكي الشركسي في دمشق. وكانت بلاد الشام تعاني من ويلات الاجتياح

وويلات الطاعون المتكرر والأوبئة القتالة وويلات النهب المستمر حتى يصبح من أعجب العجب أن تكون استمرت في الوجود وقد أصبحت قاعا صفصفاً. وكان الناس يسمعون بالحكم التركي العثماني من بعيد، ولكن لا يعرفونه مباشرةً، إلى أن قرر السلطان سليم فتح بلاد الشام ومصر. وكان السلطان قانصوه الغوري هو الحاكم الذي يقابله، وهو حكيم داهية ولكنه بلغ الثمانين. ولكن الجيش العثمانى كان أكبر ومسلحا بالمدافع ومعتمدا على خيانات كثيرة في صفوف الجيش المملوكي، ولذلك فلما وقعت معركة (مرج دابق) انتهت لصالح العثمانيين، وأحس قانصوه الغوري بالهزيمة فأصابه لفوره فالج نصفي وما أمهله سوى خطوات حتى سقط ميتا، وانطلق الجيش العثماني يحتل سورية ومصر.

لسنا في صدد تفصيل الحوادث التاريخية ولكن في شرح ما أصاب البلاد الشامية على أيدي العثمانيين من عسف وظلم وقتل ونهب واحراق.

فقد كان السلاطين العثمانيون الأتراك قساة عتاة إلى حد رهيب فيما بينهم، فكيف يكون حالهم مع الشعب المحكوم؟

نبدأ **بالسلطان سليم**. كان قويا جبارا قهارا سفاكا يجمع إلى ذلك الحذر ويتقن فن التجسس ويحب الحرب فإذا فرغ منها انصرف إلى الملذات. ويكفي لتعرف سيماءه أن نقول حين تولى السلطنة قتل أباه وإخوته، ومن بعدهم قتل وزيره الأول وسبعة من وزرائه. ويقول المؤرخ القرماني أنه خنق إخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر. وقال المؤرخ صولاق زاده: أن وزراءه كانوا أبدا عرضة للتنحية والقتل حتى اعتادوا إذا دخلوا عليه

أن يحملوا صكوك وصاياهم، وإذا خرجوا من مجلسه اعتقدوا أنهم عادوا من الموت إلى الحياة. فإذا كان هذا شأنه مع اهله ووزرائه فكيف يكون شأنه مع شعب خاضع للاحتلال؟

ونتابع حديث القسوة. فلما مات السلطان سليم خلفه ابن سليمان الملقب بالقانوني وقد حكم (٤٨) سنة. ويوم تولى السلطنة قَتَل ابنه الأكبر مصطفى وحفيده، وابنه الآخر بيازيد وأولاده الخمسة على أفظع صورة. ومن اخباره العجيبة أنه أصدر إرادة سنية بقتل كل أهل حلب دفعة واحدة لحادث وقع، ولولا أن تصادف أن الصدر الأعظم وكان ابراهيم باشا وهو رجل عاقل لما اقتنع السلطان بإلغاء الأمر والاكتفاء بقتل زعماء الفتنة. ولكن هذا لم يمنع السلطان سليمان من أن يأمر بقتل ابراهيم باشا، صدره الأعظم هذا، بعد فترة!

وأحد السلاطين العثمانيين استلطف زوجة الصدر الأعظم فمنعها زوجها عنه وهدد بأن يقيم فتنة، فأمر بقتله فقتل، وأمر بأن توضع امرأته بين عمودين عارية في ساحة عامة، مفتوحة الساقين، وأن ينالها كل عابر حتى تموت. وبالصعوبة الفائقة أقنعته حاشيته بأن يعود عن هذا القرار البشع.

وكان أحد السلاطين قد بالغ في معاشرة النساء حتى عجز، فجاء (جنجي خواجه) بنسخ من كتب الأدوية والعقاقير النافعة للقوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بأن سلطانها يستطيع أن يقترب من أربع وعشرين بكرا في أربع وعشرين ساعة. وكان مع هذا يتسلى بقتل الأشخاص، وقتل صدره الأعظم لأنه بعث إليه ليتدارك الحطب للقصر فقال الصدر الأعظم أن

هذا ليس من الأمور المهمة لمن يفكر في حكم السلطنة . وأحد الذين تولوا منصب الصدر الأعظم لدى محمد الرابع وهو محمد باشاكوبرلي اشتهر بأنه رجل عاقل ووطّد دعامة الملك لسلطانه ولكن بعد أن قتل ستة وثلاثين ألف إنسان حتى ألقى الرهبة في النفوس وضمن الاستقرار .

وأخيرا حاول السلطان محمد الرابع حين كبر وترعرع (لأنه تولى السلطنة طفلا) أن يقتل شقيقيه سليمان وأحمد، فمنعته والدته من قتلهما وساعدها المفتي الأعظم، ومن يومها صار الشقيق يتولى السلطنة بعد شقيقه .

فإذا كان هذا ما يفعله السلاطين بآبائهم وأبنائهم وأشقائهم وذوي قرابتهم، فما بالكم بما يفعلونه بسكان أرض محتلة كالشام؟

ليس هذا سوى مؤشر على القسوة. فما هي المؤشرات الأخرى على نوع المعاملة؟ لقد كان السلاطين يهملون إهمالا تاما شؤون المناطق التي احتلوها وبلاد الشام على الأخص، ولا يهمهم من أمرها إلا نزف أموال الناس فيها . وقد وجد سلاطين بني عثمان أن أحسن وسيلة لذلك هي (تلزيم) الولاية والجباية لمن يدفع أكثر وبالمزاد، ثم من يقع عليه المزاد تعطيه الدولة العثمانية سلطة واسعة وتلقى له الحبل على الغارب. وكان أكثر المزاودين على جباية الضرائب من الساقطين الذين لا يتورعون عن ارتكاب أي محرم لسلب الرعية، وبعضهم من الندماء والسخفاء والطباخين والطبالين والمزينين وبساتنة القصر وغيرهم من المقربين من نساء القصر، ومن الخصيان الذين كانوا يولّون ويعزلون كما يشاؤون على ضيق عقولهم. بل كان أمثال هؤلاء يصلون إلى مركز الصدر الأعظم، وقد ذكر المؤرخ التركي جودت فيما نقله

عنه محمد كرد علي في خطط الشام أن المشيخة الإسلامية ذاتها، وهي مركز علمي، تولاها في بعض الأحوال أغبياء أدنياء.

وكان هؤلاء الحكام ينزفون البلاد. الثروات التي يجمعونها بسرعة خشية التغيير كانت ترهق الناس. وسرعة التغيير هذه عليها أدلة محسوسة. فما بين ٩٢٢ هـ و١٠٠٠ هجرية أي في ثمان وسبعين سنة تول على دمشق خمسة وأربعون والياً وتولى على حلب سبعة عشر، وفي القرن التالي ثمانية وسبعون. اي حتى ١١٠٠ هجرية بلغ ولاة دمشق واحداً وثمانين وولاة حلب تسعة واربعين. فمتوسط اقامة الوالي بين سنة وسنتين. واحتج أهل المدينة على الوالي وطلبوا تغييره فاستدعاهم وأراهم تنكة فيها ليرات ذهبية حتى نصفها وقال أنا سيكفيني أن أملأها أما لو جاءكم واحد جديد فيبدأ من البداية، ويقال أنهم سكتوا وهذه طرفة ولكنها تمثل الحقيقة وكان يخطر للسلطان أن يطلب مبلغا إضافيا فيجب دفعه. وقد خصصت وارادت الولايات والإيالات والسناجق لأمور معينة، فإيالة الشام على طولها وعرضها كانت مخصصة لنفقة الزوجة السابعة للسلطان!

وذكروا أن سنان باشا الذي باسمه جامع السنانية في دمشق، وكان من السفاكين الكبار، أحصيت مخلفاته التي أرسلت إلى الآستانة بعد موته فبلغت ملايين الدنانير. وكان ما يفعله بعض الحكام من بناء المساجد والأوقاف الخيرية إنما كان لستر مظالمهم ولا يمثل سوى جزء ضئيل من سرقاتهم ولجلب الشهرة ودوامها، ويالها من صدقة أو عمل بر يكون أصل المال الذي أنفق فيهما من قتل الأنفس والنهب! (الخطط - كرد علي).

الانكشارية والسباهية و القبوقول

وزاد من المكوس والضرائب وجود الانكشارية والسباهية والقبوقول وهي قطعات جيش محلية وكانت تتحارب وتتقاتل ثم تقتل الناس وتنهبهم وتأخذ النساء والغلمان خطفا من الطرقات والأزقة في رابعة النهار. وكانت الفتن تتوالى وقد روى كرد علي العديد منها وروى البديري الحلاق أنماطا أخرى في كتابه (حوادث دمشق اليومية). ومن الفتن التي فصّل فيها الأستاذ كرد علي تلك التي حدثت لما جاء إلى دمشق واحد من زلم أسعد باشا العظم وكان ظالما في أيام سيده فقام الناس قومة رجل واحد يريدون اخراجه من المدينة ولكنه احتمى بالقلعة وحماهُ القبوقول. فأغلقت المدينة دكاكينها ومحالّها وتجمع الانكشارية وتبعهم الناس، (ولكن انحاز إلى القبوقول جماعات الدالاتية والعناتبة والأكراد وأهل العمارة). وحدثت غارة على الدرويشية وأطلقت النار على الانكشارية، ثم هوجم حي العمارة وأحرق حتى صار بلقعا والتجأ أهله إلى الجامع الأموي، ودامت الفتنة أياما حتى قرّ رأي كبار الناس على إخراج هذا الرجل من دمشق فأخرجوه، ولكن الفتنة استمرت لأن من اشتركوا فيها ذاقوا طعم الغنائم، وظلت النار تطلق بين القبوقول والانكشارية والأشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة أولاد، ودامت المعارك وخطفت النساء جهارا وعُرّي بعضهن، ولما أمر الحاكم بجمع المنهوبات في الجوامع لم يردّ منها إلا القليل، وظل أتباع الوالي يقتلون من يصادفونه بحجة أنه اشترك في الفتنة دون دليل ولا محاكمة. وظلت هذه الفتنة في دمشق قائمة لمدة سنة لم تقم خلالها صلاة الجمعة ولا ارتفع الأذان

ولا فتح جامع ولا تمكن أكثر الناس من الخروج من دارهم، والجنود الذين جاؤوا لقمعها نهبوا أكثر المنازل. ومثل هذا كان يجري في كل البلاد الشامية. أرأيتم كيف كان الناس في أيام الحكم التركي ؟.

ضعف الدولة العثمانية

كانت الدولة العثمانية قد أنهكتها الحروب، وأضعفها انحلال جيشها من الانكشارية وتقاتل الزعماء فيما بينهم. وفي نفس الوقت كانت الدول الغربية قد بدأت تتحالف، ولم يعد جيش العثمانيين (الذي وصل إلى أبواب فيينا على عجلات البقر وقاتل المحاربين والمسالمين بالأسلحة البدائية) يستطيع الحرب ما لم يحصل على وسائل حديثة وما لم تنظم الدولة تنظيما جديدا مبنيا على العلم، وكان الأتراك وسلاطينهم غافلين عن ذلك وشعوبهم تعاني العسف والمذلة.

ولذلك فلما قام ابراهيم باشا بحملته بلغ الأناضول وكوتاهية وانفتح أمامه طريق الآستانة ولكنه اكتفى، وتصالح السلطان محمود مع محمد علي باشا وفق معاهدة كوتاهية على ان تبقى الشام وأدنه وجزيرة كريت لمحمد علي ويرحل عن الأناضول ويقدم للسلطان في كل سنة ستين ألف كيس ولمدة خمس سنوات، وأن تبقى الخطبة في المساجد تلقى باسم السلطان.

الفصل الثاني - الجمعيات العربية

كانت بلاد الشام وهو الاسم التاريخي لسورية الطبيعية (وتشمل سورية اليوم ولبنان والأردن وفلسطين) ولاية تركية استمر حكم الأتراك لها أربعمئة عام وعامين.

وقد تميزت بداية القرن العشرين بقيام اتجاهين قوميين: أولهما تركي مثّله الاتحاديون الأتراك الذين قالوا بقومية طورانية تناهض سائر القوميات، ونظموا جمعية باسم (ترك اوجاغي) واستبدلوا أسماءهم العربية بأسماء تركية قديمة وبدأوا حملة لإلغاء الكلمات العربية من اللغة التركية وعملوا على (تتريك) العناصر العثمانية.

والثاني قومي عربي كان مهد له كتاب مسلمون ومسيحيون مثل ناصيف اليازجي وابراهيم اليازجي وبطرس البستاني وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وعبد الرحمن الكواكبي ومصطفى كامل ومحمود شكري الألوسي وقاسم أمين والشيخ طاهر الجزائري وسليم البخاري ورفيق العظم وغيرهم من حملة الأقلام. وتأسست جمعيات عربية أدبية وسياسية تصادم التيار الطوراني ومن بينها:

رابطة الوطن العربي التي تأسست في باريس عام ١٩٠٤ وأصدرت كتابا بالفرنسية بعنوان (يقظة الأمة العربية) ومجلة فرنسية بعنوان الاستقلال العربي.

وجمعية الإخاء العربي العثماني التي أسست في الآستانة عام

١٩٠٨ وحضر افتتاحها مندوبون من جمعية الاتحاد والترقي ثم أغلقوها بعد بضعة أشهر.

والمنتدى الأدبي الذي أسسه عدد من المبعوثين (النواب) العرب في الآستانة مع عدد من الكتاب والطلاب العرب في صيف ١٩٠٩ وهدفه تنمية الدعوة للحركة العربية وقد أغلقته السلطة التركية أثناء الحرب.

وحزب اللامركزية الإدراية العثماني الذي أسس في القاهرة عام ١٩١٢ وله فروع في سورية والعراق.

والجمعية القحطانية وهي جمعية سرية أنشئت في الآستانة ثم انقلبت إلى جمعية العهد.

والعربيةالفتاة وهي سرية تأسست عام ١٩١١ من سبعة من الطلاب العرب وانتقل مركزها إلى بيروت فدمشق ونمت بسرعة وهي التي دعت إلى مؤتمر باريس العربي.

وجمعية الإصلاح التي تألفت في بيروت عام ١٩١٣ من ستة وثلاثين عضوا وهي مع اعترافها بالسيطرة التركية تطلب الاعتراف باللغة العربية وإبقاء المجندين للخدمة في بلادهم وكانت لها فروع في المدن السورية والعراقية ولما أغلقتها الحكومة أضربت بيروت وتبعتها المدن السورية.

وجمعية العهد التي أسست سرا في الآستانة من الضباط العرب في الجيش العثماني وكانت لها فروع في الموصل وبغداد ومطلبها استقلال البلاد العربية الداخلي.

مؤتمر باريس

وفي ٤ نيسان ١٩١٣ دعت جمعية (العربية الفتاة) إلى اجتماع عام عقد في باريس لبحث الإصلاحات المطلوبة في العالم العربي، وقد افتتح في ١٨ حزيران وحضره مندوبون عن الجمعيات وحزب اللامركزية وأفراد مرموقون من سورية والعراق والولايات المتحدة والمكسيك والآستانة وباريس، وترأسه عبد الحميد الزهراوي.

كان أعضاء المؤتمر أربعة وعشرين وحضره أكثر من مائتي مستمع وانعقد في أربع جلسات في مدى ستة أيام وتقررت فيه المطالبة بالإصلاحات على أساس اللامركزية في كل ولاية عربية واعتبار اللغة العربية رسمية في الدولة وحصر خدمة المجندين العرب في بلادهم، أي أن المؤتمر لم يطرح شعار الانفصال وإنما اللامركزية وإصلاح الفساد.

لم يستطع الاتحاديون أن يمنعوا انعقاد المؤتمر فتظاهروا بقبول الأمر الواقع وأرسلوا أمين سر حزب الاتحاد والترقي إلى باريس فحضر واعترف بالقرارات التي اتخذها المؤتمر. وعلى الأثر صدرت إرادة سنية عثمانية أعطت لمقررات المؤتمر بعض الشكل القانوني فاعترفت باستخدام اللغة العربية في المدارس الابتدائية العربية فقط على ان تظل التركية لغة أولى في مدارس العواصم ولم تعترف برسمية اللغة العربية. وقد نفر من ذلك المتطرفون وسكت المعتدلون، فكان هذا إسفينا من الخلاف دقه الأتراك في صفوف العرب. وبعد فترة قبض على المقدم عزيز علي المصري بتهمة الخيانة العظمى وبث الأفكار العربية في الجيش التركي مع انه كان من أعضاء الاتحاد والترقي

واشترك معهم في ثورة ١٩٠٨ في سالونيك وسار على رأس فرقته إلى القسطنطينية لخلع عبد الحمد ثم أسس مع الضابط سليم الجزائري الجمعية القحطانية التي رغبت في ملك عربي تركي مزدوج. وعندما مثل عزيز المصري أمام المحكمة العسكرية حصل هياج شديد في الرأي العام العربي ومع أنه حكم عليه بالإعدام إلا أن الحكم لم ينفذ. وهنا كانت الحرب العالمية الأولى قد بدأت عام ١٩١٤ وشغلت الأذهان عمّا سواها.

وفي خلال الحرب قام الاتحاديون بتمزيق الحركة العربية بالترغيب والترهيب ونشطوا جمعية (ترك أوجاغي) واستبدلوا أسماءهم العربية العروفة باسماء تركية قديمة، ونظموا هويات خاصة واجتماعات لايحضرها سواهم، وأعلن الاتحاديون مقاومتهم لجميع القوميات من عربية وشركسية وألبانية وكردية، أما العرب فكان ردهم الدعوة إلى تأييد الدولة العثمانية في الحرب رغم كرههم للاتحادين، وأظهر الاتحاديون كذباً أنهم يتساهلون مع العرب من أجل كسبهم إلى جانبهم في الحرب واستخدموا عدداً من الضباط العرب الكبار.

جمال باشا السفاح في سورية

عينت الحكومة التركية جمال باشا حاكما عاما على سورية وقائداً للجيش الرابع الذي يشمل نفوذه سورية وفلسطين والحجاز وكلف بإعداد حملة تزحف إلى مصر.

وكان جمال باشا أحد غلاة الاتحاديين ومن أعنفهم ويدير فرعا

الجواسيس والفدائيين في الجمعية ويدبر المؤامرات ضد الأرمن ولكن استطاع خداع الدمشقيين بزعم عصيانه على الاتحاديين واتفاقه مع العرب لانشاء دولة مستقلة. وعلى هذا شرع بتقريب بعض الزعماء العرب، ولكن في الحقيقة أبعد الفرق العربية خارج سورية والعراق وأغلق مدرسة صف الضباط في دمشق وكان فيها أكثر من خمسمائةمن خيرة شباب العرب وبدأ سلسلة حوادثه الدامية. (وبالمناسبة فإن جمال باشا اغتاله شابان فيما بعد من الأرض هما بدروس تربوغوصيان وارتاشيس ليفوركيان عقاباً له على تنكيله بشعبهما. وقد جرى ذلك في مدينة تفليس في ٢١/ ٧/ ١٩٢٢، كما قتل الفدائيون الأرمن كلاً من (طلعت) في ١٥/ ٣/ ١٩٢٢، ثم الأمير محمد سعيد حليم رئيس وزراء تركيا في روما ٦/ ١٢/ ١٩٢١ وبهاء الدين شاكر رئيس البوليس السري في آب ١٩١٤).

إعلان الجهاد وموقف العرب منه

وهنا أصدر (شيخ الإسلام) (وكان هذا منصباً رسمياً في الدولة العثمانية وبين من تولوه عرب بينهم الشيخ أبو الهدى الصيادي). فتوى باعلان الجهاد وأيده كبار علماء الدين وذلك لمناصرة تركيا في الحرب ومن أجل ذلك أخرج الأتراك راية الرسول من مكانها في حرم المدينة ونقلوها باحتفال مهيب إلى دمشق وترأس الإحتفال جمال باشا واعتقد الترك أنهم بذلك قد تزعموا العرب. ولكن الحلفاء (ولاسيما بريطانيا) استطاعوا أن يجذبوا العرب إلى جانبهم لأهمية العرب وموقعهم الاستراتيجي، وكان أبرز من سعوا للاتصال

بالزعماء العرب المعتمد البريطاني في القاهرة كتشنر والسكرتير الشرقي ستورز والمندوب السامي ماكماهون والجاسوس لورنس ورئيس الاستخبارات العسكرية كلايتون، وركزوا جهودهم على أمير مكة الشريف حسين.

وقد شن جمال باشا في هذه الفترة هجوماً على قناة السويس فيما عرف بحرب الترعة، ولكن الجيش كان أضعف من أن يستطيع الانتصار لسوء تنظيمه ففشلت الحملة وزعم جمال باشا أنها مجرد عملية استكشاف. وهنا حاصر الحلفاء سورية اقتصادياً واتبع جمال باشا سياسية التجويع وصادرت السلطات العسكرية كل شيء على الاطلاق من أجل الجيش فصار الناس يموتون بالآلاف بعد أن لم يعودوا يجدون حتى أبسط اسباب العيش وانتشرت الأمراض وخاصة التيفوس.

الشهداء العرب

وبدأ جمال باشا يلاحق الزعماء العرب بقسوة، وتمهيدا لذلك هاجم داري القنصلية الفرنسية في دمشق وبيروت ووضع اليد على أوراقهما وبدأ بملاحقة من قال أنهم اتصلوا بالقنصليتين، وبدأ بأن شنق الراهب يوسف الحايك في دمشق (٢٢ آذار ١٩١٠) لتبادله الرسائل مع رئيس مجلس النواب الفرنسي، ثم نفذ حكم الإعدام في أحد عشر شخصا في بيروت (٢١ آب ١٩١٥) وكان من بينهم محمود المحمصاني أحد مؤسسي العربية الفتاة، ثم في صباح ٦ أيار ١٩١٥ نصب سبع مشانق في دمشق وأربع عشرة في بيروت

وتدلى منها واحد وعشرون من زعماء النهضة العربية الذين حوكموا محاكمة سريعة في (عاليه) بتهمة الانتساب الى الجمعيات العربية أو تحرير رسائل سياسية إلى قناصل أجانب والاتصال بدول أجنبية لدعوتها إلى نقل البلاد من التحكم العثماني وهؤلاء الشهداء هم: محمود المحمصاني وعبد الكريم الخليل وصالح حيدر ومسلم عابدين ونايف تللو ومحمود العجم وعبد القادر الخرسا وسليم عبد الهادي ونور الدين القاضي وعلي الأرمنازي (وأعدموا في بيروت). وعبد الحميد الزهراوي والأمير عمر الجزائري وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ورشدي الشمعة ورفيق رزق الله سلوم وعمر حمد وحسن الشنطي وعبد الغني العريسي وعارف الشهابي وتوفيق البساط وسيف الدين الخطيب والشيخ أحمد طبارة وسعيد عقل وبيترو باولي وجورج موسى الحداد وسليم محمد وسعيد بخاري وشفيق المؤيد وأمين لطفي الحافظ (وأعدموا في دمشق).

عمي ابراهيم قصاب حسن

وبالمناسبة كنت قد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن بعض أبناء سورية من العرب كانوا يرسلون إلى المدرسة الحربية في الآستانة إن كانوا من العائلات أو ممن توصي بهم العائلات.

وكان من أخوال جدي المرحوم عطا أفندي الكيلاني الذي كان من الوجهاء فتوسط لعمي فأخذه الأتراك طالبا في المدرسة العسكرية في استانبول حيث تخرج ضابطا للرشاشات برتبة ملازم ثان.

ولما حصلت معركة جناق قلعة التي هاجم فيها الانكليز والفرنسيون الأراضي التركية لاحتلالها ثبت الضابط الصغير ابراهيم قصاب حسن في موقعه، رغم أن الغبار والرمال سدت أفواه الرشاشات وحالت دون بيان ملامح الرجال وملابسهم لكثرة ما تراكم عليها، واعتبر هو وفصيله في عداد المفقودين. ولكنه استطاع في اليوم التالي أن يبعث موفدا من فصيله إلى النسق الخلفي من القوات يخبرهم أنه ثابت مع فصيله، فشنت القوات هجوما معاكسا وأنقذوه، ورفع فورا إلى رتبة ملازم أول لشجاعته وأعطي الوسام الحربي.

و حين روى لنا هذه القصة كان يذكر بحسرة الأعداد الهائلة من العرب الذين قتلوا في هذه المعركة إذ كان الأتراك يضعونهم في الصفوف الأولى مخاطرة بهم واستهتارا.

كما روى لي عمي بعد ذلك أنه بعد فترة قصيرة من المعركة نقل إلى الأناضول، وبينما كان هناك جاءت برقية تعلمه بأن مصطفى كمال سيأتي لقيادتهم فكان هو بين من استقبلوه. وفي تلك الفترة كان قد سمع باستقلال سورية واستأذن من مصطفى كمال بأن يذهب لرؤية عائلته في دمشق فأذن له بسبب شجاعته وحمله الوسام الحربي، فجاء إلى دمشق وعمل في المدرسة الحربية التي تأسست في العهد الفيصلي وكان أستاذا فيها لفن الطبوغرافيا وألف كتابا فيها.

ولما وقعت معركة ميسلون وانتهت بالاحتلال اختار أن ينتقل إلى سلك الدرك وظل فيه حتى عام ١٩٥٠ ثم تقاعد حتى توفي في منتصف

الثمانينات رحمه الله. وكان له فضل كبير عليّ في تشجيعي ورعايتي، كما كان عظيم الهمة إذ منذ تقاعده وحتى وفاته أي في نحو ثلاثين سنة أدار متطوعاً بلا راتب مدرسة شرعية ثانوية تعلم الأجانب اللغة العربية وأصول الدين كانت ناجحة كل النجاح. وكان يتابع القراءة وعلاقته بوالدي الذي هو أصغر منه بسنوات قليلة علاقة طيبة جداً ونموذجية.

الفصل الثالث - الثورة العربية

كانت جميع المقدمات تشير إلى أن العرب قد ارتقى وعيهم بذاتهم وبقوميتهم منذ مطلع القرن إلى حد لم يعد يسمح لمظالم الأتراك أن تدوم، ولذلك فانتظامهم في جمعيات قومية توالى واضطرد واتسع، وجاء تعسف جمال باشا والاتحاديين فكان مثل صب الزيت على النار. وكان الحجاز يخضع لحكم شريف مكة حسين بن علي وذلك منذ عام ١٩٠٨. ولكن حكم الآستانة لم يجاوز الحجاز أما عدن والمحميات وحضرموت وعمان والبحرين الخاضعة لأمراء محليين فقد كانت يحكمها الانكليز تحت ستار معاهدات صداقة. وفي نجد كان عبد العزيز آل سعود هو الحاكم، وفي اليمن كان الإمام يحيى، وكانت ثورات اليمن على الأتراك تتوالى.

وقد اهتم الإنكليز بالشريف حسين اهتماما خاصا لأن موقع الحجاز يقف على طريق اليمن ويستطيع بذلك أن يقطع طريق الأتراك، ومن الناحية السياسية كان الأشراف على الأماكن المقدسة شيئا هاما بالنسبة للمسلمين. ولذلك أخذ الانكليز يتقربون من الشريف حسين ويعدونه بالمساعدة إذا شاء الانفصال عن الأتراك. وتصادف أن تركيا عينت واليا اسمه وهيب بك وكلفته بمراقبة الحسين وعزله والقبض عليه، ولكن الحسين اطلع على هذه المؤامرة وصار يناور حتى لا ينكشف عداؤه للباب العالي وبدأ يفاوض اللورد كتشنر بواسطة ابنه الأمير عبد الله. ودامت المحادثات مع الانكليز ردحا من الزمن وانعقد اتفاق بين حسين ومكماهون، وكان حسين قد تراسل مع اعضاء الجمعيات العربية مثل جمعية

الفتاة، فجاء موفدها من دمشق وهو فوزي البكري إلى الحجاز يحمل رسالة شفوية تعرض على الشريف حسين قيادة ثورة عربية يؤيدها الزعماء القوميون في الشام والعراق وخاصة الضباط الكبار العرب، ففرح بهذا العرض وأرسل ابنه الأمير فيصل إلى الباب العالي التركي لعرض شكواه ضد الوالي وهيب بك، ولكن كلفه بالاتصال سرا بالقوميين العرب. وفعلا اتصل فيصل في دمشق بأعضاء جمعية العهد وبذلك تم اتفاقه مع جمعيتين فيهما السياسيون والضباط وتعاهد الجميع على الثورة ضد الحكم التركي إذا اعترفت بريطانيا باستقلال العرب مقابل منحها أرجحية اقتصادية وعقدها مع العرب معاهدة دفاعية. وكان البيان الذي سلمه القوميون العرب إلى فيصل ليحمله إلى والده الحسين يتضمن مايلي:

١ - أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية: شمالا خط مرسين أضنه حتى درجة ٣٧ شمالا، ومنها خط بيرجك - ماردين- مديات - جزيرة ابن عمر - عمادية - حتى حدود فارس.

شرقا الحدود الفارسية حتى خليج فارس(وكان يسمى بهذا الاسم عند ذاك).

جنوبا المحيط الهندي خلا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي.

غربا البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين.

٢ - إلغاء الامتيازات الأجنبية.

٣ - عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة.

٤ - منح بريطانيا العظمى الأفضلية في الشؤون الاقتصادية.

مراسلات الحسين - مكماهون

واستمرت مفاوضات الحسين مع مكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر الذي فوضته الخارجية البريطانية بالاتفاق مع العرب. وقد أجاب مكماهون برسالة مؤرخة في تموز ١٩١٥ فوعد بالاعتراف باستقلال البلاد العربية حسب المطالب المرسومة في المذكرة التي وضعتها جمعيتا العهد والفتاة، ولكنه تحفظ بالنسبة للحدود بذريعة ان الحرب قائمة وتعيينها سابق لأوانه.

وقد أصر الحسين على مسألة الحدود فأجاب مكماهون برسالة أخرى تقول أن مرسين واسكندرونه وبعض الأقسام السورية الواقعة على الساحل لا يمكن أن يقال عنها أنها عربية خالصة لذلك يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة، كما اشترط اعتراف العرب بمصالح بريطانيا في ولايتي بغداد والبصرة.

أجاب الحسين بالموافقة على استثناء مرسين ولكن لم يوافق على استثناء السواحل السورية وأصر على الاحتفاظ بالاسكندرون ولبنان في كيان الدولة العربية. غير أنه حين رأى أن المسألة كانت موضع اتفاقات ثنائية بين بريطانيا وفرنسا تنازل ووافق على ارجاء النظر في هذه الأمور إلى ما بعد نهاية الحرب، خاصة وقد وعد مكماهون بأن بريطانيا لن تبرم أي صلح إلا إذا كان من شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من الترك والألمان.

بدء الثورة

كان فشل حملة جمال باشا على ترعة السويس قد حمله على موالاة الضغط على حسين لإرسال قوات عسكرية، وكان من قبل ذلك قد نقل قوات سورية إلى (جناق قلعة) كما سلف الذكر. وتصادف أن الأمير فيصل كان في القابون بجوار دمشق في ٦ أيار الذي شنق فيه عدد من احرار العرب، وتفاديا من اعتقاله ذهب وقابل جمال باشا ليخبره أنه سيذهب إلى الحجاز ليسرّع بالنجدات فوافق جمال على سفره وظن انه سيحصل على النجدة ويحتجز الأمراء الذين يكونون على رأسها، وهنا غادر فيصل دمشق بعد عشرة أيام أي من ١٦/ ٥/ ١٩١٦ ولما وصل إلى الحجاز أعلن الشريف حسين في ١٠ حزيران ١٩١٦ الثورة العربية على الحكم التركي، واستسلمت الحامية التركية. وبعد أشهر أي في تشرين الأول ١٩١٦ جاءت وفود عربية إلى الحجاز المحرر ونادت بالحسين ملكا على العرب، ولكن الحلفاء لم يقبلوا بهذا اللقب وبعد مراسلات اعترف الحلفاء به ملكا على الحجاز فقط.

القوات العربية تتقدم

وهنا كانت الثورة العربية قد ارسلت قوات الجيش العربي بقيادة فيصل نحو الشمال، وكان يساعده الجاسوس البريطاني لورنس. وحققت القوات انتصارات على الأتراك وصار الكثيرون من الضباط والجنود العرب في الجيش التركي يفرون منه ويلتحقون بالقوات العربية. واستفادت قوات الجنرال اللنبي من تقدم القوات العربية فاحتلت فلسطين، وفي نفس الوقت

انهزم الأتراك في اليمن. واتفق الحلفاء على أن يتابع جيش اللنبي الزحف على فلسطين بينما تواصل القوات العربية ومعها البدو من عشائر الشام (عشائر نوري الشعلان والرولة وعودة أبو تايه شيخ الحويطات) التقدم شمالا إلى دمشق. وحشد الأتراك لقاء هذه القوات ثلاثة جيوش ولكن زحف اللنبي من فلسطين وفيصل في الأردن استمر وانضم الدروز وشيوخ حوران وأعيان دمشق إلى القوات العربية، وفي ٢٧ أيلول وصل الجيش العربي إلى درعا ثم تابعت إلى دمشق فلما وصلتها الطلائع وجدت أن دمشق سبقتهم إلى إعلان الاستقلال ورفع العلم على السراي وتأليف حكومة مؤقتة برئاسة الأمير سعيد الجزائري. وتأخر دخول الجيش العربي إلى دمشق ليلة بطلب من الانكليز حتى وصلت مفرزة من الخيالة البريطانيين لتشارك في دخول دمشق ليكون احتلالها بقوات مشتركة لا عربية فقط. وفي ١ تشرين الأول ١٩١٨ احتل الجيش العربي دمشق المحررة، وتابع إلى حمص وحماه وبلغ حلب في ٢٦ تشرين الأول وفي تمام الشهر كانت سورية تحررت بكاملها.

الفصل الرابع - خيانة الحلفاء للعرب

كانت البلاد العربية منذ زمان طويل جدا موضع منافسة شديدة بين الدول ذات المطامع. فتركيا دام احتلالها لهذه البلاد العربية وإلحاقها بالسلطنة العثمانية أكثر من ثلاثة قرون. ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) كان بين أهدافها إعادة تقاسم المستعمرات بين الدول الرأسمالية الكبرى ومن بينها البلاد العربية وسواها مما كان يخضع للحكم العثماني الذي كان يوصف بالرجل المريض ويتهيأ الطامعون لاقتسام تركته.

ومن اجل ذلك عقد اتفاق سري بين انكلتره وفرنسا عرف باتفاق سايكس - بيكو وتم توقيعه في ٢٦ أيار ١٩١٦ وفيه اتفقت الدولتان على تقسيم سورية الطبيعية والعراق إلى مناطق ثلاث منها ساحلية واثنتان داخليتان.

١ - فالمنطقة الساحلية التي تمتد من رأس الناقورة في جنوب لبنان إلى الاسكندرونة ضمناً تركت لفرنسا على أن يكون لانكلتره حرية التجارة في اسكندرونة.

٢ - والمنطقة التي تشمل بغداد والبصرة تركت لانكلترة.

٣ - وفلسطين جعلت منطقة دولية حيادية على أن تكون حيفا لانكلترة ويكون لفرنسا فيها حرية التجارة.

٤ - والداخل في سورية ويمتد إلى الموصل ويشمل شرقي الأردن تكون فيه دولة عربية أو حلف دول برئاسة رئيس عربي ويكون مقتسما كمنطقتي نفوذ بين فرنسا وانكلترة بمعنى التفضيل في المشروعات الاقتصادية والقروض

المحلية وتعيين المستشارين وغيرهم من هذه الدولة أو تلك.

ظل هذا الاتفاق سريا جدا في حين كانت انكلترة ـ مع وجوده ـ تفاوص العرب ليشتركوا في الثورة ضد الأتراك لقاء دعم استقلالهم، أي كانت تكذب عليهم. فلما قامت الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧ نشرت الحكومة الشيوعية كل الاتفاقات السرية ومن بينها اتفاقية سايكس بيكو. وقلق العرب، ولكن انكلترة قالت لهم أن الاتفاق سبق عقده لطمأنة روسيا وقد خرجت روسيا من الحرب فلم يعد للاتفاق وجود وخدع العرب بهذا الكلام...

معنى الاتفاق بالنسبة لسورية

كان هذا الاتفاق يجعل كل المناطق التي تقع غربي دمشق وحمص وحماه وحلب خارج نطاق الدولة العربية المستقلة وتجعلها تحت حكم فرنسا مباشرة بدعوى أنها تضم أقليات دينية.

ولكن نوايا فرنسا الحقيقية لم تكن تقف عند حد الساحل السوري وبعض الامتيازات في الداخل، بل كانت تريد احتلال كامل البلاد احتلالا استعماريا ولو تنكّر بزي الانتداب. ولعل أوضح النوايا تظهر من كتاب وجهته غرفة تجارة (ليون) في فرنسا ـ وهي مدينة صناعة الحرير الطبيعي آنذاك ـ إلى وزير الخارجية الفرنسية في ٧ حزيران ١٩١٥. فقد قالت أنها وغرفة تجارة مرسيليا متفقتان في التخوف من مشاريع الحكومات الحليفة المتعلقة بسورية وأضافتا:

"إن التخلي عن سورية بأكملها أو قسم منها في الوقت الذي يقتتل فيه جنودنا البواسل في شبه جزيرة غاليبولي يبدو لنا بلا معنى، ولا نتخيل أن الحرب الحالية في الشرق يمكن أن يكون لها نتائج أخرى غير دعم حقوقنا وطموحاتنا المزمنة.

إن سورية التي يعرفها تجارنا والتي يطالبون بها دون نقاش تمتد من جبال طوروس حتى مصر، وتضم كيليكية القديمة، وفلسطين القديمة التي أدخلها التاريخ إلى تراثنا المعنوي منذ القرون الوسطى.

هذا ياسيدي الوزير ما نفكر به باتفاق تام مع غرفة تجارة ليون ومرسيليا حول تلك المسألة البالغة الأهمية والمتمثلة في تدعيم وضعنا في الشرق بعد الحرب.

إن سوريا هي بلد منتج للحرير، وهذا يعني أنها تابعة لسوقنا، سوق ليون الكبير الذي أصبح بفضل موقع قناة السويس أكبر مركز هام في العالم للمواد الحريرية، إذ تصدر لنا سورية في السنة كمية من الحرير تبلغ ٥٠٠ ألف كيلو غرام تقريبا تعادل قيمتها سنويا /٢٥/ مليون فرنك.

ولم يكتف مواطنونا باستيراد المنتجات المصنعة محليا بل أقاموا بأنفسهم معامل غزل في لبنان... ان ليون ومرسيليا بالنسبة لسوريا بأكملها من جبالها وحتى أقاصي صحرائها هما الاسمان اللذان يجسدان مصالح فرنسا.

. . .إن هذا من شأنه أن يعطي فكرة متواضعة نوعا ما عن مصالحنا بعد الدور المتفوق الذي لعبته فرنسا في هذا البلد بأكمله منذ الحروب الصليبية. . .

. . .إن إنتاج سورية بعناصره الزراعية وحدها، وبغض النظر عن الغنى بالمواد المعدنية المسلم به والذي لم يعرف بعد جيدا، يستطيع ان يتضاعف بفضل فرنسا عشرات المرات في خلال ٢٥ أو ٣٠ عاما.

فإذا خضع سهل أضنه الغني وهضاب حلب المرتفعة إلى نظام ري أفضل ونظام زراعي أصلح فإن ذلك سينتج محاصيل ينبغي على ميناء الاسكندرونه أن يستفيد منها.

إننا لم نحتج على ادعاءات بريطانيا العظمى حليفتنا عندما جعلت من مصر واحدة من مقاطعاتها الأساسية في امبراطوريتها في ماوراء البحار، وإننا لنتوقع تحقيق الحلم التاريخي لروسيا على شواطىء البوسفور، كما اننا لا نحتج على ما تأمله إيطاليا في التمركز في أزمير، ولكننا إذا وافقنا على حرمان سورية من ولاية أضنة وعلى اقتصارها على ولايتي دمشق وبيروت فقط فإننا بذلك سنجعل لأنفسنا جزءا من غنيمة غير جدير تماما بماضينا كله.

. . . إن غرفتنا. . . التي لم تكف أبدا عن دفع التجار التابعين لها إلى التطلع خارج حدود بلادهم وتدفعهم كي

يؤسسوا مصارف في المستعمرات.. لم تدعهم يخشون من أن المواقف التي اكتسبوها في الماضي يمكن أن تكون معرضة للخطر بسبب جهود ومكاسب تحققت في مكان آخر. ولنضرب مثلا على ذلك: لقد نادت غرفتنا التجارية بالفتوحات الاقتصادية للبلاد الجديدة مثل تونس والهند الصينية ومراكش ولكن دون أن تهمل من أجل ذلك الأسواق القديمة مثل أسواق مصر وتركيا...

وإننا مطمئنون يا سعادة الوزير بأنكم ستحبذون فكرة توسعنا الاقتصادي هذه..."

أما غرفة تجارة مرسيليا التي ضربت على الوتر نفسه، فتتحدث عن مواطني مرسيليا الذين قاموا منذ الحرب الصليبية بإيجاد العلاقات التجارية مع سورية، فازداد نفوذ مرسيليا على حساب الإيطاليين وسواهم، وأقامت القنصليات في المدن السورية، وبعد تفصيل طويل تقول:

"إن سوريا التي ينبغي على بلادنا أن تطالب بها كمطالبتها بإرث لها يجب أن تشتمل على ولايات أضنه وحلب ودمشق وبيروت وعلى حاكمية لبنان العامة ومتصرفية القدس أو فلسطين ومتصرفية دير الزور...

...وحسب التعبير البليغ الذي استعمله السيد ايتيين فلاندان في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية: أن على فرنسا أن تطالب باسم روح العدالة والتضامن التي تحرك حلفاءها بإكمال مهمتها التاريخية في سورية وفلسطين..."

بهذا الوضوح الذي لا يتبرقع بأي ستار من حياء، تسيطر المصالح الاستعمارية الاقتصادية على السياسة والحرب، وبهذا تعين غرفتا التجارة في ليون ومارسيليا ثمن دم الجنود الشجعان في غاليبولي. . .

ومن الطبيعي أن تكون انكلترا، ولا تقل سيطرة المصالح الاقتصادية على سياستها عن مثيلتها في فرنسا، غير موافقة، وأن يشتد النزاع بينهما. ولكن كلا الدولتين لم تكونا تحسبان حسابا لمقاومة الأهالي. فقد ظنتا أن الأتراك سيفقدون القدرة على المقاومة ويحتلون هم الأراضي العربية بيسر وسهولة ولكن الذي حدث قلب الصورة.

فلما دخل فيصل على رأس القوات العربية إلى سورية الداخلية واستقبل في كل مكان بحماسة منقطعة النظير ورفعت الأعلام العربية في كل مكان وبدأ بتنظيم مجلس للمديرين له صلاحيات مجلس وزراء. احتجت فرنسا على ذلك وطالبت بتنفيذ اتفاقية سايكس بيكو، فوجه اللنبي رسالة إلى فيصل يخبره فيها بأن وجوده في سورية مقتصر على صفته قائدا عسكريا لأحد جيوش الحلفاء وأن ليس له الحق في تنظيم حكومة مدنية وأن عليه أن يقتصر في حملته على سورية الداخلية ويتجنب الانطلاق إلى السواحل. ولما ثار الرأي العام في سورية على هذا التوجه قام الانكليز بطمأنة العرب بأن المسألة ما هي إلا تدابير عسكرية محضة.

ولكن قيادة الانكليز مالبثت أن أنزلت الجيوش الفرنسية على السواحل السورية. ففي ٨ تشرين الأول ١٩١٨ نزلت قطعات في بيروت، ثم تابعت سواها النزول بالتدريج على الساحل السوري من صور إلى الاسكندرونة،

وانزلت الأعلام العربية من المدن الساحلية على أن لا يرفع مكانها علم آخر، ثم قسمت القيادة العليا البريطانية البلاد السورية إلى ثلاث مناطق عسكرية: فالشرقية بقيادة الجيوش العربية، والجنوبية للجيش البريطاني والغربية الساحلية فنصفها حتى الناقورة للفرنسيين ومن الناقورة وإلى الجنوب لبريطانيا.

وعد بلفور

وكانت بريطانيا قد أذاعت في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ نص الوعد الذي قطعته بريطانيا على نفسها للصهيونيين.

وكان هذا الوعد على شكل رسالة بعث بها اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى اللورد روتشيلد الصهيوني وجاء فيها: "يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الارتياح إلى المشروع الذي يراد به أن ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي وتبذل مساعيها لإدراك هذا الغرض، مع البيان الجلي بأن لا تقوم بشيء يضر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن."

فيصل في مؤتمر الصلح

وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٨ أوفد الحسين ابنه فيصلا إلى باريس ليحضر نيابة عنه مؤتمر الصلح، فلما وصل إلى مرسيليا استقبله ضابطان فرنسيان رحبا به باسم الحكومة الفرنسية كزائر لفرنسا وليس كممثل ذي صفة رسمية فصعق فيصل من ذلك.

ولم يستطع فيصل أن يحضر جلسات مؤتمر الصلح فاضطر إلى مغادرة فرنسا إلى لندن وهناك اطلع على اتفاقية سايكس بيكو ونشاط الصهيونيين.
وبعد جهد كبير ووساطة بريطانية سمحت فرنسا له بالذهاب الى باريس ليمثل الحجاز كدولة حليفة في مؤتمر الصلح. وقدم فيصل مذكرة الى المؤتمر مؤرخة في ١٩ كانون الثاني ١٩١٩ بسط فيها حق العرب بالاستقلال، ثم ألقى في ٦ شباط خطابا اكد فيه حق الشعوب الناطقة بالعربية والقاطنة في آسيا بالاستقلال والوحدة، واستشهد بنقاط ويلسن الاربع عشرة كما أشار إلى الدور الذي قام به العرب في الحرب وندد باتفاقية سايكس بيكو ثم اقترح أن يعين مؤتمر الصلح لجنة تحقيق تزور سورية وفلسطين للتأكد من رغبات السكان في تقرير مصيرهم.

غير أن مؤتمر الصلح قرر أن البلاد العربية لها الحق بالانفصال عن تركيا ولكنها بحاجة الى المشورة الادارية ومساعدة دولة وصية تنتدبها عصبة الامم للاشراف على شؤونها وقرر أن لرغبة الشعب المقام الأول في اختيار الدولة المنتدبة، ثم وافق مؤتمر الصلح على ارسال لجنة دولية لمعرفة رغائب اهل البلاد الحقيقية فتألفت لجنة اميركية عرفت باسم لجنة كينغ - كراين.

الفصل الخامس - المؤتمر السوري ينعقد في دمشق

ابحر فيصل عائدا الى سورية وكان اول تصريح له قوله في بيروت: الاستقلال يؤخذ ولا يعطى، ولكن حاول ان يكتم عن الناس في دمشق خيبة امله باوربا ومؤتمر الصلح وأخذ يوجه الأفكار نحو لجنة التحقيق القادمة لتقف البلاد وقفة واحدة بطلب الاستقلال. وهنا اقترح (حزب الاستقلال) دعوة مجلس وطني باسم (المؤتمر السوري) فأيد فيصل الاقتراح ودعيت البلاد العربية الى إرسال مندوبيها إلى دمشق فجاء في جلسة الافتتاح ٦٩ مندوبا من مسلمين ومسيحيين من اصل ٨٥ ومنعت فرنسا بعض ممثلي لبنان من الوصول الى دمشق وانتهى المؤتمر السوري بعشرة قرارات خلاصتها:

١ - الاعتراف باستقلال سورية وبضمنها فلسطين دولة ذات سيادة وتنصيب الأمير فيصل ملكا عليها والاعتراف باستقلال العراق وعدم وجود حواجز اقتصادية بين العراق وسورية.

٢ - نقض اتفاق سايكس بيكو ووعد بلفور وكل مشروع يرمي الى تقسيم سورية او إنشاء دولة يهودية في فلسطين.

٣ - رفض الوصاية السياسية ونظام الانتداب وقبول المعونة الأجنبية لمدة محدودة شرط ألا تتعارض مع الاستقلال والوحدة القومية، وتفضيل الولايات المتحدة على سواها فان لم تكن فمعونة بريطانيا.

٤ - رفض معونة فرنسا مهما كان شكلها.

لجنة كراين

في ١٠ حزيران ١٩١٩ جاءت لجنة كراين وزارت فلسطين وسورية، وقدم لها المؤتمر السوري في ٣ تموز المذكرة التي لخصناها فعادت اللجنة الى باريس لتقدم تقريرا بقي سرا من الاسرار ولم ينشر الا بعد دخول الفرنسيين الى سورية (وقد نشرته جريدة التايمس الأميركية في ٢ كانون الأول ١٩٢٢) وجاء فيه أن ثلاثة أرباع السكان أجمعوا على مطالب المؤتمر السوري ولم يقبل الانتداب الفرنسي الا الموارنة والكاثوليك في المنطقة الغربية، وأنه إذا وقع الانتداب الفرنسي فالحرب ستقع بين العرب والفرنسيين وتتحمل بريطانيا نتائجها الخطرة. ونصحت اللجنة بالمحافظة على وحدة سورية وبضمنها فلسطين مع الاحتفاظ بالحكم الذاتي للبنان داخل اطار الوحدة السورية وأن يقوم الحكم في سورية والعراق على أساس ملكية دستورية فيتولى فيْصل عرش سورية ويولى ملك عربي آخر على عرش العراق بعد استفتاء.

اتفاق لويد جورج وكليمنصو

وبعد أخذ ورد بين الحلفاء اتفق لويد جورج رئيس ورراء بريطانيا مع كليمنصو رئيس وزراءِ فرنسا على أن يجلو الجيش البريطاني عن منطقتي سورية ولبنان ويحل الجيش الفرنسي محله، على أن تستثنى مدن دمشق وحمص وحماة وحلب فتبقى تحت حكم القوات العربية، وأن يتم الجلاء في أول تشرين الثاني ١٩١٩.

واستدعي فيصل الى لندن ولكن الحكومة البريطانية أحرت وصول

المدمرة التي أقلته حتى تمت الموافقة على اتفاق لويد جورج وكليمنصو، فلما وصل الى لندن ورأى الأمر تقرر قبل وصوله وجه برقية احتجاج شديدة اللهجة الى بريطانيا وسافر إلى باريس، وهناك وقع مع كليمنصو اتفاقا بأن تضمن فرنسا استقلال سورية مقابل تعهد بأن يطلب من فرنسا وحدها المستشارين والموظفين الفنيين وتكون لها الأفضلية في عقد القروض وأن يعترف فيصل بالانتداب الفرنسي على لبنان. وقع فيصل هذا الاتفاق مضطرا ولكن حين وصلت أخباره الى دمشق وأخذت الجيوش البريطانية تنسحب بالفعل هاج الوطنيون وبدأت الثورات في كل مكان. فثار الدنادشة في تلكلخ وصالح العلي في جبال النصيرية وفاعور في مرجعيون وكامل الأسعد في جبل عامل ونظمت مظاهرات ضد فيصل نفسه عند وصوله الى دمشق، وقرر الوطنيون رفض اتفاقه مع كليمنصو.

المؤتمر السوري يعلن استقلال سورية ثم استقلال العراق

وفي ٧ آذار ١٩٢٠ اجتمع المؤتمر السوري في دمشق وقرر اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما فيها فلسطين ولبنان والمناداة بفيصل ملكا دستوريا عليها، وفي اليوم التالي في ٨ آذار ١٩٢٠ جرت حفلة مبايعة فيصل بالملكية واحتشد الشعب في ساحة الشهداء في دمشق وتلي قرارالمؤتمر السوري من شرفة البلدية، وتألفت الوزارة الأولى برئاسة رضا باشا الركابي وكان من أعضائها فارس الخوري وساطع الحصري.

كما ختم المؤتمر السوري بيانه باعلان استقلال العراق على أن يكون بين

القطرين اتحاد سياسي واقتصادي، ثم التقى مندوبون عراقيون فأعلنوا استقلال العراق أيضا مع التوجه الى الاتحاد مع سورية، وجرى الإعلان من على شرفة بلدية دمشق أيضا.

مؤتمر سان ريمو والانتداب

قوبل اعلان الاستقلال في جميع البلاد العربية بارتياح عظيم ولكنه استقبل في محافل الحلفاء بسخط وغضب شديدين واعتبر عصيانا على القيادة البريطانية والحلفاء واستباقا لمقررات مؤتمر الصلح وخروجا عن صلاحياته. ووجه اللورد كورزون وزير خارجية بريطانيا برقية لا تسمح لأية هيئة في دمشق بحق التكلم عن فلسطين أو العراق، ولم يعترف الحلفاء بفيصل ملكا وظلوا يعتبرونه اميرا هاشميا.

واشتد الخلاف مع فرنسا حول عدم السماح للجيوش الفرنسية بالمرور ضمن سورية للوصول الى تركيا ومحاربة الكماليين وكان حجة سورية في الرفض حيادها وعدم اعتراف فرنسا باستقلالها والمسألة الثانية المختلف عليها هي أن فرنسا أسست بنك سورية ولبنان وأصدرت أوراقا نقدية اجبارية للتداول، وهي لا علاقة لها بسورية لتصدر هذه الأوراق باسمها.

مؤتمر سان ريمو

وسارع الحلفاء الى عقد مؤتمر سان ريمو في ايطاليا، وانعقد في ٢٥ نيسان وقرر مايلي:

١ - وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور

٢ - وضع سورية تحت الانتداب الفرنسي.

٣ - وضع العراق تحت الانتداب الانكليزي.

كان القرار صدمة لأعز أماني البلاد فهاجت الجماهير، واستقالت الوزارة السورية الأولى وتألفت في ٢ أيار ١٩٢٠ وزارة دفاعية برئاسة هاشم الأتاسي ومن أعضائها الجدد يوسف العظمة للدفاع وعبد الرحمن الشهبندر للخارجية وفارس الخوري للمالية وساطع الحصري للمعارف وجورج رزق الله للنافعة.

وبدأت الوزارة بدراسة تطبيق التجنيد الإجباري وبتشجيع الثورات القائمة ضد فرنسا. وردت فرنسا باستقدام مائة الف جندي وبتعيين الجنرال غورو مندوبا ساميا في سورية ولبنان. وبالمناسبة فقد حصل غورو على٥٢٥ مليون فرنك من وزارة الحربية و١٨٧ مليونا من وزارة الخارجية وعلى مئات الدبابات والطائرات والمدافع.

ولما عزم فيصل على السفر الى اوربا لحضور مؤتمر الصلح وللدفاع عن حقوق سورية منع الفرنسيون سفره وقالوا أنه اذا سافر عن طريق آخر فسوف لا يستقبل في فرنسا. ثم وجه الجنرال غورو إنذاره الشهير الذي أرّخه في يوم ١٤ تموز وهو يوم لذكرى الثورة الفرنسية المنادية بالحريات، فكأنه كان يسخر من مبادىء هذه الثورة.

انذار غورو

وبما قاله هذا الانذار : " لقد سادت السكينة أبان الاحتلال الانكليزي ولم يتعكر صفو الأمن وتبدأ الاضطرابات وتتزايد الا عندما حلت جنودنا محل الجنود البريطانية. ان حكومة دمشق تحمل كل التبعة إزاء اهالي سورية الذين عهد مؤتمر الصلح الى فرنسا بان تمتعهم بحسنات ادارة مؤسسة على الاستقلال والنظام.

ان اصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية باستعمال سكة رياق حلب الحديدية هو عمل عدائي بحت اذ لا بد من هذه السكة لاعاشة احدى فرقنا الفرنسية في الشمال وتمكينها من القتال ضد قوات معادية تابعة لتركيا. ان حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم هذه العصابات واستخدامها ضد جنودنا، اذ أعلن قائد فرقتكم الثالثة في حلب أنه سيملأ البلاد بالعصابات التي تجهز علينا تدريجياً ويقودها ضباط سوريون اذا استشهد احدهم فستعيل الحكومة عائلته. "

ثم عدد الجنرال غورو الحوادث التي جرت بناء على ذلك فقال: " لقد هوجم موقع فرنسي في تلكلخ وذبح بدو محمود الفاعور مسيحيي مرجعيون في ٤ كانون الثاني ورفعوا العلم الشريفي.

وفي ٥ منه كان جنود شريفيون بين من هاجموا الفرنسيين في قرق خان والحمام.

وفي ٢٥ منه هاجم الرئيس فؤاد سليم وفرقة من جنود نظاميين موقعا فرنسيا في جسر الليطاني وبعد حارم وانطاكية هوجمت الدبابات الفرنسية في

١٦ - ٢٢ نيسان بقيادة الضابط الشريفي حسن بك وفي حزيران ثبت وجود امير لواء ورئيس وستة ملازمين و٣١٧ رجلا من الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل في ساحة مرجعيون ومعها ٤ رشاشات ثقيلة و٣ خفيفة و٥٠ صندوق ذخيرة.

. . . وقد سوعد الشيخ صالح العلي بطل الفوضى والبغضاء لنا، مساعدة فعلية ومستمرة في جبال النصيرية. . "

وأضاف البيان:

" ان المقاومة المالية الظاهرة في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي اصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك سورية في المنطقة الشرقية هو دليل جديد على عداء يضر بمصلحة البلاد ايضا. . "

. . ثم ان السلطة الشريفية تغلغلت تدريجيا في المنطقة الغربية فاقيم مخفر في الخالصة ورفع العلم الشريفي في القدموس، وجعلت حكومة حلب (القصير) قضاء شريفيا ونصبت قائم مقام في جسر الشغور. . .

" واضطهد اصدقاء فرنسا والموالون لها، وهوجم وفد من دروز حوران كان زارنا عند عودته في وادي القرن وقتل عدد من رجاله. . واحتفل بالدنادشة احتفالا كبيرا في دمشق بعد حوادث تلكلخ. . ولم يمس بسوء في دمشق امين محيو الذي نسف مستودع العتاد الحربي في بيروت، وسعى سموكم الملكي لرجوع كامل بك الأسعد الى المنطقة الغربية بعد أن كان نفي منها بسبب الفتن التي يقع عليه قسم عظيم من تبعتها. . "

" وآخر هذه الأعمال شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس ادارة لبنان باثنين وأربعين ألف جنيه مصري، وقد ألقي القبض عليهم في ١٠ تموز بينما كانوا ذاهبين الى دمشق. . "

" وقررتم التجنيد الإجباري وجاوزتم ما كلفتم به كقائد فقط في جيش الحلفاء لا يجوز له أن يتخذ غير هذه الصفة، ويحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها، وقدم لسموكم اللقب الملكي بدون حق ولا وكالة، مما وضعكم في موقف المتمرد على مؤتمر الصلح. . "

ولم تحترم الامتيازات الأجنبية ولا الاتفاقات السياسية، فأصاب فرنسا ضرر كبير إذ اضطرت لصرف جهودها لقمع الفتن المتوالية وجلب قوات كبيرة أعظم عددا مما يقتضيه استبدال الجنود الانكليزية في حال سكينة وسلام.

ولذلك ففرنسا مضطرة لأن لا تعتمد بعد الآن على حكومة جاهرت بعداء فرنسا، وصرنا مضطرين لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودنا والسكان الذين أنيط بنا أمر الانتداب عليهم وهذه الضمانات هي:

١ ـ التصرف بسكة رياق حلب الحديدية بصورة مطلقة لإجراء النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية وتكون قوة عسكرية فرنسية في محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب، واحتلال مدينة حلب التي هي مركز مواصلات هامة لا يسعنا تركها تسقط بين الجيش التركي.

٢ ـ الغاء التجنيد الاجباري وتسريح القوى حتى يعود الجيش الشريفي الى العدد الذي كان عليه في ١ كانون الأول المنصرم.

٣ ـ قبول الانتداب الفرنسي.

٤ ـ قبول العملة الورقية السورية فتصبح عملة وطنية وتلغى كل الأحكام المتعلقة بالبنك السوري.

٥ ـ تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداء لفرنسا.

ان هذه الشروط تقدم جملةً ويجب قبولها جملةً فلا تجزئة، خلال أربعة ايام تبتدىء من منتصف ليل /١٤/ تموز وتنتهي في منتصف ليل /١٧/ تموز.

وإذا جاءني من سموكم قبل انقضاء هذه المدة ما يشعر بقبولها، ينبغي ان تكون اوامركم صدرت في الوقت نفسه الى السلطات المختصة لعدم معارضة جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المشار اليها سابقا... والا فان الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة اليد في العمل، وفي هذه الحال لا أستطيع ان اؤكد أنها ستكتفي بالضمانات المعتدلة المشار اليها اعلاه..

والمصائب التي قد تحل بالبلاد تقع على حكومة دمشق التي تتحمل مسؤولية الحلول المتطرفة التي لا أنظر اليها إلا آسفاً ولكنني مستعد لها بعزم لا يتزعزع.

التوقيع ـ غورو

التمهيد للاحتلال

كتب ساطع الحصري في كتابه (يوم ميسلون) الذي بدأ كتابته في تموز ١٩٤٥ أي بعد العدوان الفرنسي بأشهر وقبل الجلاء: " ان يوم ميسلون يوم فاصل من أخطر الأيام التي سجلها تاريخ الأمة العربية في عصورها الحديثة لأنه اليوم الذي انقضت فيه أول دولة عربية عصرية تأسست في الشام بعد الحرب العالمية وكان اعلانها في اول تشرين الأول ١٩١٨، ثم أعلنت استقلال سورية في ٨ آذار ١٩٢٠. وكانت هذه الدولة الفتية على قصر عمرها عظيمة الدلالة جليلة الشأن لأنها كانت وليدة الثورة العربية وقبلة آمالها، ولأنها كانت دولة عصرية بكل معنى الكلمة، ولأن جميع أحرار العرب ركزوا جهودهم فيها. وأضاف الحصري: " لقد كنت في قلب تلك الأحداث اذ كنت عضوا في مجلس المديرين الذي كان يعمل عمل مجلس الوزراء منذ بداية تأليفه حتى اعلان الاستقلال، وكانت هذه الوزارة الأخيرة قد عهدت اليّ بمهمة التفاوض مع الجنرال غورو عقب تقدم جيوشه نحو ميسلون، وبذلك تسنى لي أن أقابله وأمر بين جنوده في الجبهة بعد المصادمات الأولى وقبل ساعات من معركة ميسلون وان أطلع على أدق التفاصيل، ثم رافقت الملك فيصل الى اوربا وطلب مني أن أتصل بأحد علماء الحقوق الدولية في روما فأطلعه على المعلومات والوثائق اللازمة لوضع تقرير قانوني عن القضية السورية والعدوان الفرنسي. وقد كتبت المذكرات في تلك الأيام حين كنت أقرب الى الحوادث التي اطلعت عليها مباشرة وبتفصيل وعناية منذ ربع قرن" . . . وأعود الى سرد ملخص الأحداث التي مرت بتسارع شديد بين يوم ١٤ تموز الذي وجه فيه الانذار ويوم ٢٤ تموز الذي جرت فيه معركة ميسلون الفاصلة.

قبول الانذار

فقد كانت وزارة فيصل تحت ضغط الظروف والتباين الهائل بين اسلحة الجيش العربي البسيطة وبين اسلحة الجيش الفرنسي الحديثة التي انضمت اليها قوات ومعدات ضخمة، قد اضطرت الى ارسال جواب على برقية غورو بالقبول. ولكن البرقية التي ارسلت بالخطوط السلكية (لا ننسى أننا في عام ١٩٢٠!) عبر جبهة كانت قد بدأت فيها تحركات القوات وصلت الى غورو على ما يقول بعد نصف ساعة من الموعد. كان غورو قد امر جيوشه بان تزحف من شتورة وزحلة عن طريق مجدل عنجر حتى وصلت الى وادي الحرير وتم لها ذلك دون مقاومة تذكر. وعندئذ سارع يوسف العظمة وزير الحربية الى ارسال قوات على وجه الاستعجال الى موقع ميسلون ليكون خط دفاع عن دمشق، وتقدم عدد من المتطوعين المدنيين وتسوقهم الحماسة وبلغ عددهم ثلاثة آلاف يحملون اسلحة مختلفة الأنواع.

وكان الملك فيصل ومجلس الوزراء قد قرروا ارسال مبعوث الى غورو ليحمله على الرجوع عن قرار الزحف وكان هذا المبعوث هو ساطع الحصري وصحبه جميل الإلشي مرافقا عسكريا والكولونيل طولا ممثل الفرنسيين في سورية. فلنترك الحصري يحدثنا عن هذه الرحلة ولكن مع اجتزاء حديثه المطول واختصاره الى أقصى حد ممكن...

مقابلة غورو في عاليه

وصف الحصري رحلته بسيارة مفتوحة كانت تسير ببطء شديد بسبب قوافل السيارات والبغال والجمال وقطعات الجنود الزاحفة إلى ميسلون، وكانت قوات الطليعة الفرنسية قد وصلت الى وادي القرن وكانت تتقدمها دبابتان ما لبث الجنود السوريون ان أطلقوا عليهما النار فارتدتا.

وفي ميسلون قابله يوسف العظمة الذي انتحى به جانبا وقال له: أرجوك اكسب لنا أكثر ما يمكن من الوقت..

بعد مغادرة ميسلون والوصول الى وادي القرن وجد الوفد ان القوات الفرنسية قد خيمت في صحراء جديدة يابوس، وتمت مقابلة مع الجنرال غوابه قائد الحملة، ولما طلب منه ساطع الحصري التريث لأنه ذاهب ليبلغ الجنرال غورو مجددا عن الموافقة السورية على الشروط، رد الجنرال غوابه بأنه جندي ينفذ الأوامر ولكنه وعد بالتريث مع ذلك اربعا وعشرين ساعة.

ثم تابع الحصري ومرافقاه السير إلى لبنان وهم يقابلون العديد من القوافل العسكرية المنطلقة في اتجاه معاكس نحو سورية حتى وصلوا الى المريجات مع الفجر، ثم بلغوا عاليه صباحا ودخلوا الى حديقة كبيرة تطل على بيروت، وذهب الكولونيل طولا الى بناية قريبة ثم عاد يقول ان الجنرال غورو في انتظاركم.

وأضاف " استقبلني الجنرال واقفا امام مكتب كبير، وبعد أن صافحني بيده اليسرى (يده اليمنى كانت مقطوعة ويتدلى الكم فارغا... لأنه فقدها في حرب الدردنيل) بدأ يتكلم بلهجة جافة ويعدد وقائع الإنذار وقال انتظرت

جوابكم حتى منتصف الليل وبعد ذلك لما لم يأت جواب اصدرت اوامري الى الجيش بالزحف الى الأمام، ولم تصلني برقيتكم بقبول الشروط الا بعد نصف ساعة. . .   .

قلت له: ولكنكم اطلعتم على ان البرقية كانت سلمت الى ممثلكم في دمشق قبل ست ساعات. . .

قال: نعم، ولكنها وصلت متأخرة. بقيت في الطريق اكثر من عشر ساعات بسبب انقطاع الأسلاك التلغرافية بين الزبداني وسرغايا وهذا من عمل العصابات التي افسحتم المجال لتشكيلها. اذن فالمسؤولية على حكومتكم. اما جيشنا فقد بدأ الزحف ولن يتوقف. . وهنا أخرج من درج أمامه مذكرة تحتوي على مزيد من الشروط المذلة لسورية من قبول الاحتلال وتدمير الأسلحة والامتناع عن مناصرة الثوار واقامة بعثة فرنسية بصورة دائمة وقبول الانتداب وفي حال خرق او عدم تنفيذ أي من البنود السبعة فان الحملة تستأنف عملها وسيرها، ثم قال بغطرسة: هذه شروطنا. .

كانت هذه الشروط تعني ان كل الحكاية مصطنعة من اجل تبرير الاحتلال الفرنسي لسورية، ورغم قبول الانذار الذي أصدره غورو فان الهدف تدمير قوة الجيش السوري واحتلال الوطن السوري.

وقال الحصري: ان كل هذه الشروط تدل دلالة صريحة على انه لم يعدل الفرنسيون عن فكرة احتلال دمشق بتاتا بل أنهم كانوا يسعون لخلق حجة للقيام بحملة أخرى وانزال ضربة جديدة.

وهنا حاول غورو اجبار الحصري على التوقيع بالموافقة على لائحة

الشروط الجديدة التي أسماها (ضمانات) ولكن الحصري طلب مهلة اربع وعشرين ساعة للرجوع الى دمشق واعلام الملك فيصل والوزارة بالموقف الفرنسي ثم تعلم الجنرال بموقفها. وبعد تردد وافق الجنرال ثم حمله رسالة جديدة موجهة الى الملك فيصل قائلا: ارجو ان توصلها الى سمو (الأمير)...

وحاول الكولونيل طولا عرقلة سفر الحصري أملاً باعطاء الفرنسيين حجة جديدة لزعم التاخير، ولكن المفاوض السوري أصر على سرعة الوصول وتشبه حكاية هذه المنازعات ما يجري في الروايات السينمائية الغربية. وبعد جهد واتصال مع الجنرال غورو بالهاتف وافق على تمديد المهلة الى يوم آخر ينتهي في منتصف ليل ٢٤ تموز.

ولما وصل الى دمشق بعد هذه المغامرة المتعبة والسير من خلال القطعات المنتشرة على الجبهتين قابل الملك فيصل رأسا وسلمه الرسالة فأمر بدعوة مجلس الوزراء في صباح اليوم التالي.

وفي أثناء هذا الاجتماع وبينما كان الملك والوزراء لا يصدقون ان الفرنسيين وصل بهم الأمر والتصميم الى هذا الحد جاءت رسالة يحملها الكولونيل كوس الفرنسي ويطلب فيها السماح للجيش الفرنسي بالانتقال الى موقع ميسلون لأنه سيكون اكثر راحة لهم، فدللت على ان الفرنسيين مصممون على محاولة الاحتلال والتقدم الى مسافة لا تبعد عن دمشق سوى ٢٥كم. وهنا تقرر دعوة قناصل الدول الأجنبية لاطلاعهم على الوضع فاجتمعوا في القنصلية الإيطالية واظهر قنصلا ايطاليا واسبانيا اسفهما

واستنكارهما، وقال القنصل الأميركي ان حكومته لن تتدخل، وقال ممثل ايران انه لا يعرف الحقيقة ويجب سماع اقوال الطرف الاخر . . .

ولما انتهى الاجتماع مع القناصل كان الناس قد سمعوا بالأحداث وبدأوا بالتجمع حول مقر الملك وبدأت حملة تطوع حماسية. وهنا قرر مجلس الوزراء مايلي: (أننا نأبى الحرب، ولكن قبول الشروط الواردة في مذكرتكم الأخيرة يعرض البلاد لحرب اهلية. اننا مستعدون لتنفيذالإنذار المؤرخ في ١٤ تموز بحذافيره وقد نفذنا حتى الآن اربعة من شروطه ونتعهد بشرفنا بتنفيذه باخلاص على ان ينسحب الجيش الفرنسي من الأماكن التي احتلها مؤخرا). . .

لحظة الوداع

وأضاف الحصري: بعد العشاء جاء يوسف العظمة يودعنا قائلا انه سيتوجه الى الجبهة ولكنه قبل ان يغادرنا انتحى بي في زاوية من الغرفة وقال لي بصوت تخنقه العبرات:

ـ انا ذاهب، انني اترك ليلى أمانة لديكم. ارجو الا تنسوها . . .

كانت ليلى هي ابنته الوحيدة التي جاءت من الآستانة مع امها قبل اسبوعين من ذلك.

وكان هذا يعني أنه وطد العزم على ان لا يعود من الجبهة أبدا!

كان هذا أشرف موقف على الإطلاق يتخذه عميد أسرة العظمة المعروفة بين الناس بالطيب والاحترام والشجاعة.

تابع الحصري يقول: كنت اعرف نتيجة المعركة سلفا، ولكنني كنت امني نفسي بمعركة عنيفة تساعد على حفظ شرفنا العسكري على أقل تقدير. ولكن النتيجة لم تبطىء كثيرا، فقد وردت الأخبار قبل الساعة العاشرة بانكسار الجيش واختراق الجبهة، وقالوا ان يوسف العظمة قتل في ميسلون... وأن كل ما أمكن جمعه من الجنود والمعدات وما امكن ارتجاله من التحصينات ما كان ليصمد اكثر من بضع ساعات امام الهجوم العنيف الذي شنه الجيش الفرنسي المجهز بجميع وسائل القتال من مدافع ثقيلة ودبابات وطيارات..

تسارع الأحداث بعد ذلك

وهنا تقرر أن تذهب الحكومة بالقطار إلى الكسوة ووضعت مسودة بيان يذاع على الشعب مفاده أن الحكومة قررت الخروج من العاصمه للدفاع عن حقوق البلاد واستقلالها ووقعه هاشم الأتاسي ولكن البيان لم يتم نشره بسبب مارافق الوضع من سرعة، ثم قرر الملك تأليف حكومة جديدة برئاسة علاء الدين الدروبي وعضوية فارس الخوري وجلال الدين ويوسف الحكيم وجميل الالشي وعطا الأيوبي وعبد الرحمن اليوسف وبديع المؤيد ولكن الفرنسيين الذين دخلوا دمشق قرروا أن ينهوا العهد الفيصلي. فقد جمع الجنرال غوابه قائد الحملة التي دخلت دمشق لعضاء الحكومة الجديدة وقرأ عليهم بياناً بان (الأمير فيصل) مسؤول عن كل ما حدث في سورية إلى حد لايمكن معه استمرار حكمه على البلاد. احتج الملك فيصل ولكن ما لبث أن جاء الموفد الفرنسي الكولونيل طولا وسلمه كتاباً باسم الحكومة الفرنسية

يدعوه فيه إلى الخروج من سورية بقطار خاص يغادر دمشق في ٢٨ تموز الساعة الخامسة صباحاً.

وفي الموعد المحدد غادر فيصل ومعه الحصري دمشق بالقطار إلى درعا وكان عليه أن يختار بعد ذلك اما الذهاب الى حيفا و منها الى اوروبا للدفاع عن ملكه واما الذهاب الى عمان و منها الى الحجاز. وتدخل الفرنسيون ففرضوا السفر إلى الحجاز وأعطوه مهلة عشر ساعات لذلك وإلا فستقوم الطائرات بضرب درعا.

وهنا تدخل الأنكليز وطلبوا سفر فيصل إلى حيفا فتم ذلك في أول آب بعد أن بقي في سورية نحو سنتين، ومنها انتقل إلى بور سعيد فأوربا.

أما في دمشق فقد تابعت المحاكم العسكرية الفرنسية عملها وأصدرت أحكاماً بالاعدام على كثيرين. ففر الكثيرون من الوطنيين واختفوا عن أعين السلطات.

الباب الثاني- سورية في المرحلة الأولى من الانتداب

الفصل الأول - تسلسل الأحداث في التواريخ المتعاقبة

دخول الفرنسيين إلى دمشق، ٦١-ثورة حوران، ٦٢-تدابير انفصالية، ٦٣-مواقف الوطنيين والأحزاب الوطنية-مؤتمر جنيف، ٦٤-محاولة اغتيال عورو، ٦٥-سلخ كيليكيا عن سورية وهجرة الأرمن، ٦٦-لجنة كراين-طرائف-أحكام الديوان العرفي، ٦٧-إنشاء الاتحاد السوري، ٦٨-صك الانتداب-اتفاقية المصرف السوري، ٦٩-الجنرال ديفاند-الوحدة السورية، ٦٩-الجنرال ساراي-زيارة بلفور لدمشق، ٧١-المطالب السورية-الأحزاب السورية، ٧٢-الصحافة السورية، ٧٣ .

الفصل الثاني - الثورات

١-ثورة الشيخ صالح العلي، ٧٥-٢-ثورة إبراهيم هنانو في الشمال، ٧٧-هنانو يتحدث، ٧٩-محاكمة هنانو، ٨٦-المرافعات، ٩٢-الدخول في اساس الدعوى، ٩٧-التهمة الاولى، ١٠١-التهم الاخرى، ١٠٣-سر النطق بالبراءة، ١١٠-أبطال هنانو، ١١١-بعض رفاق هنانو، ١١٢-٣-ثورة حماة، ١١٣-٤-ثورة حمص، ١١٤-٥-الثورة العربية الكبرى، ١١٥-سلطان الاطرش، ١١٨-ثورة غوطة دمشق، ١١٩-المعركة كما وصفها بدر الدين الشلاح، ١٢١-حملة رائعة، ١٢٤-قوة الثورة وضعفها، ١٢٥-ملاحظات حول الثورة، ١٢٧-دكوك البساتين، ١٢٩-تضامن الشعب، ١٣٠-ذكريات شخصية ١٣١-تأرجح السياسة الفرنسية الظاهرة، ١٣٢

الفصل الثالث - عودة إلى النضال السياسي

الشيخ تاج ، **١٣٥** -الداماد أحمد نامي، **١٣٦** -هنري بونسو، ١٣٧ -الشيخ تاج، ١٣٨ - المحاكم المختلطة، **١٤٠** -أبرز الوقائع في الثلاثينات، **١٤١** -الحكومة الجديدة والانتخابات، **١٤٢** -دومارتيل، **١٤٤** -قرار المفوض السامي والرد عليه، **١٤٤** -الشيخ تاج من جديد في الحكم، ١٤٥ -تدابير استعمارية اقتصادية، ١٤٦ - الكتاتيب وحسني البرازي-معركة حول اليانصيب، **١٤٧** -وفاة إبراهيم هنانو، **١٤٨** -الشرارة التي بدأت الاشتعال، **١٤٩** -الوحدة الوطنية شملت، **١٥١** - المعاهدة من جديد، **١٥٢** -استقبال فخري البارودي، **١٥٢** -وفد المفاوضة -فرنسا لم تصدق على المعاهدة، **١٥٣** -محاكمة أدبية لأحد أنصار الشيخ تاج - الكونت دومارتيل بتقاعد، **١٥٤** -قضية اسكندرون-تفكك الحكم الكتلوي، **١٥٥**

الفصل الرابع - سورية والعالم أثناء الحرب العالمية الثانية

١ -ضياع لواء اسكندرون، **١٥٧** -٢-الحرب العالمية الثانية، ١٦٢ -أسبابها ومراحلها، **١٦٤** -١-احتلال تشيكوسلوفاكيا، ١٦٦ -٢-بدء الحرب ضد فرنسا وانكلترا، ١٦٧ -٣-بدء الحرب ضد الاتحاد السوفياتي، **١٦٨** -٤-دخول الانكليز والديغوليين إلى سورية، **١٧٤** - ٥-الاحتلال الانكليزي وآثاره، **١٧٥** -٦-الصراع الانكليزي الفرنسي في سورية، **١٨٠** - ٧-تأليف حكومة المديرين، **١٨٢** -٨- مصرع الشهبندر، **١٨٤** -٩-نشاط شكري القوتلي، **١٨٦** -خالد العظم، ١٨٧ - تأزم الوضع الحربي العام، **١٨٨** -١٠-الشيخ تاج مجدداً، **١٨٩** -رئاسة-وفاته المفاجئة، **١٩٠** -١١-وزارة عطا الأيوبي، **١٩١** -١٢-شكري القوتلي رئيساً، **١٩٢** -١٣-الأزمة اللبنانية، **١٩٣** -عودة الغطرسة الفرنسية، **١٩٤** .

الباب الثاني

سورية في المرحلة الأولى من الانتداب

الفصل الأول - تسلسل الأحداث في التواريخ المتعاقبة

في ٢٤ تموز ١٩٢٠ دخل الافرنسيون دمشق.

في ٢ آب ١٩٢٠ فرضت فرنسا (المنتدبة) على سورية الداخلية غرامة حربية قدرها (٢٠٠ الف) دينار ذهبي، وكان رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي فوزع المبلغ على المناطق السورية ومن يتمنع يساق إلى الديوان العرفي وتحجز أمواله.

في ٣ آب ١٩٢٠ فرضت غرامة عينية على دمشق تقضي بأن تقدم تسعة آلاف بندقية، ثم صدر أمر بتسليم كل البنادق. كما تقرر فصل الأقضية الاربعة بعلبك والبقاع وحاصبيا وراشيا عن سوريا وضمها إلى لبنان (الكبير).

وفرضت الرقابة على الرسائل والبرقيات، وألزم الناس بقبول الورق النقدي الذي وضعته فرنسا في التداول واعتبر الدينار أربعين قرشاً وجمعت العملة الذهبية التي صكت باسم الملك فيصل وصدر قرار يمنع الموظفين من الاشتغال بالسياسةوأقفل مكتب اللجنةالوطنية والنادي العربي.

في ٥ آب ١٩٢٠ أعلن الدروبي ان الإنتداب أصبح امراً قائماً.

في ٩ آب ١٩٢٠ اجتمع المجلس الحربي واصدر احكاماً غيابية باعدام الشيخ كامل القصاب وعلي خلقي واحمد مريود والأمير محمود الفاعور وصبحي الخضرا وصبحي بركات ومنح هارون وعوني القضماني وشكري

الطباع وعمر شاكر وسليم عبد الرحمن و عمر بهلوان وعثمان قاسم و سعيد حيدر ومحمد اسماعيل و رشيد طليع وعوني عبد الهادي وعبد الهادي سكر وخليل باكير وحسن رمضان وعادل أرسلان وإحسان الجابري وفاتح المرعشي والشيخ رضا الرفاعي والدكتور أحمد قدري و رفيق التميمي وتوفيق اليازجي ورياض الصلح وخير الدين الزركلي وبهجت الشهابي ونبيه العظمة وشكري القوتلي وعيد الحلبي وياسين دياب وخالد الحكيم، وآخرين، وبنفي آخرين.

وقد عرفت أنا - نجاة - شخصياً عدداً من هؤلاء فيما بعد وكانت لي معهم مقابلات وصلات مختلفة، وكان ممن صدر قرار بنفيهم عارف الجراح والد زوجتي وهو من ضباط الجيش السوري واعتقل في لبنان وقاسى طويلاً.

ثورة حوران

وفي ١٨ آب ١٩٢٠ جاءت برقية من حوران إلى الوزارة تقول أن مشايخ حوران قرروا فصل حوران عن سورية والحاقه بشرقي الأردن واقترح محافظ حوران أن يحضر رئيس الوزراء الدروبي مع وفد لإقناع مشايخ حوران بالعدول وكانوا رفضوا الحضور إلى دمشق، فقرر الفرنسيون إيفاد رئيس الوزراء وبعض مرافقيه إلى حوران، وعندما وصل القطار إلى محطة خربة الغزالة قام حشد من المواطنين بالهجوم على القطار وقتلوا علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن اليوسف وفر الآخرون، وعطل الثوار الحورانيون سكة الحديد وقطعوا المواصلات البرية. وعندئذ أرسل الفرنسيون حملة

عسكرية لإخضاع حوران فتصدى لها أهل الكسوة وقاوموا تقدمها ثم جرى قتال بالقرب من غباغب واستخدم الفرنسيون الطيران لتدمير العديد من القرى، ثم فرضوا على حوران دفع دية المقتولين (١٠٠٠٠ ليرة ذهبية عن كل وزير و ٧٠٠٠ عن كل ضابط فرنسي ٥٠٠ عن كل جندي) إضافة إلى ١٠٠ ألف ليرة ذهبية غرامة حربية، وحكم المجلس الحربي الأعلى بالإعدام على عوض المصري وحسين الحاج يوسف عيسى وزعل اليوسف ونفذ الحكم فيهم في ٢٠ ايلول ١٩٢١.

تدابير انفصالية

في ٣١ اب فصلت مقاطعة العلويين عن دمشق وأنشئت فيها إدارة خاصة اعتبارا من أول أيلول وتم ذلك بقرار من الجنرال غورو.

في ١٦ إيلول ١٩٢٠ صدر قرار بفصل حلب عن دمشق وجعلها حكومة مستقلة وألحق سنجق الاسكندرونة بحلب مع احتفاظه باستقلاله الاداري.

في مطلع تشرين الثاني قرر المفوض السامي تحديد دولة دمشق بالمدينة وأقضيتها وحمص وحماة وحوران باستثناء قضاء مصياف الذي ألحق بمقاطعة العلويين وعين الجنرال غوابه حاكما عسكريا في دولة دمشق.

في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ أنهى غوابيه وزارة الالشي وكلف حقي العظم بمهام الحاكم المدني اعتبارا من صباح اليوم التالي، وأصدر هذا قرارا بجعل الوزارات مديريات وسمى نفسه حاكم دولة دمشق.

في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٠ كان اسم هذا الجبل جبل حوران فسماه

الفرنسيون جبل الدروز ترسيخا للفصل الطائفي وعقد الفرنسيون مؤتمرا في السويداء في ذلك اليوم برئاسة سليم الاطرش وقرر المجتمعون بتشجيع فرنسا إنشاء حكومة في جبل الدروز تتمتع باستقلال داخلي وعلى رأسها مجلس استشاري منتخب وحاكم منتخب يتغيران كل ثلاث سنوات.

وفي ٤ آذار ١٩٢٠ وقع الإتفاق بين سليم الأطرش والجنرال كوليه ولكن جعلت مدة المجلس أربع سنوات ويخضع انتخابه لتصديق السلطة المنتدبة.

في ٢٣ كانون الأول وقع في لندن الاتفاق البريطاني الفرنسي لرسم الحدود بين سوريا ولبنان وفلسطين والعراق وسلخت بذلك فلسطين وشرقي الأردن عن سوريا.

مواقف الوطنيين والأحزاب الوطنية

مؤتمر جنيف

في ٩ نيسان ١٩٢١ وجه حزب الاتحاد السوري منشورا يدعو فيه الأحزاب الوطنية جميعها إلى عقد مؤتمر سوري في جنيف من أجل الوحدة السورية وإسماع صوت سورية إلى جمعية الأمم قبل إبرام صك الإنتداب.

في ٢٧ آب ١٩٢١ افتتح المؤتمر جلساته في جنيف برئاسة الأمير ميشيل لطف الله رئيس حزب الاتحاد السوري وحضره ١٩ مندوبا عن حزب الاتحاد وحزب الاستقلال العربي والجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس والوفد الفلسطيني واللجنة الفلسطينية في مصر، والجمعية السورية الوطنية في

بوسطن، والحزب الوطني العربي في الأرجنيتين، وحزب تحرير سورية في نيويورك، وحزب استقلال سورية ووحدتها في الشيلي. ويلاحظ هنا ان المغتربين بسبب الحرية التي يتمتعون بها كانوا أكثرية.

في ٢١ أيلول ١٩٢١ اختتم مؤتمر جنيف أعماله بنداء مكتوب بالفرنسية إلى رئيس ومندوبي جمعية الأمم يؤكد على الوحده القومية في سورية في الجنس والعرق واللغة العربية وطالب بخمسة مطالب: الاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسورية ولبنان وفلسطين وحقها في الوحدة في ظل حكومة مدنية ومجلس نيابي منتخب، وأن تتحد مع البلاد العربية الأخرى اتحادا فيدراليا، وإلغاء الانتداب فورا وجلاء الجيوش الأجنبية عن سورية وفلسطين ولبنان وإلغاء وعد بلفور، وبطلب إرسال لجنة لتقصي الحقائق واستطلاع رغبات السكان.

وانتخب المؤتمر لجنة تتكلم باسمه من شكيب أرسلان وإحسان الجابري وسليمان كنعان والأمير ميسيل لطف الله.

محاولة اغتيال غورو

في ٢٣ حزيران ١٩٢١ كان الجنرال غورو وبرفقته حقي العظم حاكم دولة دمشق ورئيس أركان غورو وهو الجنرال كاترو متوجهين إلى القنيطرة في زيارة للأمير محمود الفاعور، وعلى بعد ١٢ كم من القنيطرة ظهرت أمامهم مجموعة من الفرسان أطلقت النار على سيارة غورو فأصيب برصاصة في ذراعه المبتورة وأصيب حقي العظم في فخذه وقتل الترجمان.

وعلى الأثر سيرت حملة فرنسية دمرت قرى جباتا الخشب والمنشية وطرنجة والحمر وتل الشيخة بحجة انها آوت الفرسان، وصودرت الأموال والغلال وفرض على كل فرد غرامة حربية ١٠٠ دينار ذهبي. وعادت الحملة إلى دمشق فباعت المصادرات بالمزاد.

وبعد ذلك قيل أن من أطلقوا النار على غورو هم خليل علي مريود وشريف شاهين ومحمد طاهر وصادق حمزة وادهم خنجر وكانوا جميعا ممن اشتركوا في معركة ميسلون وفروا إلى شرقي الأردن. وقيل أنه لما بدأ إطلاق النار تمدد غورو في السيارة وتمدد حقي العظم فوقه لحمايته فكان هذا سببا في قربه من الفرنسيين بصورة دائمة.

سلخ كيليكيا عن سورية وهجرة الأرمن

وفي ٢٠/ ١٠/ ١٩٢١ عقد اتفاق أنقرة الذي بموجبه عقد الصلح بين فرنسا وتركيا وأطلق سراح الأسرى وحدد موعد انسحاب الجيوش الفرنسية والتركية إلى خط حدود وأعطيت كيليكيا لتركية وجعلت منطقة اسكندرون بوضع خاص وأصبحت اللغة التركية فيها لغة رسمية.

وهنا بدأت هجرة الأرمن من كيليكيا إلى سورية فقوبلوا في حلب واسكندرونة بالترحاب. في نهاية ١٩٢١ أصدر عورو عفوا عن المحكومين سياسيا فعاد معظمهم من منافيهم.

لجنة كراين

في مطلع نيسان ١٩٢١ حضرت إلى سورية لجنة كراين برئاسة الأميركي شارلزكراين، وكان سبق أن زار سورية في عام ١٩١٩ ، وقد تمت الزيارة الجديدة بوصفه رئيسا للجنة تقصي الحقائق، وقيل أنه جاء بصفته الشحصية. وقد زار أحياء دمشق واستمع إلى الناس الذي أجمعوا على طلب الاستقلال وشاركت النساء في مظاهرة توديعه الكبيرة مما حمل الفرنسيين على منع التجول.

طرائف...

وقبل أن نسترسل في الحوادث السياسية نذكر أن الموازنة السورية كانت ثلاثة ملايين ليرة سنويا وأن راتب حاكم دمشق كان ٣٩٠ ليرة سورية في الشهر وراتب الوزير ٢٦٠ وراتب مدير الشرطة والصحة ١٦٠ وأن ثمن السيارة كان ٨٠٠ ليرة سورية وتصرف سيارة الوزير في السنة ٤٠٠ ليرة ثمن بنزين مما يستورد في الصفائح التنكية.

أحكام الديوان العرفي

في ١٥ نيسان ١٩٢٢ قبضت السلطة الفرنسية على عدد من رجالات البلاد وسيقوا إلى الديوان العرفي في بناية العابد وصدرت عليهم احكام مختلفة ونفي الجميع إلى جزيرة أرواد حيث حسوا حتى ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٢ فصدر العفو عنهم.

وكانت احكام الديوان العرفي هي الدكتور عبد الرحمن شهبندر ٢٠

سنة، حسن الحكيم ١٠ سنوات، سعيد حيدر ١٥ سنة، عبد الوهاب العفيفي ٢٠ سنة منير شيخ الأرض ١٠ سنوات، خالد الخطيب ١٠ سنوات، توفيق الحلبي خمس سنوات، ونفي أمين سعيد صاحب كتاب الثورة العربية إلى خارج الأراضي السورية.

إنشاء الاتحاد السوري

في ٢٨ حزيران ١٩٢٢ أعلن الجنرال غورو إنشاء الاتحاد السوري بين دول حلب ودمشق والعلويين بنظام نقدي وجمركي موحد، فيرأسه رئيس منتخب لمدة سنة ومعه مستشارون فرنسيون وخمسة ممثلين لكل من الدويلات الثلاث، وتوحد في كل الأراضي السورية قوانين العقارات والملاك والتجارة وأصول المحاكمات، وظلت كل (دولة) تحتفظ بنظامها المالي.

وكان المجلس المؤقت الذي ألف في هذا التاريخ يضم: محمد علي العابد وعطا الأيوبي وفارس الخوري والشيخ طاهر الأتاسي وراشد البرازي عن (دولة) دمشق السابقة، وصبحي بركات وغالب ابراهيم باشا ورشيد المدرس والشيخ حسين اورفلي واسكندر سالم عن(دولة) حلب، وجابر العباس واسماعيل هواش واسماعيل جنيد وعبد الواحد هارون واسحق نصري عن (دولة) اللاذقية وفي اليوم التالي ٢٩ حزيران انتخب المجلس صبحي بركات رئيسا له.

وما يلفت النظر أن (دولة) جبل الدروز استثنيت من الدخول في الاتحاد.

صك الانتداب

وفي ٢٤ تموز ١٩٢٢ أقر مجلس عصبة الأمم في اجتماعه بلندن صك الانتداب الذي وضعته الحكومة الفرنسية وفيه تعهد فرنسي بوضع دستور للبلاد خلال ٣ سنوات بينما تظل العلاقات الخارجية بيد السلطة المنتدبة. ونص كذلك على تمتع الجانب الفرنسي بامتيازات، وجعلت اللغة الفرنسية إلى جانب العربية لغة رسمية.

بذلك تكون عصبة الأمم لم تراع رغبة الوطنيين بالاستقلال رغم استلامها مذكرة مؤتمر جنيف الوطني ورغم أن فرنسا خالفت نظام الانتداب بالتنازل لتركيا عن اجزاء من الأراضي السورية.

اتفاقية المصرف السوري

في مطلع آب ١٩٢٢ عقد السيد صبحي بركات رئيس الاتحاد والسيد اوبوار وكميل حالك عن دولة لبنان وتوفيق الأطرس ممثلا لحكومة جبل الدروز من جهة، وموريس بيدار عن بنك سورية الذي هو شركة مساهمة فرنسية مقرها باريس، اتفاقية لإصدار اوراق النقد السوري بمقدار ٢٥مليون ليرة سورية.

الجنرال ويغاند - الوحدة السورية

في مطلع نيسان ١٩٢٣ : انتهت مهمة غورو في سورية ولبنان فغادرهما وعين محله الجنرال ويغاند مفوضا ساميا جديدا وقائدا أعلى للقوات الفرنسية

في سورية ولبنان. وحضر في ٩ أيار وطاف معظم المدن التي قدمت له مطلب تحقيق وحدة البلاد.

في ٥ كانون الأول ١٩٢٣: أصدر ويغاند قرارا بحل الاتحاد السوري وإقامة وحدة بين دولتي دمشق وحلب اعتبارا من اول كانون الثاني ١٩٢٥ (أي بعد سنة) وعلى أن تعود مقاطعة اللاذقية مستقلة عن حكومة سورية ويحكمها حاكم فرنسي مرتبط بالمفوض السامي مباشرة، وعلى أن يفك لواء اسكندرون عن حلب ويربط مباشرة برئيس الدولة السورية مع بقاء إدارته الخاصة. وسميت دولة دمشق وحلب الدولة السورية وعاصمتها دمشق ورئيسها ينتخب من المجلس التمثيلي ومع الرئيس خمسة وزراء للداخلية والعدل والمالية والمعارف والأشغال العامة مع الزراعة والاقتصاد.

وجُعل للمفوض السامي حق إقرار انتخاب رئيس الدولة وإعلان زوال سلطته وهو الذي يصدق قرارات رئيس الدولة. وعين الرئيس الحالي صبحي بركات رئيسا للدولة حتى ٣١ كانون الأول ١٩٢٧.

في ٢٠ كانون الأول ١٩٢٤ أصدر صبحي بركات قراره بتأليف الوزارة العربية فأخرج منها محمد علي العابد لخلاف شخصي (كان بركات قد عقد قرانه على ابنة محمد علي العابد ثم طلقها وتزوج من فتاة تركية) واستبقى عطا الأيوبي للعدلية ونصري بخاش للداخلية وجلال زهدي للمالية ورضا سعيد للمعارف وحسن عزة للأشغال والزراعة والاقتصاد.

الجنرال ساراي

وفي ٢ كانون الثاني ١٩٢٥ : وصل إلى بيروت الجنرال ساراي خلفاً للجنرال ويغاند، فذهب وفد سوري برئاسة عبد الرحمن الشهبندر لاستقباله وعرض المطالب الوطنية عليه، فطلب منهم تأليف حزب سياسي ليقدم الطلب باسمه.

أول ما قام به ساراي إلغاء الأحكام العرفية المفروضة من١٩٢٠ و العفو عن ٥٠ محكوما وتدشين سياسة الباب المفتوح، وسرعان ماجاءت وفود سورية تعرض عليه مطلب تحقيق الوحدة السورية. كما أصدر في ١٩ كانون الثاني ١٩٢٥ قرارا اعتبر فيه ان جميع التابعين لدولة العلويين ودولة جبل الدروز هم حائزون التابعية السورية.

عم النشاط السياسي البلاد ولكن صبحي بركات استاء منه وبدأ يضيق على الوطنيين وهنا بدأ الوطنيون بالاتفاق مع الشيخ بدر الدين الحسني (الذي كانت له شعبيته) على ان يقاوموا صبحي بركات، فطاف في سورية ومعه ابنه الشيخ تاج الدين وحازا شعبية كبيرة.

زيارة اللورد بلفور لدمشق

٨ نيسان ١٩٢٥ - زار اللورد بلفور دمشق قادما من فلسطين فاستقبل فيها بمظاهرة عدائية صاخبة تهتف باسقاط وعده ولم يستطع الشرطيون تفريق المظاهرة. فاضطر المندوب الفرنسي شوفلر إلى مطالبة بلفور بمغادرة دمشق خشية أن تخرج مظاهرة من اليوم التالي أكبر من السابقةبعد تجمع في

المسجد الأموي فاضطر بلفور إلى مغادرة الفندق من باب خلفي وبحراسة القوات الفرنسية وحاولوا تفريق الناس بالقوة فسقط قتيلان وجرح عشرون وأغلقت دمشق حدادا على شهدائها .

المطالب السورية

تركزت المطالب الوطنية السورية التي قدمت للجنرال ساراي في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٥ على المطالبة بالوحدة السورية ، وإيجاد مجلس نيابي تشريعي منتخب وإطلاق حرية الصحف والرأي وإلغاء المحاكم الأجنبية وربط الأوقاف بالحكومات المحلية وكذلك الخط الحديدي الحجازي وحصر الكنوز التاريخية الناشئة عن الحفريات الأثرية بمتاحف البلاد ، وانتقاد نظام النقد الجديد الذي أخذ من البلاد كل ثروتها من الذهب وإطلاق البلاد من الحواجز الجمركية وتحديد الامتيازات المعطاة للشركات الأجنبية وإلغاء ضريبة الضمانة الكيلو مترية المفروضة على الخط الحديدي ، وإفساح المجال أخيرا أمام الأحزاب الوطنية .

الأحزاب السورية

ونتيجة لإلغاء الأحكام العرفية وقول ساراي للوطنيين اذهبوا فأسسوا حزبا ، تأسست الأحزاب التالية :

حزب الشعب : ومن أعضائه حسن الحكيم ولطفي الحفار وفوزي الغزي وغسان الشريف وتوفيق شامية وفارس الخوري وعبد المجيد الطباع

وابو الخير الموقع واديب الصفدي وجميل مردم وسعيد حيدر وفخري البارودي ونزيه المؤيد والدكتور عبد الرحمن الشهبندر والأخير انتخب رئيسا له وفارس الخوري نائبا للرئيس وافتتح رسميا في ٥ حزيران ١٩٢٥ . وافتتح فروعا له في البلاد السورية .

حزب الوحدة: ومن مؤسسيه شاكر الحنبلي وحبيب كحالة والدكتور مصطفى شوقي ولم يكن له نشاط ملموس .

حزب الاستقلال: وهو حزب قديم تأسس في العهد الفيصلي ومن أبرز اعضائه شكري القوتلي ونبيه العظمة وعادل العظمة وخير الدين الزركلي ومحمد النحاس وخالد الحكيم. وكان بينه وبين حزب الشعب حساسية .

الصحافة السورية

كانت جميع الصحف قد توقفت عند دخول الفرنسيين عدا (فتى العرب) لصاحبها معروف الأرناؤوط ثم صدرت صحيفة (المقتبس) لمحمد كرد علي وكانت الصحيفتان تخضعان لرقابة دائرة الاستخبارات الفرنسية التي تحذف الكثير من أخبارهما ثم أنشىء مكتب للصحافة في المندوبية. وفي أيام ويغاند خففت الرقابة بعض الشيء. وفي ٢٢ نيسان ١٩٢٤ صدر قانون جديد للمطبوعات .

وإبراز الصحف والمجلات الأخرى هي(الف باء) التي أسسها يوسف العيسى في ١٩٢٠ و(العمران) التي أسسها الياس قوزما وقبلان الرياشي في ١٩٢٠و(ابو نواس) العصري التي أسسها امين سعيد في عام ١٩٢٢

و(الفيحاء) التي اسسها قاسم الهيماني وشفيق شبيب في ١٩٢٧ و(حط بالخرج) وأصدرها هاشم خانكان في ١٩٢٤ ، إضافة إلى المجلات الرسمية : المجمع العلمي والشرطة والعاصمة .

وفي حلب صدرت صحف (الأمة) بطرس معوض ١٩٢٠و(سورية الشمالية) انطون يوسفاكي شعراوي ١٩٢١ و(الوقت) طاهر سماقية بالعربية والتركية ٢٦/ ٣/ ١٩٢٥ و(الكشاف العربي) عبد القادر الشوا ١٩٢٤

وفي اللاذقية صحف : (اللاذقية) لعبد الحميد حداد وصبحي الطويل ١٩٢١ و(الصدر العلوي) لعابد جمال الدين١٩٢١ و(النحلة) لمصباح شريتح- ١٩٢٢ و(العلوي) مصري زادة وبرهان الدين بلش ١٩٢٣ .

وفي حمص (فتى الشرق) أديب الساعاتي ١٩٢١ و(صدى سورية) نسيب شاهين ووهبة المبيض- ١٩٢٢ و(جادة الرشاد) حنا خباز- ١٩٢٣

الفصل الثاني - الثورات

لم يكف الشعب السوري الشجاع عن الثورة منذ عام ١٩١٨ .

١- ثورة الشيخ صالح العلي : ففي ١٥/ ١٢/ ١٩١٨ بدأ الشيخ صالح العلي ثورته في الساحل على أثر نزول الفرنسيين في طرطوس وقد عقد مؤتمرا اول للسكان الثائرين في قريته قلعة الخوابي ثم في قرية الشيخ بدر، وكانت معارك ضارية اهمها معركة الشيخ بدر الأولى في ١٥/ ١٢/ ١٩١٨ والثانية في ٢/ ٢/ ١٩١٩ ومعركة خان عطا الله والهجوم على اللاذقية، ومعركة (بزفتا) ومعركة(بابتّا) ومعركة (وادي دردر) في ١٥/ ٦/ ١٩١٩؛ ثم احتلال الثوار للمرقب (٢١/ ٧/ ١٩١٩) ومهاجمة طرطوس (٢/ ٢/ ١٩٢٠) ومعركة القدموس (٣/ ٣/ ١٩٢٠) ومعركة السودا (آذار ١٩٢٠) ومعركة كوكب الهوا (٢٥/ ٥/ ١٩٢٠) ومعركة خربة الريح ومعركة وادي العيون ثم مهاجمة بانياس واحتلالها في ليلة ٣-٤ تموز ١٩٢٠، ثم معركتا الشيخ بدر الثالثة والرابعة والهجوم على مصياف في منتصف كانون الأول١٩٢٠ ومعركة وادي جهنم التي مزقت جيشا فرنسيا من ثلاثة آلاف جندي ومعركة الدويلية في ٢٣/ ١/ ١٩٢١ ومعركة الديميس ومعركة رأس قاسم ومعركة البودي في ١٥/ ١/ ١٩٢١ ومعركة الاجرد قبلها بخمسة أيام واحتلال الثوار لجبل قرفيص والهجوم على مدينة جبلة في أيار ١٩٢١ ومعارك كثير ة مختلفة من الساحل. وكان الشيخ صالح العلي يقود هذه المعارك بشجاعة وبراعة يعاونه ضباط.من الجيش العربي الفيصلي ويمده فيصل بالمال والعتاد وزاره يوسف العظمة وزير الحربية منذ بداية الأعمال كما نسق

جهوده مع جهود الزعيم الثائر ابراهيم هنانو في معارك مشتركة. وقد رأينا ان معونة حكومة فيصل للشيخ صالح العلي كانت من بنود الاحتجاج الذي قدمه غورو تمهيدا لاحتلال دمشق في إنذاره حيث وصف الشيخ صالح بأنه (بطل الفوضى والبغضاء وقد سوعد مساعدة فعلية ومستمرة في جبال النصيرية..) وقد ظل الشيخ صالح يقاتل حتى بعد أن احتلت دمشق وانقطعت عنه المعونة بالسلاح وآخر معاركه في تموز ١٩٢١. وقد حكمت عليه السلطة الفرنسية بالإعدام ولكنها من اجل تهدئة الوضع وبعد أن عجزت عن القبض عليه رغم انتهاء الثورة وملاحقته أكثر من سنة عادت فأصدرت عفوا خاصا عنه وعن رجاله وأذاعت العفو بنشرات القيت من الطائرات، فقرر الاستسلام لينقذ القرى والناس من الهدم والتقتيل. وحين تقدم ليستسلم للجنرال (بيّوت) متأخرا عن الميعاد سأله الجنرال: لماذا تأخر؟ فأجابه: "والله لو بقي معي عشرة رجال مجهزين بالسلاح والعتاد الكافيين لمتابعة الثورة لما تركت ساحة القتال.". ثم اعتكف حتى هاجم الفرنسيون المجلس النيابي في ٢٩ أيار ١٩٤٥ فأرسل عندئذ برقية يقول فيها للفرنسيين "أن سيوف المجاهدين تتململ في الأغماد...". وتكون ثورته قد دامت سنتين وسبعة أشهر وتعتبر من اكبر الثورات بجدواها وتنظيمها ومئات الشهداء الذين سقطوا فيها وما حققته من ضربات بجيش فرنسي من اقوى الجيوش في العالم. وقد عاش الشيخ صالح العلي وكرّمته الحكومات الوطنية المستقلة حتى توفي في ١٣ نيسان ١٩٥٠.

٢- ثورة حوران: وقد سبق ذكرها في الصفحة (٥٦).

٣ - ثورة ابراهيم هنانو في الشمال

عندما احتل الفرنسيون الساحل السوري ظهرت في مناطق انطاكية والحمامات والعمق وباب الهوى مجموعات من المجاهدين بقيادة السيد صبحي بركات وكانت تهاجم قوافل الفرنسيين وتمنع تقدمها باتجاه لواء اسكندرون. وكان الزعيم ابراهيم هنانو احد الثائرين على فرنسا في منطقة جبل الزاوية وقد اتفق مع صبحي بركات فجمع المتطوعين ووزع عليهم الأسلحة التي كانت تصله من الملك فيصل ومن الجيش التركي الموجود في كيليكيا لتحرير حارم وانطاكية، وفي آخر تشرين الثاني ١٩١٩ دخل هنانو انطاكية وألف فيها حكومة عربية ولكن الجنرال اللنبي والأمير ناصر طلبا منه الحضور الى حلب فاستطاعت القوات الفرنسية ان تدخل انطاكية وتنزل العلم العربي عنها.

ودعا ابراهيم هنانو الى اجتماع عام يضم وجهاء اقضية ادلب وكفرتخاريم وجسر الشغور وحارم فحضروا جميعاً واتفقوا على الثورة لتحرير الشمال من الاستعمار الفرنسي. وقد جرت المعارك التالية:

١- معركة حارم

في ١٨ نيسان ١٩٢٠ إذ حاصر ٤٠٠ مجاهد قلعة حارم ٩٥ يوماً حتى جاءت نجدات فرنسية وفكت الحصار.

وبينما هنانو يضيق الخناق على الفرنسيين استسلم صديقه صبحي بركات لهم (وفيما بعد اسندوا رئاسة الاتحاد السوري اليه كما جاء من قبل). ولكن الثورة لم تضعف.

٢- معركة كفر تخاريم

وفي ١٣ آب قامت حملة فرنسية كبيرة بمهاجمة كفر تخاريم في غياب هنانو واعدم عدد من الثوار.

٣- معركة جسر الشغور

وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٠ تمكن هنانو وقواته من احتلال جسر الشغور لفتح طريق بين ثورته وثورة الشيخ صالح العلي. وقد اسروا ٢٥ جنديا فرنسياً.

٤- معركة سلقين

في ١٠ كانون الاول ١٩٢٠ جرت معركة سلقين ودحر هنانو القوات الفرنسية عنها وعين نجيب عويد حاكماً لها.

٥- معركة ميرامين

وقد استبسلت فيها القوات الثائرة وشتتت الحملة الفرنسية التي كان يقودها الكابتن غوي.

٦- معركة جبل الاربعين

في ٣٠ نيسان ١٩٢١ هاجمت القوات الثائرة مدينة اريحا واسرت مجموعة من الجنود الفرنسيين واسر الفرنسيون عشرين مجاهداً وبعد مفاوضات جرى تبادل الاسرى بين الطرفين (وسيأتي ذكر ذلك في محاكمة هنانو).

٧- معركة ادلب

في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢١ بهجوم الثوار على حامية ادلب وايقاعهم خسائر كبيرة بها مادية وبشرية .

٨- الهجوم على حلب

وقرر هنانو الهجوم على حلب ولكن عندما وصلت القوات الى قرب ادلب هاجمتها الطائرات بشدة .

وبدأ زحف فرنسي على المنطقة من انطاكية ووقعت فرنسا معاهدة مع الأتراك انتهى بها حصول المجاهدين على اسلحة من تركيا ، وجاءت القوات الفرنسية المنسحبة من كيليكيا ترفد القوات الأخرى ، فرأى هنانو أن يعود عن مشروع الدخول إلى حلب وتحصن في معاقل الجبال .

وهنا بدأت مرحلة انحسار الثورة التي يقص حديثها ابراهيم هنانو بنفسه على الصحفي المجاهد منير الريس ، وقد اقتبستها لكم من كتاب منير الريس عن الثورات السورية وهو كتاب قيم جداً ومثير للمشاعر . **قال هنانو :**

هنانو يتحدث

بعد أن عقدت فرنسا معاهدة مع تركيا تنازلت لها فيها عن اجزاء من كيليكيا وبذلك تحرر الجيش الفرنسي من المناوشات مع الأتراك ، تحولت فرنسا لاخماد ثورتنا في الشمال . وتعددت المعارك وكتب لنا النصر في عدد منها بفئتنا القليلة وسلاحنا الهزيل ، حتى نفذت منها الذخيرة ولم يبق حولي

من الرجال إلا القليل. فجمعت البارزين من إخواني وحدثتهم عن الموقف المتدهور وأن الاستمرار انتحار، وكنت قد أرسلت عددا من إخواني اعضاء المؤتمر الوطني السوري المقيمين في عمان أسألهم هل أستطيع أن أجد العون لأستأنف الثورة من الجنوب، فجاءني الجواب أن أنسحب مع من معي الى شرقي الأردن، فعرضت الأمر على إخواني فوافق فريق وعارض فريق لطول المسافة بين سورية وشمال الأردن فافترقنا وانحدرت بمن معي عن طريق الأراضي الوعرة في قضاء المعرة، وكنا نكمن في النهار ونمشي شرقا في الليل حتى اصبحنا شرقي السلمية وعددنا ثمانون مسلحا أكثرنا من المشاة وبينهم عدد من الألمان والبلغار من ضباط وجنود الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي الذين كانوا التحقوا بالثورة السورية وربطوا مصيرهم بمصيرنا. في الليل ومن قرية شرقي السلمية جاءت رسالة من الكابتن فوزي القاوقجي الضابط في جيش الشرق، وكان من كبار الوطنيين، وكان يعلمني أنني وقواتي مطوقون بالقوات الفرنسية وقوات البادية.

وكان القاوقجي يهيء الثورة ضد الفرنسيين ويراسل من يتعاون معه. هنا اصدرت امري بالرحيل قبل أن نتناول الطعام الذي كان يعد لنا وسرنا في البادية حتى منتصف الليل.

ولما أفقنا في الصباح لم نجد دليلنا فقد كان هرب، وبعد قليل استكشفنا بالمنظار قوة من الفرسان تلاحقنا. فلجأنا الى أرض وعرة نصبنا فيها الرشاش الثقيل الذي كنا نحمله، ولكننا ما كدنا نفعل حتى سطع الغبار من كل الجوانب ودهمتنا الخيل بكل سرعة فلا يجدي الرشاش في دفعها.

وجرني فارس من إخواني فانطلقت بجوادي وكان من أكرم الخيول العربية وأنا اطلق النار من مسدسي البرابللوم. ورأيت بجانبي صبحي حليمة وكان فارسا من رفاقي فانطلقنا والمهاجمون يلاحقوننا حتى كادت الخيل تسقط من الاعياء ونحن في شهر تموز، فاتجهنا نحو تل واتخذنا موقعا فيه. وإذا بالمطاردين يقفون ويتشاورون وقد رأوا اننا مستميتان، فعادوا أدراجهم.

وفي تلك اللحظة نفقت فرس صديقي، فاقترحت عليه أن نتناوب على راحلتي ثم نتجه إلى الغرب حيث المعمورة إذ لا أمل لنا من الصحراء وجلسنا ننتظر في الأصيل إلى أن ينعشنا برد الليل. وفعلا نشط جوادي وتناوبنا ركوبه حتى بلغنا مكانا كثير الشجر عرفنا أنه جبل البلعاس شرقي السلمية. وبعد ان استرحنا قمنا فسرنا في الضحى حتى بلغنا بئرا شربنا منها وسقينا الجواد وأوينا الى كهف نستظل به ولكن نحس الجوع.

بعد الظهر فوجئنا ببدوي يدخل الكهف علينا فلما رآنا انطلق يعدو ويصيح ويدعو الرعاة الذين كانت مواشيهم تقصد البئر وكانوا مسلحين. فقلت لرفيقي ابق في مكانك وانا أنطلق بالجواد وبسلاحينا وأنت يعاملونك بالحسنى لأنك غير معروف أما انا فمسألة أخرى.

وامتطيت الجواد وانطلقت به والرصاص يلاحقني حتى غبت عن انظارهم. وقبيل الغروب لا حت لي خيام تتجه إليها قطعان الماشية فاضطررت أن أعرّج نحوها إذ كنت في امس الحاجة إلى الزاد. ولما قصدت بيت الكبير في العشيرة وكنت ارتدي القلبق الشركسي أخذ الجواد مني وأكرموا وفادتي.

واضطررت بعد مداورة الى أن أقول أنني ضابط شركسي من عمان فار من الجيش التركي وأخشى أن يقبض الفرنسيون علي ويسلموني إلى الحكومة التركية، ورجوت مضيفي أن يساعدني في الوصول الى الأردن حيث أهلي أغنياء ويجزونه خير الجزاء. فأظهر الاقتناع ولكنه طلب مني ان انتقل الى بيت صغير لأن بيته مقصود من رجال قوة البادية، فذهبت إليه وهناك طلب مني أن اخلع ثيابي وأرتدي ثوبا عربيا عتيقا ورأيته يقلب بين يديه منظاري وسوطي وكانت قبضته من الفضة فأعطته إياهما وقلت خذ المسدس أيضا فلم يقبل وقال أنه يلفت النظر.

وبقيت اياما وهو يعتذر بأنه لم يجد الدليل المناسب. وهنا اخرجت حزامي وفيه أكثر من مئة وعشرين ليرة ذهبية فرميت له عشرا منها، فوجدت أنه وزوجته قد التمعت عيناهما نهماً فألقيت إليهما بالحزام كله، فخرجا وأنا امنت من ان يغتالاني بعد ان أعطيتهما كل ما معي.

ولكنني بعد يومين جاء هذا الرجل يقول انه عجز عن إيجاد دليل ويرى أنه لسلامتي وسلامته يجب ان اغادر الحي. فقلت له بعد أن أعطيتك كل مالي؟ فأخذ ثلاثة دنانير وألقاها إليّ وقال لي قم وارحل عن الحي. فقلت له هذه لا تكفي لإطعام دابتي فشفعت لي زوجته فأعطاني حتى صار معي بضعة عشر دينارا استرددتها من مالي، فأسرجت حصاني وانطلقت بعد ان أخذت منه قماشا عتيقا سترت به السرج وكوفية عتيقة ربطتها فوق رأسي، وركبت جوادي حافي القدمين ومعي المسدس فقط لأنه رفض أن يأخذه. ولكزت الجواد نحو الغرب وأنا ألعن الساعة التي وقعت فيها بين يدي هذا البدوي

عديم الذمة الطماع وصرت اجتنب المعمورة. وصادفتني ساقية فشربت مع الجواد ثم مرغت قدميّ وساقيّ وذراعيّ بالطين حتى لا تعرف ملامحي وكذلك فعلت بالجواد.

وفي وقت الظهيرة دخلت حمص من جهة الشرق وبلغت حي الخالدية الذي أكثر أهله فقراء. خطر لي أن أطرق باباً لأودع فيه حصاني لقاء أجر ثم التسلل الى الجامع أقضي النهار فيه مصليا في زاوية من الباحة أو الحرم وفي الليل أتسلل الى صديق لي من كبار العائلات في حمص كان من أعضاء المؤتمر السوري لعله يعينني في الوصول إلى شرقي الأردن.

وطرقت باباً يدل على فقر صاحبه ففتح لي شاب وسألته إن كان يمكن لي أن أربط جوادي لديه لقاء أجر ريثما أذهب إلى المدينة فأقضي حاجتي وأعود. قال الشاب أهلا وسهلا بالعم وتستطيع أن تستريح وتبيت عندنا أيضا. ادخل أولا، واسترح فالوقت حر وانت في دارك بين أهلك.

شجعني كلام الشاب فترجلت وقاد الحصان إلى مربط في صحن الدار وأخلني إلى غرفة ظليلة وفرش لي حصيرة ووسائد لأجلس وانام. ثم انتبه إلى قذارتي فقال لي ما رأيك يا عم بحمام بارد في عتبة هذه الغرفة وسآتيك بثياب ريثما تغسل ثيابك. ولم يترك لي مجالا للاعتراض وجاءني بصفائح من الماء البارد سحبتها من البئر امرأة عرفت أنها امرأة اخيه. فاغتسلت ولبست ثيابا يعبق منها أريج النظافة وأعطيت الشاب دينارا ورجوته أن يذهب فيهيْ لي ببعضه غداء من السوق وعليقا لجوادي فلبى الطلب ونمت هادئا.

عند الأصيل فتح باب الدار ودخل رجل بقنباز وكوفية وعقال أدركت أنه صاحب البيت ويظهر أن زوجته لوحت له من المطبخ حيث نقل الجواد فخفّ إليه وتميز الجواد ودار حوار بين الزوجين ثم عاد إليّ وسألني السؤال التقليدي: من اين ديرة الضيف؟ قلت من جهات المعرة يا أخ، سرقت لي اغنام فركبت في أثرها إلى البادية لأستردها ولكن قطاع الطرق سلبوني ملابسي حتى رماني القدر في داركم. قال لي ولكن جوادك أيها الصديق هو جواد الزعيم ابراهيم هنانو وتنطبق عليه اوصاف البدو والجنود الذين طاردوا عصابته. فهلا صدقتني القول وطمأنتني عن سلامة الزعيم؟ وبانت اللهفة والصدق في عينيه فكان لا بد من اطرح أكذوبتي الأولى. قلت ومن أين عرفت أن الجواد هو جواد الزعيم هنانو؟ قال أنا (حمباز) خيل قضيت عمري في هذه المهنة والناس كلهم اليوم يلهجون بقصة ابراهيم هنانو وجواده الذي أنقذه من كل خيول البادية التي طاردته طمعا بالجائزة التي منت بها فرنسا شيوخ العشائر، والألسنة كلها تلهج بالدعاء إلى الله أن يحفظ الزعيم فلا يهلك جوعا وعطشا في الصحراء القاحلة ولا يقع في يد الفرنسيين أعدائه وأعداء البلاد. فهلا أخبرتني صدقا إن كان هذا حصانه وطمأنتني عنه؟

فقلت له طب نفسا فهذا حقا حصان هنانو وانا رفيقه الذي نجوت معه وهو الآن في حرز حريز ومكان أمين ولا خوف عليه، وقد أوفدني إلى حمص في مهمة فهل أنت مستعد لمساعدتي؟ قال إن روحي فداؤه أنا وبيتي وزوجي وأخي وكل أسرتي.

فاغرورقت عيناي بالدموع من صدق الرحل وإخلاصه، وأدركت ان في

نفسي مما لقيته عند شيخ بني خالد الذي هو أبعد ما يكون عن شيم العرب. [1] ولم أجد بداً امام الإكرام والصدق من ان اعترف لمضيفي بأنني أنا ابراهيم هنانو فانكب عليّ يقبل قدمي من شدة الفرح وانا أرفعه عنها. ولما طلبت منه أن يسهل اتصالي بذلك الوحيه الذي سميت له اسمه غضب وقال: مالنا ولهؤلاء الأفندية الذوات؟ نحن الفقراء لا نطمئن إليهم. وأنا الفقير جمباز الخيل مستعد لأن أبذل روحي في سبيل وصولك إلى المكان المعين. "

وأقف هنا عن سرد بقية القصة وألخصها بأن هذا المضيف الوطني الذي أظهر كل النخوة ذهب فاشترى لهنانو ثيابا أظهرته في مظهر وجيه من أغوات قضاء عكار، وصبغ قوائم الجواد وغيّر من هيئته المشهورة، وسار معه إلى دمشق وصادفتهما حوادث طريفة في الطريق، وكان هذا الجمباز في الطريق يغني المواويل ويشرب العرق، حتى أوصله بعد مغامرات إلى الغوطة ومنها ذهب إلى شرقي الأردن. فلما وصل إليها هنانو بعد كل هذه المشقات والمغامرات قبض عليه الانكليز كانوا قد منذ وقت قريب اتفقوا مع الفرنسيين لتسليم المطلوبين السياسيين، وسلموه إلى السلطة الفرنسية التي بدأت محاكمته.

---

(١) سألت من يعرف البدو معرفة وثيقة فقال لي أن هذه الجماعة ليست من البدو الأصلاء، وأن البدو لا يمكن أن يسلموا ضيفهم ولا جارهم، وأن هؤلاء الناس من الرعاة الذين لايؤمن جانبهم فسررت من هذا الإيضاح- المؤلف.

محاكمة هنانو

ولعلي لم أجد، في كل ما قرأت، أمتع وأكثر إثارة للانفعال من الصفحات التي كتبها المحامي الكبير فتح الله الصقال عن محاكمة الزعيم ابراهيم هنانو وكان تولى الدفاع فيها. فتح الله الصقال توفي تاركا وراءه أثرا عطرا يتجلى في كتابه (من ذكرياتي في المحاماة) الذي أراه مدرسة في العلم والخلق والسلوك فأستأذن ذكراه العزيزة في أن أنقل منه هذه الصفحات التي كتبها عن هنانو ملخصة بعض الشيء لضيق المجال، وفيها صورة للمحامي الشريف البارع تليق في ميدانها بصورة هنانو في النضال:

في أوائل شهر تموز ١٩٢١، نشرت الجرائد السورية خبرا مفاده، أن اتفاقا عقد بين المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان، وبين المفوض السامي الانكليزي في فلسطين، بشأن تبادل المجرمين في كل من البلدين.

ولم تمض بضعة أيام على هذا الاتفاق، حتى أذاعت الجرائد نفسها، أن السلطة البريطانية في فلسطين، ألقت القبض على ابراهيم هنانو وسلمته إلى السلطة الفرنسية. وكان هنانو قد لجأ إلى الأراضي الفلسطينية، هربا من الفرنسيين الذين بثوا عليه العيون والأرصاد في كل مكان.

وفي منتصف شهر آب ١٩٢١، شاع في أربعة أطراف المدينة، أن ابراهيم هنانو وصل إلى حلب موقوفا، وأودع السجن العسكري، وكان يومئذ في الخان المعروف بـ " خان استانبول ".

وفي صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٢١، وردت إليّ تذكرة بإمضاء النائب العام العسكري الفرنسي، وفيها انه يسمح لي بمقابلة المتهم ابراهيم هنانو، بصفتي وكيلا عنه، فاستغربت وصول هذه التذكرة إليّ، لأنه لم يفاتحني بهذا الصدد أحد، ولأنني لم أعرض نفسي على أحد. ومهما يكن من امر، فقد رأيت أن أتوجه إلى السجن، لأتحرى الأمر بنفسي.

ولما سار بي مدير السجن إلى غرفة ابراهيم هنانو وكانت صغيرة وقد وضع فيها، وحده بادرني بقوله: أأنت الأستاذ فتح الله؟ فأجبته: نعم فقال: نعم الاسم، لقد اخترتك وكيلا عني، بعد أن اختارك أيضا النائب العام وكيلا عنه.

فقلت له: أشكر لك ثقتك بي، ولكن لم أفهم لتوكيل النائب العام معنى، وهو الخصم الأكبر في قضيتك.

فابتسم هنانو وقال: لقد عرض علي كثيرون من زملائك أن يدافعوا عني، فاحترت في أمري، وفجأة خطر لي أن أستحلف النائب العام بشرفه العسكري أن يدلني على المحامي الذي يختاره هو فيما لو كان متهما مثلي. وقد رفض النائب العام في بادىء الأمر أن يجيب على سؤالي هذا، ولكنه ما لبث أن أسر في أذني، أنه لو كان متهما، لاختارك أنت للدفاع عنه.

فشعرت فورا بأنني أمام رجل ذكي النفس، صلب العقيدة، قوي الإرادة، وكانت عيناه تشعان بنور غريب، وتكادان تقذفان شررا. وبعد أن تم التعرف بيننا على هذا الشكل المبتكر، بقيت بقربه ساعتين كاملتين قص علي خلالهما قصة كفاحه العنيف، ونضاله في سبيل أمته وبلاده.

ثم صعدت إلى مكتب النائب العام، فشكرت له ثقته بي، وتمنيت ألا يقع يوما في قبضة القضاء العسكري لكيلا أضطر إلى ان أدافع عنه فضحك طويلا، ثم قال لي بلهجة رزينة صادقة: سنكون خصمين شريفين، لأنني سأقوم بما يفرضه علي الواجب، وستقوم أنت بواجبك نحو موكلك واحد مواطنيك. وإذا وفقك الله وانتصرت علي، فسأكون اول من يهنئك وها انا أضع الآن بين يديك ملف الدعوى، لتطالعه وتلم بما يتضمنه من وقائع.

وبعد ان محصت الأوراق تمحيصا دقيقا، اتضح لي جليا:

١ - أن حربا على الأصول، دارت بين الجيش الفرنسي من جهة، وبين هنانو ورجاله من جهة اخرى.

٢ - أن هنانو قابل الجنرال جوبو، قائد الحملة الفرنسية ضد الثورة السورية، ليتفق معه على شروط الهدنة.

٣ - أن هدنة عقدت بين الطرفين، مرتين متواليتين.

٤ - أن الفريقين تبادلا الأسرى.

بعد دراسة دقيقة عميقة، توصلت إلى النتيجة التالية، وهي أنه ليس هناك ما يبرر اعتبار هنانو مجرما عاديا، حتى ولايمكن أن يعد مجرما سياسيا. وحين تبلور رأيي على هذا الشكل واقتنعت بنظريتي هذه زرت إبراهيم هنانو، وكان يترقب مطالعتي القانونية بكثير من الشوق واللهفة.

فقلت له ما خلاصته: لا يجوز اعتبارك مجرما عاديا ولا مجرما سياسيا، وهذه النظرية لا تقبل أي ريب، ولا تتحمل أي شك. ولكن هناك أمرا خطيرا، وهو ان حاكمك خصمك.

والمعروف أن المحاكم العسكرية تتأثر بالعاطفة اكثر مما تتأثر بأحكام القانون. ولهذا، فقد رأيت قبل كل شيء أن أسعى لدى الجنرال غورو- وكان وقتئذ مفوضا ساميا للدولة المنتدبة وقائدا عاما للجيش الفرنسي ورئيسا أعلى للقضاء العسكري - لأوقف سير تلك الدعوى المحفوفة بالمخاطر.

وعملا بهذه الخطة، فقد أرسلت إلى الجنرال غورو - بواسطة الجنرال ده لا موت مندوبه في حلب - كتابا بينت فيه باسهاب أن ابراهيم هنانو، لا يمكن ان يعتبر مجرما عاديا حتى ولا مجرما سياسيا، لأسباب جمة منها:

آ - أن هنانو قام بثورته، مطالبا بحرية بلاده، والمطالبة بالحرية لا تعد جرما، بل حقا طبيعيا اعترفت به الدول الكبرى، منها اميركا بلسان رئيسها "ولسن" الذي اشتهر ببنوده الأربعة عشر.

ب- أن السلطة العسكرية الفرنسية نفسها، اعترفت بأن هنانو ورجاله يشكلون طرفا محاربا.

جـ- أن هنانو قابل الجنرال جوبو، قائد الحملة الفرنسية ضد الثورة السورية، ليتفق معه على شروط الهدنة.

د - أن السلطة العسكرية الفرنسية عقدت مع هنانو اتفاقين لإجراء هدنتين.

هـ - أن السلطة العسكرية الفرنسية اتفقت مع هنانو، على تبادل للأسرى.

ثم أشرت إلى أن إلقاء القبض على هنانو في فلسطين، وتسليمه إلى السلطة الفرنسية في سوريا، يخالف قواعد القانون الدولي.

ولهذه الأسباب الوجيهة، طلبت ان يعاد هنانو إلى فلسطين، أو ان يطلق سراحه في الأراضي السورية.

وبتاريخ / ١١/ تشرين الثاني ١٩٢١ وصلني من الجنرال ده لا موت كتاب جاء فيه ان هنانو متهم بجرائم عادية لا بجرائم سياسية، وأنه لا بد من السير في الدعوى وانتظار نتيجة التحقيقات.

وظلت التحقيقات بعد ذلك تجرى في مجراها الطبيعي مدة ستة أشهر، فكان النائب العام العسكري يستمع إلى رهط من الشهود لإثبات التهم المنسوبة إلى هنانو. وكنا نحن نقدم الشهود تلو الشهود لنبين أن هنانو لم يقم إلا بعمليات حربية تجيزها الحرب.

ولما اقترب التحقيق من نهايته، رأينا ان نعيد الكرة لدى الجنرال غورو، عسى ان نحول دون إصدار القرار القاضي بإحالة هنانو إلى المحكمة العسكرية.

وبتاريخ ٤ شباط ١٩٢٢، بعثنا إلى الجنرال غورو - بواسطة نائبه بحلب الجنرال رينو الذي كان حل محل الجنرال ده لا موت - بكتاب جديد طلبنا فيه أن تطبق على هنانو المادة الخامسة من إتفاقية أنقرة، تلك الاتفاقية التي عقدت بين فرانكلين بويون مندوب الحكومة الفرنسية، والجنرال أتاتورك النائب عن الحكومة التركية. والمادة المذكورة أعلنت العفو العام عن جميع الجرائم السياسية التي ارتكبت أثناء العمليات الحربية.

وبعد أيام، استدعاني الجنرال رينو، وأخبرني أن القضية أصبحت بين يدي السلطة القضائية العسكرية، وانه لا بد من انتظار قرارها.

وفي مطلع شهر آذار ١٩٢٢ ، تبلغنا أن المحاكمة ستبدأ في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر نفسه في دار الحكومة "السراي القديمة" ، وفي الغرفة المعدة لمحكمة الجنايات الأهلية، وهي غرفة واسعة فيها منصة عالية يجلس عليها القضاة، وأماكن خاصة للنيابة العامة وللمحامين، وقفص واسع للمتهمين.

ولم يبزغ فجر يوم ١٥ آذار ١٩٢٢ ، وهو اليوم المعين للمحاكمة، حتى اصطف الجنود السنغاليون على جانبي الطريق، الممتد من بناية البريد القديمة إلى مدخل دار الحكومة فقاعة محكمة الجنايات.

وقد غصت جميع الطرق المؤدية إلى مكان المحاكمة، بعشرات الألوف من أبناء الوطن، كما غصت دار العدل بالمتفرجين، من متحاكمين ومحامين ومستمعين. وفي تمام الساعة الثامنة، خرجت الهيئة الحاكمة بألبستها الرسمية وسيوفها اللامعة وكفوفها البيض، وكانت مؤلفة من خمسة أعضاء برئاسة رعيم "كولونيل" وبعضوية مقدم "كومندان " ورئيس "كابتين" وملازم أول وملازم ثان.

وكانت النيابة العامة ممثلة بالكابتن " استاك" ، وهو شاب بهي الطلعة كريم الأخلاق ذو صدر رحب وثقافة عالية. وقبل انعقاد الجلسة بثمانية أيام، أبلغت النيابة العامة بأننا سنقدم مدافعتين ابتدائيتين تهدفان:

الأولى - إلى إثبات عدم صلاحية المحكمة العسكرية في محاكمة هنانو.

الثانية - وفي حالة رد هذا الدفاع، سنبحث في عدم قانونية تسليم هنانو، إلى السلطة العسكرية الفرنسية.

وإذا ردت المحكمة هذين الدفاعين، واضطررنا إلى الدخول في أساس الدعوى أطلعنا النيابة العامة على أسماء شهود الدفاع.

المرافعة الابتدائية الأولى حول صلاحية المحكمة العسكرية

ولما جلس القضاة العسكريون على مقاعدهم، ساد القاعة سكوت رهيب. ولأول مرة في تاريخ القضاء في حلب، ارتدينا لباس المحامين الخاص، وقد جئت به من القاهرة وهو مأخوذ عن اللباس الذي يرتديه المحامون الفرنسيون، فأصبحت عرضة لأنظار الجمهور المحتشد في قاعة المحاكمة. وما لبث رئيس المحكمة، أن كلفني بإلقاء الدفاع الأول دفاعا استمر ساعة كاملة فنهضت وارتجلت.

خلاصة الدفاع الأول

في هذه الساعة الخطيرة التي تتأرجح فيها حياة رجل، يجب أن يتلاشى من هذا المكان كل ميل وهوى. لأنكم بجلوسكم منذ هنيهة على هذه المنصة، قد فقدتم صفتكم العسكرية الفرنسية، ولم تحتفظوا إلا بصفة القضاة الحياديين. فالقضاة لا يمثلون بلادهم فحسب، ولكنهم يمثلون المجتمع الذي منحهم سلطة رهيبة تخولهم حق التصرف بحياة الغير.

فعليكم ان تسكتوا جميع الأصوات ما عدا صوت الضمير. ذلك الصوت يجب أن يسود هنا، لأنه وحده يستطيع أن يحكم بدون حقد ولا وجل.

إن الرجل الماثل أمامكم، ليس بالرجل الذي وصفه النائب العام، لأن من يناضل عن حرية بلاده ومن يعمل في سبيل هدف سام، دون ان يخشى التضحية بحياته وبأمواله ليقينه انه على حق وسداد، هذا الرجل لا يستحق أن يلقى على هذا المقعد. وإذا كنت استحسنت أن أرافع امامكم عن هنانو فإنه ليسعدني أن أقوم بهذه المهمة في محكمة شعارها العدل والنزاهة والإنصاف، وختمت بأن ليس للمحاكم العسكرية حق النظر في قضية كقضيته.

وأضفت: لقد ناهض هنانو الانتداب الفرنسي، وسيناهض الانتداب البريطاني وكل انتداب اجنبي آخر لاعتقاده أن الاستقلال الناجز يضمن سعادة بلاده، ولاقتناعه بأن سورية جديرة بإدارة شؤون أبنائها بنفسها، وإذا كانت تخلصت من نير الأتراك فليس معنى ذلك أن تقع تحت نير جديد.

إن استقلال سورية الكامل هو المثل الأعلى الذي توخاه هنانو منذ كانت البلاد ترزح تحت نير العثمانيين، وبذل كل جهد لتحقيق أمنيته، ولم يكن وحده بدليل انعقاد موتمر في باريس عام ١٩١٣ رفع فيه الموتمرون أصواتهم القوية مطالبين باستقلال الوطن السوري.

ثم أضفت: إن القوانين لم تسن إلا لتطبق، وعلى هذا أسألكم: هل لكم الصفة التي تخولكم حق محاكمة هنانو وتبتوا في قضيته؟ إن القانون الفرنسي يمنح المحاكم العسكرية ثلاثة أنواع من الصلاحيات في ثلاث حالات: في وقت السلم وعند نشوب الحرب وحينما تعلن الأحكام العرفية.

ففي أيام السلم لا يحاكم أمامها إلا العسكريون. وعند نشوب الحرب يضاف إليهم من تستخدمهم السلطة العسكرية في مختلف مجالاتها، أما في حال إعلان الحكم العرفي فتستأثر بقسم كبير من السلطات الممنوحة للمحاكم المدنية ومنها الجرائم التي ترتكب ضد النظام العام وامن الدولة.

إن الشروط المطلوبة في الحالتين الأولى والثانية غير متوفرة لأن البلاد ليست في حالة حرب ولأن هنانو ليس مستخدما في إحدى دوائر السلطة العسكرية الفرنسية.

بقيت الحالة الثالثة، وهي إعلان الأحكام العرفية، وهذه الأحكام لم تعلن ولذلك فلا أثر لها ولا مفعول.

هنا نهض النائب العام الفرنسي وأجاب على مطالعتنا بقوله أن الأحكام العرفية أعلنت في سورية لدى دخول الجنرال اللنبي وأنها ما تزال سارية لأن الجيوش الفرنسية كانت حليفة الجيوش الانكليزية. ثم اختلت المحكمة نصف ساعة، وعادت وأعلنت باجماع الآراء، صلاحيتها للنظر في قضية هنانو.

ولا بد من الإشارة هنا، إلى ان أعضاء المحكمة العسكرية يصوتون بالطريقة السرية، فلدى كل عضو حجران مستديران يشبهان حجر "فيش" النرد، وقد كتب على احدهما كلمة "نعم" وعلى الآخر كلمة "لا".

وعندما يطرح رئيس المحكمة على الأعضاء السؤال المدون امامه، أي هل تصلح المحكمة للنظر في هذه الدعوى ام لا؟ يضع كل عضو في صندوق صغير مقفل حجرا واحدا من ذينك الحجرين، فيفتح الرئيس الصندوق ويدوّن نتيجة الاقتراع فإما تأتي الآراء بالإجماع وإما أن تكون بالأكثرية.

المرافعة الابتدائية الثانية بشأن عدم قانونية

إخراج هنانو من فلسطين

ولما طلب إليّ رئيس المحكمة أن أبحث في المدافعة الابتدائية الثانية، بشأن عدم قانونية إخراج هنانو من فلسطين، وقفت وبينت الأسباب الداعية، إلى اعتبار هذا العمل مخالفا للقواعد المرعية الإجراء، في القانون الدولي.

وتناول بحثي الأمور الثلاثة التالية:

الأمر الأول فيما يتعلق بالاتفاق المعقود بين المفوض السامي الفرنسي وبين المفوض السامي الانكليزي بشأن تبادل المجرمين فإنه في الحقيقة عقد خصيصا لتسليم ابراهيم هنانو، في حين ان المعاهدات الرامية إلى تسليم المجرمين لا يجوز أن تتم إلا إذا أقرها المجلس النيابي الفرنسي، وصدق عليها رئيس الجمهورية، عملا بالمادة الثامنة من الدستور الفرنسي المؤرخ في ١٦/ تموز ١٨٧٥.

ولما كان المفوض السامي الفرنسي في سوريا ليس رئيسا للجمهورية، ولما كان المجلس النيابي الفرنسي لم يقر تلك المعاهدة، فليس للاتفاق المذكور أية قيمة قانونية، من الوجهة الدولية. وقد أشرنا إلى المعاهدات المماثلة التي عقدت بين فرنسا وبين بعض الدول الأجنبية، بشأن تبادل المجرمين، منها المعاهدة المعقودة مع انكلترا في ١٤ آب ١٨٧٦، ومع الدانمرك في ٢٨ آذار ١٨٧٧، ومع اسبانيا في ١٤ كانون الأول ١٨٧٧ وجميع هذه المعاهدات عقدت بموجب قوانين، صادرة عن المجلس النيابي الفرنسي.

أما الأمر الثاني: فإنه يتعلق بالشخص الذي يسلم من دولة إلى دولة

اخرى فإن لهذا الشخص ملء الحق في ان يطعن امام المحكمة بعدم قانونية تسليمه وفقا للمبدأ الذي أعلنته مؤسسة القانون الدولي في مؤتمرها المنعقد في باريس عام ١٨٩٤، إذ قالت: يجوز أن يدعى أمام المحكمة بأن الأصول المرعية عير متوفرة، وعلى المحكمة ان تتحقق عما إذا كان التسليم قد جرى وفقاللقوانين المبرمة بين الدولة التي سلمت الشخص، وبين الدولة التي تسلمته

وأما الأمر الثالث: فهو ان تسليم المحرمين السياسيين، لا يجوز في أي حال من الأحوال، وفقا للمبادىء المتفق عليها في القانون الدولي.

وقد شرحنا باسهاب الأعمال التي تعتبر جرائم سياسية، منها التمرد على الأنظمة القائمة في الدولة، والسعي إلى هدمها بالعنف، ومنها تغيير العهود السياسية، واستبدالها بعهود نختلف بالشكل والأساس عن العهود القائمة، ومنها تحريض الجماهير على الثورة للوصول إلى الأهداف المنشودة، ومنها التعدي على الأشخاص القابضين على زمام الحكم ومنها الاستيلاء على الحكم بطرق غير شرعية. واستشهدت في ذلك باراء علماء التشريع الجزائي وقد أجمعوا كلهم على انه لا يجوز تسليم المحرمين السياسيين، الذين يلتجئون إلى دولة أجنبية هربا مما ينتظرهم من قصاص في البلاد التي تمردوا عليها وسعوا لتبديل أنظمتها السياسية والاجتماعية.

وقلت أننا إذا استعرضنا الأمور المنسوبة إلى ابراهيم هنانو يتضح لنا جليا أنها لا تتجاوز نطاق الجرائم السياسية، ولكنها تمت بصلة وثيقة إلى الأعمال الحربية، التي تجيزها الحروب.

وحلصت إلى القول، أن تسليم هنانو مخالف للأصول القانونية

والدولية المتبعة وان الاعتراف بالخطأ الناجم عن هذا التسليم، يشرف القضاء الفرنسي الذي كان ولا يزال عاملا قويا بارزا في حقل التشريع المبني على احترام حقوق الإنسان.

وبعد ان انتهيت من دفاعي هذا، دخلت الهيئة الحاكمة إلى غرفة المداولات وما لبثت أن عادت، وردت بأربعة أصوات من خمسة أصوات، المرافعة الابتدائية الثانية.

هناك شعرت بنفحة من الأمل تسري في أعماق روحي، بعد ان كنت أنظر إلى افق هذه القضية فأراه متلبدا بالغيوم السوداء.

وكنت أتوق إلى معرفة الضابط الذي تبنى نظريتي. على أنني ما لبثت أن عرفته لأنه حين قدم كاتب الضبط إلى كل من الضباط الخمسة، دفترا وقلم رصاص ليسجلوا ملاحظاتهم على شهادات الشهود العديدين، رأيت الكابتن - واسمه لوكلير - لم يحذ حذو زملائه، فاستنتجت أنه هو الضابط المخالف لزملائه في الحكم.

فبعثت إليه بنظرة، دلت على امتناني وعظيم سروري.

الدخول في أساس الدعوى

انقضت الجلسة الأولى في إلقاء الدفاعين الابتدائيين وبجواب النائب العام وبالمذاكرة بين اعضاء المحكمة، وبصدور الحكمين المشار إليهما.

ولما عقدت جلسة بعد الظهر، وقف كاتب الضبط، وراح يتلو مدة

ساعة ونيف، لائحة الاتهام، وقد عزى فيها إلى هنانو، سبعة أنواع من الجرائم. ثم ابتدأ الرئيس باستجواب هنانو، عن كل جريمة من الجرائم المنسوبة إليه.

ويجدر بي أن أقول هنا، أن ابراهيم هنانو كان يمتاز بالنباهة والذكاء والثقافة والجرأة، وهي صفات سهلت مهمتي كثيرا.

ولا بأس من أثبت بعض ما اجاب به هنانو، رئيس المحكمة.

قال له الرئيس: إن القانون الفرنسي، يمنحك الحق التام في الدفاع عن نفسك. وها أنت اليوم متهم بالاشتراك مع عصابات الأشقياء، وقد كنت ترأسهم وتدير حملاتهم.

فأجاب هنانو: بملء الجرأة:

إنني لا أعد مجرما لأن أمرنا سياسي صرف أما غايتنا من تشكيل العصابات فلم تكن بقصد الفتك والنهب وإلا لاجتاحت هذه العصابات البلاد وأتت على ما فيها من الأخضر واليابس ولقاومنا الشعب وسحقنا سحقا. فقواتنا إذن مؤلفة من أفراد الشعب صاحب الحق والسلطان.

ثم قال: إنني متهم سياسي فقط، ولوكنت مجرما عاديا كما تقولون لما فاوضني ممثلكم الجنرال جوبو بشأن عقد هدنة ومبادلة الأسرى، ولما عقدت معي حكومة انقرة التي تعترفون بها اتفاقا، لأن الحكومتين الفرنسية والتركية، اسمى وأجل من ان تتنازلا لمفاوضة مجرم شقي.

ثم إننا لم نعمد الى الوسائل الحربية إلا للدفاع عن أنفسنا .

وقال انا ثائر سياسي، أدافع عن وطني، وقد جاهرت وسأجاهر بانني أتبرأ من كل مجرم سفاك .

فقال له الرئيس: إذن انت تتنصل من المسؤولية؟

فأجابه هنانو: إن الرجل الذي قاوم الانتداب الفرنسي لن يتنصل من مسؤولية تعود تبعتها عليه .

ولما سأله الرئيس: من اضطرك إلى ان تحارب؟

أجابه هنانو: عندما أهاجم، اغدو مضطرا لأن ادافع عن نفسي .

فقال الرئيس: لو بقيت آمنا مطمئنا في منزلك، لما حدث ما حدث ولما وقفت هذا الموقف .

فأجابه هنانو: هذا اجتهاد خاص، ولا يلام المرء على اجتهاده .

ولما قال النائب العام لهنانو، يستدل من كلامك، أنك كنت الرئيس المطاع .

أجابه على الفور: في بعض المسائل، وبقدر الصلاحية المعطاة لي .

وشاء هنانو مرة، في أثناء الاستجواب، أن يهمس في أذني كلمة، فاعترض النائب العام على ذلك اعتراضا أحدث بين النيابة والدفاع مشادة عنيفة اضطر معها رئيس المحكمة إلى ان يوقف الجلسة .

وفي الجلسة الثالثة، التي عقدت في صباح اليوم الثاني، بوشر باستماع شهود الإثبات، وكان عددهم يربو على السبعين، واستغرق سماعهم أربعة أيام متوالية، حدث في خلالها أكثر من جدال عنيف، بين النيابة والدفاع،

في مجال تفنيد الشهادات.

ولما انتهى استماع شهود الاتهام، طلبت أن تستمع المحكمة إلى شهود الدفاع الذين ظلوا يؤدون شهادتهم طيلة جلسة كاملة.

وكان بين شهود الدفاع السادة: فاخر الجابري وسعد الله الجابري والدكتور عبد الرحمن الكيالي وشاكر نعمت الشعباني وأحمد المدرس والشيخ عبد الوهاب طلس والشيخ كامل الغزي وعبد الوهاب ميسر والأستاذ راشد المرعشي وغيرهم.

وكانت شهاداتهم كلها تؤيد ما يتحلى به ابراهيم هنانو من وطنية صادقة، وتهدف إلى الإشادة بمبادئه العالية وتجرده التام.

ومما حدث من الأمور الطريفة، في أثناء استماع شهود الدفاع، أن رئيس المحكمة سأل احمد المدرس، عما إذا كان يحب فرنسا. فقال له أحمد المدرس: على قدر الإمكان ياسيدي!

فضحك الجمهور ضحكة طويلة عالية أغضبت رئيس المحكمة، واضطرته إلى أن يهدد بإخلاء مقاعد المستمعين.

وفي اليوم السابع من المحاكمة، التي كانت تجري في الصباح وبعد الظهر، طلب رئيس المحكمة إلى النائب العام ان يبدي مطالعته. فنهض وراح يتكلم بقوة وحماسة، من الساعة التاسعة صباحا إلى الساعة الثانية عشرة ظهرا.

وختم النائب العام مطالعته بقوله: لو كان لإبراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبع، لطلبت إعدام رؤوسه السبعة، ولكنه لا يملك إلا رأسا

واحدا ويؤسفني أن أطلب إعدام هذا الرأس فقط ليكون عبرة لغيره. أطلب ذلك بالرغم مما يحويه رأس هنانو من دراية واتزان.

ولما طلب إليّ الرئيس أن ألقي دفاعي، شعرت برعشة قوية اهتز لها كياني، لأنني أدرك خطورة الموقف وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقي في ذلك اليوم المشهود.

ولا شك، أن كل محام يتولى الدفاع في قضية كبرى، تثير اهتمام الرأي العام، وتناط بها حياة زعيم من زعماء الأمة، يحس بمثل ما أحسست به ساعتئذ، لأنه إما أن يخرج من موقفه الخطير مخذولا، وإما أن يفوز وينقذ حياة عزيزة غالية.

وعندما يكتب له الفوز، تمتلىء روحه بنشوة الانتصار، ويشعر بأنه أدى واجبه على ما ينبغي أن يؤديه من امانة وقدرة ونزاهة قصد.

التهمة الأولى
تشكيل عصابة من الأشقياء

وكانت التهمة الأولى المعزوة إلى هنانو، تنحصر في تشكيل عصابة من الأشقياء، وعلى هذه التهمة ارتكزت التهم الباقية.

وترمي التهمة المذكورة إلى ان هناك اتفاقا جنائيا تم بين هنانو ورفاقه في الثورة فأخذت أبيّن بكثير من الدقة والإيضاح، أن جريمة الاتفاق الجنائي تقوم على ركنين: الأول مادي وهو الاتفاق على ارتكاب الجناية، والركن الثاني معنوي أي القصد الجنائي. والركنان غير متوفرين في هذه القضية.

ثم بينت أن هنانو كان قائدا لثورة اعتنق رفاقه مبدأها، ولا بد أن ينجم عن كل ثورة تعديات على الأشخاص والأموال.

وكانت حجتي الكبرى، أن هنانو عقد اتفاقا مع الأتراك الذين وضعوا تحت تصرفه رجالا وعتادا، كما يتضح ذلك من كتاب قدمناه خلال التحقيقات، وهو كتاب صادر عن القائد العسكري للأعمال الوطنية التركية في سوريا وفلسطين.

وقلت: إن التهمة المنسوبة إلى هنانو، لا تتفق مع المفاوضات الرسمية التي جرت بينه وبين القواد العسكريين الفرنسيين، منهم الكولونيل فوان، وقد أخذت لهما معا صورة أبرزناها في أثناء المحاكمة، ومنهم الجنرال جوبو الذي دعاه إلى ان يتناول طعام الغداء على مائدته.

وأضفت: لو كان هنانو من الأشقياء-كما قال النائب العام- لما عقدت معه هدنتان ولما اتفق معه على تبادل الأسرى؟ ولما عرض عليه الكولونيل فوان أن يبقى رهينة لدى رجال هنانو ريثما تتم المقابلة بين الجنرال جوبو وبين هنانو. وقد كان من نبل أخلاق هنانو وسعة مروءته أن رفض ما عرضه عليه الكولونيل فوان، قائلا له إنه واثق بالشرف العسكري الفرنسي.

وقلت: إن إصرار النيابة العامة على ادعائها، يدعو إلى اختلال موازين الفهم، وضياع مقاييس الرشد، وانهيار صروح المنطق.

وعدت إلى القول: أن هنانو قام بثورته مدفوعا بعاطفة وطنية نبيلة، تماثل العاطفة التي هزت فرنسا من أقصاها إلى أقصاها، حينما احتلت ألمانيا في حرب ١٩١٤ بعض البلاد الفرنسية، فأبى الفرنسيون أن تداس أرض

الوطن وهبوا يقاتلون ويستبسلون في الكفاح، حتى خرجت فرنسا من حومة النضال منتصرة ظافرة، بعد أن ضحت بمليونين من شبابها، وبعد أن أمست كثير من مدنها الزاهرة أطلالاً دوارس.

وأردفت: إن الوطنية ليست وقفا على فرنسا وأبنائها، وإنما هي عاطفة طبيعية متغلغلة في أعماق النفوس، تشعر بها كل أمة من أمم الأرض، ومنها الأمة السورية.

التهم الأخرى وعددها ست

وقد أسندت النيابة العامة العسكرية إلى ابراهيم هنانو، ست تهم أخرى، تلخص في ما يلي:

١ - حدث أن مختار قرية اسقاط وابنه غندور تجسسا على الثائرين، كما ثبت ذلك من وثيقة وجدت في جيب أحد القتلى، في أثناء معركة دارت في القرية المذكورة. فأمر القائد نجيب عويد- الذي عينته القيادة العسكرية التركية- بقتلهما رميا بالرصاص. فاعتبرت النيابة أن هنانو مسؤول عن هذا الحادث.

٢- أمر القائد نجيب عويد نفسه، بقتل احمد كرديه، وبقطع إصبع من أصابع عبد الله كرديه لثبوت قيامهما بأعمال التجسس، فاعتبر هنانو شريكا في الأمر.

٣ - نهبت، في أثناء إحدى المعارك، قرية سرمين دون أن تعرف هوية السالبين.

٤ - صادر القائد التركي العسكري عاصم، بالقرب من قرية تفتناز، بعض عربات كانت تنقل مؤنا وخرافا للجيش الفرنسي.

٥ - ادعى مختار قرية كونلي، أن القائد العسكري نجيب عويد هدده بالقتل، وبنسف القرية برمتها، فيما إذا ثابر على معاونة الجيش الفرنسي.

٦ - قلع الثوار بعض القضبان الحديدية من سكة حديد بيروت حلب للحيلولة دون إرسال الإمدادات إلى الجيش الفرنسي.

وقد اعتبرت النيابة العامة، أن هنانو مسؤول عن جميع هذه الأعمال بصفته متدخلا تدخلا فرعيا. وقد أثبت من حيث الوقائع المادية أن إبراهيم هنانو ليس قائدا عسكريا بل زعيما سياسيا، وأن هذه الأعمال كلها إنما حدثت بدون علمه، وأنه عندما اطلع عليها استنكرها.

ثم تناولت الموضوع من الوجهة القانونية وعالجته من جميع وجوهه، واستشهدت بآراء أقطاب القانون، وباجتهادات المحاكم التي تحتم توفر سلسلة من الشروط ليصح توجيه تهمة الاشتراك في الجريمة. واستمرت المرافعة أربع ساعات، تخللها ربع ساعة فقط للراحة وتهدئة الأعصاب.

وقلت للقضاة: ستكون كلمتنا الخيرة في غاية الإيجاز. فأنا أشكر لكم إصغاءكم طيلة أربع ساعات أبديتم خلالها كثيرا من الحلم والأناة، ولكني اضطررت إلى هذه الإطالة، قياما بالواجب المترتب عليّ وقبل أن يعود صوتي إلى السكوت، أتقدم إليكم برجاء أخير، وهو أن تنسوا لحظة واحدة، أنكم ضباط فرنسيون، وأن تتجردوا لحظة واحدة عن بزاتكم العسكرية الأنيقة وأن تعودوا رجالا عاديين، وأن تقدروا المسؤولية الثقيلة الملقاة على

عاتقكم وأن تخوضوا إلى أعماق ضمائركم، ثم تصدروا قراركم. وأضفت أقول: إن قراركم في هذه الحال، لن يكون إلا قرار براءة. إنكم ستبرئونه، لأن شرف فرنسا يأبى إلا أن يراعى ما قطعته لهنانو من تعهدات صريحة.

إنكم ستبرئون هنانو، لأنه لم يأت في كفاحه السياسي، ضد فرنسا بأي عمل يستحق العقاب، .ولكنه كافح بكثير من الإباء والاخلاص.

إنكم ستبرئون هنانو، لأن الوطنية ليست جريمة، ولأن الوطن السوري ليس كلمة باطلة جوفاء.

وبتبرئته، تكونون جديرين بالانتماء إلى ذلك البلد، الذي وطد المبدأين اللذين أعلنتهما الثورة الفرنسية وهما: الحرية والعدالة.

فباسم العدالة، أعيدوا الحرية إلى هنانو.

وبعد أن انتهيت من المرافعة، قال لي رئيس المحكمة: تشكر لكم المحكمة دفاعكم عن المتهم هنانو وتقدر قيامكم بواجبكم على الوجه الأكمل.

ثم سأل هنانو: هل لكم أن تقولوا شيئا بعد دفاع وكيلكم؟

فأجابه هنانو: إنني واثق بعدالتكم، بالرغم من الخصومة القائمة بين بلادكم وبلادي وإذا كانت فرنسا تتغنى بالحرية والعدالة- كما قال وكيلي العزيز- فإن سوريا تنشد الحرية نفسها، والعدالة نفسها.

وهناك، أعلن رئيس المحكمة ختام المحاكمة. ثم دخل ورفاقه القضاة غرفة المذاكرة للتداول في هذه القضية الكبرى، ولإعلان القرار النهائي.

سبق أن قلنا أن المذاكرة في المحاكم العسكرية تصدر بشكل سؤال وجواب.

ويكون السؤال على هذا النمط: هل أن فلانا مذنب في التهمة الموجهة

إليه؟ والسؤال يبين نوع التهمة وظروفها.

ومن البديهي أن يكون الجواب إما "نعم" وإما "لا". ثم تفرز الأصوات الخمسة فتصدر البراءة، أو يصدر الحكم، إما باتفاق الآراء أو بالأكثرية.

وكانت التهم المنسوبة إلى هنانو، تؤلف سبع جرائم، تفرعت ظروفها إلى تسعين سؤالا طرحت على كل من اعضاء المحكمة.

وبعد انقضاء ساعتين في غرفة المذاكرة، عادت الهيئة الحاكمة إلى منصة القضاء لتلفظ حكمها.

فنهض المستمعون نهضة واحدة، وظل القضاة واقفين، وقد خيم على الجميع جو من الرهبة والخشوع.

وكانت الأنظار كلها متجهة إلى الرئيس الذي بدأ بتلاوة الأسئلة، والإجابة عليها بكلمتي "نعم" أو "لا".

وكان السؤال الأول: هل أن هنانو مذنب، بتشكيل عصابة من الأشقياء للنهب والسلب؟

فاذا كان الجواب "نعم" كانت اجوبة التسعين سؤالاً "نعم"

واذا كان الجواب "لا" كانت الاجوبة كلها "لا".

وماكاد الرئيس يجيب على السؤال الأول، بكلمة "لا" حتى علمت أن البراءة تشمل جميع التهم المنسوبة الى ابراهيم هنانو.

وهذا ماتم في تلك الساعة المهيبة. فكلما طرح الرئيس سؤالاً. كان الجواب "لا" بأكثرية ثلاثة اصوات، ضد صوتين.

ولما انتهى الرئيس من تلاوة التسعين سؤالاً وأعلن البراءة، دوت قاعة

المحكمة بالتصفيق الحاد، وسرت الهتافات كتيار كهرباء في أرجاء دار العدل وباحة السراي والشوارع المجاورة مرددة: فليحى العدل، فليحى هنانو.

وكانت الجماهير المحتشدة، داخل دار الحكومة وخارجها، تقدر بثلاثين ألفاً ونيف وقد تعذر عليّ الخروج من قاعة المحكمة، فحملني الشيخ رضا الرفاعي على ذراعيه القويين، وتمكن من المرور بين الكتل البشرية المتراصة، واوصلني الى النائب العام الذي كان ينتظرني في سيارته امام باب سراي الحكومة، لنذهب معه الى السجن العسكري ونبلغ هنانو قرار المحكمة.

ويجدر بي ان أذكر هنا ان السلطة العسكرية الفرنسية رأت ان تعيد ابراهيم هنانو الى السجن، بعد انتهاء مرافعتي وقبل صدور الحكم، تحاشياً من كل حادث مفاجئ يمكن أن يقع.

وبينما اخذت سيارة النائب العام تخترق شارع الخندق لتمر بباب الفرج وتتجه نحو خان استانبول مقر السجن العسكري، كانت الجماهير قد تسللت من حي الفرافرة الى الخان المذكور، فوصلت اليه قبلنا وراحت تهتف هتافات فَهم منها ابراهيم هنانو وهو داخل سجنه أن براءته قد أعلنت.

ولما دخلنا السجن، استدعى ابراهيم هنانو الى غرفة المدير، فتقدم اليه النائب العام وصافحه قائلاً: سيطلعك وكيلك على ما كان. ثم تقدمت وصافحته وأبلغته قرار براءته. فضمني الى صدره وعانقني ملياً، ثم عاد فصافح النائب العام، وأُطلق سراحه على الفور.

وكانت بانتظارنا على باب السجن عربة ذات حصانين، ما كدنا نركبها حتى تدفقت الجماهير كالسيل الجارف فحلت الحصانين وراحت تجر العربة

بدل منهما، حتى وصلنا الى دار هنانو، وكانت يومئذ في أحد ازقة باب الجنين. وكانت النساء يزغردن على طول الطريق الممتدة من السجن الى الدار التي لم تكن بعيدة عنه، وكانت مئات منهن منتشرات على اسطحة البيوت، فشرعن يمطرننا ونحن في عربتنا بماء الزهر وعطر الورد.

وتبعت يوم البراءة أيام مشهودة لبست فيها الشهباء حلل الزينه ونعمت خلالها بالأفراح والمسرات وهرعت إليها من البلاد السورية ومن كثير من الأقضية والضواحي جموع المهنئين، وجماهير الوطنيين، وساروا الى دار الزعيم ابراهيم هنانو، الذي لم يذق للنوم طعماً، مدة ثلاثة ايام متوالية.

وفي صبيحة يوم الأحد الذي تلا يوم صدور البراءة، جاءت الى داري الكائنة وقتئذ في حي التلل، أربعون عربة تحمل وجوه القوم وأقطاب الحركة الوطنية، يتقدمهم الزعيم ابراهيم هنانو وما كاد يرى والدتي العزيزة ترحب به وبصحبه حتى قبل يدها وصافح الوالد العزيز وراح يعبر بكلامه العذب البليغ عن شعوره الفياض لما أبديته في سبيل الدفاع عنه. ثم شكر لي الشيخ رضا الرفاعي - وكان الفدائي الأول بين فدائيي هنانو- باسم الوفد ما بذلناه من مساع وجهود شاء الله ان تكلل بالنجاح وان ينقذ ذلك الزعيم الكريم المحبوب. وقبل انتهاء الزيارة ناولني الشيخ رضا الرفاعي منديلاً من حرير وقال لي: هذه " صرة عرب" أرسلها اليك الحاج فاتح المرعشي الصديق الحميم للزعيم، راجياً قبولها فقبلتها شاكراً.

وكان في تلك الصرة ثلثمائة ليرة من الذهب الوهاج.

وفي هذه المناسبة أقول إن بعض الفضوليين سألوني أكثر من مرة عن

الأجرة التي تقاضيتها في هذه القضية، فلم أر بأساً من اشباع فضولهم بهذا الصدد. فحين رغب ابراهيم هنانو في ان اتولى الدفاع عنه، عمدت الى دراسة ملف القضية ولما وقفت على ماأحب ان اقف عليه، سألني هنانو عما اطلبه من اجل القيام بهذه المهمة. فقلت له: اتضح لي من مطالعة الاوراق انك وطني مخلص دافعت عن كيان هذا الوطن العزيز بعقيدة واخلاص، والواجب يقضي ألا اتقاضى اجرة. ولكن هناك ملاحظة لها قيمتها فاذا خسرنا الدعوى - والامل في ربحها لايتجاوز العشرين في المائة - اكون قد عرضت نفسي لخسارتين ادبية ومادية، وانا محام ناشيء، يتأثر مستقبلي بذلك الى حد بعيد. فأجابني: ان ملاحظتك وجيهة، وانني على استعداد لدفع الاجرة فقل كم تريد؟ فقلت له: يجب ان تتناسب الاجرة مع خطورة الدعوى، ولهذا فإني أقدر اجرتي بألف ليرة ذهبية، يدفع نصفها مقدما ونصفها الآخر عند تبرئة ساحتك، وفقا للاصول المتبعة في مهنتنا.

فابتسم هنانو وقال: ثق انني لا أملك ليرة واحدة مما تطلب. ولكن في استطاعتي أن اتدبر الامر، غير ان هذا المبلغ كبير جدا فهل تقبل بحكم النائب العام الذي اقترح علّي اختيارك وكيلا لي؟ فأجبته: نعم. إنني اقبل به حكما. ولما عرضنا الامر على النائب العام، ابتسم وقال: لقد اصبحت شريكا في الدفاع فينبغي لنا اذا ان نتقاسم الاجرة. ثم قال: الرأي عندنا ان تحدد الاجرة بمبلغ ستمائة وخمسين ليرة ذهبية، يدفع منها مائة وخمسون سلفا، وخمسمائة عند اعلان البراءة. وتم الاتفاق على ذلك، فقبضت المبلغ المتفق عليه سلفا، وحينما تبرع الحاج فاتح المرعشي بثلاثمائة ليرة ذهبية، بعثت إليه بكلمة شكر، وأخبرته بأنني أتنازل عن الجزء الباقي، وقدره مائتا ليرة عثمانية ذهبا.

سر النطق بالبراءة

بقي في هذه الدعوى التاريخية سر أبوح به لأول مرة.

بعد مضي عشرة أيام، على صدور براءة الزعيم هنانو، فوجئت بزيارة الكابتين لوكلير -أحد أعضاء المحكمة العسكرية- في مكتبي الكائن حينذاك في محلة قسطل الحجارين.

وما كدت أرحب به، حتى بادرني بقوله: جئت أودعك، لأنني مسافر في صباح الغد مع رفيقيّ الملازم الأول والملازم الثاني اللذين كانا معي في محاكمة موكلك ابراهيم هنانو.

فقلت: وما الداعي إلى هذا السفر المفاجىء؟

فقال بشيء من الحدة: الداعي إليه، أننا برأنا موكلك هنانو، فغضبت علينا السلطة العليا، واوعزت الينا بالعودة الى فرنسا بدون تأخير.

ثم استطرد قائلا: ان قرار البراءة صدر بأكثرية اصواتنا نحن الثلاثة، بينما كان صوت الرئيس وصوت المقدم ضدكم دائما، وإذا كنت ترغب في أن تقف على السر، فاعلم أننا حينما اجتمعنا في الجلسة الأولى لتشكيل الهيئة الحاكمة، قال الرئيس ما خلاصته:

لقد طالعت اوراق القضية بدقة وامعان، وتحققت أن المتهم مذنب، وأنه ينبغي لنا أن نحكم عليه بالإعدام، ليكون عبرة لغيره. فانتفضت عند سماعي هذا الكلام، وقلت له: أنا لا أقبل أن يؤثر أحد في ضميري، لأنني لم اطلع بعد على ظروف الدعوى، فإذا اقتنعت بعد الاستماع إلى الاتهام والدفاع ان الرجل مذنب حكمت عليه، وإلا أعلنت براءته.

ثم قال: ودخلنا الجلسة، واستمعت إلى دفاعكم واقتنعت بأن هنانو ليس مجرما عاديا وأنه لا يحق لحكومة فلسطين أن تسلمنا إياه، فصوت معك وحدي. وفي أثناء المحاكمة، بذلت كل ما بوسعي ليكون الملازم الأول والملازم الثاني إلى جانبي، فوفقني الله، وأعلنت براءة موكلك بأكثرية الأصوات.

فقلت له: ما دام في فرنسا رجال مثلك، ومثل رفيقك، فلن يموت العدل في فرنسا.

فأخذ بيدي وهزّها هزة طويلة، ثم ما لبث أن ودّعني وانصرف، وعلى محياه علامات التأثر الشديد.

ابطال مع هنانو

هنا تنتهي مذكرات فتح الله الصقال عن هنانو ومحاكمته، وقد اسهبت فيها لأنها جزء من كفاح المحامين في الحركة الوطنية، فما كل الناس يقاتلون بالبندقية، وليس الوقوف أمام القضاء للدفاع عن الوطنيين أقل شأنا من الثبات في ساحات المعارك.

ثم إن التاريخ حين يذكر الكبار بمآثرهم يتناسى أحيانا أو يغضي عن ذكر من دونهم. وفي اعتقادي ان بين أبطال قصة هنانو عدا من حملوا السلاح وسأعدهم بعد قليل، ثلاثة هزتني مواقفهم المتميزة بالنخوة والأريحية والسلوك المبدئي وهم الضباط الفرنسيون الثلاثة، صغار الرتب، في المحكمة العسكرية الذين برأوا هنانو رغم قادتهم ورغم التعليمات لأن الشرف العام عندهم كان أعلى من أي اعتبار. ثم يأتي بعدهم هذا الحمصي الظريف

الشريف صاحب النخوة المغطوطة بالبساطة، جمباز الخيل الذي ما قرأت على احد قصته كما قدمتها لكم إلا وخنقتني دموع هي مزيج من المشاركة والانفعال والتقدير والحب. وحين سجلت لإذاعة دمشق حديث محاكمة هنانو في برنامجي (رحلة في الذاكرة) اختنق صوتي اكثر من عشر مرات بما يشبه انفجار شهقة البكاء، وبكاء الفرح أعلى صوتا وأحلى.

بعض رفاق هنانو

وللتاريخ أسجل أسماء بعض رفاق هنانو منقولة من كتاب الأستاذ وليد المعلم (سورية ١٩١٦-١٩٤٦) وهم نجيب عويد (كفرتخاريم) مصطفى الحاج حسين (جبل الزاوية) الشيخ يوسف السعدون (جسر الحديد) الحاج فاتح المرعشي (حلب) طاهر الرفاعي (حلب) الحاج محمد نجيب باقي (حلب) الشيخ رضا الرفاعي (حلب) جميل ابراهيم باشا (حلب) الحاج محمد (سلقين) الحاج درغام دره (كفر تخاريم) علي الزرعا(جبل الزاوية) خيرو القصاب (اللاذقية) ابراهيم الشغوري (كفر تخاريم) هزاع أيوب (معرة النعمان) عقيل السقاطي (سقاط) صالح صباغ أشرم (حلب) سعيد الكيالي (كفر تخاريم) نورس عجوبة (انطاكية) عمر البيطار (جبل صهيون) عمر الأفيوني (طرابلس) حمدو اليوسفي (معرة النعمان) محمد علي باكير (كفر تخاريم) سامي الحراكي (معرة النعمان) وغيرهم ممن دوّن اسماءهم المؤرخ السيد أدهم الجندي.

٤- ثورة حماة

كان السيد فوزي القاوقجي ضابطا في الجيش الذي تشرف عليه فرنسا وكان من أصحاب الوطنية الملتهبة التي ظلت تميز سلوكه حتى حرب فلسطين في آخر الأربعينات، وقد سبق أن ورد في محاكمة هنانو أنه كان نبه الزعيم ابراهيم هنانو إلى ان الفرنسيون يطاردونه. ولكن له مأثرة كبرى وان لم تنجح إلا أنها علامة من العلامات المضيئة. فقد كان اتفق مع الوطنيين على ان تبدأ الثورة في حماه مساء الأحد ٤ تشرين الأول ١٩٢٥ فطلب من القومندان كوستيليه المستشار الإداري لحماه ان يخرج لتفتيش البدو بحجة منعهم من الإضرار بالقرى فسمح له وخرج مع مفرزة من الخيالة وطاف بين العشائر يبث بينها روح الوطنية علناً. ولما ازفت ساعة الثورة دخل إلى حماه في الثامنة مساء وهاجم جميع المخافر واستولى على أسلحتها وقبض على الدرك والشرطة ثم سار الى دار الحكومة فهاجمها في معركة دامت حتى الثانية بعد منتصف الليل فاستولى عليها وأحرقها ثم اخذ يستعد لمهاجمة المواقع العسكرية الحصينة. وفي الصباح قامت معركة على جسر السرايا، وطوقت ثكنات الفرنسيين واستسلم بعض المحاصرين، ولكن الطائرات الفرنسية والنجدات التي أتت استطاعت ان تفك الحصار عنهم وتكاثرت النجدات الفرنسية فقرر القاوقجي الانسحاب ليتابع المعركة خارج المدينة. وقد نجحت ثورة حماه، رغم أنها لم تحرر المدينة، في أنها جرت قوات فرنسية كبيرة من جبهة دمشق واضطرت الجنرال غاملان إلى ترك السويداء والإسراع الى الشمال، وهذا خفف الضغط عن ثوار المرج والغوطة وسمح لهم بالدخول الى دمشق يوم ١٨/ ١٠/ ١٩٢٥ كما سيأتي.

٤- ثورة حمص

وكان من المتفق عليه مع الزعماء الوطنيين في حمص ان تقوم الثورة في حمص وحماه في يوم واحد، ولكن جرت المعارك بين ثوار حمص والقوات الفرنسية في ٢٦ تشرين الأول حين توجه ٤٥٠ مجاهدا بقيادة خالد النفوري الى قصير حمص ودمروا جسر الحارون ودمروا خط سكة الحديد قرب الجوسية والحدود اللبنانية.

ثم في١٨ نيسان ١٩٢٦ جرت معركة في وادي نيسان بين قوات المجاهد سعيد العاص وقوة فرنسية بالقرب من قلعة كينفد.

وفي مطلع حزيران ١٩٢٦ جرت معركة الفنية في سهل عكار ودمرت المخافر الفرنسية.

وهنا جهز الفرنسيون حملة كبيرة للقضاء على المجاهدين في سهل عكار، ثم علموا بوجود الثوار في أحد المنازل قرب حمص فطوقوه بقوات كبيرة ولكن النجدة جاءت من قوات فوزي القاوقجي حيث سارع إلى القدوم وفك الحصار.

وقد هدأت ثورة حمص بعد نجاح الفرنسيين في إغتيال زعيمها دلال النشيواتي وشقيقه راغب في إحدى المعارك ففر نظير النشيواتي إلى تركيا واستسلم بعض المجاهدين وانضم آخرون إلى القاوقجي.

٥- الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥)

كان بنو معروف قد ضاقت وطنيتهم وأخلاقهم الصلبة باحتمال التعسف الفرنسي ومجافاته لقواعد اللياقة والتقاليد التي يتمسك بها كل درزي في كل لحظة وكل حركة، ومن ذلك ان احد الذين هاجموا غورو-كما سبق الذكر- وهو ادهم خنجر من أبرز رجال مجموعة احمد مريود حاول الالتجاء الى سلطان باشا الأطرش ولكن الفرنسيين لم يحترموا هذا (الجوار) ولا حق اللجوء فقبضوا عليه في ١٧ تموز ١٩٢٢.

ثم لما عين الفرنسيون الكابتن كاربيه حاكما عاما على الجبل فرض سلسلة من التدابير الإرهابية والغرامات وحاول بذر الشقاق بين الأهالي وسحق نفوذ آل الأطرش باعتقال عدد كبير من شيوخهم. ولما أرسل اهل الجبل وفدا يطالب بسحب الكابتن كاربيه رفض المفوض السامي استقبال الوفد واستلام العريضة فاعتبرت إهانة شاملة. وكان من جملة سخافات هذا الكابتن المشكو منه فرض الغرامات على من لا يستقبلونه ليضعها في جيبه، وفقدت هرة لملازم فرنسي ففرضت غرامة عشر ليرات ذهبية على كل فرد، وكذلك غرامة على كسر مصباح، وبلغ به الأمر ان منع السلام على أي واحد من آل الأطرش، إضافة الى فساد خلقه وآدابه، ففاض الكيل ولم يبق مجال للصبر، وانضافت هذه التصرفات إلى حرارة الشعور الوطني.

وفي مطلع أيار ١٩٢٥، وكانت النفوس تهيأت في كل أنحاء سورية للتمرد على الحكم الفرنسي، جرى اجتماع في دمشق في منزل الصحفي قاسم الهيماني، ثم تتالت الاجتماعات وتقرر إعلان الثورة لتحقيق وحدة سورية واستقلالها.

وبدأ سلطان الأطرش يجوب القرى لجمع المال والرجال والسلاح، وأصدر نداءه الذي بدأه بقوله: إلى السلاح إلى السلاح!

معركة صلخد: وبدأت المعارك في ٢١ تموز ١٩٢٥ عندما جاءت حملة على صلخد يقودها الكابتن نورمان، فهاجمها مجاهدو سلطان الأطرش بالسلاح الأبيض وقضوا على معظم افرادها البالغ عددهم ١٦٦ واستشهد أربعون مجاهدا بينهم الأمير مصطفى الأطرش شقيق سلطان.

معركة بصرى الحرير: في ٣٠ تموز ١٩٢٥: دارت معركة بين لواء مشاة يقوده الكابتن لونيه والمجاهدين، كان سلاحها الرشاشات والمدفعية ثم انتهت بالاشتباك بالأسلحة الجارحة.

معركة المزرعة وحملة ميشو: وفي مطلع آب ١٩٢٥ جاء الجنرال ميشو على رأس خمسة آلاف جندي، فقام إلى لقائهم ثلاثة آلاف مجاهد استطاعوا الاستيلاء على قوافل الذخيرة والمؤن في مؤخرة الحملة فاضطر ميشو إلى الانسحاب من إزرع، وعلى الرغم من حماية الطائرات خسر الفرنسيون معظم قواتهم. وهنا بدا أن الطريق إلى دمشق باتت مفتوحة، ولكنهم لم يزحفوا اليها لأن الاتفاق مع الوطنيين لم يكن انعقد بتفصيل كاف.

وحاول الفرنسيون أن يعقدوا صلحا مع سلطان الأطرش الذي اشترط للصلح إقالة الكابتن كاربيه، وعدم معاقبة أحد بتهمة العصيان، وعدم مصادرة الأسلحة، ووضع دستور خاص للجبل، وهنا جاء وفد من وطنيي دمشق إلى سلطان باشا وطلبوا منه عدم قبول الصلح. ولما علمت السلطة الفرنسية بهذا الاجتماع اغلقت مكاتب حزبي الشعب والاستقلال واعتقلت بعض أعضائهما

ونفتهم إلى أرواد، وفر الآخرون إلى الجبل معتصمين بسلطان.

معركة المسيفرة: وفي ١٨ أيلول ١٩٢٥ وبينما كان سلطان يجهز حملة للسير الى دمشق جاءت قوات فرنسية ووطدت مواقعها حول السويداء، فهاجمها الثوار عند المسيفرة، ولكنهم عند انتهاء المعركة بنصرهم، تهافتوا على الغنائم مما جعل الطائرات الفرنسية تهاجمهم وتوقع بهم خسائر اضطرتهم إلى الانسحاب تاركين وراءهم مئتي شهيد.

وفي هذه الأثناء وصل من حماة منير الريس ومظهر السباعي مع مخطط لإشعال الثورة في حماة في ٤ تشرين الأول (كما سبق الذكر قبل قليل) وجرى الاجتماع في قرية رشاش، وكان إشعال الثورة في حماة وحمص والغوطة من شأنه ان يخفف الضغط عن جبل العرب. وبالفعل حين قامت ثورة حماه وكان الجنرال غاملان قد تمركز في السويداء انسحب منها إلى الشمال وفي طريقه هوجم من الثوار.

معركة السويداء: وفي ٢٥ نيسان ١٩٢٦ زحف الجيش الفرنسي مجددا إلى السويداء واشتبك مع الثوار في عدة قرى ولم يتمكن الفرنسيون من دخول السويداء إلا في ١٦ أيار.

وفي ٣ حزيران حاول الفرنسيون احتلال صلخد بستة آلاف جندي مع الطائرات والمدفعية، وصلخد بلدة صغيرة جدا في ذلك الوقت، فلم يتمكنوا من احتلالها إلا في ٢٥ حزيران. ولما سقطت صلخد جرت اجتماعات عديدة ثم في تشرين الأول ١٩٢٦ غادر سلطان الجبل إلى عمان فوصل إلى شرقي الأردن في ٢٤ تشرين الأول ثم إلى السعودية.

سلطان الأطرش

ولد في (القريّا) وهي قرية قرب السويداء عام ١٨٨٦ في عائلة لها مركز كبير في الجبل، وبدأ الثورة على الجيش العثماني وعمره ١٨ سنة

وبعد أن قاد الثورة السورية عاد إثر المعاهدة السورية الفرنسية في عام ١٩٣٦ إلى السويداء، وهناك شهدته (أنا نجاة) يوم ذهبنا مع كشافة قاسيون إلى السويداء احتفالا برجوع الزعماء المبعدين، وملأت عيني هيبته ورجولته وأنا بعد فتي ادغدغ احلام البطولة.

وهناك في جبل العرب تعلمت بعض هوسات واناشيد الثوار مما جعلني اعيد استخدامها في فرق وزارة الثقافة بعد ذلك بعد خمس وعشرين سنة، ومن بينها (شديت الهجن للسفر جلابي..).

ولما توفي يوم الجمعة ٢٦ آذار ١٩٨٢ وجاء الخبر إلى تلفزيون دمشق، كان عندي ظهور في برنامج (المحطات) التلفزيوني، فشرفني إخواني في التلفزيون بأن جعلوني أقول كلمة أمام الكاميرا، فورية ومرتجلة في رثاء هذا الزعيم العظيم فكان لي شرف مؤلم هو ان أكون أول من رثاه للشعب العربي.

وتربطني منذ زمان طويل صداقة حلوة وعميقة بولده الأكبر منصور الأطرش وهو نعم الممثل لأخلاق الأب العظيم.

ثورة غوطة دمشق

كانت ثورة غوطة دمشق تتمة وروافدا في عين الوقت لثورة الجبل ولكل الثوارت السورية. فلما ثار سلطان في جبل العرب، وهو متاخم من ناحية الجنوب للغوطة، كان الشعور المتفجر لدى الناس في دمشق وغوطتها وفي كل مكان مثل قنبلة تنتظر إشعال الفتيل.

والمتأمل في الثورات الكبرى لا يجد دائما انها بدأت بتنظيم محكم حتى حين يكون الشعور بضرورتها راسخا. فحادث بسيط ما يلبث أن يفجر المشاعر قمين بأن يلهب عواطف الناس وأحيانا يضعهم في مأزق يلزمهم بأن يدافعوا. الثورة تكون ضرورة، وتكون كامنة في النفوس، ولكن الذي يفجرها أحيانا ربما كان حادثا غير مرتقب ما يلبث أن يتصاعد.

فالوطنيون في دمشق كانوا على صلة بكل القوى في كل أنحاء البلاد، ولكنهم لم يكونوا هم الذين اوعزوا لكاربيه، ذلك الكابتن الأحمق، بأن يجعل من (هرة) ملازم فرنسي سببا للتغريم ومحلاً للغطرسة، وكان لا بد من حماقة فرنسية إضافية يبديها المندوب السامي لتشتعل النخوة في رأس سلطان فوق ما كانت متراكمة ويبدأ القتال. ونظرة على ثورة الغوطة نجد أسبابها متوفرة في الشعور بالظلم ورفضه وانتظار السانحة، فلما قام بعض الثوار في قرية النشابية بالهجوم على الفرنسيين وتدمير خطوط الهاتف كان يمكن للحادث أن يكون شقاوة عادية كما تصفه السلطات لولا الشعور العام الذي ينتظر شرارة ليتفجر.

ففي ١٠ تشرين الأول ١٩٢٥ هاجم الثوار قرية جبرين وأسروا عددا من

الجنود الفرنسيين، وفي ١٤ تشرين الأول هاجموا قوة فرنسية في جسر تورا ثم في جوبر، وجاء فوزي القاوقجي بعد فشل ثورة حماة فشارك وقاد، وجاء الوطنيون من دمشق - وبعضهم كانوا من أفندية الإقطاعيين- فوحد السلاح بينهم وبين الفلاح الصغير.

وحين التقى من كانوا سيصيرون زعماء الثوار في قرية بالا بحضور فوزي القاوقجي وسعيد العاص وشوكة العائدي واحمد مريود ونسيب البكري وعبد الرحمن الشهبندر وديب الشيخ وصبري العسلي وأحمد الشهابي وغيرهم كثيرون، أعلن عبد الرحمن الشهبندر أن سلطان الأطرش ولاه قيادة الثورة! كان عبد الرحمن الشهبندر رجلا شهيرا ومؤثرا وفعالاولكن مجادلا فيه.

هناك من ضخموا زعامته وهناك من شككوا به، والاجتماع الذي أعلن فيه أنه قد تولى القيادة بقرار من سلطان حدثت فيه بلبلة، ورفض سعيد العاص هذا التعيين، وأراد القاوقجي الرئاسة له لأنه عسكري وجازف بحياته ومستقبله، فانفرط الاجتماع، ثم عاد الجميع فالتقوا في قرية سقبا وتوزعوا قيادات المناطق وهكذا حل الخلاف.

وفي ١٤ تشرين الأول ١٩٢٥ وقعت معركة زور المليحة حين تمكن الثوار من فك الحصار الفرنسي، واتجهوا الى الضمير بقيادة رمضان شلاش وقضوا على الحامية الفرنسية فيها ثم عادوا الى الغوطة.

وفي ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥ هاجم الثوار دمشق عندما وصلت معلومات تفيد أن الجنرال ساراي موجود في قصر العظم ودخلوا المدينة من

ثلاثة محاور: أحدها دخل من الميدان بقيادة نسيب البكري، والثاني من طريق العقيبة ويقوده ابو عبده ديب الشيخ، والثالث يقوده حسن الخراط وحسن المقبعة ودخل عن طريق الشاغور.

كان دخول الثوار الى دمشق شيئا عظيما ومفاجئا للسلطات الفرنسية، وقد تمكنوا من احتلال مخافر الشرطة وتجريدها من الأسلحة، ثم ساروا عن طريق البزورية إلى قصر العظم.

المعركة كما وصفها بدر الدين الشلاح

يصف التاجر الكبير والرجل المرموق السيد بدر الدين الشلاح أبو راتب، في كتابه (المسيرة التجارية) دخول الثوار الى جوار قصر العظم في ذلك اليوم (ص٣٦١) قال:

"كنت أحد الشهود لذلك اليوم وما زلت أذكر الفصيلة الثورية الشجاعة التي هاجمت مقر الجنرال سراي في قصر العظم وعلى رأسها الثائر الشهيد حسن المقبعة من أبناء حي قبر عاتكة. فقد رأيت الثائر حسن قبل الهجوم بقليل وهو يغسل يديه في بحرة أول شارع الدقاقين وهو مدجج بالسلاح وحول جسمه حاملات القنابل وجعبات الذخيرة فسلمت عليه ودعوت له بالنصر وتبين لي أنه يستعد للهجوم مع الاحتراز حتى لا يناله الرصاص المتساقط من الجنود الفرنسيين المرابطين على سطوح المقر.

وقد اضطرت القيادة الفرنسية آنذاك لإرسال عدة دبابات ومصفحات إلى قصر العظم لإخراج الجنرال ساراي المحاصر، وحدثت اشتباكات حامية

بين الثوار والقوة الفرنسية استشهد خلالها بعض الثوار، ولكن الفرنسيين أخلوا قصر العظم وتركوه في حالة كالفوضى، واحترقت مدرسة الإسعاف الخيري المجاورة له. "

وبعد ذلك بدأ القصف المدفعي من القلعة المسلطة على دمشق من الجانب الجنوبي الغربي (والتي تم هدم بعضها فيما بعد وبقي منها السجن العسكري) وكان اسم هذه القلعة (حصن غورو) فأصيبت أحياء عديدة ودمر حي سيدي عامود بأكمله ودور كثيرة من العمارة والشاغور، فاضطر الثوار للانسحاب من المدينة تخفيفا للضغط عليها حيث كان من نتائج هذا الهجوم احتراق اكبر البيوت العريقة والفخمة والملأى بالأثاث الدمشقي النادر بما فيها من اموال، وهاجر قسم كبير من أبناء الميدان والشاغور والأحياء المجاورة إلى أحياء الصالحية ففتحت لهم أبواب المنازل وتشارك الناس في الضراء.

وأضاف السيد بدر الدين الشلاح يقول:

" وقد شاهدنا من سطوح المنازل الحملة العسكرية الفرنسية تتجه إلى موقع قصر العظم، وفي طريقها افرغت صفائح البنزين على جميع المنازل من حمام القاضي الى جوار منافذ سوق الحميدية فهرب السكان من بيوتهم جماعات وفرادى، رجالا ونساء وأطفالا في كل اتجاه وتصاعدت ألسنة النار فأضاءت سماء دمشق بعد الغروب وملأتها بسحب الدخان الأسود وامتد الحريق في كل اتجاه فأتى على مجموعة من اجمل مخازن دمشق وظلت النار طوال يومين تأكل الأخضر واليابس وتحوّل كل قائم وشامخ إلى أنقاض ورماد أسود على نطاق يمتد من البيمارستان النوري شرقا إلى سوق الحميدية

شمالا وإلى شارع الدرويشية غربا دون أن تتدخل أية جهة لإطفاء النار وحصرها، وكاد الحريق يمتد إلى حي القنوات المجاور لولا جهود السكان بالأيدي وسطول الماء ودفاعهم المستميت عن منازلهم.

وقد بقيت هذه المنطقة تلالا من الأنقاض والرماد، تتصاعد منها رائحة الموت عدة أشهر، وأطلق عليها الاسم الشعبي المشهور (الحريقة) الذي رافقها حتى الآن وهو واضح الدلالة على ذلك الحدث المروع الذي أصاب اجمل أحياء غربي دمشق ضمن السور وزال الجزء الهام من سور دمشق الذي يمتد من برج القلعة الأمامي إلى باب الجابية.. "

وبعد ان استمر القصف حتى مساء ٢٠ تشرين الأول توجه وفد من مواطني دمشق كان برئاسة الأمير سعيد الجزائري ووفد آخر برئاسة حقي العظم إلى رئاسة أركان القوات الفرنسية وطلبا وقف القصف المدفعي العشوائي فلم تقبل القوات الفرنسية ذلك إلا بفرض غرامة حربية قدرها مائة ألف ليرة وتسليم ثلاثة آلاف بندقية حربية خلال ثلاثة أيام، ثم صدر قرار المفوض السامي بتعيين الجنرال اندريا حاكما عسكريا على دمشق وجبل العرب، وتقاطرت التعزيزات العسكرية للقضاء على الثورة. ونتيجة لهذا الضغط فر الكثيرون من القادة المطلوبين، ولكن الثورة استمرت، وفي ٢٥ كانون الأول جرت معركة في باب الجابية وفي ١٠ كانون الثاني ١٩٢٦ جرت معركة في داريا وفي ٢٤ كانون الثاني جرت معركة في مأذنة الشحم (علما بأن باب الجابية ومأذنة الشحم داخل دمشق) وفي ١٠ شباط جرت معركة حوش الريحان وقلعة جندل والبيرة.

حملة رائعة

وفي ١٣ شباط اجتمع المجاهدون فوزي القاوقجي وشوكة العائدي وسعيد العاص وفائق العسلي وسعيد عدي وخليل بصله واحمد الملا وديب الشيخ وغيرهم وكان الاجتماع في قرية الحتيتة وقرروا مهاجمة دمشق ليلة ١٣-١٤ شباط لاستطلاع حجم القوات الفرنسية تمهيدا لهجوم شامل، ونفذ الهجوم حوالي ١١٠٠ مجاهد دخلوا دمشق من المزة والميدان وحي الأكراد والشاغور واشتبكوا مع القوات الفرنسية ثم انسحبوا الى الغوطة.

وفي ٢٥ شباط ١٩٢٦ اجتمع رؤساء المجاهدين للتداول في تنظيم الثورة وإنشاء مجلس وطني وتقسيم الثورة الى مناطق واتخذوا قرارات هامة جدا بكل التفاصيل وأسسوا مجلسا وطنيا للثورة السورية في الغوطة ينتخبه رؤساء الثوار، وكل عصابة تقوم بعملها في منطقتها أما الهجوم العام فيقرره المجلس، ونظموا مفارز امن ومواصلات واتفقوا على شارات يحملونها ولا يجوز لثائر ترك مجموعته لينضم الى غيرها وأن يحاكم كل جاسوس امام المجلس الوطني ويلاحق المجلس الوطني للثورة الأشخاص الذين يعتدون على الأهلين.

واتسعت أعمال الثورة في غوطة دمشق. وفي ٢ آذار ١٩٢٦ جرت معركة جسر تورا الثانية ومعركة حرستا وعربين، والتقى ثوار الغوطة مع ثوار القلمون وجرت معركة النبك الثانية، وفي ٢٢ آذار جرت معركة قطنا ثم معركة معلولا. وفي ١٨ أيار جرت معركة حيرنا والميدان ومرج السلطان وجوبر الثانية في أوقات واحدة أو متقاربة، وفي شهر حزيران ١٩٢٦ معركة

بستان الأواسي ومعركة سقبا والثريا. وفي ١٨ تموز معركة عربين و٢٠ تموز معركة بالا و٢٢ تموز معركة حمورية و٢٣ تموز معركة عقربا ثم سقبا والزور والقاسمية والعتيبة.

وكانت معركة زور المحمدية وبسيمة في ١٧ أيار ١٩٢٧ آخر المعارك التي خاضها ثوار الغوطة بعد أن أصاب الثوار الوهن وتكاثرت الصعوبات وتحرك الجواسيس وازدادت شراسة الفرنسيين. . .

لقد كان القتال ضد الفرنسيين غاية في الصعوبة وينتج ما لا يحصى من اعمال التنكيل. ولكن الشرف الوطني ظل أعلى، ولم يكن يخطر ببال أحد أن يتراجع أو يتخاذل، ولكن انسداد أبواب الإمداد لم يلبث أن جعل الاستمرار مستحيلا، وبدأت الثورة مرحلة الانحسار ثم التوقف.

ولا بد لنا هنا من تعليل لقوة الثورة وضعفها، وصدها ثم عجزها عن الاستمرار، ولسوف أتحدث عن امور صغيرة شهدتها بنفسي أو عرفتها من قرب، ثم أنتقل إلى الاعتبارات العامة!

قوة الثورة وضعفها

كانت قوة الثورة تكمن في الروح العربية التي لم تفلح كل أنواع الحكم الأجنبي وكل سياسات المحتلين في إذابتها رغم ان الحكم التركي استمر أربعمئة عام وعامين تلاه نحو ستة أعوام من الحكم الفرنسي، وكان الإسلام روح هذه العروبة ودرعها الحامي من الزوال مادام القرآن عربيا.

وكان مما غذّى الروح العربية شعور الناس بالعزة في فترة الاستقلال التي

سبقت من عام ١٩١٨ إلى عام ١٩٢٠ فمن ذاق حلاوة الاستقلال بعد حكم طويل يصعب عليه هضم عودة الاستبداد، لاسيما وأن الأتراك على قربهم ووجود بعض الروابط معهم لم يكونوا مقبولين فكيف يكون مقبولا حكم فرنسي بعيد عن تقاليدنا ويتسم بالغطرسة ويتخذ سلاحه وجنده من أخلاط من الشعوب التي كانت متخلفة وكان لتوه خرج منتصرا من الحرب العالمية الأولى بعد إذلال شديد على يد الألمان يريد تعويضه بالسيطرة المضاعفة على العرب! كما كان من قوة الثورة أن حول سورية ملاذات للثائرين في بلاد عربية مجاورة يلقون فيها بعض السماح لتنافس النفوذين البريطاني والفرنسي ولو أنه لا يؤمن له بدليل ما رأيناه من تسليم هنانو (الذي وصل إلى الأردن بعد رحلة طويلة ومعاناة وأخطار) إلى الفرنسيين لمحاكمته.

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن الفرنسيين لم يكونوا تمرسوا بحكم بلادنا ولا استطاعوا بعد أن يحكموا شبكة عملائهم من ضعاف النفوس ولذلك كانت سياستهم بادية الاضطراب فلا ينظمون تدبيرا إلا ويعودون إلى نقضه بعد سنوات، كما أن الحكم في فرنسا كان يتحرك تحت ضغط الشعب الفرنسي نحو اليسار بالتدريج، واليسار لا يملك أن يناقض نفسه ويساند سياسة التحكم بالشعوب الأخرى، وهو ما تجلى بوجه خاص في فترة الثلاثينات.

ملاحظات إضافية حول الثورة

لم يكن في وسعي أن أنقل كل ما كتب عن الثورة السورية الكبرى لا ما يتعلق ببسالة الثوار ورجولتهم وأعمالهم ولا ما يتعلق بتنكيل السلطة الفرنسية لكثرته وغزارته. ومن المؤسف أن تكون الأخبار التي تتعلق بهذه الثورة قد بقيت متفرقة في الكتب التي تناولتها بالتفصيل ومنها كتاب منير الريس عن وقائعها وقد شارك فيها بفاعلية وأخذت منه بعض حوادث هنانو وغيرها من الأحداث، وكتاب محمد سعيد الزعيم عن ثورة حماة وكان أيضاً من شهودها والمشاركين في بعض أعمالها، وأخيراً كتاب الصديق المرحوم ظافر القاسمي نقيب المحامين الأسبق وعنوانه «وثائق جديدة عن الثورة السورية الكبرى» وقد جمع فيه الأحكام الصادرة عن المجلس العدلي الذي أقامته السلطة الفرنسي سنة ١٩٢٥ وأصدر أحكامه في جميع قضايا الثورة، وكان سجل هذه والأحكام قد وجد سليماً في مستودع وزارة العدل السورية.

إن مهمة تأريخ الثورة بصورة شاملة ماتزال مطروحة وممكنة بأخذ المعلومات الحية من بقايا الثوار والمجاهدين الذين جاوزوا الثمانين على قلة عددهم أو من أقربائهم المباشرين ومن الوثائق التي وجدت وكتبت والوثائق التي مكن أخذها من الدوائر الفرنسية بعد أن انتهت مدة التحفظ عليها وصار من الممكن كشفها لرجال التاريخ.

ولعل من أجمل ما اكتشفت في كتاب الأستاذ القاسمي تلك الأشارة إلى رجال الدرك السوريين الذين كانوا حملة السلاح الوحيدين من السوريين بين

رجال الأمن، لأن الآخرين من السوريين المتطوعة في جيش الشرق كانوا تحت إمرة الفرنسيين المباشرة. فقد جاء في تقرير فرنسا إلى عصبة الأمم عن عام ١٩٢٥ (إن الدرك المحلي الذي كان حسن السلوك قد توقف منذ أول آب عن القيام بواجباته وأضحى الثوار يحركونه). وكذلك جاء في تقرير الجنرال غاملان المؤرخ في ٣٠/ ١٠/ ١٩٢٥ عن حوادث دمشق: «ومما لاريب فيه أن بعض أفراد الدرك شارك الثوار في حملاتهم». كما اعترف الحكم بأن الثوار كانوا إذا التقوا بالدرك اكتفوا بتجريدهم من السلاح، وورد في أحد الأحكام أن المجاهدين أحمد البارافي ومحمد سعيد داري ومحمود مخباطة كانوا فروا من صفوف الدرك والتحقوا بالثورة وقاموا على رأس ٥٠٠-٦٠٠ ثائر بمهاجمة قطنا ودائرة الحكومة فيها عند منتصف الليل.

وجاء في الصفحة ١٤٢ من سجل الأحكام ما يتعلق بالحارس الليلي عمر الرشيدي ويقول الحكم: «إن المتهم الرشيدي كانت معه جعبة ملأى بالبنادق فرجا المدعو جودة الدردري أن يودعها لديه فلما رفض ذهب وأودعها حفرة في بيت خرب. . .» مما يدل على أن كثيرين من الحراس كانوا يتعاونون مع الثوار في جمع السلاح والذخيرة من المخافر ومن المستودعات وتسليمه إلى الثائرين.

ومن المعلومات ذات المغزى العظيم أن صبياً في الخامسة عشرة من عمره هو أمين بن حسن الأشقر قبض عليه بين المجاهدين ومعه بندقية وذخيرة ويحارب كالرجال الأشداء، فاضطر المجلس إلى تخفيض العقوبة من الإعدام إلى الحبس ثلاث سنوات في دار للاصلاح والحكم مؤرخ في ٢٤/ ٩/ ١٩٢٧

دكوك البساتين

أضيف إلى ذلك أيضا أن الطبيعة لاءمت. فجبل العرب منيع طبيعيا وملاصق للعراق وشرق الأردن كبعد استراتيجي إنساني.

والغوطة كانت مكانا مثاليا للثورة لأن بين كل بستان وآخر إضافة إلى الأشجار التي تحمي كان يوجد (دك) من تراب عرضه (أي سمكه) نحو خمسين سنتمترا ويعلو نحو مترين فكان ساترا طبيعيا لمن يتمترس خلفه من الثائرين ولا ينفذ منه لا الرصاص ولا الطلقات الأغلظ لمرونة التراب في الاستيعاب. ونظرا لأن الملكية في الغوطة ملكية صغيرة في ٩٥٪ منها خلافا لما يشاع، وأملاك (الأفندية) لم تكن تبلغ حد الإقطاعيات في مناطق حمص وحماه وحلب وسواها (والأفندي) بحكم الطبيعة الشامية الأقرب إلى الرقة لم يكن غليظا ومكروها ولذلك نجد أن كل العائلات التي تملك أكثر من سواها في الغوطة أعطت الثورة رجالا مشاهير مثل آل القوتلي والبكري وعيرها من العائلات.

ولذلك فالدكوك تتوالى وأبعد واحد عن الآخر -بحكم تجزئة الملكية في الغوطة- كان لا يزيد بعده عن بضع مئات من الأمتار وغالبا ما يكون نحو مئة متر. وقد رأيت هذه الدكوك بنفسي لا سيما وانني كنت أعيش في (بستان الكركة) كما ورد في كتابي الأول، وفيه الحدود دكوك. ولذلك كان أول ما فعله الفرنسيون بعد انتهاء الثورة انهم أمروا بهدم جميع الدكوك في الغوطة ولم يعد منها ولا واحد حتى للتذكير بالماضي، فزالت هذه المعالم التي كانت تقي الثوار حتى من القنابل وتؤمن لهم أفضل حماية.

أما في المناطق الأخرى وأغلبها جبلي أو متاخم للصحراء كما في جبال اللاذقية ومناطق حلب وتلكلخ وعكار وبعلبك وجبل عامل وحاصبيا وراشيا فالثورة يمكن أن تعيش وتحتمي أفضل مما في مناطق السهول.

تضامن الشعب

وأضيف إلى ذلك حماية أكبر وهي تضامن الناس. فأبواب الشعب كانت مفتوحة للثائرين، والدين الذي يشتد زخمه وتأثيره عند شعور الثائر المحارب أنه قد يقتل في أيه لحظة، يجعل الثائرين يحترمون عائلات من يضيفونهم ويحمونهم ولا يعتدون على حرمات من يؤونهم، وهو أمر عانت منه كل الثورات في العالم وكان أفضل من وجدوا له حلا الكوبيين والفيتناميين الذي اعتبروا الاعتداء من الثائر على عرض من يمنحه المأوى جرما جنائيا يستوجب الإعدام، وكذلك كانت الثورة الفلسطينية قد طرحت هذه المسألة بشدة متناهية فيما أذكر:

ولذلك فلم يغلق أيام الثورة باب أمام ثائر ملاحق حتى ولو لحق الأذى بمضيفه. بل يمكن القول أن المضيفين الذين يبقون بعد رحيل الثوار كانوا الأكثر معاناة لأنهم باقون في مكانهم مع بيتهم وأولادهم ورزقهم البسيط، فإذا جاء المحتل في فترات المطاردة هدم بيوت الناس على رأس أصحابها لأنهم آووا الثائرين.

ذكريات شخصية

وأذكر-لأنني من مواليد ١٩٢١- أنني ذات ليلة وكنا في بستان الكركة وهو آحر العمران شمال طريق الصالحية ويتصل عن طريق البساتين المتسلسلة بمنطقة برزة والقابون وجسر تورا الذي كان آخر ما يتجرأ الفرنسيون على الوصول إليه (هو اليوم عند المحلق الشرقي الشمالي من دمشق) وقد استمد اسمه من انه جسر على نهر تورا، في تلك الليلة سمعنا إطلاق الرصاص من عند المكان الذي فيه الآن المصرف المركزي وهو يبعد عن بيتنا نحو ٥٠٠ متر. وقد قذفني والدي أنا وشقيقي برهان تحت السرير حتى لا تأتي طائشة من النوافذ، وكان حينا مليئا بالجنود السنغاليين.

كما انه حدث أن احتجزني أهلي يوما ثم سمعتهم يتحدثون وشوشة عن ثلاثة ثائرين أعدموا في بستاننا بعد ان حكمتهم المحكمة العسكرية الفرنسية التي كانت تبعد عن دارنا ١٠٠ متر فقط، فأخذهم الجنود فورا وأجبروهم على حفر قبورهم في البستان ثم رموهم بالرصاص وأهالوا عليهم التراب ومن حولهم عويل مختنق في كل البيوت المجاورة التي يسكنها أصحاب البستان من آل سرف وقصاب حسن

وكان بين القتلى واحد من آل عرنوس وآخر من آل جقميرة وثالث لا نعرفه، وظلت هذه الحادثة في ذاكرتي مثارا للحقد والغضب حتى الآن.

ضعف الثورة

أما ضعفها الذي أدى إلى تفتيت معاركها وجعلها تشتعل واحدة بعد الأخرى على فترات تتيح للفرنسيين تجميع القوى، فكان ناشئا عن حداثة العهد بالاستقلال، وأهواء الدول المجاورة التي يمكن على أراضيها الحصول على السلاح والذخيرة وعدم تشكيل قيادات موحدة للثورة والضعف المالي وعدم وجود العون إلا قليلا من البلاد المجاورة وهي تركيا التي خرجت مطرودة مكروهة، والحكم الإنكليزي في العراق والأردن وفلسطين الذي كان قد أنجز تقاسم البلاد مع الفرنسيين.

بل ان كون الثورة عاشت سنوات في هذه الظروف يعتبر في حد ذاته معجزة وطنية قوامها الشعور العظيم المتدفق والصبر على أفدح أنواع الانتقام.

تأرجح السياسة الفرنسية الظاهرة

إن المسألة السورية ظلت تشغل الساسة الفرنسيين في فرنسا منذ الاحتلال، وكانت فرنسا تشهد حكومات متعاقبة تتراوح بين اليمين والوسط مع نفوذ يتعاظم للجناح الاشتراكي. وكان التأرجح في المواقف الفرنسية يبدو في تبديل المفوضين السامين. فبعد أن قام الجنرال ساراي بتدمير أكبر واجمل أحياء دمشق كان الرأي العام الفرنسي في موقف من عدم الرضا حمل الحكومة الفرنسية على تنحيته بعد وقت قصير جدا من قصف دمشق.

فالقصف تم في ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥ والتنحية كانت فورية وغادر ساراي بيروت في ١٠ تشرين الثاني أي بعد إثنين وعشرين يوما، وعيّن مكانه الكونت هنري دوجوفنيل عضو مجلس الشيوخ الفرنسي وهو أول مدني يعيّن في هذا المنصب ولذلك فقد افتتح عهده بتصريح قال فيه أنه سيعمل على تنظيم استقلال سورية ناظرا إلى المستقبل وليس إلى الماضي.

ولذلك سرعان ما اتصل به بعض الوطنيين ولبى رغبتهم فاجتمع في القاهرة إلى شكري القوتلي وشكيب أرسلان والحاج أمين الحسيني والشيخ رشيد رضا وأسعد داغر وخير الدين الزركلي وعبد الرحمن الشهبندر وميشيل لطف الله.

ولكن دوجوفنيل رأى في مطالبهم تصلبا قيل أنه كان من وحي المتطرفين وقطع المفاوضة وذهب إلى بيروت.

وفي ١٠ كانون الأول أذاع دوجوفنيل على الشعب السوري بيانا عنوانه (مصيركم في أيديكم) فأجابه كل من فوزي الغزي وعفيف الصلح ولطفي الحفار والداماد احمد نامي- الذي كان يحلم بعرش سورية- والأمير أمين مصطفى أرسلان والدكتور حسن الأيسر بأن طلبوا اللقاء معه، ولما وافق التقى أبرزهم بسلطان الأطرش وعادل أرسلان في قرية حرة وطلبوا تحقيق مطالب الثوار وهي توحيد البلاد السورية وإعلان العفو العام وتأليف حكومة يقبل بها الثوار وعقد معاهدة صداقة مع فرنسا وتعويض المنكوبين عن خسائرهم.

ولكن دوجوفنيل رفض هذه المطالب أيضا لتصلبها ثم طلب تأليف وفد من المعتـدلين ضم عطا الأيوبي وشاكر الحنبلي وفارس الخوري ورشيد الصفدي وكاظم الجزائري وواثق المؤيد، فقدم هؤلاء مطالب هي إنشاء حكومة وطنية وانتخاب الشعب بمجلس تأسيسي وتحقيق الوحدة السورية والعفو وإعادة الجيش الفرنسي الزاحف إلى ثكناته.

ورفض دوجوفنيل هذه المطالب أيضا وعرض أن يتوقف الثوار عن القتال ويسلموا أسلحتهم ما لم يكن أحدهم قد ارتكب جرماً.

وقامت الطائرات الفرنسية بتوزيع هذا البيان من الجو.

وفي ٢٣ كانون الأول أصدر عفوا عن المعتقلين السياسيين وأطلق سراح المنفيين في أرواد وقبل استقالة صبحي بركات، ولكن الثوار وقفوا موقف الرفض.

الفصل الثالث - عودة إلى النضال السياسي

الشيخ تاج الدين الحسني

وهنا قفز إلى مقدمة الساحة الشيخ تاج الدين بن الشيخ بدر الدين الحسني وكان صديقا للكومندان كوليه رئيس الاستخبارات العسكرية الفرنسية فسافر إلى بيروت في ٣/ ١/ ١٩٢٦ وأعلن عند عودته قبوله المبدئي بتكليفه برئاسة الحكومة السورية وحاول دوجوفنيل تكريس التجزئة فأجرى انتخابات في حمص وحماه وحلب في ٨ و٢٢ كانون الثاني ١٩٢٦ ولكن الأهلين قاطعوها وحصلت مظاهرات قتل فيها خمسة عشر شخصا وجرح أربعون في مدينة حلب.

ولما اجتمع النواب المعينون كان اول ما فعلوه إصدار بيان بالمطالبة بالوحدة السورية، فحل المجلس فورا.

ولما فشل الشيخ تاج في برنامجه لم يجد دوجوفنيل من يرضى بالحكم إلا على أساس ما يرضي رجال الثورة، فأصدر في ٩ شباط ١٩٢٦ قراراً بتعيين فرنسي حاكما على سورية وهو بيير اليب، وعيّن الجنرال أندريا حاكما عسكريا متفرغا لسحق الثورة.

حكومة الداماد احمد نامي

وفي ٢٦ نيسان ١٩٢٦ أصدر دوجوفنيل قرارا بتعيين الداماد احمد نامي (والداماد هو زوج ابنة السلطان عبد الحميد، وهذا لقب من يتزوج بنت السلطان) رئيسا لحكومة مؤقتة تم تشكيلها بعد أسبوعين وفيها ثلاثة من الوطنيين هم لطفي الحفار وفارس الخوري وحسني البرازي وثلاثة هم شاكر الشعباني وواثق المؤيد ويوسف الحكيم.

أول ماقامت به هذه الحكومة انها قررت دعوة جمعية تأسيسية لوضع الدستور وتحويل الانتداب إلى معاهدة مع فرنسا لثلاثين سنة على غرار المعاهدة بين بريطانية والعراق، وتوحيد سورية والنظام القضائي والانتساب إلى جمعية الأمم وتأليف جيش وطني وإصلاح النظام النقدي وإعادة الأساس الذهبي ثم العفو العام وإلغاء الغرامات الحربية والتعويض عن منكوبي الثورة. ولكن الفرنسيين أبدوا عدم موافقتهم على هذه المطالب وعرضوا - لكسب الوقت - مشروع معاهدة باسم معاهدة دوجوفنيل، ثم غادر المذكور إلى فرنسا لأخذ موافقة حكومته. ولكن الفرنسيين ما لبثوا أن خنقوا الأمل باعتقال ثلاثة من وزراء الحكومة هم الحفار والخوري والبرازي، وأحرج الداماد فأذاع بيانا بأن الاعتقال جرى بأمر السلطة العسكرية دون علمه، ثم نفي هؤلاء الوزراء إلى الجزيرة، وصارت الوزارة في حالة من الاضطراب والخلخلة. وفي ٢٧ آب ١٩٢٦ قدم دوجوفنيل استقالته لأن الحكومة الفرنسية لم توافق على سياسته فعينت مكانه هنري بونسو، ووصل الى بيروت في ١٠ تشرين الأول ١٩٢٦.

هنري بونسو - السياسي الساكت

كلف هنري بونسو عند وصوله الداماد أحمد نامي بتأليف وزارته الجديدة - الثالثة - .

فألفها من عدد من المعتدلين المحايدين هم شاكر الحنبلي للمعارف ويوسف الحكيم للعدل، ورؤوف الأيوبي للداخلية ورشيد المدرس للزراعة والأشغال وحمدي النصر للمالية ونصوحي البخاري للاقتصاد.

ثم سافر بونسو في شباط ١٩٢٧ الى جنيف لحضور اجتماعات عصبة الأمم وعاد منها واضعاً حداً لكل الوعود الفرنسية الايجابية. ولما صرح بذلك كان رد الفعل عليه رافضاً بقوة.

وتواصلت الاجتماعات بين الفرنسيين وفئات بعضها من الوطنيين وبعضها من المعتدلين وبعضها من أنصار فرنسا وانفجر الخلاف بين حزب الشعب (الشهبندر) وحزب الاستقلال (القوتلي).

وفي هذا الجو استقال وزراء حكومة الداماد فاستقال هو الآخر وهنا استدعى بونسو الشيخ تاج في ١٥ شباط ١٩٢٨ وكلفه بتأليف الحكومة ومن أجل دعم الحكومة أصدر قرارات بتخفيف الرقابة عن الصحافة - الأمر الذي يفسر الحرية النسبية التي تمتعت بها الصحافة في الثلاثينات - وألغيت الإقامة الجبرية عن لطفي الحفار وسعد الله الجابري وبدر الدين وأديب الصفدي. ثم دعا الشيخ تاج الى انتخابات لجمعية تأسيسية تضع الدستور.

الشيخ تاج

وكان الشيخ تاج الدين رجلا معمما ذكيا جدا ذكاء الدهاء والمناورة، وتولى مع أبيه ثم بعده مكانه في دار الحديث لأن الشيخ بدر الدين كان محترما ومحبوبا في دمشق ويسميه الناس المحدث الأكبر لشهرته في رواية الحديث النبوي. ولكن الشيخ تاج تعامل مع الفرنسيين وولوه رئاسة الحكومة مرات ثم نصبوه رئيسا للجمهورية حتى مات كما سيأتي.

فتحت عيني على الدنيا والشيخ تاج الدين رئيس للحكومة فقد خلف حكومة الداماد أحمد نامي الذي كانت شهرته أنه طيب ضعيف. وقد استفاد الشيخ تاج اول الأمر من مركز والده الديني وعمل في ميدان الإدارة والبناء اعمالا تذكر، وأرضى الكثيرين بالمال والوظائف والوعود الصادقة أحيانا والكاذبة اكثر الأحيان، وكان مع الشيخ تاج عدد من الوزراء المعروفين منهم المحامي الكبير سعيد محاسن، ومنهم محمد كرد علي وهو العالم الشهير، وغيرهم من الشخصيات التي كان يرجو من اختيارها أن تستقطب الاحترام

وقد عمل الشيخ تاج بدهاء لإنجاح أشخاص يضعون الدستور كما يرضى عنه الفرنسيون ويهيء حتى للتزوير في سبيل هذه الغاية. لكن المجلس الذي أسفرت عنه الانتخابات جاء رغم هذه المحاولات وفيه معارضة وطنية كبيرة قوية وسيطر الوطنيون من أبناء المدن وفي مقدمتهم فوزي الغزي واضع الدستور على نواب الأقضية. ولما وضع دستور جيد واستقلالي من / ١١٥/ مادة وكادت الجمعية تصوت عليه، تدخل المفوض السامي وطلب حذف المواد الست التي أثارت اعتراضه، وكانت هذه المواد الست إحداها تنص على الوحدة السورية،

والأخريات تتحدث عن صلاحيات رئيس الجمهورية في عقد المعاهدات والعفو واختيار رئيس الوزراء وإعلان الأحكام العرفية وغيرها وكلها كانت من سلطات المفوض السامي. ولكن المجلس بعد المداولة رفض طي هذه المواد الست، فوقف مندوب المفوض السامي واعلن تاجيل جلسات المجلس لمدة ثلاثة أشهر. ولكن هذه الأشهر تلتها أشهر أخرى ثم تقرر حل الجمعية نهائيا. كانت كل هذه الأمور وهي واضحة ومبسطة حديث الناس، وعيتها في صغري وحفظتها وأثارتني كما أثارت كل أبناء الشعب، ولما بدأت عام ١٩٣١ مرحلة الدراسة الإعدادية في مكتب عنبر كنت وجميع رفاقي مستنفرين ضد الفرنسيين والشيخ تاج ومع الوطنيين إلى أقصى درجات التطرف وتهيأت لي عن طريق عمي فرصة متابعة الصحف والمجلات، وصرت منذ أول عهد الفتوة إنسانا مسيّسا ولم أكن في ذلك الوحيد بل كان الجيل كله مثلي. أقام الشيخ تاج حكما إرهابيا على الناس، وسرح الموظفين الذين يناوئونه أو ينضمون إلى الرأي العام الوطني. وقد جند لذلك الرعاع والانصار والمحاسيب، وبدد الأموال وزاد في المصاريف المستورة وكان ما أنشأه من مبان ووضع اسمه عليه وسيلة للسرقة والمشاركة مع المتعهدين كما نهب الأوقاف بالتعاون مع وزير الأوقاف وهو من أنصاره. وقد أسس أيضا أحزابا لمعارضة الوطنيين بينها حزب ملكي، وعاد فقيّد حرية المطبوعات وعطل الصحف، ولكن أشد ما صدر في أيامه قانون قمع الجرائم الذي أثار الناس وجعل كل مظاهرة أو إبداء للرأي ضد الحكومة يخضع للمحاكمة أمام المحاكم المختلطة، وهي محاكم يرأسها فرنسي وفيها عضو سوري وآخر فرنسي.

المحاكم المختلطة

لابد هنا من وقفة استراحة عند هذه المحاكم المختلطة. ففي ذاكرتي كانت بغيضة لأنها تمثل عدوان قضاء هو فرنسي استعماري في حقيقته على القضاء السوري، وسيادة القضاء الوطني من أول ملامح السيادة الوطنية.

وكانت هذه المحاكم المختلطة قد انشئت أول الأمر لتنظر في أية قضية فيها طرف أجنبي، بحجة ضمان حقوق الأجانب، وكانت موجودة كذلك في مصر ولبنان. والمحكمة المختلطة درجتان الأولى في دمشق، والثانية الاستئنافية في حلب.

وكان يرأس المحكمة المختلطة في دمشق، حسب ذاكرتي، قاض اسمه المسيو (سيرو) وكان اسمه بغيضا على الأسماع والأفواه إذا تذاكر الوطنيون في أحكامه ولكن عندما أصبحت محاميا وسمعت سيرة المحاكم المختلطة من المحامين القدامى تغيرت الصورة في ذهني بعض الشيء، إذ كانت هذه المحاكم قد أفادت في إرساء التقاليد القضائية، ونبت على أطرافها عدد من المحامين الأقوياء في الفقه الفرنسي ولا يزال بعضهم في الساحة حتى اليوم.

ومما أذكره عن المحاكم المختلطة أنه كان يساق أمامها من يشتركون في المظاهرات فيحكم عليهم بالسجن ثلاثة أشهر أو ستة، وأحيانا تصل العقوبة إلى أكثر من ذلك. وبمقاييس تلك الأيام كانت هذه الأحكام شديدة جدا ولكنها فيما بعد وفي أيام بعض الحكومات (الوطنية) الشديدة في حق معارضيها صرنا نرى أن أحكام المحاكم المختلطة كانت لطيفة، أو لعل هذا من شعورنا بأن (ظلم ذوي القربى أشد مضاضة)...

وكان المحامون أمام المحاكم المختلطة يتمتعون بالثقة فلا يطلب من المحامي صك توكيل، لأنه مصدق، ويكفي أن يتقدم إلى المحكمة قائلا أنني وكيل عن الطرف الفلاني حتى يقبل. وكان يستطيع أن يأخذ ملف الدعوى الأصلي إلى مكتبه للدراسة والاطلاع ولا احد يعارضه. وذات يوم ادعى أحد المحامين الوكالة وجاء موكله فنفى التوكيل، فنظر الرئيس إلى المحامي وقال له: أستاذ، المحكمة تنظر بعدم الرضا إلى وجودك هنا. . . وكان هذا طردا واضحا للمحامي الذي لم يعد إلى تلك المحكمة أبدا.

وأعود إلى السياسة فأقول أن هذه المحاكم وإعطاءها حق النظر في قضايا الأمن كان من أسباب الثورة الدائمة لدى جماهير الشعب السوري ولا سيما الطلبة لأن القانون رقم /٤/ المسمى بقانون قمع الجرائم كان آلة بيد السلطة لظلم الوطنيين وكبح الحركة الوطنية.

أبرز الوقائع في الثلاثينات

أبرز هذه الوقائع أن المفوض السامي أصدر خمسة دساتير لأربع حكومات سورية ومعها دستور عام لسورية مستمد من دستور الجمعية التأسيسية ومضاف إليه مادة برقم /١١٦/ تقول أنه ما من حكم من أحكام الدستور يمكن أن يتعارض مع العهود التي قطعتها فرنسا على نفسها بوصفها دولة منتدبة، ولا سيما في قضايا الأمن والدفاع والعلاقات الخارجية. وكان هذا يعني نسف السيادة الوطنية من أساسها. وقد أرفق المفوض السامي بونسو نشر هذه الدساتير وأصدر قرارا بإجراء انتخابات (نزيهة) تجرى في عام

١٩٣١ على يد حكومة غير حكومة الشيخ تاج، وبإشراف مجلس استشاري مختلط من عناصر وطنية وعناصر معروفة بالنزاهة ومن عناصر مرتبطة بالفرنسيين مباشرة.

الحكومة الجديدة والانتخابات

وقد جرت الانتخابات آخر عام ١٩٣١ ووقعت خلالها اضطرابات شاركت فيها أنا فتى صغيرا بل طفلا ورأيت القتلى يتساقطون أمامي، وكسرت في بعض الأحياء صناديق الانتخاب وظهر التزييف المفضوح، ومع ذلك فقد وجد بنتيجتها مجلس نيابي فيه عناصر وطنية.

وقد دعي لانتخاب رئيس للجمهورية في منتصف عام ١٩٣٢ في ظل تدابير إرهابية من أشد ما عرفت دمشق، شهدتها بعيني لأن بيتنا قريب من المجلس النيابي.

أذكر ولا أنسى في تلك الأيام أن النواب انتخبوا رئيسا لهم صبحي بركات وانتخبوا محمد علي العابد رئيسا للجمهورية، ولكن بعد كلمات شديدة اللهجة ألقاها النواب الوطنيون.

وكان على محمد علي العابد - وهو رجل بلا ماض سياسي يرشحه لمثل هذا المنصب- أن يؤلف الوزارة الجديدة فتألفت وزارة باسم (التفاهم النزيه) برئاسة حقي العظم وكان فيها جميل مردم بك وهو من أركان الكتلة الوطنية، ومظهر رسلان وهو كتلوي أيضا.

ولكن انضمامه إلى حكومة حقي العظم أضعف موقف الوطنيين في تلك الأيام وبدأ الانقسام في الحركة الوطنية حول سياسة (التفاهم النزيه).

والفرنسيون أنفسهم لم يكونوا راضين عن هذا الحكم المختلط ويرون الانتهاء منه، فتضافرت بذلك مساعي الوطنيين المتصلبين والعملاء الواضحين. واستمر المجلس مع ذلك ومعه الحكومة.

وقد بدأت المعركة السياسية عندما قدمت الوزارة الجديدة بيانها الوزاري، وطلب النائب شاكر نعمت الشعباني القسم على الإخلاص للدستور فعارض النواب الوطنيون لوجود المادة /١١٦/ فيه، وسقط اقتراحه، وثار هرج في المجلس انتهى إلى عدم القسم على الدستور بسبب المادة المذكورة فبقيت البلاد بلا دستور.

واستمرت الحكومة فترة والناس في قلق واضطراب حتى عام/ ١٩٣٣/ حيث قدم الوزيران مردم ورسلان استقالتهما من الحكومة، وتألفت وزارة جديدة برئاسة حقي العظم أيضا وفيها شاكر نعمت الشعباني، وكان من أعمالها تسريح الموظفين باسم (التنسيق) وقد أخرج الأكفاء والوطنيون من وظائفهم، وبالمناسبة فإن كل موظفي الدولة كانوا أقل من ستة آلاف في تلك الأيام، منهم أربعة آلاف تقريبا موظفو أمن من درك وشرطة.

دومارتيل

وفي ١٩٣٣ كان المفوض السامي بونسو قد استبدل بالسيد دومارتيل، وبدأ هذا يروج لعقد معاهدة مع فرنسا، وفعلا وضع مشروع معاهدة عرفت بين الناس بأنها معاهدة الشعباني لحماسة هذا الأخير في الدعوة إليها.

ولكن كانت البلاد في حالة اضطراب ومظاهرات هاجمت إحداها أحد المخافر في باب توما، وقتل أحد المتظاهرين واعتقل بعض الوطنيين، فأغلقت دمشق بكاملها وعم الهياج المدن السورية بكل جماهيرها، وانعقدت الاجتماعات لرفض المعاهدة، وطيرت البرقيات ضدها وجاء التأييد للوطنيين من كل البلاد العربية. وفي هذا الجو الملتهب عرضت المعاهدة على المجلس النيابي، فرفضها بالإجماع، وعند ئذ تقدم مندوب المفوض السامي إلى المنصة ليعلن تأجيل المجلس، فرفض النواب الانصياع لقرار موقع من المفوض السامي وغير موقع من رئيس الجمهورية وتم بذلك التغلب على هذا المشروع وسط حماسة جماهيرية منقطعة النظير.

قرار المفوض السامي ورد النواب عليه

ولكن دومارتيل رد على ذلك بإيقاف اجتماعات المجلس النيابي وتعطيله، فأضربت دمشق وقرر النواب أن يعقدوا الجلسة متجاهلين قرار المفوض السامي فمنعهم من ذلك رجال الأمن فانتقلوا إلى دار رئيس المجلس السيد صبحي بركات حيث تابعوا عملهم وأيدوا الرفض النهائي وقرروا نزع الثقة من الحكومة. وكان السيد صبحي بركات قد سجل في ذلك موقفا

وطنيا مشرفا يخالف مواقفه السابقة المعاكسة. أما محتويات المعاهدة فكانت ترجيء الاستقلال لخمس وعشرين سنة وكانت تؤكد بشكل واضح الوجود الفرنسي في سورية، ولذلك رفضها المجلس حتى قبل أن يناقش بنودها لأن المسألة مبدئية.

الشيخ تاج من جديد في الحكم

وعلى أثر ما جرى من رفض المعاهدة دشن دومارتيل سياسة جديدة هي سياسة الإرغام وجاء إلى دمشق واستحصل على استقالة من حقي العظم وعين الشيخ تاج من جديد رئيسا للحكومة وصار حسني البرازي وزيرا للمعارف ومعهما وزراء آخرون، وكان الشيخ تاج هو الرجل المهيأ سلفا لكل سياسة (سواد وجه).

وقد قام الشيخ تاج بجولة في سورية لقي فيها من المعارضة الشعبية شيئا كثيرا وألقيت عليه الأقذار في إحدى المدارس في حلب. وحين قيل أن الشيخ تاج سيحضر صلاة الجمعة ذهب الحلبيون بالآلاف يتقدمهم رجال الكتلة الوطنية فاحتلوا الجامع والسدة ليمنعوه من الدخول فاضطر إلى ان يدخل غرفة الخدم في الجامع وبقي فيها حتى انتهت الصلاة وخرج مدحورا ليأمر في اليوم التالي بمحاكمة الوطنيين بقانون قمع الجرائم، فحوكموا وحكم عليهم بالسجن بين ثمانية أشهر لسعد الله الجابري والسجن أقل من ذلك أو الغرامة لبعض الآخرين، وكان بين المحكومين أستاذي في الحقوق عبد الجواد السرميني الذي حكم عليه بالسجن عشرين يوما. ولكن الشيخ تاج مالبث أن لقي أكثر من ذلك بكثير حين طرد من الحكم عام ١٩٣٦ كما سوف يأتي.

تدابير استعمارية اقتصادية

وانتقل دومارتيل بعد ذلك إلى سلسلة من التدابير الاقتصادية التعسفية الرامية إلى النهب، فبعد أن كانت صناعة التبغ الوطنية تقوم على شركات خاصة لجأ المفوض السامي إلى حصر التبغ والتنباك بيد شركة واحدة. ومن (البندرول) وهي اللفافات التي تثبت أن كل علبة دخان دفعت الرسم المالي انتقلنا إلى (المونوبول) أي الاحتكار بيد شركة تسيطر فيها عمليا المصالح الأجنبية. وكان هذا الاحتكار موجها خاصة ضد المزارعين إذ يحدد لهم المساحات ويفرض عليهم الأسعار وبالتالي فإنه يهيء لسلطة سياسية متحكمة فيما بينهم وكانت الريجي تشتري الكيلو من التبغ من المزارع بربع ليرة أونصف وتبيعه بأربع ليرات وقد أثارت هذه القضية حملة احتجاج صارخة شعبية وصحفية ونيابية، في كل من سورية ولبنان، ولكن الكونت دومارتيل تمسك بمشروعه بصلف وغطرسة.

ثم اتخذ قرارا آخر أخطر من سابقه وهو ان الموازنة لا تنفذ إلا بموافقة المفوض السامي. وثار خلاف ثالث حول إجبار الحجاج على السفر بحرا والركوب في شركات بواخر معينة خاصة بشركة أجنبية، وتحركت قضايا حول المصالح المشتركة، أي واردات الجمارك المشتركة بين سورية ولبنان ونصيب سورية منها، إضافة إلى مسائل سياسية بدا فيها التساهل الفرنسي كالهجرة الصهيونية والهجرة الآشورية إلى شمال سورية التي أثارت احتجاجات شديدة.

وقد أثارت قضية المونوبول إضرابات في دمشق وحلب وحماه وسائر المدن ولا سيما الساحلية، كما أضربت جونيه وزحلة في لبنان لأنهما تضررتا من هذا القرار.

الكتاتيب وحسني البرازي

وثارت مشكلة حول كتاتيب القرآن والتضييق عليها وقد ورد ذكرها عند بحث موضوع الكتاتيب، ثم تراجعت حكومة دمشق عن تدبيرها المقرر من حسني البرازي أمام الضغط والنقمة التي تجلت في خطابات الجوامع الكثيرة والبرقيات. ومما يذكر في ذلك الوقت أن حسني البرازي اتهم بتهريب الحشيش مع والده وصارت القضية على أفواه الناس الذين يستغربون كيف يبقى مهرب حشيش وزيرا للمعارف.

وتتالت الإضرابات في دمشق والمدن السورية، والناس ينتهزون لإعلانها أية مناسبة لأن الهدف تعين وهو الاستقلال وإخراج الفرنسيين، والوسائل لا يعدمها الناس ويجدون كل مناسبة صالحة لها ولا سيما المناسبات الاقتصادية، فرفع ثمن كيلو الخبز أو كيلو الكهرباء قرشا يكفي لتحريك عشرات الألوف إلى الشوارع لأن النفوس مهيأة، وكلما أضربت مدينة في سورية أو لبنان تضامنت معها المدن الأخرى.

شريفة العابد- معركة حول اليانصيب

ومما يضحك أن الشيخ تاج سافر إلى باريس وأهدى إلى رئيس الحكومة الفرنسية وشاح أميه دون أن يستحصل على مرسوم بذلك، ففضحت البلاد أمره وبقي الوشاح كاذبا وبلا مفعول. ونشرت شريفة العابد ابنة رئيس الجمهورية بيانا تنكر فيه توقيع أبيها -الذي كان مفلوجا- على الوسام وشريفة كانت سيدة بالغة الجرأة ولا تتراجع أمام شيء وهو شيء معروف عنها لدى

جميع الناس وفضحت بذلك الشيخ تاج، وصح المثل بأنك إذا أردتَ أن تبهدل رجلا فسلط عليه امرأة وإذا أردت أن تبهدل امرأة فسلط عليها ولدا.

ولما عاد الشيخ تاج وكان أنفق ستين ألف ليرة على رحلته (ويجب أن تتصورها بعملة هذه الأيام وهي تعادل ستة ملايين ليرة) فكر لتغطية نفقات رحلته في يانصيب بمناسبة معرض دمشق يباع بطرق إرغامية فتدخل السيد فخري البارودي ووجه كتابا مفتوحا إلى المفوض السامي فضح فيه أعمالا إرهابية في توزيع أوراق اليانصيب كتوقيف الناس ما لم يشتروا وهو ما فاق تصرف الحكومة في جباية الضرائب، وثارت حملة في الصحف حول تعسف رجال الدرك في إجبار الناس على شرائه.

وفاة ابراهيم هنانو

حين تكون البلاد في حالة غليان كما كانت سورية فإن أية مناسبة عامة تصلح لإشعال شرارة الثورة، وكانت هذه الشرارة الكبيرة وفاة الزعيم ابراهيم هنانو أحد زعماء الثورة السورية، وزعيم الشمال المعروف بصلابته.

فقد شيعته حلب بموكب اشترك فيه كل الوطنيين في سورية والثوار القدماء ووفود من بلاد عربية شقيقه، فتهيأت النفوس لعمل كبير بعد أن تبينت للناس قوتهم. وتقرر أن تقام حفلة تأبين كبرى لمناسبة الأربعين في دمشق فأقيمت وحضرها رجال عرب كثيرون وحضرتها وفود عظيمة خرجت بعد التأبين بمظاهرة أكدت للناس قوتهم أيضا مثلما فعلت جنازة حلب.

ثم تكررت حفلة التأبين في حلب فجاء عشرة آلاف شخص رغم تضييق

السلطة، وأعلنت البلاد انتهاء عهد التفاهم وبدء عهد المقاومة. وكان ذلك مناسبة لبدء مظاهرة كبرى من التأييد العربي قوى عزائم السوريين وجاءنا التأييد من مصر والعراق وفلسطين ومن الأحرار المبعدين وبينهم سلطان الأطرش وعبد الرحمن الشهبندر.

الشرارة التي بدأت الاشتعال

وكما يمكن التوقع أغلقت مكاتب الكتلة الوطنية ردا على إعلانها السياسي، فأغلقت المدن السورية في /١٨/ كانون الثاني ١٩٣٦[١]، ثم اختطفت السلطة الزعيم الوطني الشعبي فخري البارودي. ونفته إلى الحسكة، وبدأت الاصطدامات الدامية والاعتقالات والأحكام بقانون قمع الجرائم وخرج تلاميذ المدارس الثانوية والابتدائية والعمال من المحلات التجارية، وعم البلاد إضراب لا مثيل له وكان القتلى بالعشرات بينهم نساء وأطفال وسجن الألوف. وكان لا بد من وفود ووساطات ومقابلات فتولاها عدد من رجال البلاد غير المنتسبين إلى الكتلة، ولو كانوا متعاطفين معها، وصارت المطالب تنادي بإعادة الدستور الوطني الموضوع عام ١٩٢٨ وإعلان

---

(١) من اجل دقة التواريخ رجعت إلى كتاب (المراحل) للوطني الكبير المرحوم الدكتور عبد الرحمن الكيالي وهو كتاب يعتبر من ادق المراجع وقد أهداني إياه المرحوم شخصيا في الستينات.

استقلال البلاد ووحدتها الوطنية، وإعادة المبعدين السياسيين وإطلاق سراح الموقوفين ولكن الجواب كان رفض السلطة.

ولم تبق مدينة في سورية إلا تعاطفت مع دمشق مركز الحركة بالاضراب والمساعدة، وتجلى تعاضد الناس في تقاسم المؤونة وماعندهم من الميسور.

ومما يذكر أن الكتلة حاولت أن تنهي الإضراب بعد خمسة عشر يوما من بدئه وربما كان ذلك للتنصل من المسؤولية فأذاعت بيانا بذلك، ولكن جماهير الشعب ولا سيما طلاب المدارس أدامت الإضراب ومنعت فتح المتاجر، وقد وجدت عند بعض أصدقائي ومنهم عبد الرؤوف شيخ ديب الطالب في تجهيز دمشق وابن صفي عددا من المنشورات التي كانت توزع في تلك الأيام اقدم لكم نصها مرسوما بالزنكوغراف لنعيد ذكرى تلك الأيام حية. وتفاقمت الحوادث ووقع مزيد من القتلى، فأصبحت الحالة السياسية تزداد تأزما يوما بعد يوم والاعتقالات تتوالى في كل أنحاء القطر وعطلت الجرائد الوطنية وتكاثرت الأحكام على المعتقلين بموجب قانون قمع الجرائم، وصدر ذيل له يعطي السلطة حق النفي والإبعاد وعمل المحامون في هذا المجال عملا مجيدا.

الوحدة الوطنية شملت

وكانت لحوادث سورية أصداء في لبنان خاصة وفي كل مكان من العالم العربي وفي أماكن كثيرة اخرى ولا سيما في فرنسا حيث كان اليسار يصعد.

وكان مما رفع شأن هذه الثورة السورية (وهي تستحق هذا الاسم بشمولها وعدد قتلاها وجرحاها ومسجونيها)، أن النائب فخري البارودي كان قد وقف في الجامع الأموي يعلن أن البطريرك الماروني اللبناني عريضة إنما هو رئيس زمني وروحي لكل البلاد الشرقية، وذلك تكريما له على مواقفه الوطنية وكسرا لمحاولات إثارة الطوائف التي سلكتها السلطة الفرنسية.

وفي فرنسا عظمت النقمة على فشل دومارتيل وسياسته القمعية الاستفزازية وانتقده النواب الفرنسيون صراحة وطالبوا بعزله.

وهنا بدأت السلطة الفرنسية في سورية تبحث عن مخرج فعقدت اجتماعات مع تجار معروفين بحيادهم وبوطنيتهم ومع شخصيات اجتماعية من اجل إنهاء الإضراب، ثم استقال الشيخ تاج وتألفت وزارة برئاسة السيد عطا الأيوبي أما وداع الشيخ تاج فكان انفجارا هائلا في الغضب الشعبي تجلى في النعوت القبيحة التي كالتها الجماهير للرئيس المستقيل. كان احد المتظاهرين يعلو على أكتاف الآخرين ويصرخ: انا الشيخ تاج حبوني... فيجيبه المتظاهرون بكلام قبيح منغم. ونظمت عليه القراديات، وتبارى الشعراء الشعبيون في شتمه.

المعاهدة من جديد

وكان تأليف حكومة السيد عطا الأيوبي بادرة تراجع واضحة. وأعلن المفوض السامي أنه تمهيدا لعقد معاهدة مع فرنسا سوف يطلق سراح المتظاهرين الذين لم يحاكموا ويدرس أمر العفو عن الآخرين، وإعادة المبعدين، وحمل المصارف على التساهل مع التجار، فأعلنت الكتلة الوطنية ترحيبها بفكرة المفاوضة وبأن الشعب السوري بعد أن تعترف فرنسا باستقلاله يمكن أن يعقد معها معاهدة لا تقل في حقوقها المعطاة للسوريين عن المعاهدة العراقية. ثم حدثت مقابلة بين المفوض السامي وأركان الكتلة والحكومة الجديدة في بيروت من اجل الاتفاق على تأليف وفد يذهب إلى فرنسا للمفاوضة، ووقع الاتفاق في أول آذار / ١٩٣٦/ .

استقبال فخري البارودي

وبد أ المبعدون يعودون إلى بيوتهم فحصل لفخري البارودي استقبال منقطع النظير في دمشق وظل الناس ثلاثة أيام على الطرقات في انتظاره، وفتحت المدن السورية أسواقها في يوم واحد في وسط مظاهر الابتهاج، وبذلك يكون الاضراب دام ستة وأربعين يوما ولكنه سمي- بالإضراب الخمسيني.

ابتسامة

ومما زاد في ابتهاج الناس عراضات (حلبون) التي كانت تنشد (حلبون زهرة سورية) فكانت هذه العراضات ابتسامات المهرجان، ولفقوا على لسانها هذه الكلمات: ياهل حلبون، اللي معه بارودة يتبورد، واللي معه فرد يتفورد، واللي مامعه لاهيك ولاهيك يبرم شواربه ويلحقني عالبيادر الغربية وحلبون زهرة سورية . . .

وفد المفاوضة

وذهب وفد المفاوضة إلى باريس مؤلفا من هاشم الأتاسي وفارس الخوري وجميل مردم وسعد الله الجابري أعضاء، واحمد اللحام خبيرا عسكريا لبحث شؤون الجيش، ونعيم الانطاكي امينا للسر، ورافقه من الحكومة سعيد الغزي وإدمون حمصي، وسافر إلى باريس خالد بكداش مستقلا عن الشيوعيين ليعاون الوفد في أوساط اليسار إذ كانت الجبهة الشعبية المؤلفة من أحزاب اليسار قد انتصرت في فرنسا.

وبعد فترة من المفاوضات عقدت المعاهدة وعاد الوفد المفاوض إلى سورية وجرت انتخابات فازت فيها قوائم الكتلة الوطنية بما يشبه الإجماع.

فرنسا لم تصدق على المعاهدة

ولكن فرنسا وإن سلمت الحكم في سورية إلى الكتلة الوطنية ظلت في سورية ولم تخرج جيشها منها وظلت تسوف في تصديق المعاهدة ولم تصدق عليها أبدا.

وعلى العكس أخذ عملاؤها وجواسيسها يعملون على إثارة القلاقل والفوضى الطائفية واستغل المستشارون الفرنسيون لذلك غلاة المتعصبين من المسلمين والمسيحيين وهناك حوادث مشهودة وقعت في الجزيرة وحلب والساحل بوجه خاص وكادت توسع الفتنة لولا أن تداركتها الأيدي الوطنية

محاكمة أدبية لأحد أنصار الشيخ تاج

وجرت في حلب محاكمة لأحد أنصار الشيخ تاج من المشايخ الذين انتسبوا إلى الكتلة الوطنية. فقد وقف في الجامع يقول أن احد أركان الكتلة قد قبض من أصحاب الخمارات رشوة، فخرجت الجماهير تهاجم الخمارات وكادت تحدث مشكلة لولا أن تداركتها الكتلة بإجراء محاكمة علنية لهذا الشيخ فقد جاءت به مرغما أمام ألف من رجال حلب وحلفته على القرآن أن يقول من هو الذي نقل إليه الخبر، فإن كان صادقا جرى التحقيق مع الزعيم الكتلوي الذي قبض، وإن كان كاذبا أطفئت الفتنة التي مست كل رجالات الكتلة. راوغ هذا الشيخ طويلا ثم قال أن الذي أخبرني هو فلان. جاؤوا بفلان وحلفوه فقال أن الشيخ الذي تجرى محاكمته جاءه أمس يقبل يديه ويرجوه أن يشهد معه أنه هو الذي أخبره ولكن ذلك ليس بصحيح. وشهد على ذلك اثنان من المشايخ هما الشيخ مصطفى الزرقا والشيخ معروف الدواليبي، وعندما ظهر كذب هذا الدجال طردته الكتله الوطنية وامرت بمقاطعته وفشلت مؤامرة كادت تؤدي إلى الوقيعه بين المسلمين والمسيحيين.

الكونت دومارتيل يتقاعد

وذهب الكونت دومارتيل متقاعدا وحل محله المفوض السامي الجديد غابرييل بيو، وبدا أن قليلا من الأشياء قد تغير في الميدان الخارجي والعربي العام، وفي كثير من الميادين الداخلية الاقتصادية مثل الجمارك التي ظلت بيد(المصالح المشتركة) التي تديرها فرنسا مع مندوبين سوريين ولبنانيين،

ومثل قضايا المرافىء والاستيراد والتصدير وإصدار العملة الذي بقي بيد مصرف سورية ولبنان، أي أن فرنسا كانت تمسك بالخيوط الرئيسية، مما جعل عناصر وطنية كثيرة تقف موقف المعارضة للحكم الكتلوي الذي استمر رغم ذلك ثلاث سنوات.

قضية اسكندرون

وأذكر في تلك الفترة أن تركيا حركت قضية لواء اسكندرون وأكثرية سكانه من العرب وروابطه بسورية واضحة لا تحتاج إلى جلاء، ولكن تركيا بالاتفاق مع فرنسا تجاهلت كل ذلك وتجاهلت كذلك المقترحات الدولية لاستقلاله فضمت اللواء إلى أرضها في عام ١٩٣٩، وهاجر الكثيرون من عرب اسكندرون إلى سورية فقوبلوا فيها بالترحاب والإعزاز. مما يذكر أن حسني البرازي كان محافظا للواء وسياسته فيه كانت مشبوهة. وآسف لأنني لا أستطيع من الذاكرة أن اعطي تفاصيل أكثر، وتكفي فيما أرى هذه النظرة للوضع السياسي العام في تلك الفترة في حدود موجز الموجز.

تفكك الحكم الكتلوي

وأعود فأقول أن الحكومة وجدت نفسها بين نارين. فالمعارضة قويت شوكتها مستفيدة من أخطاء الحكم الكتلوي وعجزه عن تأمين الاستقلال والسيادة، ومن التفكك الداخلي في الكتلة التي لم تكن راضية عن تصرفات جميل مردم ولا سيما أنه انفرد في الذهاب إلى فرنسا ووقع على ملاحق للمعاهدة لم يستشر فيها أحدا ورغم منعه مسبقا من ذلك، علما بأن المعاهدة نفسها لم تصدقها

فرنسا. وكان شكري القوتلي قد استقال احتجاجا عليه، وهاشم الأتاسي غير راض عنه. ومن جهة ثانية كان الفرنسيون قد شددوا هجوم عملائهم الانفصاليين على الحكم فأطلقت النار في جبل الدروز على سيارة المحافظ نسيب البكري وأنزل عبد الغفار الأطرش وجماعته العلم السوري عن سراي الحكومة. وفي الجزيرة قامت حركات انفصالية يقودها المطران حبي وعناصر (الشارة البيضاء) وهي منظمة طائفية مثل الكتائب اللبنانية، وتأسست معها في نفس الفترة ولنفس الأغراض. واختطفوا المحافظ توفيق شامية. وفي محافظة اللاذقية هدد الانفصاليون المحافظ إحسان الجابري فاضطر لترك المحافظة. وفي حلب جرت محاولات لإيقاع الفتنة الطائفية كما سلف الذكر وفي حوادث عديدة لولا وطنية المسيحيين. ومن جهة ثالثة كان عبد الرحمن الشهبندر قد جاء ليقود المعارضة وانضم إليه زكي الخطيب ومنير العجلاني من الكتلويين القدامى وسامي كباره من المعارضين، فتحرك الشارع المستاء وجرت مظاهرات في دمشق سقط فيها قتلى كثيرون وجرحى. وفشلت الحكومة في معالجة قضية اسكندرون فشلا واضحا بل نسب إليها سكوت غير معقول، فكان من جراء ذلك كله أن استقالت حكومة جميل مردم في أول عام ١٩٣٩ وبحث الرئيس هاشم الأتاسي عمن يقوم بتأليف الحكومة فوجد نصوحي البخارى. ولكن هذا ما لبث أن وجد انه أمام تركة مثقلة بالمشاكل فاستقال، وقبل أن تقبل استقالته رسميا شعر هاشم الأتاسي بأنه غير قادر على الاستمرار فوجه كتاب استقالة من رئاسة الجمهورية إلى رئيس المجلس النيابي السيد فارس الخوري، فاضطر الأخير إلى دعوة الحكومة المستقيلةلتبقى في الحكم ريثماينتخب رئيس جديد.

الفصل الرابع

سورية والعالم اثناء الحرب العالمية الثانية

١- الاسكندرونة

تعتبر الاسكندرونة جغرافياً قطعة لا تتجزأ من سورية، ومرفأ سورية الشمالي، ومصب نهرها الكبير (العاصي).

وكان الشريف حسين أثار أمرها حين فاوض الانكليز فراوغوا (ص ٢٧ من هذا الكتاب)، ولما وقع الانتداب الفرنسي أعطتها عصبة الأمم وضعاً خاصاً ولكنها بقيت من الناحية الرسمية والقانونية جزءاً من الأرض السورية له استقلال إداري ولكن يتبع رئيس الدولة السورية. وحين حددت الحدود مع تركيا اعتبرت الاسكندرونة جزءاً من سورية.

وتدل الإحصاءات الرسمية على أن ٤٨, ٧١ بالمئة من سكانها قبل ١٢/ ٩/ ١٩٢٢ كانوا من العرب و٥٢, ٢٨ بالمئة كانوا من الأتراك.

يتألف سنجق الاسكندرونة أو لواء الاسكندرون كما عرّبه الاسم الرسمي من مدينة إنطاكية التي تأسست من قبل سلوكوس نيكاتور سنة ٣١٣ قبل الميلاد، وهو نفسه الذي سمى اللاذقية على اسم والدته فكان حاكم المدينتين.

وتأسست مدينة إنطاكية بعدها في سنة ٢٣٣ قبل الميلاد. وكانت إنطاكية في وقت من الأوقات عاصمة سورية. ومنذ أن استردها العباسيون في سنة

١٠٧٠ ميلادية ظلت جزءاً من سورية العربية. وعندما دخل فيصل دمشق انطلق فوراً إلى شمال سورية ودخلت فرقة من الجيش العربي الاسكندرونة ورفعت عليها العلم العربي، وذلك قبل أن ينزل فيها جنود انكليز وفرنسيون. وفي تشرين الثاني ١٩١٨ أعلنت الحكومة العربية رسمياً في الاسكندرون وانسحبت الجيوش التركية منها نهائياً.

ثم لما ظهرت نوايا الفرنسيين في احتلال سورية بعد ذلك بقليل انطلقت من الاسكندرون ثورة وطنية قادها إبراهيم هنانو وكان معه في بدايتها كل من صبحي بركات ومحمد الآضه لي. غير أن الفرنسيين تم لهم احتلال سورية بعد ذلك وجعلوا من الاسكندرونة حاكمية مستقلة.

وفي ٣١ آب ١٩٢٠ الحق ألسنجق بحكومة حلب مع الاحتفاظ باستقلاله الإداري، وفي ٨ آب ١٩٢١ أعطي سنجق الاسكندرون أحوالاً إدارية خاصة ظل يتمتع بها حتى عام ١٩٣٩.

ثم في ٢٠/ ١٠/ ١٩٢١ لدى توقيع الهدنة الفرنسية التركية أعطى الفرنسيون للأتراك بعض المزايا منها اعتبار اللغة التركية لغة رسمية إلي جانب اللغة العربية، وعينت حدود السنجق بأن ضم قضاء الاسكندرونة وقضاء بيلان وقضاء إنطاكية ولكن فصلت عنه منطقة حارم.

وحين أعلن صك الانتداب لم يشر فيه بأية كلمة إلى الاسكندرونة كجزء مستقل لأنها اعتبرت ضمن الأراضي السورية، ولذلك فلم تكن هناك حجة لفرنسا بالتنازل عنه. وحتى عام ١٩٢٦ حين كان صبحي بركات رئيساً للحكومة السورية التي أسسها الانتداب في دمشق زار لواء الاسكندرونة

فاستقبل بها كرئيس للدولة وطالبه السكان بالاندماج الكامل مع سورية، فأوفد في الشهر التالي رئيس وزرائه حسن الحكيم والوزير شاكر نعمة الشعباني لتنظيم استفتاء للاندماج الكامل بسورية فوقع جميع نواب اللواء على ذلك وعلى إنهاء الاستقلال الإداري للسنجق، وصادق على هذه العريضة وتوقيعها مندوب المفوض السامي الفرنسي (دوريو).

ومن الرجوع أيضاً إلى النظام الأساسي للواء الذي نشره المفوض السامي الفرنسي في ١٩٣٠ إثر رفض فرنسا للدستور الذي وضعته الجمعية التأسيسية، نجد أنه نص على استقلال اللواء في الشؤون الإدارية والمالية ولكنه أبقى لرئيس الدولة السورية حق تعيين القضاة والمتصرف والمديرين.

وكذلك فلما سافر الوفد السوري المفاوض إلى فرنسا عام ١٩٣٦ للبحث في عقد المعاهدة كما سلف الذكر، أبرق مشايخ العلويين في الاسكندرون إلى المفوض السامي مطالبين بتحقيق الوحدة السورية بدون قيد أو شرط وإعادة دستور ١٩٢٨ كما وضعته الجمعية التأسيسية.

إذن فالتاريخ والجغرافيا والسياسة والواقع الإنساني والتركيبة القومية، كل ذلك يجعل الاسكندرون جزءاً من سورية، ولكن فرنسا تآمرت مع تركيا التي كانت منذ ١٩٣٦ بدأت في التحرك للمطالبة باللواء، ولذلك لما عرضت القضية على عصبة الأمم باتفاق فرنسي - تركي تعهدت فرنسا بالتصويت إلى جانب تركيا.

ذلك أن الأتراك كانوا قد لعبوا ورقة الحرب المقبلة وهددوا بالانحياز إلى ألمانيا مالم يعطوا الاسكندرونة، فكان أن وضعت عصبة الأمم نظاماً خاصاً

بلواء الاسكندرون ينص على انتخاب مجلس من أربعين عضواً ينتخبون لأربع سنوات على أن يكون التوزيع بنسبة: (٨) للطائفة التركية، (٦) للعلويين، (٢) لبقية الجماعات العربية، (٢) للأرمن، وواحد لليونانيين.

ثم أصدرت عصبة الأمم (القانون الأساسي للواء الاسكندرون - مع برتوكول حدود اللواء) وفيه كان من الواضح أن اللواء يتبع الحكومة السورية مع استقلال موسع إداري، ولكن إذا كانت الدولة السورية تملك الاتفاقات الدولية بشأن اللواء فيقتضي عليها أن تأخذ موافقة من عصبة الأمم، وإذا أرادت حكومة اللواء عقد اتفاق دولي فيجب أن تستشير سورية.

وجاء في المادة (٩) من النظام أن الممثلين السوريين السياسيين والقنصليين مكلفون بحماية مصالح اللواء أو مواطنيه، وأخيراً فالمادة (٢١) جعلت جوازات مواطني اللواء تصدر باسم الحكومة السورية.

ومع ذلك كله بدأت مفاوضات سرية بين تركيا وفرنسا. ولما كانت تركيا تسيطر على مضايق ومداخل البحر الأسود، وكانت فرنسا تريد أن تمنع تركيا من الانضمام إلى ألمانيا، فقد كان الثمن أن سلمت فرنسا لتركيا باحتلال اللواء سراً، وتمهيداً لذلك اعتقلت بعض الشخصيات العربية اللوائية ومن بينهم: زكي الأرسوزي زعيم فرع عصبة العمل القومي، الدكتور سليم خوري، الدكتور بيلوني وهو نائب أرمني في مجلس النواب السوري.

وهنا قامت حركة انتفاضة اشترك فيها الشعب بكامله رجالاً ونساء وأطفالاً ومن جميع الطوائف دامت زمناً طويلاً دون أن تهدأ وصلى

المسلمون في كنائس المسيحيين وساد جو وطني لا مثيل له، واقتحمت مئتا امرأة الفندق الذي تقيم به اللجنة المشرفة على الانتخاب بأعضائها الفرنسيين والأتراك، وأغلقت أسواق العرب جميعاً وشارك الأرمن واليونان في الإضراب الذي استمر من ١٤ إلى ١٨ حزيران ١٩٣٨، فأعلنت اللجنة المشرفة وقف أعمالها وأبرقت إلى الأمين العام بعصبة الأمم تعلنه بأنها توقفت عن تنظيم الانتخاب المقرر من العصبة.

وبعد قليل أصدرت تركيا النظام الأساسي للواء الاسكندرون فأسمته (هاتاي) وجعلت مركزه إنطاكية، وبهذا تمت المؤامرة، ونزح عدد كبير من العرب ومن الأرمن أيضاً إلى سورية، فاستقبلوا فيها بحفاوة لا تخفي المرارة، وللتاريخ كان اللوائيون ومازالوا من أطيب العناصر وأشرفها وكان حضورهم في وطنهم السوري مقترناً بالعمل الشريف والأخلاق العالية والمساهمة في كل ماهو طيب وما زالوا كذلك.

وتشرفت بصداقة عدد كبير منهم ومازلت اعتز بهم إلى الآن.

ومن هؤلاء الأكارم الأصدقاء الدكتور وهيب غانم وكمال غالي وسليمان العيسى ويوسف شقرة وزاهي قواص وميشيل سابا وأخوه عفيف وصفوان غانم، والأستاذ فائز إسماعيل الذي يرأس الآن حزب الوحدويين الاشتراكيين وصدقي إسماعيل وإخوته نعيم وأدهم وعزيز، وأديب يوسف وآخرون كلهم طيب مخلص.

٢- الحرب العالمية الثانية

كانت نذر الحرب قد بدأت منذ العشرينات فور انتهاء الحرب العالمية الأولى، واحتدم الصراع في مختلف الأقطار بين التيارات السياسية من اشتراكية وشيوعية في جانب ومن رأسمالية تتسمى ديمقراطية وفاشية من الجانب الآخر. وكان كل شيء ينذر بأن العالم لابد مشرف عاجلاً أو آجلاً على الزعزعة الكبرى، ونالنا نحن السوريين العرب جانبنا من الآثار بفقدان لوائنا العزيز كما سبق الذكر قبل قليل، ثم جعل من عالمنا العربي الذي هو محط المطامع ميداناً للصراع على هذه المطامع، وامتدت الحرب الساخنة فيما بعد إلى كل أجزائه (المغرب، الجزائر، ليبيا، تونس، مصر، العراق، فلسطين وسورية) وهيأت كل ملامح الصراع التالي الذي احتدم في نصف القرن الممتد من يوم أعلنت الحرب وانتهت إلى أيامنا هذه.

كتبت عن الحرب ملايين الصفحات، وعرضت آلاف الأفلام الوثائقية أو المستمدة من الحرب، ومازالت أحداث الحرب وأسرارها تكشف حيناً بعد حين وتعطي المؤشرات على ما يمكن أن يحدث، وما حدث فعلاً، من تغيرات على الساحة العالمية بكل امتدادها وبكل أعماقها ومستوياتها. وأستطيع القول أنني حين إعلانها، وأنا في الثامنة عشرة ومعلم في إحدي قرى دمشق، كنت إنساناً مسيّساً مطلعاً على الأحداث العالمية، فتابعت الأحداث يوماً بعد يوم - بل ساعة بعد ساعة في أيام المنعطفات الساخنة جداً كأيام ستالينغراد أو معركة العلمين أو النزول في نورمانديا في فرنسا أو مؤتمرات طهران ويالطا وبوتسدام. وكان السبب في هذه المتابعة أنني كنت

منتبهاً للسياسة، مولعاً بالتاريخ المعاصر، مزوداً بمعرفة جيدة باللغة الفرنسية، متصلاً بالوسط الصحفي، ثم كنت منزجّاً في المعركة لأن نهاية الحرب كانت ستقرر مصيري حتى الحياة والموت. وفعلاً فكان من جراء الحرب ونشاطي السياسي أن أحالتني السلطة الفرنسية إلى المحكمة العسكرية الفرنسية بتهمة مناهضة المجهود الحربي الفرنسي وحكم عليّ بالسجن مع الشغل تسعة عشر شهراً وسيأتي حديث ذلك مفصلاً. إذن فلم أكن في الحرب متفرجاً عادياً ولكن كنت - في حدود عمري ومركزي وبلدي - أشارك بعض الشيء في هذا الصراع العالمي، واتقلب على جمر القلق أحياناً، وأحس بالألم يعصرني أحياناً أخرى ثم انقلب في المواقف الكبرى التي توافق آمالي إلى حالة من البهجة والفرح والنشوة.

وقد أعطتني الحرب دروساً كثيرة، وظللت أتأمل في أسبابها ومجراها ونتائجها حتى الآن، وخرجت بأشياء يحسن بي أن أعرضها أمامكم باعتباري قارئاً للتاريخ وملاحظاً لا حداثه، وهذا القارىء لا هو في موقع السلطة والقرار والسر الخافي ولا هو في موقع التلقي واللامبالاة والانفعال غير المشارك. إذن فهو رأي وسط، وأرجو أن يحرض أفكاراً أخرى لدى المشاركين في هذه المرحلة.

ولعل في ما سأكتبه ما يوضح أموراً منها ما يتعلق بالمستقبل - كما أتوسم وأقدّر - ومنها ما يتعلق بالماضي كما رأيت واستنتجت، ذاكراً قول الحق: (فوق كل ذي علم عليم).

أسباب الحرب العالمية الثانية ومراحلها

منذ انتهت الحرب العالمية الأولى في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ إثر تدخل الولايات المتحدة فيها في السنة الأخيرة بقوات ضخمة وطازجة غير منهكة وموارد مالية هائلة، جاءت معاهدة الصلح التي عقدت في فرساي فكرست تحكماً ضخماً بألمانيا المهزومة وفرضت عليها شروطاً قاسية استغلها القوميون الألمان المتعصبون لإذكاء الروح الانتقامية لدى الجماهير الألمانية.

وتراكبت هذه الروح الانتقامية مع خوف البرجوازية الألمانية من تصاعد الحركة الاشتراكية في ألمانيا وكانت بلغت قوة كبيرة شعبية ونيابية كادت تتولى معها الحكم فيها، فمهدت البرجوازية الألمانية السبيل أمام الحزب النازي بزعامة أدولف هتلر رغم أنه كان صغيراً، ودبرت حريقاً مصطنعاً في بناء المجلس النيابي المسمى (رايخستاغ) واعتقلت على إثر هذا الحريق المصطنع عشرات ألوف الاشتراكيين، وقدمت للمحاكمة عدداً منهم ولكن المحكمة بعد مرافعات صاخبة واحتجاجات دولية اضطرت إلى تبرئتهم. ثم ضغطت هذه البرجوازية على المارشال هندنبرغ الذي كان رئيس ألمانيا في هذه الفترة وجعلته يطلب من هتلر أن يتولى منصب المستشار ففعل، وكان ذلك عام ١٩٣٣.

بدأ هتلر إشعال فتيل العاصفة بأن احتل منطقة الرور وهي منطقة صناعية ضخمة كان الحلفاء منعوا وجود قوات ألمانية فيها وشرطوا على صناعتها ألا تنتج الآلة الحربية، وبذلك مزق الصفحة الأولى من معاهدة فرساي. وبدأ يقيم استعراضات الحزب النازي والشبيبة الألمانية المنظمة في مظاهرات بالغة

الضخامة والتنظيم والتأثير، وبعث برجاله ليحطموا كل مراكز الاشتراكية والديمقراطية التي كانت تهدد حكمه، ثم في ١١ آذار عام ١٩٣٨ قام بحركة مفاجئة فاحتل النمسا وسجن رئيس وزرائها شوشنيغ وألحقها بألمانيا مستعيناً بعناصر الحزب النازي النمساوي الذي كان هيأه منذ زمن وبدأ بذلك سيرة ألمانيا الكبرى.

كانت الفرصة - كما يقول الخبراء العسكريون اليوم - سانحة لوقف هتلر منذ ذلك الوقت ولاسيما قبله لأنه كان يعرض قوة ليس وراءها زمن كاف، ولكن البرجوازية الفرنسية والانكليزية كانت مرتاعة من نمو الحركة الاشتراكية في أوربا بأسرها - وألمانيا في قلبها - أكثر من ارتياعها من هتلر الذي كانت تحسب أنه سيمكن لها السيطرة عليه وتدجينه.

هنا كان الحساب خاطئاً جداً، ورغم أن النظريات العلمية لا تعطي الأفراد في التاريخ إلا دوراً محدوداً تؤهله إليهم مجموعة القوى الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة، إلا أن هتلر كان شذوذاً عن القاعدة - ولو مؤقتاً - فأتعب الحلفاء لأنهم تساهلوا في أمره في البداية، ولكن في النهاية انتحر في مقره في برلين عام ١٩٤٥، بعد أن كان روّع البشرية بأعتى حرب مانزال نحمل آثارها ونتائجها حتى اليوم.

١-احتلال تشيكوسلوفاكيا

وجاء دور تشيكوسلوفاكيا بعد ذلك. فالنازيون في السوديت وهي المناطق التي يسكنها الألمان في غربي تشيكوسلوفاكيا، اصطنعوا خلافات عرقية مع التشيك، فجاء هتلر برئيس تشيكوسلوفاكيا العجوز واسمه (هاشا) إلى مقره الصيفي في برخستغادن في جبال بافاريا، وتحت الضغط والتهديد أجبره على الرضوخ. ورغم مداخلة انكلترا وفرنسا بزيارتين قام بهما تشمبرلن الرئيس المحافظ البريطاني ودالاويه الرئيس الراديكالي الفرنسي سعياً إلى تهدئة هتلر، فقد صدرت الأوامر باحتلال الجيش الألماني لتشيكوسلوفاكيا وألحقت بألمانيا بما فيها من طاقات صناعية بالغة الضخامة. وتم ذلك على مرحلتين في ٩٣٨ حي احتل مناطق السوديت بموافقة من (هاشا) أجبره عليها، وفي ١٩٣٩ حين احتل بقية مناطق بوهيميا ومورافيا ثم سلوفاكيا التي وضعها تحت الحماية الألمانية.

بولونيا، هنغاريا، رومانيا، يوغسلافيا، النروج. . .إلخ

وكانت بولونيا محطته الثالثة. فقد وجه إنذاراً إلى السلطات البولونية استدعى رد فعل من بريطانيا وفرنسا مهدداً بالحرب أن احتلها، ولكن جيوش هتلر احترقت حدود بولونيا وبعد مقاومة باسلة لم تدم سوى أيام، وبعد أن دخلت الجيوش الروسية بولونيا من الشرق فور دخول القوات الألمانية، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا بصورة رسمية، وكان ذلك في آخر آب ١٩٣٩.

ثم تتالت احتلالات هتلر في عام ١٩٤١ هنغاريا ورومانيا، يوغسلافيا، النروج، وغيرها من البلاد الأوربية حتى اليونان، وتوزعت جيوشه فيها جميعاً واشتغلت له الصناعة فيها قسراً وخيل للعالم أن الإمبراطورية الجرمانية في أوربا قامت. غير أن هذه الفترة الأولى من الحرب التي أطلق عليها الفرنسيون آنذاك اسم الحرب المضحكة، كانت مجرد إعلان مبدئي إذ بعد إعلان النفير العام تمركزت الجيوش الفرنسية خلف خط ماجينو المحصن وبقيت أشهراً والجنود فيها وبينهم كبار السياسيين والمثقفين - كما تقول الصحافة - يقشرون البطاطا في منعاتهم الإسمنتية والفولاذية.

٢-بدء الحرب ضد فرنسا وانكلترا

ولما استتب لهتلر الأمر في بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا وانطلقت صناعته الحربية تصنع معدات متطورة وبأعداد هائلة، انطلقت جيوشه في حزيران ١٩٤٠ فاحتلت بلجيكا وهولندا ومزقت الجيش البريطاني الذي كان فيهما وفي شمال فرنسا وأجبرته على التخلي عن جميع معداته والانسحاب عن طريق ميناء دنكرك، ثم التف الألمان بسرعة قادمين من الشمال واحتلوا معظم أجزاء فرنسا، فاضطرت إلى الاستسلام ووقع المارشال بيتان صك الاستسلام وترك الألمان له منطقة في الجنوب مركزها مدينة فيشي، وكان رئيس وزرائه لافال. وترك الألمان له الأسطول الراسي في مرافىء الجنوب والمستعمرات الفرنسية يديرها، ومن جملة ما تركوه لإدارته سوريا ولبنان باعتبار أن الانتداب عليهما لم يكن ألغي رسمياً والجيوش الفرنسية كانت

تحتلهما. شذ عن الاستسلام الرسمي الجنرال ديغول الذي أعلن منذ لحظة الاجتياح الألماني لفرنسا رفضه للاستسلام ودعا من يستطيعون متابعة الحرب إلى الالتحاق به في لندن حيث أقام ما أسماه بحكومة فرنسا الحرة، وكان شعارها صليب اللورين (الذي له خطان عرضانيان بدل الخط الواحد في الصليب العادي) وفعلاً التحق به الآلاف من الطيارين ومن البحارة ومن الشباب الرافض لذل الاحتلال، وكان ديغول وجهاً إنسانياً مليئاً بالشجاعة والعمق والتحدي والصلابة، وحين زار سورية رأيته من قرب، وتابعت خطاباته التي كانت روائع من اللغة الفرنسية الراقية، وقرأت مذكراته بشغف. ولكن شاب موقفه الوطني ما أساء إليه إذ أنه أخذ موقفاً خطأ من سورية في نهاية الحرب كان من وراء الاعتداء الذي وقع على سورية في أيار ١٩٤٩. أذكر للرجل عظمته وخطأه ولو كنا من معسكرين عدوين، والفضل ما شهدت به الأعداء!

٣-بدء الحرب ضد الاتحاد السوفياتي

لابد أولاً من التمهيد بحديث موجز عن الاتحاد السوفياتي وسر قيامه ووجوده أولاً، ثم سيرورته التاريخية حتى بلغ عام ١٩٤١ يوم دخلت الجيوش الألمانية أرضه.

فالحرب العالمية الأولى كانت منذ ١٩١٦ و١٩١٧ انهكت الشعوب التي أدركت أن التقاتل يجري بين الزعماء أو الرأسماليين في مختلف أنحاء العالم لاقتسام خيراته ومستعمراته أو إعادة توزيعها، في صراع تسوده وحشية لا

حدود لها ولا تتراجع أمام أية اعتبارات إنسانية. فلما انتهت الحرب أو أوشكت، وكانت آلام الشعوب وخساراتها البشرية والعمرانية فوق التصور، في ذلك الوقت بدأت تقوم حركات تمردية وثورية في بقاع مختلفة من أوربا تقودها الأحزاب الاشتراكية، وتجلت قوتها بوجه خاص في منطقتين ضاعفت الهزيمة فيهما آلام الناس ولاسيما الفقراء الذين يقادون إلى الموت بلا حساب وبكثير من الاستهتار والغباء. هاتان المنطقتان هما ألمانيا المهزومة وروسيا القيصرية التي خرجت مهلهلة من الانكسارات والخسائر.

تذكرت الآن أنني في مطالعاتي المتعددة الاتجاهات إلى أبعد حد قرأت عدداً كبيراً من مذكرات القادة العسكريين عن الحربين العالميتين الأولى والثانية، ومن بينها كتاب عنوانه مذكرات (ليدل هارت) الذي وصفه مترجم الكتاب بسام العسلي - وهو ضابط ومعروف بدراساته وبترجماته وباتقانه الثقافة العسكرية العالية - بأنه أعظم الكتاب العسكريين في القرن العشرين على الإطلاق. عدت إلى هذه المذكرات فوجدت ليدل هارت يقول (ص ٣٤ و٣٥) عن القوات الانكليزية في جبهات فرنسا في عام ١٩١٧:

«كان من الصعب الوصول إلى الخطوط الأمامية الألمانية إذ لو أمكن الوصول إلى الخندق الأول مع رفع سد النيران ونقله إلى الخندق التالي فقد كان من المستحيل التحرك إلى هذا الخندق نظراً لأن رجل المشاة كان مثقلاً جداً بحمولته. فقد كان يحمل على ظهره ٦٦ ليبرة من التجهيزات أي ما يعادل نصف وزن جسمه بصورة متوسطة، مما كان يجعل من الصعب على المشاة الخروج من خندقهم. وبالتالي يكون من المستحيل عليهم التحرك

بسرعة أكبر من مجرد المسير البطيء أو النهوض والانبطاح بسرعة. . . وهكذا ضاع السباق قبل أن يبدأ. فقد تحرك سد نيران المدفعية ولم تتمكن المشاة من الوصول إلى هدفها، ولم يعد بالإمكان إعادة السد إلى الخلف، وتم دفع الدعم وزج الانساق التالية وتكون بذلك مزيج من الأخطاء التي صنعت المأساة. . .

وبعد خمسة أشهر، وعندما فشل الهجوم، كان جيش هيغ لايزال على بعد ثلاثة أميال من بابوم وخسر الجيش من قوته ٤٠٠ ألف مقاتل».

ثم يتابع الحديث عن المعركة التالية فيقول:

«. . . وأمكن لي خلال الجولة الاستطلاعية تكوين نظرة شمولية لتجدد الهجوم الذي قامت به الفرقة ٣٤ في قطاع لابواسيل، وكانت هذه النظرة تشكل لوحة تختلف بشكل غريب تماماً عن كل لوحة لمعركة رسمها فنانو الحرب في الصحافة المصورة. فعوضاً عن مسرحية شحن الوحدات عاطفياً بالتحيات والهتاف على نحو ما يجري رسمه عادة، كان باستطاعة المراقب رؤية سلاسل رقيقة من نقاط ثياب الخاكي وهي تتهادى بتثاقل نحو الأمام ثم ما تلبث هذه السلاسل أن تتحول إلى خيوط أكثر رقة بتأثير لهيب النيران. في تلك الليلة كانت أفواجنا تزيد على ٨٠٠ مقاتل وعند سحبها لم تكن إلا سبعين رجلاً مع أربعة ضباط. لقد كنا مستنزفين جداً بعد ست ليال بلا نوم تقريباً ونحن نتحرك بذهول وتعثر وألم كبير حتى وصلنا إلى حيث تجاويف الملاجىء الملأى بالنفايات وحيث عملنا فيما بعد على دفن قتلانا. . . ».

يتابع ليدل هارت وصف هذه المعارك بموضوعية مأساوية ليصل منها

إلى ما كان يتصف به الضباط من ضيق في الأفق يترجم بمصرع مئات الآلاف من الجنود، وكان من الواضح أن الجندي عندهم لا قيمة له ولا يحاسبه عليه أحد. . .

من هذه الوقائع يتضح أن الملايين من الناس البسطاء الشرفاء من أرباب الأسر الطيبين والعلماء الأذكياء والفنانين والعمال المهرة كانوا يموتون موتاً غبياً بسبب غباء القادة العسكريين في تلك الحرب ومصالح المتسلطين على القوى السياسية. ولذلك فإن الجيش الروسي الذي عانى أكثر من سواه من سوء التدريب وسوء التغذية وأخطاء القادة، سجل أكبر نسبة من الخسائر البشرية جعلته يتمرد. وكان تمرد الجنود مضافاً إليه سوء حال العمال والفلاحين في روسيا القيصرية سبباً ضخماً للثورة التي قامت أولاً في روسيا وأطاحت بالقيصر ووضعت حكومة مؤقتة، ثم في الثورة التالية (بعد ستة أشهر من الأولى) التي قادها الحزب الشيوعي البلشفي في روسيا وأقام على أساسها اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية. ومما يلفت النظر أن لينين قائد هذه الثورة حين وضع نظريتها القائمة على إمكان انتصار الاشتراكية في قطر واحد لا في ثورة عالمية تقوم في كل الأقطار في وقت واحد - كما كان السائد بين الاشتراكيين - قال إن الرأسمالية العالمية يمكن ضربها في أضعف حلفائها، ولأن روسيا أكثر البلاد ظلماً وتخلفاً وشعبها أكثر اشعوب تذمراً وثورته، ولانعزالها عن الغرب الأوربي وبعد مسافاتها، فإن الثورة فيها يمكن أن تنتصر. وهكذا قام الاتحاد السوفياتي في عام ١٩١٧.

لم يترك الغربيون الاتحاد السوفياتي وما كان لهم أن يفعلوا فإن مثال

دولة اشتراكية ناجحة أو شيوعية (كما أسماها لينين للتمييز بينها وبين اشتراكيي أوربا) كان سيحفز عمال العالم على محاولة تقليدها وهو ما حصل بالفعل، ولذلك ردت الرأسمالية العالمية بتنظيم أربع عشرة حملة على روسيا مستخدمة كل القوى الممكنة للإجهاز على الاتحاد السوفياتي الوليد، ولكنها فشلت في تدميره عسكرياً، فلجأت إلى محاولة خنقه اقتصادياً ودعائياً، ثم إلى تأليب هتلر عليه ودفعه نحو الشرق.

هنا يقول الاتحاد السوفياتي أنه أدرك اللعبة فالتف عليها بنفس أسلوب الغربيين فأوفد مولوتوف إلى برلين وعقد معاهدة عدم اعتداء مع هتلر كان القصد منها كسب الوقت. ويقول الاتحاد السوفياتي كذلك أنه لما دخل هتلر إلى بولونيا سارعت روسيا - دون اتفاق مع الألمان - إلى احتلال القسم الشرقي من بولونيا وضمه إلى الاتحاد السوفياتي احتياطاً من هجوم ألماني في المستقبل لأن المسافة التي ربحها الاتحاد السوفياتي بأبعاد الألمان عن حدوده مسافة أمان.

وهنا طرح سؤال ضخم جداً ولم يجد جواباً قاطعاً عليه حتى الآن: لماذا فوجىء الاتحاد السوفياتي بالهجوم الألماني حين وقع في حزيران ١٩٤١؟

يجمع الأدب الحربي على أن الروس كان لهم جاسوس قدير بل هائل القدرة أنذر ستالين بالهجوم الألماني وحدد موعده ولكن ستالين تجاهل التحذير حتى أنه لم يستنفر القوى بشكل احتياطي، فوقعت الكارثة التي جعلت ثمن النصر فادحاً إذ وصل الألمان إلى أبواب لينينغراد وأبواب موسكو واحتلوا كل أوكرانيا ومنطقة الدون ووصلوا إلى ستالينغراد أي إلى

نهر الفولغا حتى توقفوا هناك أمام المقاومة الباسلة والتضحيات غير المعقولة.

وقد تعرض القادة العسكريون السوفياتيون في مذكراتهم بعد الحرب إلى هذه الناحية وأجمعوا على أن الألمان (غدروا) وأن ستالين حتى لحظة بدء الهجوم وبعده بأيام ظل متحيراً ولم يكن يصدق ما جرى رغم أن تحذيرات وردت إليه من كل جانب ولكنه لم يصدقها.

ويضيف جوكوف: قد يكون ذلك الشخص ر. سيرج الذي سمعت عنه بعد الحرب! أن جوكوف وكل العاملين في الأركان السوفياتية مجمعون على أن ستالين وكان وحده مصدر القرار كان تباطأ، ولكن الإجماع أيضاً كان على حسن إدارته للحرب حتى الانتصار، ولكن كان فادحاً جداً وتهدم الاقتصاد السوفياتي بالحرب، ولم ينهض كفاية بعد الحرب، ثم وتحمل الاتحاد السوفياتي الحرب الباردة، وتحمل مساعدة الشعوب، وصرف جهده إلى الانتاج الحربي والتفوق الذري والفضائي، فكان أن أصابه الضعف والخواء من الداخل.

والباقي لا أخوض فيه لأنه ليس من أمور هذه المرحلة ولا أنا مؤهل الآن بما يكفي لإعطاء رأي فيه.

وهكذا بدأت الحرب في صباح ٢٢ حزيران ١٩٤٢ مرحلة جديدة بدخول الاتحاد السوفياتي طرفاً فيها.

ولكننا نترك الحرب العالمية مؤقتاً لنعود إلى سورية والأوضاع فيها.

٤- دخول الانكليز والديغوليين إلى سورية

في ٢٢ حزيران ١٩٤١ وإثر دخول ألمانيا الحرب ضد الاتحاد السوفياتي بصورة غادرة ومفاجئة، دخلت الجيوش الانكليزية والفرنسية الحرة (التابعة للجنرال ديغول) إلى سورية منطلقة من فلسطين والأردن، ولم تلق إلا مقاومة معتدلة، وبذلك صارت سورية ولبنان تحت حكم عسكري فرنسي (ديغولي) وانكليزي، أي لم يختلف من الأمر سوى تبدل بسيط في علم المحتل والكثيرون من الموظفين الفرنسيين الذين كانوا مع المارشال بيتان (أي حكومة فيشي) المتفاهم مع الألمان، انقلبوا فصاروا مع ديغول أي مع المضي في الحرب.

شخصياً استفدت من هذا الانقلاب العسكري الفرنسي، فقد كنت محكوماً بالسجن مع الأشغال الشاقة تسعة عشر شهراً وسجيناً في قلعة دمشق، فخرجت من السجن بقرار من قائد الجبهة، وترون هذا في مكان آخر غير بعيد من هذه المذكرات.

وسورية لم تخسر سياسياً خسارة ملحوظة، وعلى العكس صارت البوادر الأولى تشعر بأن الفرنسيين الجدد الذين كانوا أقرب إلى محاربة الفاشية وإلى الديمقراطية ولو ظاهرة، بدأوا سياسة تقرب إلى السوريين. ولذلك فإن الجنرال كاترو أنهى حكم حكومة المديرين وتوجه إلى الشيخ تاج الحسني بكتاب (يرى فيه أن يقوم الشيخ تاج بمهام رئيس جمهورية سورية) فكان هذا تعييناً صرفاً، وقبل الشيخ تاج، وكان حكمه محاولة لإعادة الاعتبار له بعد أن أخرجه الشعب من الحكومة عام ١٩٣٦.

وفي هذا السياق حدثت الحادثة التالية معي شخصياً. فقد كنت في ذلك الوقت ولفترة قصيرة في صيف عام ١٩٤٣ موظفاً في وزارة الدعاية والشباب التي وزيرها الدكتور منير العجلاني، فأقيم احتفال لم أعد أذكر ما مناسبته - وربما كان ١٤ تموز أي ذكرى الثورة الفرنسية - وحضره الجنرال كاترو والشيخ تاج، وكلفت بإلقاء كلمة بالفرنسية للترحيب باسم الوزارة، فارتكبت غلطة بروتوكولية إذ قدمت اسم الجنرال على اسم الشيخ تاج، فلما لاحظ المنظمون هذه الخطيئة أجبتهم ضاحكاً: أليست هذه هي الحقيقة؟ ومن عيّن الآخر في منصبه؟

٥- الاحتلال الانكليزي وآثاره

قلت أن الاحتلال الجديد لسورية وكان شعاره الظاهر منع قوات المحور من أن تأتي فتحتل سورية (كما فعلت في اليونان وكريت ولدى وصولها في الصحراء إلى العلمين عند الحدود المصرية) ومهمته الحقيقية احتواء الحركات الاستقلالية العربية من أمثال حركة رشيد عالي في العراق... هذا الاحتلال الجديد أضاف وجوداً متميزاً للجيش الانكليزي، فذقنا طعمه كما سبق أن ذاقه من قبلنا الهنود والعرب والمصريون وشعوب أخرى، وكان من أعماله ونتائجه مايلي:

١- نشر الرشوة

بدأت الرشوة تصبح في بلادنا شيئاً مألوفاً غير مهين وكان من قبل مسبّة عار وموضع احتقار شعبي عام. وكان من أبرز مظاهرها مؤسسة (الميرة) التي

تشتري الحبوب من المزارعين. وقد روى لي الدكتور عبد السلام العجيلي أنه كانت له وظيفة في الميرة فلاحظ السرقات والرشوة، وقدم استقالته إلى مرجعه الأعلى شارحاً السبب، فكان جوابهم يستفاد منه أن دعهم يستفيدوا، فكان هذا علماً من الأعلى بما يفعله الأدنى. ومتى سادت الرشوة في دولة انهدرت قيم الأخلاق وزالت المساواة وترفع السارق والكاذب وانخفض الشريف.

والمهم أن الأمر شاع رغم الاستهجان، ولكن شيوعه ترك أثره في الأخلاق الوظيفية لأمد طويل.

٢- نشر الموقف الرديء من العمل واستمراء الحرام

والأمر الثاني أن الانكليز أرادوا بمناسبة فتح الطرقات العسكرية أن يشغلوا أعداداً كبيرة من المواطنين في القرى خاصة وفي الأوساط الفقيرة في المدن، وذلك بأن يعملوا في حمل الحجارة وتمهيد الطريق. وكنا نرى ونسمع أن المراقبين كانوا يغضون النظر عن العامل الكسلان والذي يعبىء حجارة في قفة ثم يفرغ القفة ويعود من جديد فلا يتعب والراتب ثلاث ليرات سورية يومياً (في حين كان راتبي كمعلم في قرية الديماس أقل من ليرة سورية واحدة في اليوم) - وبذلك فسدت أخلاق الكثيرين من حيث الموقف من العمل. فبينما كان ابن الشعب الفقير - بوجه خاص ولأنه فقير! - يخاف من أكل اللقمة الحرام ويعتبر اللقمة حراماً ما لم يبذل جهده وعرق جبينه، صار موقفه من العمل سيئاً ويعتبر أنه إذا لم يقدم عملاً أصلاً وأخذ الراتب «فحلال على الشاطر» كما شاع القول في المثل. ووجد من يفتي لذلك بأن العلاقة مع

أجنبي وماله حلال كله! . . . وكان الانكليز يرضون عن هذا التفسير بل يوحون به.

٣- تهوين أمر شراء المسروقات وأكلها

ومن هذا الحلال (المشبوه فعلاً) أن الانتلجانس سرفيس التي هي أشهر مخابرات في العالم أيامها وكانت تسمى (مصلحة الذكاء) كما هي ترجمة اسمها، كانت ترى - وتتظاهر بالبلاهة والعمى - أن سيارات كاملة من سيارات النقل التابعة للجيش تخرج من مستودعات المعسكرات حاملة البطانيات وعلب اللحم وشفرات الحلاقة وصناديق الويسكي، فتباع علناً في الأسواق رغم وضوح أنها منهوبة من الجيش، ويضحك الجنود الانكليز الذين يسوقونها وهم يرون تهافت الناس (الفقراء وحتى المتوسطين الذين زادت الحرب جوعهم) على شرائها . . . وكان الخلق الشعبي والوطني من قبلها يعتبر المسروقات هي من الحرام الديني والحرام القانوني، وبالاعتياد هانت، وربما كان هذا من العوامل الأساسية في انتشار التساهل في القيم الأخلاقية العامة.

٤- الكوتا

وراجت في تلك الفترة كلمات مثل الكوتا ومعناها (الحصة) عندما صار الانكليز بسبب سيطرتهم في البلاد الآسيوية وعلى البحار الشرقية وعلى قناة السويس، وقدرتهم على جلب المحاصيل الناقصة ومن أهمها القماش المعروف (بالقطة وبرنيطة) وهي قماش عليه صورة قطة تلبس برنيطة . . . والرز والسكر والبترول والبطانيات وأكياس الخيش. فكانت هذه المواد

الأساسية وغيرها توزع على عدد من التجار أعطاهم المحتل طريق الغنى فردوا عليه امتناناً بتنظيم أسبوع لشراء الطائرات للجيش الانكليزي، وعن طريق هذه المبادلة التي تمت رسمياً وفي جو احتفالي صار التعاون مع المحتل الانكليزي (بعكس الحال مع المحتل الفرنسي) يعتبر أمراً عادياً وغير مخجل ولا مثير للحرج، وفي هذا ما يعطينا مؤشراً على بعض القوى السياسية والاقتصادية التي كانت تغلبت وحكمت في الأربعينات وعن تعاونها بعد الاستقلال مع بريطانيا.

٥- الأرصدة السترلينية

ولم تكن مكشوفة إلا للقلة من الناس حقيقة أن بريطانيا قد (سقتنا من دهننا) فأنفقت على جيشها المحتل ومعسكراته وخدماته من النقد السوري الذي أخذته من المصارف السورية، وقيّدت لنا مقابله مبالغ بالجنيه الاسترليني ديناً على بريطانيا تدفعه بعد الحرب بضائع وغيرها. وتعبير الأرصدة السترلينية عرف حين صار موضوعها حديث مفاوضة بين الجهات الاقتصادية وبريطانيا بعد الحرب. ولذلك فكل ما صرفته بريطانيا على جيشها وعلى مرتزقتها ولصوصها دفع الشعب السوري من نقده الوطني ثمنه ونال مقابله أرصدة لا أعرف بالتفصيل كيف استوفيت ولكن الأمر حسم على كل حال منذ عشرات سنين.

٦- التحريض والحماية

وكانت السلطات البريطانية تظهر - ولاسيما بلسان الجنرال سبيرس- امتعاضها من تصرفات السلطات الفرنسية وحصلت ازدواجية في التوجيه

شجعت بلاشك الوطنيين على مقاومة فرنسا. ومن أمثال الرياء الانكليزي أن الجيوش البريطانية تركت الفرنسيين يضربون دمشق بالقنابل في ٢٩ أيار ١٩٤٥ ويوجعون الشعب قتلاً وإحراقاً، ثم تدخلت بعد ذلك- بعد تمام المعركة لا قبلها، وكان في وسعهم ذلك! - لتأمر الفرنسيين بالعودة إلى ثكناتهم بعد أن أحرقوا (من جملة ما أحرقوه) آخر سمعة للفرنسيين في سورية. علماً بأن الفرنسيين - وأقول هذا شهادة للتاريخ - لم يكن حكمهم السيىء سوءاً كله بل كان فيه لمحات تومض بين الحين والحين من فكر وثقافة وتطوير قانوني وأفكار حرة ورجال فرنسيين يحقدون هم أنفسهم على دولتهم الظالمة، ولعل أفضل مثال أن تعودوا فتقرؤوا محاكمة هنانو.

تلك كانت أبرز النتائج التي حصلت من جراء الاحتلال الانكليزي الذي لم نكن جربناه من قبل بينما الاحتلال الفرنسي على سوئه كانت فيه تطل قيم ثقافية ومبدئية والفرق هو أن انكلترا عندها جيش محترف منتقى لخدمة أهدافها بينما فرنسا يأتي جنودها من خدمة العلم التي تضم الكثيرين جداً من الشرفاء والمثقفين والرجال الأحرار، عدا الفرق الأجنبية المحترفة التي تضم عادة حثالة المجرمين القساة الذين يلجؤون إلى التطوع فيها إذ لا تطلب منهم لا أسماءهم الحقيقية ولا تشترط أن يكونوا فرنسيين ولا تطلب سجلهم العدلي، وذلك قصداً حتى يأتيها المجرمون من كل جنسية، وهذا أمر معروف بوجه عام.

٦- الصراع الانكليزي الفرنسي في سورية

إن أسباب هذا الصراع القديمة معروفة ولكن المستجد فيها أن فرنسا كانت قد احتلها الألمان منذ ٢٥ حزيران ١٩٤٠ وكانت الإدارة العسكرية والسياسية والفرنسية في سورية تابعة للمرشال بيتان وحكومة فيشي، أي كانت سورية قد انتقلت من معسكر تحتله قوات حليفة لبريطانيا إلى معسكر تحتله قوات تتبع حكومة فيشي المتعاونة من الألمان والتي قدمت للألمان فيما بعد تسهيلات كثيرة في سورية من بنيها هبوط طائرات عسكرية ألمانية في حلب لتأييد حركة رشيد عالي الكيلاني إذ كان العراق قد أصبح رجاله يقتربون من الألمان اقتراباً كبيراً.

وكان هتلر قد اعتمد في دعايته بين العرب على كراهيتنا التقليدية الراسخة للاستعمارين البريطاني والفرنسي، وبدأ راديو برلين يستقطب الجماهير العربية ولا سيما غير المسيّسة عن طريق مذيع اسمه يونس بحري (مزعبر) من الدرجة العليا وقدير في بهلوانيات الكلام يفتتح كل يوم إذاعته بنداء يوجهه بصوت جهوري صائحاً: هنا برلين، حيوا العرب! وكان تأثيره كبيراً على الناس لأن يضرب على وتر الاستقلال الحساس، ولكن الجماهير العربية المدركة كانت تعرف أن ألمانيا تحارب فرنسا وبريطانيا لتحتل مكانهما في الشرق الأوسط وتتمتع بخيراته، وأن النظرية العرقية الألمانية كانت تصنف العرب في الدرجة الرابعة عشرة من الأمم ويكاد لا يكون بعدنا إلا شعوب قليلة.

إن تأثير يونس البحري والدعائية الألمانية لم يكن نتيجة فصاحة عابرة

وإنما كان استغلالاً لنقمة الشعب على أعدائه من المستعمرين الذين يحاربهم هتلر لمصالحه الخاصة.

وقد تعاون مع ألمانيا عدد من الوطنيين المعروفين بعدائهم للانكليز منهم العراقيون الذين قاموا بانقلاب رشيد عالي الكيلاني ومنهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ومنهم منير الريس الصحفي الوطني الذي وصف مراحل عمله مع الجهات الألمانية حتى اكتشف أنها تخدع العرب، ومنهم بعض معارفي هنا من الشباب الذين جرتهم الدعاية الألمانية لأسباب مختلفة. ولكن يكفي لإظهار مدى تأثير الحلفاء بهذه الدعاية ضدهم أن أقول أن الفرنسيين أصدروا أمراً بجمع جميع أجهزة الراديو عند الناس تحت طائلة العقوبة فسلمت الأجهزة وجمعت في قاعة في مدرسة اللاييك لفترة من الزمن ريثما انقلب ميزان الحرب والدعاية الحربية. وقد تجلى الصراع الانكليزي على سورية بمظاهر مختلفة ووصل في بعض الأحيان إلى حد الاصطدام المباشر، ولاسيما حين تورط الفرنسيون في أحداث عام ١٩٤٥ وضربوا دمشق وباقي المدن السورية.

سأترك الفرنسيين والانكليز مؤقتاً يعملون ويتبادلون الدسائس في حربهم الخفية التي كان يديرها من الجانب الانكليزي الجنرال سبيرز، وأعود إلى الساحة الوطنية. ولكن أكتفي بالقول إن الذي كان يرأس السلطة الفرنسية الموجودة في سورية لصالح الفيشيين (حكومة بيتان المتعاونة) كان الجنرال دانز، وهو المسؤول عن كثير من الأسواء التي حلت بسورية ولبنان.

٧- تأليف حكومة المديرين

بعد أن أعلنت فرنسا -عملياً- عن موقفها من مشروع المعاهدة الذي كان اتفق عليه مع الجانب السوري، اتخذ السيد شكري القوتلي قراراً بالاستقالة من عضوية الوزارة التي يرأسها جميل مردم وكان ذلك في ٢٢/ ٣/ ١٩٣٨، فرمم السيد جميل مردم وزارته بعضوين جديدين وسافر للمرة الرابعة إلى باريس محاولاً إقناع فرنسا بقبول مشروع المعاهدة، وقيل أنه أبدى تساهلات في شأن تجديد امتياز البنك السوري واستثمار البترول وتعليم اللغة الفرنسية في المدارس، ولكن الرد الفرنسي كان الرفض وأعلنت باريس سحب المفوض السامي دومارتيل الذي كان أحد صانعي مشروع المعاهدة.

وبدأت فرنسا بتحريك العناصر التي تعمل على الانقسام، ففي الجزيرة قامت حركات طائفية تزعمها الكردينال تبّوني، وفي مناطق أخرى تحركت منظمات مثل (الشارة البيضاء) وحركات أخرى في منطقتي اللاذقيه وجبل الدروز واجتمع مجلس النواب برئاسة السيد فارس الخوري واتخد قراراً فيه شيء من التصلب ولكنه خلا من الإشارة إلى قضية الاسكندرون. وعينت فرنسا مفوضاً سامياً جديداً هو (غابرييل بيو) ولكن دمشق استقبلته بإضراب شامل حتى قال: (كأنني أقود حملة فرسان بين قرع الطبول وصوت الخيول للقاء عدو غير منظور). وبدأ (بيو) بأن حث الحكومة السورية على قبول نظام الطوائف الديني الذي كان أصدره، وأجابه السيد مردم أن النظام سيعرض على المجلس (وكان هذا النظام يعترف بالطوائف التاريخية ويقيم قاعدته للانتقال من مذهب إلى مذهب ويسمح بالتزاوج فيما بينها) ولكنه طالب بأن

تسلم الحكومة الفرنسية دار المندوبية في دمشق إلى الحكومة السورية فرد (بيو) بالرفض والتهديد ووجه إنذاراً إلى الحكومة السورية يقول (الشرقيون يفكرون بطريق الصور المجسمة ولذلك فمن الملائم أن تفرض صورة السيف على ذهن رئيس الوزراء السيد مردم). فردت الحكومة السورية بالاستقالة في ١٨/ ٢/ ١٩٣٩ وقامت مظاهرات معارضة برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والشيخ كامل القصاب. وفشلت حكومة ألفها السيد لطفي الحفار فاستقالت بعد ٤٢ يوماً، وعندها أصدرالمفوض السامي أمراً بمنع المظاهرات وقبض على عدد من الوطنيين وسلم الأمن إلى السلطة وأحال المتظاهرين إلى المحاكم الأجنبية من جديد، وكلف السيد نصوحي النجاري بتأليف الوزارة في ٥ نيسان ١٩٣٩.

لم تستطع الحكومة الجديدة إعادة الهدوء، وظل الجيش الفرنسي يشرف على الأمن، فاحتج النواب وأجاب (بيو) بتعطيل المجلس في ٢٠/ ٤/ ١٩٣٩ لمدة شهر، فاستقال البخاري في ٤ تموز ١٩٣٩ واستقال رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي في ٧ تموز.

ولما وقع الفراغ، فالمجلس معطل والرئيسان مستقيلان، أصدر المفوض السامي قراراً بوقف الدستور وحل مجلس النواب وتأليف حكومة من المديرين برئاسة بهيج الخطيب ومنعت هذه الحكومة النشاط السياسي وعاد نفوذ المستشارين واعتقل وطنيون وصحفيون وفتح منفى أرواد من جديد، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً حاداً وساد التذمر الناس.

٨- مصرع الشهبندر

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أحد المثقفين الدمشقيين القدامى الذين عملوا في الحركة العربية منذ أيام الأتراك وحكم عليه بالإعدام غياباً لذلك ولكنه فر إلى شرق الأردن ثم إلى مصر حيث عمل فيها في مهنة الطب، ولذلك كان يسمي نفسه الشهيد الحي. ولما قامت الثورة الفرنسية كان من العناصر القيادية فيها، وعند انحسارها عاد إلى مصر وبقي فيها إلى أن رجع إلى دمشق في عام ١٩٣٧ وألف (الهيئة الشعبية) المعارضة للكتلة الوطنية. وكان ذكياً وخطيباً مفوهاً وله تأثير على الجماهير، ولكنه مجادل فيه فالكثيرون لا يحبونه، وظل طرفاً في الحركة لأنه لم ينجح في أن يكون زعيماً عاماً معترفاً به، بل كان هناك من يقول بأنه في مقامه في شرق الأردن ومصر كان يمثل الاتجاهات المتعاونة مع بريطانيا.

وفي ٦ تموز ١٩٤٠ فوجئت البلاد بأن بعض الأشخاص اغتالوه في عيادته بعد أن تظاهر أحدهم أنه مريض، وكان القتلة ويتقدمهم من أطلق النار واسمه أحمد عصاصة من الشباب الذين لهم علاقات ببعض رجال الكتلة وببعض المشايخ.

وبالنظر لصفة الجريمة السياسية ومصلحة فرنسا في أن تثار حولها أكبر ضجة كما سيأتي أعلن المفوض السامي الفرنسي تشكيل محكمة مختلطة لمحاكمة قتلة الشهبندر المنفذين للجريمة ومنهم عاصم النائلي وعدد من السياسيين الذين اعتبروا محرضين وهم جميل مردم وسعد الله الجابري ولطفي الحفار من الساسة ومحمد الحرش وفوزي القباني من وجهاء الأحياء.

وكان مبرر ملاحقة السياسيين اعتراف أدلى به عصاصة لدى توقيفه بأن عاصم النائلي وهو مدير مكتب جميل مردم قال له إن الشهبندر خائن وكافر وعميل للانكليز وأنه بعد اغتياله ستنقلهم سيارة إلى العراق ويعطون ٤٠٠ ليرة ذهبية.

ولكن المحاكمة - التي كانت من أكبر القضايا التي شهدتها سورية وترافع فيها محامون كبار من لبنان وسورية يزيد عددهم على الأربعين - أخذت منحىً آخر مفاجئاً، عندما دعي الشيخ محمد مكي الكتاني فقال إن عصاصة ورفاقه استفتوه في دم مسلم يساعد الكفار فرد الشيخ عليهم بأنه كافر ودمه حلال دون أن يدري من هو المقصود، وعاد القتلة صراحة عما نسب إليهم من أقوال تدين الكتلة الوطنية ورجالها فحكمت المحكمة بإعدام خمسة من المنفذين بينهم واحد حكم غيابياً، وحكم بأحكام أقل على بعض الذين شاركوا من بعيد، وبرىء السياسيون الكتلويون، ونفذ حكم الإعدام في ٤ شباط ١٩٤١.

وكانت هذه القضية بغموض دوافعها قد أثارت الرأي العام العربي واعتبرت من أول الدلائل على تحرك اتجاه جديد للتعصب الديني، وبإعدام المنفذين دون الوصول إلى الحقائق البعيدة الكامنة أسدلت السرية على الأيدي التي حركت الجريمة ولاريب بأنها أيد أجنبية أرادت في هذا الوقت بالذات أن تكرس انقسام الجبهة الوطنية المعارضة للفرنسيين حين تولوا الحكم مباشرة خلف ستار حكومة المديرين. وأيد ذلك في نظر الناس أنه تم خلال ثلاث ساعات القبض على رجال الكتلة الوطنية المتهمين قبل أن يقبض على

القتلة ويستجوبوا، وأنه لا يمكن أن تكون المصلحة في قتله إلا للفرنسيين الذين يربحون بذلك ترسيخ الانقسام في الصف الوطني المعارض ولاسيما أنه لم يكن في الحكم لا الكتلويون ولا الشهبندريون، وإنما حكم فرنسي شبه مباشر.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الجريمة وقعت بعد قيام الحرب في آخر آب عام ١٩٣٩، ومصالح الفرنسيين كانت تقتضي الحكم المباشر أولاً، والتخلص من العناصر المشكوك بأنها توالي أو تؤيد الانكليز وكان الصراع الانكليزي الفرنسي في دول الشرق بارزاً.

٩- نشاط شكري القوتلي

وفي ٦ كانون الثاني ١٩٤١ أصدر السيد شكري القوتلي بياناً نشرته الصحف يطلب فيه إنهاء الأحكام العرفية والإفراج عن المعتقلين السياسيين ويعلن التمسك بمطالب البلاد القومية التي كانت البلاد تطالب بها منذ عشرين عاماً.

هز البيان البلاد باعتباره صوّر مطامحها وبدأت المظاهرات وأعلن السوريون في مطلع آذار إضراباً عاماً شمل المرافق الحكومية ووسائل النقل، وتضامن اللبنانيون مع السوريين وشاركوهم الإضراب وتظاهرت النساء اللبنانيات ووقع قتلى وجرحى، فاستقالت حكومة المديرين اللبنانية التي كانت كحكومة المديرين السورية، وفشلت محاولات الجنرال دانتز لتشكيل حكومة كان كلف بها السيد عطا الأيوبي، ثم اعتذر السيد هاشم الأتاسي،

وفشل الداماد أحمد نامي. ولما يئس دانتز في مطلع نيسان ١٩٤١ غيّر لهجته ولكنه وعد بالتحسين (عندما تستقر الأوضاع في العالم).

وفي ٣نيسان ١٩٤١ أصدر مرسوماً بتكليف السيد خالد العظم بتشكيل حكومة سورية مؤقتة وأن يتمتع خالد العظم بصلاحيات رئيس الدولة مؤقتاً أيضاً، فتوقف الإضراب.

خالد العظم

إن خالد العظم الذي هو من مواليد ١٩٠٢ وتوفي عام ١٩٦٩، دمشقي تخرج من معهد الحقوق وكان من مؤسسي الشركات الوطنية وترأس غرف الصناعة. وكانت هذه رئاسته الأولى للحكومة وبقي فيها حتى أيلول ١٩٤١. وفي عام ١٩٤٣ انتخب نائباً عن دمشق وشغل مناصب وزارية نجح فيها حتى عام ١٩٤٧، ثم صار رئيساً للوزارة في هذه السنة حتى أطاح به حسني الزعيم.

ثم ترأس الوزارة عام ١٩٥٠ وكان صانع الانفصال الجمركي عن لبنان بعد أن كانت سورية ولبنان مشتركين في الجمارك منذ الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٠ ويدير الجمارك فيهما مجلس (المصالح المشتركة). وفي عام ١٩٥٤ صار وزيراً للخارجية وشارك في مؤتمرات باندونغ وسان فرانسيسكو وحسن العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، ثم عاد إلى رئاسة الوزارة عام ١٩٦٩.

وقد عرفته شخصياً وسأعود إلى الكتابة عن صلتنا اللطيفة في الجزء المقبل من هذا الكتاب حتى أحافظ على التسلسل الزمني.

التأزم في الوضع الحربي العام

كانت الحرب في أثناء ذلك تتقدم نحو الشرق الأوسط. ففي ٦ نيسان ١٩٤١ احتل الألمان يوغسلافيا وفي ٢٧ نيسان دخل الجيش الألماني أثينا.

وفي أفريقيا بدأ الألمان يتقدمون في الصحراء نحو مصر. وفي العراق جرى انقلاب بقيادة رشيد عالي الكيلاني على الوصي على عرش العراق عبد الإله وفر الجنود العرب من الجيش الانكليزي والتحقوا بالجيش العراقي، وتطوع كثيرون جداً من الشباب السوريين ومن أصدقائي الذين أعرفهم وذهبوا إلى العراق في حركة أسموها (نصرة العراق).

من دخول فرنسا وانكلترا عام ١٩٤١ حتى الجلاء

في ٢١ حزيران ١٩٤١ دخلت القوات الفرنسية والبريطانية دمشق عن طريق درعا الكسوة، وقد وصفت بعض ما يتعلق بهجومها وملابساته وعلاقته بإخراجي من السجن في مكان آخر.

وفي ٢٣ حزيران وصل الجنرال كاترو إلى دمشق، وفي اليوم التالي أصدر ديغول مرسوماً بتعيينه مفوضاً مطلق الصلاحية بما في ذلك التفاوض مع ممثلي الأهالي لإجراء معاهدات تضع أسس استقلال سورية ولبنان.

وجاء ديغول في ٢٥ تموز ليبدأ جولة في سورية فزار مختلف المحافظات السورية واجتمع إلى الزعماء الوطنيين، وترك التعليمات والتنفيذ إلى كاترو.

١٠- الشيخ تاج مجدداً

وفي ١٧/ ٩/ ١٩٤١ وجه الجنرال كاترو إلى الشيخ تاج الدين الحسني رسالة هذا نصها بعد المقدمات.

«لما كانت فرنسا قطعت على نفسها بالاتفاق مع حليفتها بريطانيا العظمى عهداً بأن تضع حداً للانتداب وتمنح سورية نظام دولة مستقلة ذات سيادة مضموناً بمعاهدة، ونزولاً عند رغبة الرأي العام الذي استشرته بدقة أرى أن فخامتكم في الظروف الحاضرة أكثر ملاءمة من سواها لتحقيق هذه المهمة الوطنية الكبرى، لذلك اقترح على فخامتكم أن تتسلموا مقدرات سورية متخذين لقب رئيس الجمهورية العربية السورية مع المميزات والواجبات المترتبة على هذا اللقب. . .».

وسارع الشيخ تاج إلى الإجابة قائلاً في رسالته إلى كاترو:

«تلبية لنداء فخامتكم أبادر إلى إعلان قبولي للمهمة الخطيرة التي يدعوني الواجب الوطني إلى أن أتولاها. . .».

ولما كان خالد العظم هو رئيس الوزراء عند تبادل هاتين الرسالتين فقد بادر إلى تقديم استقالة حكومته في اليوم ذاته. واندلعت على الفور مظاهرات نظمتها الكتلة الوطنية في كل البلاد، وقاطعت حكومة الشيخ تاج، لكنه استغل انشقاق الصف الوطني واستعان بالشهبندريين فألف حسن الحكيم الوزارة في ١٩/ ٩/ ١٩٤١ ومعه زكي الخطيب ودخل معه من الكتلة فايز الخوري واثنان من الانتدابيين هما بهيج الخطيب ومنير العباس وعدد من المستقلين هم محمد العايش وفيضي الأتاسي وحكمت الحراكي وعبدالغفار

الأطرش. وفي ٢٧ أيلول قرأ الجنرال كاترو نص التصريح الفرنسي المتضمن إعلان استقلال سورية المقيد بقيود نسبها إلى حالة الحرب القائمة، وهي من الناحية العملية تنفي الاستقلال وتبقي للحكومة الفرنسية حق التشريع والجمارك والأمن والدرك والاستخبارات والمستشارين والعشائر ورقابة الصحف والمطبوعات وإدارة السكك الحديدية وغيرها.

ولكن كاترو أعلن ضم جبل الدروز والعلويين إلى سورية وفق نظام خاص بهما وتم ذلك بعد أشهر. وبعد فترة قليلة (أقيل) حسن الحكيم بطلب وجهه الشيخ تاج إلى وزرائه لكي لا يتعاونوا معه، فلما انتهى أمر وزارته ألفها حسني البرازي ودخل فيها منير العجلاني الذي كان تزوج بنت الشيخ تاج. وكان حسني البرازي أكثر ميلاً إلى الانكليز.

وظل التطاحن بين النفوذين الفرنسي والانكليزي قائماً في سورية، وظل الجنرال سبيرز يتدخل في شؤون سورية ولبنان بوصفه ممثلاً للحكومة البريطانية.

وفاة الشيخ تاج المفاجئة

وفي ٨ كانون الثاني ١٩٤٣ أقيل حسني البرازي وكلف جميل الألشي بتأليف الوزارة بدلاً منه، ولكن بعد أيام قليلة من مباشرة وزارته مهامها توفي الشيخ تاج فجأة ولم يكن مريضاً مرضاً يذكر، وكانت ميتته مباغتة وفي ظروف غامضة وأشيع أنه توفي مسموماً بعد حقنة بكمية من الدواء أكثر مما حدده الأطباء فقد أصابه احتقان مفاجىء بالرئة وتسمم بالدم وصلت نسبته إلى ٥,٣ سنتغرام.

١١- وزارة عطا الأيوبي

استمرت حكومة جميل الألشي إلى ٢٥ آذار ١٩٤٣ حين أصدر الجنرال كاترو قراراً بإنهاء مهمته وتعيين السيد عطا الأيوبي رئيساً لحكومة انتقالية تشرف على إجراء انتخابات حرة وتؤمن خلال ذلك إنهاء أزمة الخبز التي كانت استفحلت وقامت المظاهرات من أجل المطالبة بحلها.

وفي تلك الأثناء سحب ديغول الجنرال كاترو وعيّن محله (هيللو) وهو دبلوماسي محترف تنقصه الخبرة بالأمور السورية.

سعى الأيوبي لتخفيف أزمة الخبز ولاطلاق سراح صحفيين وطنيين كانوا معتقلين، وأشاع جواً من الحرية الانتخابية، وكانت الكتلة الوطنية قد ركزت زعامتها حول السيد شكري القوتلي وتنازل له هاشم الأتاسي رغم أنه عميد السن بين الكتلويين، ولكن الزعماء الكتلويين الحلبيين لم يستجيبوا. ولما كانت الساحة قد استقطبت حول السيد القوتلي بصورة رئيسية لاسيما وقد انسحب من عصبة العمل القومي السيدان صبري العسلي وأحمد الشراباتي وانضما إلى قائمة الكتلة، فقد نجحت الكتلة في الانتخابات وكانت تجري على درجتين، ففي الأولى ينتخب الشعب - حسب القانون - ناخبين ثانويين، وفي الثانية ينتخب هؤلاء النواب. وفي ٢٦ تموز جرت المرحلة الأخيرة وفازت الكتلة الوطنية في دمشق وتوزعت الأصوات في المدن والمناطق الأخرى ولكن ظل للكتلة الأكثرية في مجلس من (١٤٢) نائباً.

شكري القوتلي رئيساً للجمهورية
والجابري رئيساً للوزارة

وفي ١٧ آب ١٩٤٣ انتخب المجلس السيد شكري القوتلي رئيساً بأغلبية ساحقة إذ صوت له ١١٨ من ١٢٠ حاضرين، وفي ١٩ آب تألفت الوزارة على الوجه التالي:

سعد الله الجابري (رئيساً)، جميل مردم (الخارجية)، لطفي الحفار (الداخلية)، خالد العظم (المالية)، عبد الرحمن كيالي (العدل)، نصوح البخاري (الدفاع والمعارف)، توفيق شامية (للزراعة والتجارة)، مظهر رسلان (الأشغال والتموين).

وفي لبنان انتخب في الوقت عينه تقريباً بشارة الخوري (رئيساً)، وكلف رياض الصلح (برئاسة الوزارة)، وصبري حمادة (برئاسة مجلس النواب) وفق التوزيع الطائفي التقليدي.

وبذلك تناغمت الحكومتان السورية واللبنانية وصار موقفهما موحداً ضد فرنسا وفي سبيل الاستقلال وعدل اللبنانيون الدستور فألغوا علمهم القديم الذي كان العلم الفرنسي وتتوسطه أرزة إضافة إلى أمور أخرى جوهرية، ولكن فرنسا رأت أن تعديل الدستور دون موافقتها يعتبر عدواناً على سلطاتها فبادرت في ١١/ ١١/ ١٩٤٣ إلى اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وعدد من الوزراء وزجت بهم في معتقل راشيا وشكل عدد من الشخصيات حكومة وطنية ثائرة في بلدة بشامون برئاسة حبيب أبو شهلا وعضوية مجيد أرسلان وصبري حمادة.

١٣- الأزمة اللبنانية

وهنا انفجر غضب عارم على فرنسا في لبنان وسورية معاً وأضربت المدن اللبنانية وقامت المظاهرات في سورية وتدخل الجنرال سبيرز وهدد الفرنسيين بأنه سيقوم بإطلاق سراح المعتقلين في راشيا بالقوة، واحتجت جهات دولية كثيرة من بينها مصر والعراق وتشرشل الذي هدد في رسالة إلى روزفلت بإلغاء اعترافه باللجنة القومية التي يرأسها ديغول واتخذ المجلس النيابي السوري قراراً حازماً بتأييد الشرعية اللبنانية وانتج هذا كله أن عاد كاترو إلى بيروت في ١٦/ ١١/ ١٩٤٣ وفي ١٨/ ١١ زار المعتقلين في راشيا ووافق على إطلاق سراحهم ولكن شرط تأليف حكومة جديدة. ولكن الجنرال سبيرز وجه إلى كاترو في ١٩/ ١١ إنذاراً قاطعاً بإطلاق سراحهم وإعادتهم إلى مسؤولياتهم قبل ٢٢/ ١١ وإلا تقوم السلطات البريطانية بإعلان الأحكام العرفية في لبنان وتقوم هي بإطلاق سراحهم بالقوة، فاضطر كاترو للاستجابة بلا تحفظ فعادت الأوضاع إلى الهدوء.

وفي اليوم التالي عقد في شتورا اجتماع ضم السادة شكري القوتلي وسعد الله الجابري وجميل مردم وخالد العظم عن سورية ورياض الصلح وسليم تقلا عن لبنان، وحضره الجنرال كاترو وتم خلاله الاتفاق على نقل صلاحيات السلطة الفرنسية إلى الدولتين السورية واللبنانية ابتداء من مطلع ١٩٤٤. وبدأت مرحلة التحرر من كل آثار الاستعمار الماضية. وبعد مفاوضات طويلة ومستمرة بين سورية ولبنان تم الاتفاق في ٥ حزيران ١٩٤٤ بينهما وتم تسليم المصالح التي كانت تديرها فرنسا إلى القطرين الشقيقين.

عودة الغطرسة الفرنسية

في شهر تموز ١٩٤٤ كانت فرنسا قد تحررت ودخل دوغول إلى باريس وتولى الحكم فيها واستعادت رسمياً سيطرتها على مستعمراتها والبلاد التابعة لها وزادت أهمية فرنسا الدولية وبدأ العرب يضعون الخطوط الأولى للجامعة العربية. وكانت فرنسا التي (أجبرت) في سورية ولبنان على ترك المجال أمام الاستقلال تتحرك فيها القوى التي تطمح إلى إعادة الأوضاع القديمة، وكانت القوات الفرنسية ماتزال في سورية والسوريون يطالبون بخروجها واستلام جيش الشرق ليكون نواة الجيش الوطني الذي يدعم الاستقلال.

هنا بدأ ديغول يرتكب سلسلة من الأخطاء التاريخية بحق سورية ولبنان، وأولها رفض تسليمهما جيش الشرق إلا لقاء معاهدة يوقعها البلدان مع فرنسا تضمن لفرنسا مركزاً ممتازاً، ولكن الحكومتين رفضتا هذا الشرط. وكانت بريطانيا قد بدأت تميل إلى تأييد الطلب حتى لا ينفتح باب المطالبة بالاستقلال أمام مصر والعراق والأردن وفلسطين وبقية الدول العربية المحتلة.

وكان عام ١٩٤٥ عاماً صعباً بما فيه من مشاكل عديدة سواء في العالم الذي كانت ترتسم فيه صورة حرب قاربت على النهاية وسلم لم تعرف ملامحه ومطامع تصادمت ولم تعد نائمة بل استيقظت أمام قرب وصولها إلى لحظة الحسم، وكذلك بما فيه من بدايات لتكوين محاور عربية بين دول تتصادم فيها القوى النافذة والمصالح، وأخيراً بدء طرح قضية الوحدة العربية في حين تستعد القوى الصهيونية في الخفاء لبروز مخططها بعد أن شكلت

قوى عسكرية صهيونية على شكل عصابات (الهاغانا، شتيرن، إيرغون زفاي ليومي وغيرها) وقطعات رسمية تعمل ضمن الجيوش الحليفة.

وكان الرئيس القوتلي قد عقد في هذه الفترة سلسلة من الاجتماعات مع الملك عبد العزيز آل سعود ومع الملك فاروق ثم الثلاثة مع روزفلت ومع تشرتشل، ودخلت سورية الحرب ضد ألمانيا ليكون لها موقع في الأمم المتحدة بعد الحرب وتم الإعلان عن ذلك في ٢٦/ ٢/ ١٩٤٥. ولكن احتمال عقد اتفاق مع فرنسا استدعى بياناً من حزب البعث يرفض مسبقاً كل معاهدة تعقد مع فرنسا وتسلم لها بمركز ممتاز.

وفي نيسان ١٩٤٥ وردت تعزيزات عسكرية إلى سورية بناء على طلب الجنرال (بينه) من أجل دعم القوات الفرنسية الصغيرة نسبياً (٢٤٠٠٠ ألفاً).

وبدا الاصطدام محتملاً ووشيكاً. وفي ٤ أيار ١٩٤٥ أرسل الجنرال بينه مذكرة إلى الحكومة السورية يخبرها فيها عن وصول التعزيزات، فردت الحكومة السورية بمذكرة احتجاج في اليوم التالي وتستغرب فيها التعزيز في حين أشرفت الحرب على نهايتها.

وفي ٨ أيار بدأت مناوشات بين السوريين واللبنانيين من جهة - أعني الجماهير - وبين الفرنسيين ووقعت حوادث ضد جنود فرنسا في عديد من المدن، ووصل الطراد جان دارك إلى بيروت وعلى متنه ١٥٠٠ جندي ساروا فوراً إلى دمشق، وتقدم الجنرال بينه بمذكرة إلى القصر الجمهوري مؤرخه في ١٧ أيار وقدم شروط فرنسا لتسليم القوات الخاصة إلى الحكومة السورية.

وفي ٢٠ أيار ١٩٤٥ رفضت سورية الشروط الفرنسية.

وقبل يوم، في ١٩ أيار، اجتمع السوريون واللبنانيون في شتورا على مستوى رئيسي الوزارتين وأصدروا بياناً مشتركاً يعلن وقف المفاوضات مع فرنسا.

وأضربت سورية إضراباً عاماً شاملاً وحصلت اشتباكات مع القوات الفرنسية، وحاول عدد من النواب إعلان الحرب على فرنسا فهدأتهم الحكومة، وفُتحت مكاتب التطوع لحمل السلاح.

وفي ٢٦ أيار أذاع راديو لندن أن الدرك وأفراد الشعب تمكنوا من تحرير حلب وحمص وحماة وطردوا الفرنسيين منها، وصرح ديغول في ٢٨ أيار أن المراكز الفرنسية هوجمت من المتظاهرين وزعم أنهم كانوا يحملون أسلحة انكليزية.

وكان الجنرال أوليفاروجه قد أصدر أمراً إلى قواته للاستعداد لضرب مراكز (الثوار) السوريين.

وفي الساعة الخامسة والنصف من مساء ٢٩ أيار كان علىّ مجلس النواب أن ينعقد، ولكن حالة التوتر جعلت رئيس المجلس السيد سعد الله الجابري - وكان تسلم نص الإنذار الفرنسي الذي أصدره أوليفاروجه - يرفع الجلسة فخرج النواب، وكان المجلس محاطاً بالمصفحات، وذهبوا إلي دار خالد العظم.

وفي الساعة السادسة وخمسين دقيقة بدأ القصف للمجلس من بناء الأركان المقابل والمصفحات على ٨٥ دركياً يحرسون المجلس لأن حامية المجلس رفضت تحية العلم الفرنسي، ودخل الجنود الفرنسيون والسنغاليون

إلى المجلس وقتلوا كل حاميته وموظفيه، واستمر إطلاق النار كل الليل من مساء الثلاثاء حتى العاشرة صباح الخميس، وقضت دمشق ليلتين لم تشهد مثلهما منذ الثورة السورية عام ١٩٢٥ وجرت فظاعات من التنكيل بالسكان.

وفي مساء الخميس ٣٠ أيار أنذرت بريطانيا فرنسا بوقف إطلاق النار فاضطرت للانصياع وفي أول حزيران تأكد وقف القتال، وبدأت القوات الانكليزية تلزم القوات الفرنسية بالانسحاب إلى ثكناتها.

ولم تعد الحياة إلى الهدوء إلا بمرور أسبوع كامل بدأ خلاله ترحيل الجنود الفرنسيين من كل المراكز والبيوت التي كانوا يشغلونها.

القسم الثاني

التاريخ الثقافي والاجتماعي

الباب الأول

ذكرياتي عن مكتب عنبر، ٢٠٢-المسكية، ٢٠٧- الشيخ بكري الشويكي، ٢٠٨- صلاة بلا وضوء، ٢٠٩- القباقبية والخراطون، ٢١٠- ياسين الرسام، ٢١١- الحاج كاظم الأرناؤطي، ٢١٢- رسوب استثنائي، ٢١٤- الصغار في مدرسة الكبار ، ٢١٤-تحريش، ٢١٥- مكر الطفولة، ٢١٦-،عبد الوهاب أبو السعود، ٢١٦- قصر الثقافة العربي، ٢١٧- مصطفى كامل الصواف، ٢١٩- شكري الشربجي، ٢٢٠- نعمة العقل، ٢٢١- جودة الهاشمي، ٢٢٢- محمد البزم، ٢٢٥-البزم، ٢٢٨- سليم الجندي، ٢٣٢- عبد القادر المبارك، ٢٣٣- مشيل كرشه، ٢٣٥- قدري الحكيم، ٢٣٧- أساتذة آخرون، ٢٤٠- التعليم كان جيداً، ٢٤١- هل جيلنا أفضل من الجيل التالي، ٢٤٣- مكتب عنبر والسياسة، ٢٤٤- كيف كانت تقوم المظاهرات، ٢٥٤- الاستفادة من هذا اللحن في الفن الشعبي، ٢٤٨- قادة المظاهرات، ٢٤٩- الإضراب والجماهير الغفيرة، ٢٥٠- شيخ الحرامية يتعهد، ٢٥١- الفقراء عصب الإضراب، ٢٥١ - القمصان الحديدية، ٢٥٢- قصة طريفة، ٢٥٤- من رفاقي في مكتب عنبر، ٢٥٥- انتقالنا إلى المبنى الجديد، ٢٥٦- البكالوريا الأولى والثانية، ٢٥٧- التعليم وأصحاب الدخل المحدود ،٢٦١.

ذكرياتي عن مكتب عنبر

سأتوقف عن الذكريات السياسية الصرف مؤقتاً لأتحدث عن نشاطي أنا كطالب في أكبر تجمع سياسي في سورية وهو مكتب عنبر، ثم أعود بعد ذلك لمتابعة القصة السياسية. والذكريات هي التي يلح بعضها على من يتذكر فيأتي مثل سواه، ولكن لا يحجب سواه. فأرجوكم أن تدعوا هذه الحكايات تتسلسل كما وردت في ذهني.

وأضيف أن هذه الصفحات عن مكتب عنبر جزء من ذكرياتي العامة، وماهي إلا متابعة وتأييد لمذكرات صديقي وزميلي النقيب ظافر القاسمي - رحمه الله - التي جمعها في كتاب باسم مكتب عنبر، وهو نفسه قد أعطى المقدمة للأستاذ علي الطنطاوي فتحدث عن حقبة سابقة لتلك التي عاش فيها النقيب القاسمي في مدرستنا الكبرى، وجئت أنا أكمل السيرة.

وهذه الصفحات التي اكتبها كتبت على السجية. وقد صارت لي مع الزمن صفة المحدث وشهرته، أي أنني يغلب عليّ أن يطلع الناس على فكرتي عن طريق السمع لاطريق القراءة البصرية. والمحدث مفروض فيه أن يتبع لغة خاصة غير لغة الكتابة وهي لغة تمتاز بالجمل الواضحة القصيرة، وبالتتابع المنطقي، وباستخدام تركيب إن كان أبعد عن الجمال فهو أقرب إلى المدارك لأن القارئ إذا شرد أو استصعب نصاً عاد إليه مرة ومرات، أما السامع فما ذهب من جملته لايعود. ولهذا كانت لغة الخطيب والمحدث يجب أن تمتاز بشئ من الجاذبية السمعية، وأن تمتاز بالسلاسة والتسلسل، وأن تكون لغة

صوتية، وأن تُلقى - وهذه طريقتي - بأسلوب ملون متموج مع الاستطراد. ولذلك فإذا رأيتموني أنتقل من شيء إلى سواه فليس هذا إلا لأنني أتحدث على السجية، ولا (أكتب) ولو سطرت أفكاري بالكتابة. وقد يكون هذا أفضل وأمتع.

كما أنني اتبع الفكاهة هدفاً دائماً، لأن الجد كل الجد في أن نصور الحياة في صورتها الحقيقية، حتى صورة (البلية التي تضحك)، ان تعلق الأمر بالبلاء وهذا رأيي منذ أمسكت القلم أو تصديت لحديث.

وبعد، فانني وعدتكم منذ المقدمة بأن أقول الحقيقة ولاشيء سواها، ولكنني لا أستطيع أن أعدكم بكل الحقيقة، فهناك اعتبارات كثيرة جعلتني أشطب الكثير من الملاحظات والانطباعات تأدباً مع الناس الذي أتحدث عنهم، وبذلك تنقص بلاشك قيمة هذا الحديث من حيث هو تأريخ دقيق، ولكن يظل أكثر قبولاً في أخلاق الناس المتعارفة.

ولذلك ولما تجمع عندي في عمر بدأ وعيه قبل خمس وستين سنة على الأقل من تاريخ مراجعة هذه السطور - وأنا الآن في الثانية والسبعين - رأيت أنه يجب أن أكتب بصدق وأمانة مارأيت وقرأت وسمعت ليكون اسهاماً في تأريخ هذه الفترة الكثيرة الحركة. ويسعدني أن تكون كتاباتي قد بدأت تأخذ طريقها إلى وعي الناس الذين لم يحضروا تلك الفترة وأنها أغنت بالتفاصيل عدداً من الكتابات اشارت إلى الجزء الأول من كتابي هذا الذي يحمل عنوان (حديث دمشقي) كمصدر لمعلومات عن تلك الفترة من حياة دمشق.

ثم أضيف أموراً تقتضيها الأمانة العلمية ولو كنت اتحرج منها بداعٍ من

الابتعاد عن (الأنا) لما سبق أن ذكرت في مقدمة الحديث الدمشقي.

أول هذه الأمور أنني أجد نفسي مأموراً بهذه الكتابة لجانب من تاريخ هذا الوطن عامة ودمشق خاصة، لامخيراً، فالتاريخ ملك الشعب وتسجيله فرض كفاية - كما يقول علماء الشريعة - على من يجد غيره يكتب ويقوم بالواجب ولكنه يصبح فرضاً عيناً على من يجد أن الزمان يقرض الناس ويفري حيواتهم وان الاكثرية الساحقة ممن هم في سني وموضعي الأحداث قد ذهبوا إلى العالم الآخر ومعهم هذه الذكريات، فاذا لم أسجلها أنا ضاعت على الأرجح في مطاوي النسيان.

والأمر الثاني هو أنني مؤهل لكتابة التاريخ بطعم خاص لأنني من وسط شعبي متوسط كثير الاختلاط بالناس ومن قبلي كان أبي كذلك وجميع أهلي، وأننا عشنا حياةً نشيطة مع الناس وبينهم وكان معارفنا وأصدقاؤنا ألوفاً بدليل أنني أذكر مالايقل عن خمسمائة شخص باسمائهم وصفاتهم ودورهم في المسائل التي يتناولها هذا الجزء، ولكم أن تعدوا من عرفتهم وتحدثت عنهم أو نقلت أحاديثهم في سجل الاعلام في هذا الكتاب ولما كان معظم هؤلاء ممن شاركوا قليلاً أو كثيراً في الحياة العامة فهذا موقع متميز لا يملكه كل واحد.

والأمر الثالث أنني مشارك بنشاط في الحركات السياسية وعرفت عدداً كبيراً من الساسة وخالطتهم من قرب، وساهمت في الحياة الكشفية والأدبية والموسيقية والمسرحية والصحفية والتعليمية (طالباً ثم معلماً) والوظيفية، وسافرت كثيراً، ودخلت السجن مرات وحوكمت وحكم

عليّ. عاشرت البسطاء والظرفاء وعرفت عقلاء الناس وسواهم بل وبعضاً من ارذالهم، وخالطت المجرمين سجيناً ثم محامياً ولم تخل حياتي من رؤية الحمقى والمجانين والمجاذيب، ثم أتاحت لي المحاماة معرفة آلاف الناس واتاحت لي الاذاعة تلقي أكثر من مئة ألف رسالة عن الأحوال الاجتماعية والقانونية. فهل هذا مجرى عادي لحياة عادية أم موقع استثنائي يتيح لمن يقدر على ذلك أن يستمد منه النتائج والأحداث وأسبابها لأنه يرى أوسع؟

ولكم أن تحكموا على مدى تأثير ماقلت مما تجدونه.

والأمر الرابع أنني متفائل لامتشائم ولذلك انتبه حتى لأصغر التفاصيل والأمر الخامس أنني أملك والحمد لله سهولة الكتابة الواضحة وهذه حكاية يدرك القارئ مداها.

مكتب عنبر

في صيف عام ١٩٨١، أحببت أن أقوم بجولة في الأماكن التي شهدت فتوتي وبداية شبابي. قصدت إلى سوق الحميدية ورأيت ثقوب الرصاص في سقفه الحديدي من أيام المظاهرات والعراضات، وعرجت على باب البريد من الدخلة السابقة له حيث كانت توجد دكان القصيباتي (الوراق) الذي كنا نبيعه كتبنا العتيقة ونشتري منه كتباً سواهاً ثم سرت إلى المكتبة الظاهرية فرأيت جموع الطلبة تتحدث في الباحة، ودخلت إلى بهو الفهارس ألقي نظرة على الحروف التي على الدروج، فكانت المفاجأة.

رأيت على أحد دروج حرف القاف أول اسم مكتوب إلى جانبه فاذا به (قصاب حسن). كانت مصادفة أذهلتني وفتحت الدرج فرأيت كتابين لي

أدرجا في القائمة: (الفدائيون أمام محكمة زوريخ) الذي كتبته عام ١٩٦٨ يوم حضرت محاكمة أبي الهيجا وأمينه دحبور، و(الغائبة) وهي مسرحية عن أحداث فلسطين لم يبق عندي منها سوي نسخة أضن بها حتى على نفسي حتى أعيد طبعها. قلت في نفسي: الله الله ياتلميذ التجهيز الصغير الذي كنت تأتي إلى هذه المكتبة باحثا عن كتاب، فاذا أنت فيها باق في كتاب!..

غمرني سرور من أحس أنه ولج باب البقاء قبل أن يذهب إلى دار البقاء. وعادت بي الذاكرة إلى يوم من أوائل أيام الخريف في عام ١٩٣١، كنت كتبت قصته في مذكراتي عام ١٩٥٤ قلت:

ولو رأيتموني، ذلك الصباح لرأيتم صغيرا يتنفش ويتطاول، يزوى مابين الحاجبين على جد وعزم ويستعير للطفولة ملامح الرجولة. ولو رأيتموهم، أقراني أولئك، للمحتم في قسماتهم جميعا مارأيتم في وجهي. ترى ما الذي كان أصابنا ذلك الصباح حتى تعجلنا الشوارب أن تطرّ والأعواد أن تخشن، والسن أن تتقدم، وإلى أين كنا ذاهبين؟.

على أنكم لو عرفتم لما انكرتم، فقد كنا في يومنا الأول نطير خفافا ثقالا إلى المعهد التجهيزي، إلى تلك الدار الشامية الفسيحة التي قاعاتها زخرف وباحاتها ربيع دائم، إلى المدرسة التي كانت اسمها كتعويذة الساحر تطلق مردة الخوف من عقالها في قلوب المستعمرين: إلى (مكتب عنبر).

هذه الجنائن الحلوة كانت مسرحا لأروع الانتفاضات السياسية العارمة. وهذه الصفوف التي يلتقي فيها القادمون من أحياء شتى ومدن متفرقة، كانت هي الجامع للأفكار والمسبك الصاهر للنزعات، والبؤرة التي منها ينطلق

لى جبال الاشاوس إلى كل مكان كالأشعة، بذرة حية للكفاح والبطولات. كانت إذا فتحت أبوابها في غير موعد أغلقت أبواب المدينة أيا كان الموعد، وإذا صاح شبابها(ياظلام السجن خيم) أحسسنا أنها الدعوة الجليلة إلى أشراقة الحرية والهتاف المدوي من أجل حطم القيود. فهل كثير علينا بعد، أن نحس للموقف جلاله ونتخذ للمرحلة الجديدة من العمر أهبتها؟.

المسكية

حين عادت بي الذاكرة إلى تلك الأيام الخوالي، وجدتني مدفوعا بقوة لاتقاوم إلى أن أمشي من فورى إلى (مكتب عنبر)، عن طريق المسكية.

هذا السوق الذي يحتاط الباب الغربي من الجامع الأموي، كان سوق الوراقين (ثم هدم منذ ذلك الحين وكشف جدار الجامع الأموي).

ها هنا إلى اليمين مكتبة كنا نشتري منها (الرسالة) و (الرواية) وسواهما من مجلات مصر الأدبية الراقية، ومن بعدها مكتبة أحمد راتب قدح الصغيرة، فكأنه مايزال هنا بعينيه الزرقاوين وابتسامته البشوش كأن خمسين سنة لم تمر، ثم هاهو ذا مجلخ السكاكين ذو السحنة البخارية مايزال في مكانه، والشويكي بنظارتيه السميكتين يصلح قلم حبر عتيقا. وتغيرت أسماء هنا وهناك، ولكن التاريخ مازال باقيا في جلال المسجد وأنس ماحوله. وسلكت إلى اليمين إلى السوق التي كانت ومازال تبيع أنواع النعال المنزلية البراقة، فوجدت عددا من الصاغة قد حلوا مكان سواهم، أما دكان قريبي (أبو خالد الرز) هذا الرجل الظريف (الانكل) كما كنا نسميه (الأنكلة سخرية ناعمة غير مؤذية عرف بها بعض ظرفاء الدمشقيين)، فما تزال على

حالها في منتصف السوق على اليسار تبتسم لي كأنما تدعوني إلى الجلوس. وأنى لي أن أفعل وقد مضى الرجل إلى غيرعودة منذ أكثر من ثلاثين سنة ؟

وتابعت السير إلى القوافين، ووقفت أمام باب المسجد الجنوبي الذي فتح في حائط القبلة على غير عادة في المساجد (اذ لايخرق فيها حائط القبلة)، وذكرت يوم فررت من هذا الباب بالذات.

كان ذلك قد جرى عام ١٩٣٨ فيما أذكر وقد دخلت الجامع مع كثيرين لنديم أضرابا يسعى غيرنا إلى كسره، وقد خطبت - وهذه خطبتي الوحيدة في الجامع الأموي ! - من على السدة المقابلة للمنبر والتي عليها تعقد جوقة المؤذنين والمنشدين، وكان خطابي دعوة إلى الاستمرار في الاضراب والتظاهر على حكومة المديرين التي يرأسها بهيج الخطيب. ولكن عندما نزلت من السدة وخشية الاعتقال الفوري، كان ينتظرني في الدرج الحلزوني الموصل إلى أرض المسجد واحد من رفاقي اسمه مسلم البيبي (صار فيما بعد مهندسا توفى إلى رحمة الله) معه معطف خاكي اللون مما يلبسه طلبة الصنائع وطربوش وعوينات فلبستها متخفياً، فلما خرجت من باب السلم وانطلقت إلى باب القوافين، لم يعرفني أحد لتغير الهيئة الفوري. . .

الشيخ بكري الشويكي

وذكرت قصة أخرى طريفة حكى لي إياها المرحوم والدي عن الشيخ بكري الشويكي وهو أحد المشايخ المعروفين وكان من الذين يأكلون خروفاً بأليته على الوقعة لانهم من (أهل التصريف)!

فمرة كان قد أكل حتى كاد ينفزر وذهب من حيث الدعوة في حي العمارة إلى الأموي ليصلي العصر ويمضي. فما أن نوى الصلاة، وكان قريباً من باب القوافين حتى تكاثر المصلون خلفه، فكل من فاتته الجماعة يأتي راكضاً من قاعة الوضوء فينوي الصلاة وراء هذا الشيخ المعروف بصلاحه.

وكان صاحبنا الامام المرتجل هذا ظريفا، فلما رأى بطرف عينه أن المصلين وراءه صاروا مشراطا من صفين، سجد فسجدوا، فقطع صلاته وأخذ خفّيه تحت إبطه وانطلق هاربا من الباب الذي أمامهم وظل المصلون ساجدين فترة. ثم استطالوا الزمن وبعد عشرين (سبحان الله) كالمعتاد لتنبيه الامام رفع أحدهم رأسه فرأى الامام قد شمع الخيط...

صلاة بلا وضوء!

ومادمنا في حديث المسجد والصلاة، اعترف لكم بأنني أنا أيضا صليت اماما في المسجد الأموي. ففي الفترة عينها كان هذا المسجد منطلق الحركات الوطنية، وكنت ذات مرة ومعي عبد القادر عودة (رحمه الله) وهو من الشباب الوطنيين، نسير في السنجقدار فلحق بنا واحد من جواسيس الفرنسيين اسمه حسن أيوبية يريد أن يعرف إلى أين نمضي. ذلك أنه كان يعرف أنني لاأخطو خطوة إلا إلى تحريض. أخذنا نحاول تضييعه كما يفعلون حين يضيّعون قطة يريدون إلا ترجع، ولكنه ثابر، وظل وراءنا من السروجية إلى الحدادين (في شارع الملك فيصل) إلى سوق السختيان فالعصرونية فباب البريد فالأموي.

ولما دخلنا المسجد خلع نعليه ودخل وراءنا. قلت لعبد القادر: حتى نخلص من هذا الملعون أصلى أنا إماما وأنت صل ورائي، ففعل. وكنت أنا حسن الصلاة اتقن أداءها وخشوعها تعلما وتأدباً من والدي ومن رفاقه المشايخ، فما لبث المصلون أن تكاثروا ورائي وأنا أجّود وأطيل حتى بلغوا نحواً من ثلاثين. ولما ختمت الصلاة بالسلام عليكم ورحمة الله من اليمين، ثم السلام عليكم ورحمة الله من الشمال، رأيت حسن أيوبية واقفاً من بعيد مستنداً إلى جدار المسجد يتطلع إليّ ويهز رأسه فعل من يقول والله إنك صليت بلا وضوء!.... والحق أنني فعلتها للضرورة واستغفر الله، ولكن المصلين الآخرين صلاتهم مقبولة على حسب نيتهم إن شاء الله....

سوق القباقبية والخراطون

أعود إلى ماكنا فيه: خرجت بخيالي وذكرياتي من باب القوافين، وتابعت سيري في سوق القباقبية حيث الخراطون يتقنون تكييف الخشب مستخدمين أيديهم وأرجلهم والريش الحادة فتخرج منه قطع من أدق مايصل إليه الفنان، وتذكرت كم كنت أقف أمامهم ذاهبا إلى مكتب عنبر وعائداً منه، اتطلع بشغف إلى قطع الحطب التي لاشكل لها وهي تتحول إلى اسطوانات تجلّ وتدقّ وتستدير وتحيط بها الحلقات، تحت أيدي هؤلاء السحرة في فن الخراطة وتحت أرجلهم أيضاً، إذ يحركون القشاط لتدوير الخشبة باليد اليمني ويمسكون الريشه باليسرى ويضبطون الحركة بالقدم وأصابعها.

ياسين الرسام

ومشيت في هذا السوق حتى بلغت القوس الذي ننزل تحته إلى زقاق الصواف. كان فوق هذا القوس غرفة صغيرة تشغفنا جميعاً هي غرفة (ياسين الرسام) وقد صور نفسه على لوحة بالزيت، وأضاف إليها اسمه مكتوباً بأغصان الأشجار المتعانقة، وياسين هذا ظل هنا سيداً متربعاً على عرشه حتى تعرفت على الفنانين الكبار من بعده. على أنه جاءني بعد عشرات السنين يشكو ضعف البصر والفقر، فأوصيت به خيرا لدى وزارة الثقافة فاتصل حب الفتى للفن بسعي الكهل إلى تكريم أهله.

وتابعت السير في زقاق الصواف، ها هنا من الأيسر المدخل الغربي لحارة (النقاشات) أما مدخلها الشمالي فمن حي النوفره. والنقاشات ويسمونها اليوم (الشرفاء) كما أظن أو شيئا من هذا القبيل [١]، كانت حارة سيئة السمعة إذا يقال أن من أرادوا اذلال معاوية اسكنوا فوق قبره (وها هنا منطقة القبر) عددا من النساء اللواتي يعملن نقاشات وذلك امعاناً في إذلال الرجل بعد موته.

وقد كان لي قريب في هذا الحي اسمه أمين مهنا يعمل مؤذنا، صوته أعلى الأصوات وأجملها حين يؤذن من مئذنة في الجامع الأموي، وكان يزورنا كثيرا ونسمع منه أطيب الانشاد وكذلك أخته بدرية خانم التي تقلد

---

(١) - في دمشق حارة كان اسمها المزابل فسموها (الشرف الأعلى) قفزة واحدة.

ببراعة وتجويد صوت ام كلثوم في سهراتنا وتقضي في زيارتنا أياماً كثيرة بلياليها، رحمها الله. ثم مررت في الزقاق الضيق الذي يوصل القباقبية بالبزورية التفافا حول قصر العظم، ويوصل البزورية بحمام القارى إلى جهة الشرق، بدخلة صغيرة يسكن فيها حتى اليوم أبناء عم الوالدة.

الحاج كاظم الأرناؤطي

وتابعت المسير إلى مكتب عنبر مروراً بما ذكرت من أماكن الذكريات فبلغت البوابة الكبيرة. . . رأيتها مازالت كما هي، بحديدها الفخم الذي نرى من خلال قضبانه باحة واسعة.

كان على الباب يقف الحاج كاظم وهو كهل أرناؤطي دائم التسبيح، في حديثه لكنة، ولكن أخلاقه كانت عجيبة في بساطتها وصفائها. وحين وقفت أمام الباب ذكرته، بوجهه الحلو وبلحيته الخفيفة، ويده القوية التي تمسك بالمفتاح، وكان يشبه في اشياء كثيرة أبي.

ثم ذكرت معه البواب الذي تلاه على باب مكتب عنبر، وهو كردى اسمه صبحي، وله ولد يعمل في المحاماة اليوم وكلما رأيته حملته السلام إلى أبيه.

ولاأنسى رجب آغا رئيس الاذنين ولا شاكر آغا الطباخ ولي معه قصص طريفة في مخيمات جمعية انعاش القرى.

باب مكتب عنبر كان يغلق بالمفتاح بعد أن يبدأ الدوام، فما يخرج منه أحد إلا بأذن رسمي وكانت إلى يمينه غرفة للزائرين، وإلى يساره غرفة

البواب، ومن الصدر - الحاجز من الخشب تليه باحة السلاملك[1]. . . . .

لما وصلت في ذلك اليوم إلى مكتب عنبر، كان الباب مواربا ولاحاجب يقف دونه ولجته متهيبا فرأيت الباحة الكبرى فسيحة كما كانت، إلى يسارها المطعم وفي صدرها غرفة المعيد فباب القسم الأوسط حيث الباحة المشجرة والبحرة وأشجار الحمضيات والزهور. أما إلى يمين الباحة الخارجية فكانت مرتفقات الطلاب. ووجدت المكان حديث الدهان بلونيه الأسود والبني إلى جانب اللون الثالث وهو من لون طحيني، مما يدل على أن أعمال الصيانة قائمة ورأيت القائمين على هذه الأعمال، وحدثوني عن ترميم المكان الأثري ترميما كاملا وذكيا ومكلفا، جلت بابصاري في هذه القاعات التي درست في عديد منها وأنا ولد صغير، وكنا نراها غنية بالألوان والزخارف، ولكن عينيّ اليوم غيرهما بالأمس. اليوم تستوفقهما الملامح والذكريات وبالأمس كانت تشغلهما عن هذه الملامح أحداث تصنع الذكريات. . .

وتذكرت يوم جئت إلى هذا المنزل الفسيح، إلى مكتب عنبر، للمرة الأولى، وكيف كنت - كما كتبت بعد ذلك عام ١٩٥٤ - استعجل الشوارب ان تطرّ، والرجولة ان تسارع والسن ان تتقدم والجد نصطنعه اصطناعا. ذلك أنني كنت واحدا من أفراد الوجبة الأولى من صغار في معهد ماعرف قبلنا إلا الشباب الكبار.

---

(١) كلمة تركية تعني مكان السلام أوالاستقبال، ويقابلها من الداخل الحرملك أي مكان الحريم. . .

رسوب استثنائي

وقد افادنا هذا التباين من ناحية فعجل نضجنا، وأضرّ بنا من ناحية إذ صرنا في فترة كالضائعين. خذوا مثلين: كنت وشاكر مصطفى قد نجحنا في فحص الشهادة الابتدائية معاً، ومن الصف نفسه وبالدرجة التى لاينالها الكثيرون وهي درجة (جيد). ومعاً وللأسباب عينها رسبنا في الصف الأول من التجهيز وبالدرجة من الرسوب التي لاينجح في الحصول عليها الكثيرون. . . بل أكثر من هذا، وفي العام التالي، وكنتِ قد أعدت صفي، كانت درجتي في الفحص الأول السادس فصارت في الفحص الثاني السادس والثلاثين - وكان الصف كله أربعة وثلاثين طالباً. فلما راجعت المعيد الاستاذ (خالد الرفاعي) معترضاً لاعلى الدرجة، ولكن على الغلطة، قال لي ببرود: لقد منحناك درجتي رسوب استثنائيتين ! . . . .

على أنني في الفحص الأخير استدركت ونجحت، وكانت دراستي وعلاماتي في هذين العامين تسير على منحني هابط صاعد كحرارة المريض بالحمى الراجعة لاتكاد تعلو حتى تسفّ، و لاأكاد ارتاح إليها يوما حتى يلفني القلق يوما آخر.

الصغار في مدرسة الكبار

واتساءل الان: ترى ماالذي كان وراء هذا التخبط في علاماتي ونتائج دراساتي؟ وأرى أنه لايمكن أن يكون من ضعف عام، مادمت قد نجحت في فحص الشهادة الابتدائية بقوة، ولاالمواهب هي التي تغيرت، ولكننا صرنا الصغار في مدرسة الكبار بعد أن كنا الكبار في مدرسة الصغار. كنا قبلها

اطفالا لانكاد نفتح العين والذهن إلا على عالم الكتب واللعب فأصبحنا بين عشية وضحاها نحسّ مصائر الوطن والشعب كلها على عواتقنا. وابهظنا إننا حملنا الدراسة والسياسة د: ˉ واحدة، وبلا أعداد، وأربكنا أن الأساتذة لم يكونوا جميعاً من المستوى الطيب ممن يعطفون على الصغير ويدركون أزمات الطفولة، وزاد ضياعنا كما قلت هذا التباين في السن بيننا وبين بقية الطلاب الشبان.

تحريش بين الصغار والكبار

كان لدينا استاذ مهمته الرسمية تعليم الحساب، ومهمته الفعلية، فيما كنا نظن -والله أعلم- قطع الوقت والكيد بين صغارنا وكبارنا، والضحك على ذقوننا وذقون من ظنوا أنهم أرسلونا إلى معلم طيب السريرة. وكان يفجر شدقيه فوق ذلك على قهقات شيطانية الرنين. أرأيتم مقدار ماأذكره (بالخير)؟ كان إذا اربكني سؤاله صرخ بكبير من قدماء الصف فلان، ياأباه، قم علمه، وإذا تعثر واحد من القدماء الكبار في حل مسألة، هتف بواحد من اطفال الصف: قم ياحبيبي، اترك مصاصتك وعلمه الحل! المصاصة أو اللهاية لم تكن وحدها تذكرنا بالصغر وتجعله مدار الخجل والشعور بالنقص في فكاهته الأليمة. كان هناك تذكيره لنا بالمرضعة والسرير الذي يهز، ومالست أذكره، وتريدون منا بعد هذا ألا نحس ضعف الطفولة ولا نتعجل الرجولة؟ على أننا ماقصرنا في الانتقام من هذا المدرس وأمثاله، وكانت حياة أشطرهم ملأى بالمزعجات يلقاها على أيدينا. شرع الطفولة أن تحترم من يحترمها وتهزأ ممن يهزأ منها وغير الأطفال هم خاسرون دائما في الصراع مع الأطفال.

مكر الطفولة

وكنا لانخلو من مكر. قلت لكم أن درجتي في العام الثاني تدنت من السادس إلى السادس والثلاثين، وخجلت من أبي أن أطلعه على دفتر العلامات، فحككت رقم الثلاثة وكلمة الثلاثين وقدمت له الدفتر على استحياء. وكان الكشط واضحاً، فسألني: ماذا محوت؟ فقلت: كانت درجتي ١٦، فخجلت من اطلاعك عليها!

بدفعة واحدة، ربحت عشرين درجة وأشعرته فوق ذلك أنني أحس بالخجل. وما اكثر مايلين الأباء إذا خجل أمامهم الأبناء.

أرأيتم ماأشد مكر الطفولة؟...

ومضيت في عالم الذكريات أجول في قاعات مكتب عنبر هاهنا إلى اليسار القاعة التي عشت فيها السنة الأولى. هنا كان يعلمنا العربية عالم لاريب فيه ولكنه لايضبط صفا وكان يعلمنا الفرنسية استاذ كنا نلقبه بسبب شكله ورأسه الأشيب بـ(هند نبورغ).

عبد الوهاب أبو السعود

وكان يعلمنا الرسم عبد الوهاب أبو السعود. ثلاثة أرباع درسه خطابة وتمثيل وبلهجة (يوسف وهبية)، والربع زخارف تعلمتها حتى مايقارب الاتقان وصرت قادرا على أن أبدع فيها. كما علمنا التناسب في رسم الوجوه وأن المسافة بين الحاجبين إلى الفم ثلث الوجه البيضوي. وصادف هذا هوى في نفسى فصرت

أرسم الوجوه مواجهة وجانباً (فاس وبروفيل) وكان رفيقي في الصف حسني صندوق، رحمه الله وقد توفي فيما بعد في ريعان الرجولة شاعراً أديباً فقيها حلو الحديث، غير أنه وهو صغير كان يرسم الوجه كما علمنا عبد الوهاب أبو السعود، ولكن يضع الشوارب تحت الفم لافوقه! . . .

وأذكر عبد الوهاب أبا السعود بوجه خاص لأنه عاد إلينا مدرساً في دار المعلمين فترسخت صورته وآثاره في ذكرياتي ومقدرتي. وكان يعلمنا الموسيقا مصطفى كامل الصواف فإذا أعطانا السلم الموسيقي وطلب تنغيمه بلطف وأصوات مصفاة على البيانو، (جعر) أكثرنا بأصوات منكرة، وسرعان مايقلب الصورة فيدق بعنف على البيانو ويغني: (أهلين بربك، أهلا وسهلا ياطيب. . . .) فيضحك الجميع ويتابعونه ويتحول الصف إلى عراضة. . . .

ولهذا أيضاً رسبت في الصف السادس وأعدته.

قصر الثقافة العربية

وفي آذار من عام ١٩٨٣ أقامت وزارة الثقافة والارشاد القومي احتفالا لمناسبة تحويل مكتب عنبر إلى قصر للثقافة العربية، وقد حضرت الاحتفال وسمعت الكلمات البارعة التي القيت فيه. وفي صباح اليوم التالي نشرت في يومياتي في صحيفة البعث القطعة التالية:

صباح أمس كان أمام مكتب عنبر زحمة من أناس غير الذين يشهدهم

الشارع الصغير الضيق كل يوم. . . فلم يكونوا من الطلبة اللابسين الطرابيش الطويلة الداكنة وفي أيديهم حقائبهم الجلدية، لاولاكانوا من الجنود السنغال الذين يحاصرون البيت العربي الفسيح الجميل كلما انطلق في جنباته صوت الآلاف بياظلام السجن خيم. . . وتقدمت بين المتزاحمين أشق طريقي حتى وصلت إلى الباب فرأيت (كاظم آغا) يفتحه ويزيح درفة الرتاج الكبير، وفرحت فلا بد أن يده شفيت منذ كسرها العسكر الفرنسيون وهم يحاولون أخذ المفاتيح من بين أصابعه. ثم تقدمت فخشع قلبي هيبة حين رأيت أمامي في الباحة الكبرى من هم المستقبلون. . .

كان هنا رشيد بقدونس وعبد الحميد الحراكي وشكري الشربجي وجودت الهاشمي يتقدمون الصفوف في جلال، ومن ورائهم سليم الجندي وعبد القادر المبارك ومحمد البزم وشكري الخجا وحسن يحيى الصبان وزين العابدين التونسي وكامل نصري وجودت الكيال، ثم هاهم في الصف الثالث نافذ غنام وأنور حاتم وخالد بوظو وجمال الفرا وأنطون جناوى وعاصم البخاري وعزت الرفاعي. . .

أجل، كانوا كلهم هنا يستقبلون في حفاوة من يعرف كيف يكرم الضيوف القادمين من المستقبل. أليسوا كانوا يحلمون دائما بهذا المستقبل. . . ! ؟

ورأيت إلى جانبي نصير شورى، فمشينا معا إلى حيث كان اساتذة الرسم يتجادلون: ميشيل كرشه وجورج خوري وعبد الوهاب أبو السعود، وكان الأخير أعلاهم صوتا لأنه ممثل قدير فلم نجرؤ على الاقتراب، و رأينا

مصطفى كامل الصواف في ناحية أخرى يعلم الطلبة أن الثورات أناشيد.

وفجأة علا في الباحة صوت وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطار يبشر بالعناية بهذه الدار لتبقى كماكانت دهرا طويلا (قصر الثقافة العربية) فتراجع المستقبلون راضين باسمين خطوة فخطوة، ليلفهم ضباب التاريخ الوردى حتى صاروا على مقدار صورة ثابتة البقاء، في حين تتقدم خطوة فخطوة أجيال الصغار الذين يكبرون ويهرمون ثم يرحلون إلى الماضي ويبقى المستقبل وحده يعيش أبداً بهياً، أبدا عربياً.

مصطفى كامل الصواف

وعلى أثر نشر هذه الكلمة جاءني هاتف أسعدني من أستاذي القديم في الموسيقا مصطفى كامل الصواف. كان يريد أن يشكرني على أنني ذكرته وماعهده بالناس يذكرون، ومشاعره كجميع العاملين القدامى الذين تتقدم بهم السن تدور حول الشكوى من نسيان الناس لهم بعد أن كانوا في مركز الدائرة وقطب الاهتمام.

سارعت إلى زيارة استاذي في داره، فوجدته في تمام عافيته وصحوه بعد اثنين وخمسين عاماً من حضوري أول درس له، وتذاكرنا في أمر الموسيقا ومافعله من أجلها، وقلت له صادقاً لا مجاملا أنه ماثل في كل تقدم حققته الموسيقا في بلدنا وفي نشاط ابنائه في الفن وأحفاده، وكلهم تتلمذوا على يديه. وذكرت أيضاً الأناشيد التي لحنها وهي كثيرة، فقام إلى مكتبه وأهداني كتابا ضمها هو النسخة الأخيرة من كتابه عن الموسيقا وسطر عليها عبارات

غاية في الرقة وصدق العاطفة. وخرجت من عنده على وعد بأن أسعي ليكون موضع التكريم بكل الوسائل المتاحة.

ولكنه توفي إلى رحمة الله قبل أن نستطيع وفاءه حقه من التكريم المستحق غير أن الصواف ليس أول الأساتذة الذين أثروا في حياتي وحياة جيلنا، ولو كانت المناسبة المتصلة بمكتب عنبر وتحويله إلى قصر الثقافة جعلت حكايته تأتي قبل سواه.

شكري الشربجي

كان قبله شكري الشربجي، هذا الرجل الطويل الأنيق الذي كان يدير (مكتب عنبر) ببراعة علمية ووطنية وحكمة. كان شكري الشربجي ضابطا في الجيش العثماني ويحارب على الجبهة الروسية التركية حين سمع بالثورة العربية التي نشبت في الحجاز، فحمله شعوره القومي على ترك صفوف الجيش التركي، ففر عبر الخطوط الروسية في القفقاس ليقع في متاعب. فبسبب شكله حسبوه ضابطا ألمانياً، ثم لما ثبت لهم أنه رجل مسلم من دمشق سمح الروس له بالسفر عبر مضيق أرخا نجل إلى أوربا ومنها إلى مصر فالحجاز.

وقد وصل إلى مكة وأنضم إلى الجيش العربي وسار معه محارباً على قدميه حتى بلغ مشارف حلب. وكان لذلك كلما رأى الشباب يتعبون ويتراجعون أمام الصعاب يحدثهم عن رحلته الطويلة ويشد عزائمهم.

ثم بعد ذلك انضم إلى سلك التعليم، وبسبب اتقانه للفرنسية كأنه أحد أبنائها عين مدرسا لهذه اللغة، وتدرج حتى صار مديرا لمكتب عنبر. وقد كان مهيبا حلو الصورة والحديث لطيفا مع الطلبة وحازماً، وقد صوره معلم الرسم الأستاذ جورج خوري في صورة كاريكاتوريه علقها في لوحة المدرسة بموافقة المدير ولم يجد في ذلك غضاضة فأعطانا بذلك درسا في التسامح وتقدير الفن.

نعمة العقل

وكنا نعرف بألم أن له شقيقاً من أجمل الشباب وأكثرهم رونقاً اصابته لوثة لما ناله من تعذيب على يد السلطات الانكليزية والفرنسية. وقد حدث أن زرته بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة في صحبة قريبه رجاء الشربجي، والدكتور صباح القباني والفنان عبد اللطيف فتحي.

فقد قصدنا جميعاً إلى مشفى الأمراض العقلية في (قصير) دوما، وكنا في طريق الذهاب نتبادل الفكاهات المتعلقة بالجنون على اعتبار أننا ذاهبون إلى معقله، والبلاغة ملاءمة مقتضى الحال. وقد ضحكنا كثيراً حتى دمعت عيوننا من هذه القصص التي فيها التناقض البارز بين العقل وفقدانه، ولكن الدموع مالبثت أن سكنت مآقينا ألما حين شهدنا هؤلاء الذين حرموا نعمة العقل في كآبتهم وفي فقدانهم لمعة الذكاء والفهم. الحق أن العقل والذكاء أثمن العطايا البشرية، ومن حرم منهما كان بمثابة المخلوقات الأخرى مع الفارق بأن هذه المخلوقات مسخرة لخدمة الناس، ني حين أن الناس من

عطفهم على من فقدوا العقل يسخرون أنفسهم لخدمتهم والعناية بهم وتخامرهم مشاعر الشفقة والرحمة.

ولنعد الآن إلى مكتب عنبر لأحدثكم عن اساتذة لاأنساهم من أولئك المربين الفاضلين الذين علمونا وتركوا بصماتهم على شخصيات الطلبة. وبهذه المناسبة ففي ١٧ نيسان ١٩٩٢ التقى في مكتب عنبر عدد من الطلبة القدامى في ذلك المعهد، وتحدث فيه كل من الدكتور شاكر مصطفى والدكتور راتب كحالة وأدرت الندوة أنا وألقيت فيها كلمة، ثم نقلت الحديث إلى الجمهور الأوسع في برنامجي الإذاعي المسمى (رحلة في الذاكرة) فكان ذلك اسهاماً في تكريم اساتذتنا القدامى المحترمين.

جودت الهاشمي

ان أحمد جودت ينيوى الهاشمي الذي سميت بمختصر اسمه المعروف ثانوية جودة الهاشمي، كان الهيبة والعلم ممثلين برجل نهابه ونحبه في آن واحد. وكان يعلمنا الرياضيات بنجاح وصبر لامثيل لهما، ثم يدير المدرسة بوطنية فوق كل ماسمعنا ورأينا. وقد أحببته طالبا ولي معه الحكاية التالية حين انتقلنا من مكتب عنبر إلى المكتب الجديد حيث التجهيز الأولى التي تحمل اسمه اليوم.

فقد كنت في الصف الثاني عشر صف الفلسفة عام / ١٩٣٩/ حين خطر لي هكذا ومن قبيل التحدي الذي يسري في عروق الشباب أن أخرج من المدرسة قفزاً من النافذة لامن الباب فعلت هذا مع أنني من كبار التلاميذ سناً

الذين يمثلون الاتجاهات السياسية فيها، وان كلمتي لاتصير كلمتين عند المدير الاستاذ الهاشمي ورئيس المعيدين الاستاذ أديب شاكوج الذي كان من أنبل الناس وعلمني في الابتدائي ثم نقل إلى ملاك الإدارة الثانوية وكنت استطيع أن أنال أذناً بالخروج متى شئت، ومع هذا قفزت من النافذة. ولم أكن وحدي بل خرج معي ابراهيم حقي (الذي صار من كبار اساتذة الطب وعميداً للكلية فيما بعد) فقفز مثلي، ولعلي أنا حرضته. . . وتصادف أن رآنا معيد[1]، فكتب بنا تقريراً وأحالونا إلى مجلس الضبط.

ذهبنا أنا وابراهيم إلى المجلس، فدخلت عليهم قبل رفيقي وكانوا مجموعة من كبار الاساتذة بينهم فيما أذكر كامل عياد ونظيم الموصلي. قال جودت الهاشمي رحمه الله: (أكاد لاأصدق. أنت تقفز من النافذة؟. هل حجبنا عنك إذناً ؟ ألم تكن تستطيع الخروج من الباب؟ قل لي على الأقل أنك لم تفعلها حتى لايخيب ظني فيك). وكان واضحاً أنه يريد أن يفتح لي باب التملص، ولكنني أجبته مطاطئاً: بل فعلتها. قال لماذا؟ قلت: ولدنة وغلبتني. أحببت أن أجرب المشاعر عند الهرب. قال وماتريد أن أفعل بك وأنت من كبار التلاميذ المرموقين ؟ قلت عاقبني بأشد ماتريد فأنا أستحق

(١) - هذا المعيد (انتقمت) منه بعد ذلك عن طريق الضحك فاروى قصة حقيقية عنه مفادها أنه سكر مرة وأثقل السكر حتى ماعادت رجلاه تحملانه، وهنا قال له أصحابه معابثين: جاء أبوك. حاول النهوض فلم يستطع، فركز ربطة عنقه وقال لهم أن سألكم عني من أنا قولوا أنني. . . جورج خوري !. . وكان هذا أنيقاً يبالغ في أناقته!

لكي أكون عبرة لغيري. . . صفق جودت الهاشمي كفا بكف وقال لاحول ولاقوة إلا بالله، انتظرنا في الخارج وأرسل زميلك.

وخرجت فلما شاهدت ابراهيم قلقاً قلت له باسما (ولايهمك مشي الحال). .

ودخل ابراهيم وهو حيي وليس مثلي، ثم خرج بعد دقائق وعيناه كالخوخ من بكاء الخجل. فقد كان دائماً مثال التهذيب والأخلاق العالية ونال فيما بعد مكانة رفيعة في الطب وصار عميداً للكلية وما تزال صداقة حلوة تجمعنا.

وانتهى الأمر بتكدير علني لكلينا مع وقف التنفيذ.

أما جودت الهاشمي فمنحني بعد ذلك صداقته وكلفني بقضايا تهم اسرته حتى توفي رحمه الله.

محمد البزم

في الحديث عن محمد البزم لا أجد خيرا من مقال كتبته في أواسط ١٩٥٧ في (الرأي العام) تحت عنوان: **أستاذنا ينطفئ !!**

المكان: المستشفى العسكري، جناح الضباط. الغرف علوية متجاورة ممتازة مجهزة بأحسن الأثاث، والممر الطويل الذي أمامها يطل من أنسب زاوية على ماتراه العين من دمشق والغوطتين والربوة الفيحاء.

والزمان: منذ يومين ونحن في زيارة عزيز علينا يستشفى في غرفة من هذا الجناح:

وكنا أربعة في زيارة المريض، فأتى الحاجب للوهلة الأولى بثلاثة من المقاعد فهتف الضابط الذي معنا بالجندي الحاجب:

- هات كرسيا من الغرفة المجاورة.

- عفوا سيدي - أجاب الحاجب - ولكننا لانستطيع أخذ شيء من هذه الغرفة. إنها غرفة الاستاذ. .

الأستاذ ؟ الكلمة رنت في مسمعي غريبة. استاذ في المستشفى العسكرى؟ أم تراه ضابطاً له هذا اللقب ؟ ومددت رأسي بفضول يترفق كي لايفتضح فاذا بي أمام ما شدهني ولفني بالذهول، عقد لساني فما ينطق ولايتحرك.

كان هنا أمامي، بلا شحمه ولا لحمه، قفصا من جلد على عظام مبرية. . رأسا كجمجمة العصفور إذا نتف عنه الريش، والأنف استدق فكأنه ذؤابة مطوية. كان هنا يداً كتعاء ملفوفة بالاربطة، ويداً تتلمس ما تبقى من الجسد

الواهي وعينين أغمضهما المرض الطويل على عتمة لاتنفذ إليها الشمس.

كان هنا، شفّ حتى ترى عروقه والدم يجري وئيدا في عروقه، وأنطوى حتى ماترى من القامة الفارعة الا نصف القامة. كان هنا: بلاغة المرض، وفصاحة الدنف، وذبالةً في أسفل الشمعة بين الركام تغالب شعلتها المضطربة الانطفاء. كان هنا: سكينة الانتظار، وهدوء من يعرف أنها النهاية. كان هنا: الرجل الذي ملأ سمع العربية وبصرها دهراً كاملاً، ونَدين له بالكلمة لاتستعجم، والجملة لاتنفلت من عمود العربية، استاذ الجيل كله: محمد البزم.

ماكنت أجهل عطف الجيش على رجل العربية. كنت أدري منذ زمن طويل أن تلامذته الذين في يدهم مقاليد القيادات كانوا أحنى عليه من أبيه وولده، فاحاطوه بأوسع مافي الوسع من امارات الخدمة والبر والمحبة. وكان في نفسي دائماً شكر عميق لأولئك الذين كرموا أنفسهم والعلم حين كرموا رجل العلم من فوق رأس الحدود الضيقة التي يضطرب فيها الموظفون وقانون الموظفين. وماكنت أجهل هذا البر ولكنني ماتصورته دام حتى اليوم وقد بدأ منذ سنوات، وعهدي بالناس عزوفين ملولين، وعهدي بأستاذنا نفسه شكوكا شديد البرم حتى يوم كان معافى، فكيف وهو مريض؟ هي ذي كتبه التي مافارقها قط تنتصب مجلدات على منصة قرب السرير، ماجاء بها ليقرأ فيها وقد كف بصره منذ سنين، ولاليقرأ له فيها أحد فهو في نصف غيبوبة نصف الوقت وفي تمامها بقيته. ولكنها كانت هنا أنيسه من دون الزوج والبنين كما كانت في ابان قوته وشرخ شبابه، يوم الحياة تخفق في

سطورها، والجمال يتدفق من فصولها تحت عصاه البارعة، عصا المعلم الساحر.

ورجعت بالذكرى إلى الماضي القريب، إلى يوم قائظ من ايار / ١٩٥١/ قابلت فيه البزم للمرة الأولى بعد السنين الطويلة من جفوة فرضتها الأيام. كان يمشي وئيد الخطا تتقدمه عصاه شأن المكفوفين والناس من حوله يفسحون الدرب في احترام لسمت الرجل وعاهته.

اقتربت منه وسميت اسمي، فرحب وبعد فترة من سؤالات ومجاملات قال لي على استحياء وأكاد انقل كلماته بالحرف الواحد: ياأخي أعرفك صاحب حب للغة العربية يجرئني عليك. هلا دللتني على مكان ارتفق به؟

وفهمت أنه في ضيق جسدي فأخذته إلى أقرب مكان منا، مقهى في بناية العابد أعرف صاحبه، ومضيت به من يده إلى بيت الخلاء.

استميحكم العذر إذا أنا وصفت الحادثة وفصلت فيها رغم أنها مما لايستحب ذكره لاموطناً ولاظروفا فلي من وراء ذكرها هدف أرمي إليه. تصوروا الاستاذ الذي كان ذا هيبة على طلابه ماشاركه فيها شريك، تصوروه في حالة يضطر فيها إلى أن يطلب من تلميذه مثل هذا الطلب، ثم يضطر إلى أن يزيد طلباته كي لاتزل قدمه في مكان لايعرفه فيطلب معونة تضع القدم في مكانها. . في مثل هذا الحال والانفعالات شتى قوية، والخجل يفقد الانسان القدرة على كل موقف رسمي، لم ينس محمد البزم عربيته الحلوة الأسرة الفصيحة بلا سماجة فكان قوله:

- يا أخانا، هلا دللتني على "الأخدود" ثم انصرفت ؟ ! . .

الرجل المريض المهدم الذي وصفت، يرقب حينه في هدوء، هو الذي - ماعرف في أي يوم حياة الهدوء، فلقد كان مصارعا من مصارعي الثقافة والأدب، وحياته كلها كر وفر وغلاب. والعدة التي قادته فيها من نصر إلى نصر، ذوق سليم ولسان ماخلق الله أحلى منه حتى حين يسبّ.

أجل، مابقيت من البزم - اللحم والدم - بقية ترجى، ولكن البزم الأخر الانسان والعالم والمعلم، عاش ويعيش وسيحيا مادامت لغة الضاد لابناء الضاد.

وفي اليوم التالي، كان المقال التالي الذي كتبته عنه:

البزم، المعلم والإنسان

ربما كان النحو في عرف الناس كلهم أسمج المباحث وأثقلها على الذهن والنفس، وأبعدها عن جذب الكثرة إذا كان في وسعها إثارة اهتمام الندرة. ذلك أنه علم آلة، أي بحث معاون لاأساسي ووسيلة لاغاية.

أضف إلى ذلك أن النحاة قد عقّدوا في النحو حتى صار كالمجاهل من توغل فيها ضاع، ولعل ذلك من جبلّة غالبيتهم أو لعله من رغبتهم في أن يكون لهم مقام متفرد بين الناس في فهم مالايفهم، وقد يكون العاملان اجتمعا معاً.

لقد عشنا زمناً نعاني من (حتى) ماعانى الفراء، ونضطرب بين (كان) التامة وأختها الناقصة، ونبذل أقصى مافي الجهد حتى ندرك أحوال المستثنى وماهو من هذه الأحوال "مستثنى"، ونفهم التمييز متى ينصب ومتى يجر، ونخطئ ثم نخطئ في أحوال العدد وأحكام المعدود، وكان من ذلك كله أن

حدثت هذه الجفوة بين العربية وطلاب العربية وأن صار فراق النحوي بالعباءات جميعها يشترى.

في هذه الفترة من الزمن والعربية حديثة عهد بالانفصال عن التركية من حيث لغة التدريس واصول التدريس والذيوع كلغة للكتابة بين عامة الناس، في هذه الفترة نبت من بين المهتمين للنحو رجل لم يقف في صف الطبقة الأوائل من رجال العربية في هذا العصر وحسب، ولكنه جاوز في سلامة الطبع والذهن الناقد البصير الأوائل من رجال النحو القدماء. هذا الرجل أشعر أنني مذ وصفته لم تعد بي ولا بكم حاجة إلى تسميته، إلى القول أنه هو هو المريض المقعد المكفوف اليوم، أستاذ الجيل الأول محمد البزم.

منذ الساعة الأولى حضرت فيها درسه، رأيتني أمام واحد من العمالقة، ليس فقط من طول القامة وحسن السمت وأثرهما في نفس التلاميذ الصغار لاينكر، ولكن كذلك من هذه اللغة الحلوة الفصيحة الملونة التي كان يدير بها بحوث النحو، ومن تذليله أحكامها حتى تلين في كف الفتى الناشئ، ومن ربطه القواعد بالشواهد من أجود شعر العرب، ومن قدرته العجيبة على النقد في دعابة تلسع ولا تؤلم وتصيب فلا تؤذى، ومن كلياته الجامعة المانعة واعرابه المختصر الواضح، والحدود التي حطمها وكانت من قبل لايثب من فوقها إلاقويّ قادر. ولقد عاد النحو في يديه فلسفة فيها مكان للمناقشة أو لاتقوم الا على المناقشة، وفكرا متحركا كله أخذ وعطاء، ومواقف لايكتفي الطالب فيها أن يكون بينها يضطرب ولايدري بأيها يأخذ بل يتحيز لواحد منها ويتحزب ويناقش ويجادل في حدة أصحاب المذاهب الذين يخاصمون

وينكرون ويتحمسون ويبالغون وقد يكابرون. بلى عاد النحو فهما ومعنى ومبادئ منطقية وقصصا وأفاكيه وأمثلة من الشوارد، حتى كأن دروسنا التي تبدأ بما كان يسميه "الجلجل" وتنتهي به في وقت يحدده المعيد لا الاستاذ، كأنها حلقات من تلك التي كانت تعقد في مساجد الكوفة والبصرة، وكأن المحدث فيها ليس واحداً من أبناء هذا الجيل بل ابن جنى أو ابن هشام.

وللبزم فوق هذا الفضل في باب النحو، فضل أكبر من باب الأدب. فعلى كثرة ماشتهر بأنه نحوي كانت شهرته بأنه أديب وشاعر كبير أضخم. ولاريب في أن الشعر العربي الحديث الذي انتجه تلامذة البزم يدين له بالكثير من فحولته وسلامته حتى حين يخالف الشعراء مذهب استاذهم، وما كان ذلك مما نظمه وحسب، وفيه الكثير من الشعر الرائع، ولكن مما غرس فينا حبه من شعر الفحول. أضف إلى ذلك أخبار مناقشاته - ومناظراته الأدبية مع الشيخ المبارك والاستاذ الجندي، وكانت حلقات الطلاب لاتنفك تتناقلها وتنسج حولها هالة من الاسطورة. وكان في روعنا أنه هو الغالب أبداً في كل مجال إلا في مجال واحد لعله تعمد الخطأ فيه، حين ناقش زملاءه ذات يوم في حركة الغين من كلمة "غلاظة" وهل هي الفتح أو الكسر، ويقال، والعهدة على من روى، أنه حين تبين أنه أخطأ، حمد ربه أنه في الغلاظة لا في غيرها!..

كان لسانه طويلا، ولكنه مستحب، مانجا قط من يديه أحد من طلابه، ومامنا أحد إلا وناله من هذا اللسان شيء كوقع السياط، دونما ألم. ولقد كنا نأنس للغته الفريدة ونحب أجوبته المسكتة، ونتناقل قصصه. كان بيننا حيا

يسعى ونراه في كل ساعة، وظل أسطورة. ولعمري أن هذا أعجب من العجب، فالعهد أن العشرة تبدد الهالات وتحطم التيجان المضفورة من وهم، وأن طول مقام المرء في الحي مخلق لجدته.

هذا هو البزم المعلم، البزم الباقي، أما الإنسان لاعب البليار المجيد، والذهن الصافي المشرق أمام رقعة الشطرنج، والصديق اللطيف مادمت لم تثر شكوكه، ويسيىء الظن بالناس ويحبه الناس، والرجل الذي ظلمه دهره فاطال من دهره شكاته فلقد ذوى.

لقد خلد البزم منذ اليوم، بل منذ الأمس البعيد، قبل أن يدخل في صفحة الخلود. ذلك أنه بما علم وأنشأ وغرس وبما جدد وأبدع وأوجد، قد ترك أوسع مايمكن لرجل فرد أن يتركه من أثر. أنه هو لاغيره مربي الجيل والأستاذ الذي ماأسفّ يوما، ولاهوى. جسده الذي أتعبه الاعتداد بالشباب والانفاق من الشباب عشرات من السنين أخذ في الانطفاء، قلت أول أمس. بل الأقل من نوره آخذ في الانطفاء، أما فكره الذي نما فينا، نحن تلاميذه، وترعرع، فلعلي لاأبالغ إذا قلت أنه شعلة لاتزال تتوهج وتضيء مادامت في الدنيا عيون تبصر الضياء.

وإنني لأزعم النطق باسم كل الذين درسوا على البزم ولو يوماً، إذا قلت أننا نتمنى لو من صحتنا أعطيناه لصحته، لو من شبابنا بذلنا ليمتد له شبابه، وأن قلوبنا كلها أضمومة من ورد الوفاء، نوسدها أمام السرير الذي يقضي عليه أيامه الساكتة الساكنة في هدوء من لايحب أن يقطع عليه السكون.

سليم الجندي

أما سليم الجندي فهو علاّمة عصره، محيط باللغة وشوارد الأدب، قادر في التعليم والإفهام مثل ما هو بارع في الفهم. وقد نشأ في معرة النعمان وكتب عنها كتاباً ممتازاً ربما كان أحسن المراجع عن المعرة وساكنها أبي العلاء، ودّرس اللغة العربية وأدابها دهراً طويلاً وتلامذته لايمكن احصاؤهم.

وقد صحبته طالباً ومريداً في سنة كاملة عام ١٩٤٣ مع نفر من أصدقائي المعلمين اختارتنا وزارة التربية للتمكن من اللغة العربية، فكان درسه جولة واسعة في آفاق اللغة وفقهها والأدب وخصائصه. وهو هادئ الطبع، ناعم الصوت، ولكنه حاد النظرة لاذع التعليق شأن كل أستاذ متمكن. وأولاده كوكبة من الفضلاء بينهم المحامي والأطباء وكلهم صديق، وكلهم يتقن الجواب المسكت اللاذع ارثاً عن أبيه، وكلهم ضرسه طيب وليس لسانه فقط.

وقد سبقنا بعضهم في رحلة الحياة مأسوفاً عليهم، ولاسيما ضياء الدين، وتاج الدين الذي كان محامياً وشاعراً ضاحكاً، وأخوة نجم الدين وكان مثله، ورفيقنا في الصف بدر الدين، وآنس الآن بصحبته الدكتور شمس الدين ولعله من القلة التي أحتاط من دعابتها لما فيها من لذع ومن ذكاء.

رحم الله السابقين وأبقى أخانا شمس الدين من رائحة القلم والأدب واللغة.

عبد القادر المبارك [1]

ولعلي لا أنصف إن لم أتحدث عن واحد ممن أخذت عنهم العربية والفقه والثقافة الاسلامية المتفتحة، وأعني به أستاذي المرحوم الشيخ عبد القادر المبارك.

كان المبارك مغربيا معتدل القامة، بعمامة بيضاء ووجه حليق وعينين نافذتين يطل منهما بذكاء (نخاف منه) على طلبة التجهيز، ويعطينا الدروس وهو يتحرك في الصف حركة مستمرة. وكان له خط جميل فإذا دخل الصف دخل كهبة ريح، وقبل أن يلتفت إلينا أخذ قطعة الحوار وكتب على اللوح بعرض الحوارة وبخط (ثُلُث) الكلمة الرئيسية التي عليها مدار البحث. وكان فيما قيل لنا قد حفظ المعجم كله عن ظهر قلب كما حفظ الكثير من لاروس الفرنسي إذ يتقن اللغتين، وله مع محمد البزم جولات يتندر بها الطلبة إذ تنقل إليهم عن طريق السماع، والطلبة ينقسمون كما سبق القول بين مؤيد لهذا ومؤيد لذاك. ولست أنسى أن الشيخ المبارك كانت له ايماءات تضحك الطلبة ولكن له هيبة تمنع الضحك فنظل دائما نكبت الضحكة وقد تنفجر غصباً، وكل هذا يجعل الدرس محبباً وشيقاً.

---

(١) سجلت في عام ١٩٩٢ أحاديث مطولة عن الأستاذين المبارك والبزم ومع الدكتور جمال الفرا شخصياً في إذاعة دمشق في برنامج رحلة في الذاكرة وشاركني الحديث عن الأستاذ المبارك ابنه الاستاذ هاني الذي ورث صوت أبيه الجهوري ولهجته فكان احياء الذكرى كاملاً صوتاً ومعلومات!

ومن هذه الايماءات أنه تحدث مرة عن المرأة التي خرجت من صفوف المسلمين تحمل رسالة إلى المشركين، قال الشيخ المبارك: فأخفت الرسالة في مكان يستحى من ذكره، فلما أوقفها المسلمون في ظاهر المدينة قال لها أحد الصحابة " الكتاب أو أحل الأزار ! . . " فأجابت المرأة إذن أشيحوا بوجوهكم. وأكمل المبارك: " وأشاحوا " . . . ومثّل هذه الحادثة فأشاح بوجهه، ولكن عينيه ظلتا في الزاوية تنظران إلى حيث المرأة يفترض وجودها، وضحكنا جميعاً برغمنا لدعابته.

وكان مما يذكره المرحوم الأستاذ ظافر القاسمي [1] عن المبارك أنه كان في تعليمه الفقه للناشئة لايجد مندوحة من أن يحدثهم حديثاً أقرب إلى التفهم بصراحة فيما يتعلق بحقائق الحياة. والحق أنه كان معنا، في صفنا وبيننا، كبار كثيرون يمكن بحسب عمرهم أن يتزوجوا وهم في الصف السادس، لذلك كان حديثه أقرب إلى المصارحة. وذات مرة مرت كلمة (عنّين) فاراد شرحها فأمسك بطرف جبته وحركها برخاوة وقال: يعنى كُهدب الثوب، ثم أمسك بطربوش فلوح بطرته وأضاف: مثل طرة الطربوش! . . . وحين تكلم عن طلاق الثلاث وأنه لاتحل المرأة بعده لمطلقها مالم تتزوج من سواه، قال لنا يعني يجب أن تذوق عسيلته وأن يذوق عسيلتها. وهكذا بين الايماء والتصريح كنا نفهم مايريد ونحن نبتسم بخبث أو براءة حسب الحال.

---

(١) نقيب المحامين والأديب العالم اللغوي المعروف والصديق الودود، وقد أورد ذلك في كتابه (مكتب عنبر) الذي لم أشأ أن آخذ منه لافتا النظر إلى أنه لاشيء يغني عن قراءته من أوله حتى الخاتمة.

مشيل كرشه

وإنه لمثال يساق عن التربية الكاملة للولد في هذه السن، فلا يجهل حقائق الحياة. وقد كنا نعجب بجرأة المبارك في إفهامنا، ثم نضحك حين يشرع مشيل كرشه - أستاذ الرسم - في الحديث غير الجائز عن الأمور غير الجائزة. ومشيل كرشه هذا فنان كبير أولع برسمه دمشق ولكن من السطوح، وليست له لوحة واحدة عن دمشق إلا وعلى بعض سطوحها غسيل تبرز فيه بوضوح ملابس داخلية نسائية.

لقد كنا - نحن الوجبة الأولى - صغاراً في حاجة إلى المعرفة، ولم يكن أنسب لتعليمنا إياها من كبار يجمعون بين رصانة الخلق والجرأة في التوضيح في حدود مايبيحه الذوق ومن هؤلاء كان المبارك ولم يكن مشيل كرشه.

ولقد كان التلاميذ يردون على هذه المواقف بالرد الملائم، فيحترمون المحترم، ويعابثون الذي دأبه العبث. ولقد كنا نطلق القابا على عدد منهم فبقيت تصحبهم حتى غلبت على اسمائهم الحقيقية.

فمنها أننا كنا نطلق على أحدهم لقب (قُصُرملّ) وهو رماد الزبالة وربما لأنه كان كالح الوجه، وعلى آخر لقب (مطميطو) وكان فيما يقال بارعاً في الرياضيات إلا أنه غير ذلك في السلوك، واحد أساتذة اللغة أسماه التلاميذ (مُضرّط الحجارة) على غرار الشاعر الجاهلي المعروف بهذا الاسم. وروينا عن أحدهم هذين البيتين:

أتانا عالم من أهل فاس ... يجادل في السماع وفي القياس
وما فاس ببلدته ولكن ... فسا يفسو فُسُوّاً فهو فاسي

عفو الأدب في التعبير، ولكن أروى لكم هذا لتروا أن التلاميذ وهم المحكومون ظاهراً هم نقاد حقيقيون وياويل من يعلق بالسنتهم. وقد أفادتني تجاربي وأنا تلميذ في اتخاذ موقف وأنا معلم يبعدني عن أن يسميني التلاميذ باسم معين، ولعلي نجوت إذ كنت شديد المراقبة لنفسي من جهة، كما كنت طويل اللسان على طريقة البزم من جهة أخرى !..

وهنا أحب أن أروي لكم طرفة عن صديقي وأستاذي قدري الحكيم، وأقول أستاذي لأنه هوالذي أعاد صقل لغتي العربية.

قدرى الحكيم

عرفت قدري الحكيم صديقاً على كبر، في أول الاربعينات، معلما بارزا واستاذا متضلعاً في قواعد اللغة العربية، وكان في هذا صاحب فضل عليّ. ذلك أنني كلفت وأنا طالب في دار المعلمين بالقاء محاضرة تربوية، فألقيتها وأنا " مزهو" بمعرفتي العربية. ألست من تلاميذ محمد البزم؟ ولكن ما أن انتهت المحاضرة حتى جاءني رفاقي في الصف يقولون لي: خبصت في اللغة. أنا؟ قلت لهم؟ قالوا: نعم أنت.

وعادتي في مثل هذه الأمور - وهذا مبدأ من مبادئي - أنني لاأكابر ولا أعاند. فمضيت من فوري إلى قدري الحكيم أقول له: أعد تعليمي العربية. وكان قدرى مقتدراً وحصيفاً، فدلني على المواطن التي يكثر فيها الخطأ عادة لأننا لانخطئ عادة في رفع الفاعل ونصب المفعول به.

وهذه المواطن، وأذكرها لفائدة من هم في مثل ماكان وضعي يوم انتقدني زملائي، هي اسم كان وأخواتها وان وأخواتها أن سبق هذا الاسم ظرف أوجار ومجرور، فيهملان وكأنهما ليسا موجودين فنقول: كان في الدار رجل او أن هناك رجلاً... وكذلك جمع المؤنث السالم فينصب بالكسرة نيابة عن الفتحة، وعكسه الممنوع من الصرف فيجر بالفتحة نيابة عن الكسرة، ثم أحكام العدد والمعدود ولاسيما العدد المركب، وتمييز العدد، والغاء الاستثناء إذا سبقه نفي، وهكذا.

إن ماأفادني به قدري الحكيم لايقدر بثمن، وهو نوع من تنضير المعلومات والعودة إليها مما يسمونه الان في الغرب RECYCLAGE ويعني أن

يعود كل متخرج لدراسة جديدة تذكر بالسابق وتعلم المستجد. وهذا الفضل لقدرى الحكيم جعلني أستفيد أكثر من دراستي في دار المعلمين العليا (سنة واحدة وأغلقت عام ١٩٤٣) حين قرأنا (مغنى اللبيب لابن هشام الانصاري) على يد البزم، ثم حين لخصت المغني وأصدرت كتيباً يتضمن هذه الخلاصة باسم (المعجم النحوي).

وليس هذا فضل قدرى الحكيم الوحيد، فإنه فتح أمامي ولايزال مكتبته العامرة النادرة استعير منها ماشئت ومتى شئت وقليلاً ما يفعل الناس هذا أو يفعله هو، أن لم أكن أنا المستعير. وهو الذي قدم لي كتباً عن دمشق لولاها لما أمكن لي تدقيق معلوماتي المأخوذة من الذاكرة فيما يتعلق بالتواريخ والأرقام. ثم أذكر له حضوره الدائم للإجابة على الهاتف في كل أمر يشكل عليّ، واستجابته لطلبي يوم كنت مديرا للفنون وتدريبه أفراد المسرح القومي على سلامة اللغة العربية حتى صار الممثلون والممثلات يقضون أوقاتا كثيرة في المناقشة في مسائل النحو لفرط ماهوّن عليهم قدرى الحكيم هذه الدراسة ويسر لهم أمرها حتى شغفتهم.

وكان فوق ذلك صاحب نكتة مرحة دائمة، ورجلا سخيا يقرضني المال كلما احتجت إليه. ويضحك قريبي وابن خالي الاستاذ ماجد طرابيشي معي ومع زوجتي حين نتناقش في أمر المصروف، فيقول أنا إذا أمسكت المصروف أطعمكم الأكل نفسه من أول الشهر إلى آخره أما إذا توليتما المصروف فالى نصف الشهر تتبحبحان ثم نلتفت أنت فتستدين من قدرى الحكيم وتلتفت ام سلمى فتستدين من حميدة القحف. ويعني زميلتها في التعليم التي كانت

هي الأخرى كريمة وذات ثقة بنا وهي من قريباتي وقد توفيت رحمها الله.

وقدري على ظرفه وكرمه حذر وموسوس الا مع الأقربين من أصدقائه، ولذلك أجد انفتاحه معي وعليّ عنصرا منشطاً، وأعترف أنه كان له كصديق طيب ومعلم بارع دور لاينكر في حياتي، والصديق له شأن خطير في حياة صديقه بلا ريب. ولقدري محاولات شعرية متينة أكثرها ضاحك باسم، وأعتقد أنه الأن بين أقوى المقتدرين في اللغة العربية، وبين أكثر الناس ثقافة في العربية، ولعله أصلح من سواه ليكون عضوا في مجمع اللغة، غير أنه متواضع وعزوف. وقد تولى لسنوات طويلة عملا مسؤولا في إدارة الكتب المدرسية فلا يمر كتاب للطبع مالم يؤشر على صحة لغته وسلامتها، كما حقق عدداً من الكتب بينها ديوان الشاعر شفيق جبري. وقد كتب الدكتور خالد قوطرش في معرض حديثه عن ديوان شفيق جبري مايلي:

أما تدقيق الديوان وشرح ألفاظه وهو عمل متعب، فقد قام به الأستاذ قدري الحكيم الذي قال عنه المستشرق الفرنسي بلاشير عندما زرته في بيته في باريس: (وددت لو عدت طالباً لأحضر دروس قدري الحكيم في اللغة العربية). وكان الاستاذ قدري يدرّس اللغة العربية في الكلية العلمية الوطنية في عقد الخمسينات. وتابع بلاشير كلامه فقال: (لقد عرضنا عليه كرسي اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية في باريس فاعتذر، وياللخسارة).

ومن قصصه الشهيرة والظريفة التي لاتنسى أنه حين كان طالبا في دار المعلمين كان عندهم معيد يدرس في كلية الأداب. وأحب الطلبة الملاعين أن يمتحنوه فنظم قدري على لسانه قصيدة كاملة مخترعة الألفاظ ولكن جاهلية

الجرس والتركيب، وهي تقريباً كماحفظتها (أو أعدت نظمها)

عتونا في السماء على اشتماف　　نقضُّ الطنغ في طُرَف الكلاز
ضربناهــم بشـفت لا يمافـي　　ففيمَ سحيزُهم عند الهــلاز
وفيـم الركش والعيمال يعلـو　　وكلهمو علـى مرط العــواز
فودع يا طميسُ بني لحيـس　　فانهمو من الكـرع اللـــواز

وجاء بالأبيات إلى (الأستاذ) يسأله عن رأيه فيها، فقال له الأستاذ (متعالما) إن المعنى لطيف ولكن الألفاظ جاهلية "بعض الشيء"... وتندرت دار المعلمين ولانزال تتندر بهذه القصة دليلا على مايمكن أن يفعله الطلبة الشياطين مع الأساتذة المتحذلقين. ومايزال الأستاذ قدري الحكيم حتى الآن - أطال الله في عمره - يمنحني صداقته واعتبره مرجعاً لي في كل أشكال كما القى نظرة على طبعة جديدة هيأتها من (المعجم النحوي) وهو أجازها، وعسى أن أطبعها لفائدة من اتقنوا العربية ثم أصابهم النسيان لبعض أحكامها مع الزمان، فهو كتاب يذكر المتعلم بما سبق أن تعلمه، أي يفيد كل الناس، وهذه دعاية مجانية ومسبقة للكتاب.

أساتذة آخرون

وكان عندنا أساتذة أخرون من المقتدرين جداً ولو كان بعضهم لايحسن ضبط الصف.

منهم الدكتور أنور حاتم القدير إلى حد مذهل باللغة الفرنسية والذي تولى رئاسة ديوان مجلس الوزراء لمدة طويلة ثم ذهب سفيراً لسورية في الفاتيكان ثم درّس في سويسرا ومايزال يقيم فيها وقد أخذت عنوانه أخيراً

من السيدة سلمى الحفار الكزبري، وحديثهما سيأتي مع الادباء.

ومنهم الأستاذ زين العابدين التونسي وهو عالم مفضال ولكن ليّن مع التلاميذ ومنهم الأستاذ عاصم البخاري الذي علمنا اللغة الفرنسية بعناية. ومنهم الأستاذ نسيم شيني (وهو موسوي) وكان محبوباً ومخلصاً في التعليم وآفادنا فائدة كبيرة فلا ننساه.

ومنهم المعيد الأستاذ عزت الرفاعي أستاذ الرياضة الصارم.

ولعل من أبرز أساتذتنا الدكتور خالد بوظو المتميز بعلمه وفهمه في مادة الكيمياء. وكذلك الأستاذ الدكتور جودت كيال مدرسنا في الصحة والتشريح، والدكتور جمال الفرا الذي علمنا الفيزياء ثم صار وزيراً للخارجية وسفيراً لبلاده ومؤلفاً وكاتباً بارعاً وسأخصه بحديث مطوّل لعلاقتنا المتجددة. ويأتي ذكر عديدين منهم ومن سواهم من أساتذتي في أماكن مختلفة من الكتاب، فلهم جميعاً ولأرواحهم الطيبة كل محبتي ومحبة الجيل بأسره.

التعليم كان جيداً

ولكن إذا ساقتني الفكاهة والنقد الحق إلى أن أنتقد بعض المدرسين القدامى، وكان الانتقاد حقاً ولم يكن تجنياً، فليس معنى هذا أن أساتذتنا لم يكونوا أحسن مجموعة من كبار المثقفين القدامى والجدد في تاريخ هذه البلاد.

لقد كان في هذه الهيئة التدريسية التي عرفتها مباشرة وتعلمت منها عدا من ذكرت أساتذة مثل زين العابدين التونسي ومحمد علي السراج وعز

الدين التنوخي وزكي المحاسني وكامل عياد وجمال الفرا وسواهم، وكلهم عالم كبير ومجيد في فنه، فما تتاح لأي إنسان في أي ظرف أن ينال علومه من مثل هذه المجموعة كما نلناها.

ذلك أن المدرسة التجهيزية كانت واحدة لجميع الطلبة الثانويين في نصف سورية كما سوف يأتي ولذلك استقطب أكابر العلماء في أيامها . . . وكان عدد الطلبة محدودا نوعاً بحيث يتاح الاتصال المباشر بين الأستاذ وطلابه، ولذلك فكانت نوعية التعليم أفضل.

ولقد تعلمنا تعليماً جيداً جداً بل ممتازا، وكانت فرصة رائعة لم تكرر فيما بعد حتى لطلبة الجامعة.

ويكفي أن أذكر لكم أن الصف الواحد كانت فيه مجموعة من الأساتذة الفضلاء الذين ذكرنا أسماءهم آنفا ولكن كانت فيه مجموعة من الطلبة النابهين الذين شغلوا فيما بعد أعلى المناصب.

ويكفي أن أقول أن صفي وكان فيه نحو ثلاثين طالباً كان قد خرج من أساتذة الجامعة الدكتور شاكر مصطفى، ومن الأطباء الاساتذة النابهين كلا من ابراهيم حقي وكنعان وصفي الجابي ونشأة كحال ومصطفى العشا وراتب كحاله، ومن القضاة محمود سلامه وحسن السراج وفيصل العسلي وفيصل العظمة، ومن المحامين أحمد العكام وكاتب السطور، كما تخرج منه رئيس الاركان نامق كمال وغيرنا كثير. فهذا صف واحد فكيف بالصفوف كلها؟.

هل جيلنا أفضل من الجيل التالي؟

واليوم حين يقول لي بعضهم أن جيلنا أفضل أقول لا ولكن كانت فرصنا أفضل. كان أساتذتنا من نوع نادر لاتحصل على مثلهم الجامعات الا بصعوبة، وكان بعضهم قادمين حديثاً من أوربا بحرارة الايمان والثقة بالمستقبل ليعلموا ناشئة قليلة العدد مختارة من أفضل الطلبة.

وكانت الفرص مفتوحة أمامنا على الفور فما أن تعلن نتائج الثانوية حتى تتخاطفنا الوظائف العطشى إلى الشباب المتعلم، فالتعليم مؤمن لكل من يريد أن يتعلم، وعلى الفور، وكذلك الطب والحقوق وطب الأسنان والصيدلة تقبل حملة الثانوية أيا كان الفرع ومهما كانت العلامات.

ألا يكفي للتدليل على ذلك أن اقول أن رقم شهادتي الثانوية عام / ١٩٣٩/ كان في حدود رقم / ٩٠٠/ ؟ أى أن عدد حملة الثانوية في اثنى عشر عاما كانوا في سورية لايزيدون على هذا العدد.

وأخيراً فإن نتائج الثانوية كانت لاتزيد على خمسين اسما كل سنة في الدورة الأولى ونصف العدد في الدورة الثانية (إذا كانت تعقد دورتان للشهادة الثانوية) أما نتائجها فتعلن من نافذة التجهيز بالصوت الحي، ويقرأ النتائج رئيس دائرة الامتحانات الأستاذ مطاع الجعفري في خمس دقائق فيسر من ينجح ويبتئس من يسقط ويمضي الجميع في دقائق وتفرغ الساحة حتى العام القادم...

مكتب عنبر والسياسة

حين دخلت مدرسة التجهيز عام ١٩٣١، لم يكن دخولي مجرد انتماء إلى معهد تستكمل فيه الثقافة، وإنما كان أيضاً - شأني في ذلك شأن سواي - دخولا مباشرا في الحركة السياسية. فقد كانت مدرسة التجهيز في دمشق هي المدرسة الاعدادية والثانوية الوحيدة للذكور فيها، وكان فيها فرع لتخريج المعلمين، أي كانت دار المعلمين جزءاً منها يدخله الطلبة بعد تخرجهم من الصف التاسع. ولم تكن هذه المدرسة لدمشق وحدها بل كانت لنصف سورية، فيأتيها الطلبة من حوران وجبل العرب وحمص وحماه ودير الزور - والجزيرة التي كانت تضم بعضها مدارس اعدادية فقط، ومن يجاوز هذه المرحلة يرسل مع كثير من الفتيان الأصغر سناً فيدخلون إلى القسم الداخلي في تجهيز دمشق حتى يكملوا الثانوية. ولهذا كان من يدخل التجهيز في ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٣٦ على الأقل يعرف كل أذكياء الطلبة في نصف سورية الذي ذكرته، والنصف الآخر في تجهيزى حلب واللاذقية ومن عرف هؤلاء عرف بالضرورة أغلب من سيتولون المراكز العلمية والسياسية في البلد تقريبا.

ومن هنا كان نفوذ التجهيز واسعاً في الحركة الوطنية وكان نفوذ الحركة الوطنية فيها كبيرا.

واليوم حين استعرض اسماء رفاقي ومعارفي في التجهيز أقع على اكثر النابهين الذين قادوا البلاد سياسياً وعلمياً وعسكرياً حتى نهاية الخمسينات، وبعضهم مايزال حتى الآن في أعلى مواقع المسؤولية.

ولاننسى أن التلميذ الذي يدخل التجهيز في الصف السادس يتعرف ولو من بعيد إلى الطلبة في ستة صفوف قبله ثم إلى الطلبة في ستة صفوف تتوالى بعده، ومن يعرف أبناء اثنى عشر عاما من الطلبة يعرف جيلا من المثقفين.

والتجهيز لعبت دوراً في اتجاهي السياسي، فقد شاركت في المظاهرات والاضرابات منذ كنت في الحادية عشرة يوم انتسبت إليها حتى تخرجت في عام ١٩٣٩، وأسعف في ذلك أن جو عائلتنا جو وطني وأن روحي كانت منذ الطفولة المبكرة تواقة إلى الاستقلال وتحقيقه لوطننا، وأن منبتي الشعبي كان يجعلني في صف الكادحين الذين يطمحون إلى حياة افضل.

وكانت تميزني منذ تلك السن المبكرة نزعة قوية إلى نجدة الغير، أخذتها بلاريب عن والدي الذي كان يتفانى في معونة الناس، ولذلك سرعان ماانتميت إلى الحركات التي فيها عمل منظم في سبيل الناس، كالحركة الكشفية وجمعية انعاش القرى والاندية وإلى العمل السياسي في مختلف أشكاله المنظمة والعامة.

كيف كانت تقوم المظاهرات

كانت أول مظاهرة شهدتها في حياتي وأذكرها، يوم كنت في السابعة من العمر أي عام ١٩٢٨ فقد مرت مظاهرة شعبية ضخمة في طريق الصالحية لمناسبة وعد بلفور. ومع صغري فقد تابعتها.

ولا أزال أذكر أنني وقفت على شرفة أقارب لنا تطل على طريق الصالحية فرأيت جمع الناس يسدّ الشارع على عرضه وهم يهتفون هتافات لم أكن

أميزها، ولكن كنت أسمع شيئاً كهدير البحر يقول: يسقط وعد بلفور فيخيل لطفولتي أنهم يقولون (فليسقط واقف بلكون) فارتعدت ودخلت إلى الغرفة مسرعاً.

ولكن عندما أخذت الشهادة الإبتدائية وأنتسبت إلى التجهيز بدأت أعرف المظاهرات مباشرة، وبدأت هذه المظاهرات تجرف في سيلها هذا الصغير الذي بدأ سنته الحادية عشرة فيرى التظاهر من زاويتين أحداهما شعور بالوطن رضعناه مع حليب الأمهات وتعلمناه في كل خلجة من خلجات الحياة، والثانية تعبير عن تأجج الفتوة فينا وتوثبها وتشوقها إلى أن تنطلق إلى الطريق وتطلق عقيرتها بالصياح وتجرب أذرعها بالمحاجرة ضد قوى الأمن التي كنا نعتبرها امتدادا للسلطة الفرنسية.

لقد كنا نحن جيل الحجارة ومن هنا، من سورية، بدأ هذا الأسلوب في النضال ضد المحتل.

وكان الاضراب يبدأ عادة من مكانين، أولهما مدرسة التجهيز حيث كانت الاشارة التقليدية أنه حيث يدق جرس الساعة الثامنة صباحاً لنصطف، تنطلق (ولاأحد يدري على التحقيق من أين لأنها من كل مكان) صيحة منغمة هي (ياظلام السجن خيّم، اننا نهوى الظلاما).

أما المكان الثاني فهو السوقان المغطيان في دمشق، سوق الحميدية وسوق مدحت باشا. فما تكاد طلائع المظاهرة الآتية من التجهيز تطل عليهما حتى يغلقا ويكون الاضراب قد تعمم وبدأ ينتشر في كل مكان. كان يكفي اذن أن يتهامس الطلبة في التجهيز فيما بينهم كلمة: اضراب، اليوم اضراب،

اضراب حتى تتهيأ النفوس والحناجر، كأنما نحن دائماً على الندهة، وما أن يدق الجرس حتى يكون هو الايعاز.

قصيدة ياظلام السجن خيم فيما عرفنا هي من نظم الصحفي الوطني نجيب الريس صاحب صحيفة (القبس). وكنت أسمع باسم نجيب الريس قبل دخولي التجهيز من قصة غريبة. فقد كان أخوه الصغير عبد الحميد تلميذا معنا في مدرسة عرنوس، وكان لنجيب الريس قريبان كبيران هما سعيد الريس المعلم في مدرستنا ذاتها ومنير الريس الذي صار فيما بعد صحفيا وصاحب جريدة بردى.

وذات يوم غاب سعيد الريس من مدرستنا وهمس بعضنا يخبر بعضنا الأخر أنه أقدم مع أخويه على ضرب وزير المعارف حسني البرازي في المقهى وأمام بيته، واختفى ثم أوقف.

وكانت بطولة في تلك الأيام أن يجرؤ معلم على ضرب وزير من وزراء السلطة المتخاذلة أمام الأجنبي. وعلمنا بعد ذلك أن نجيب الريس كان بين من أوقفوا في سجن جزيرة أرواد مع فارس الخوري وعبد الرحمن شهبندر، وفي السجن نظم قصيدته التي لاأعرف من وضع لحنها، وفيها يقول، واستمد القول من الذاكرة:

وتعاهدنا جميعاً يوم أقسمنا اليمينا
لن نخون العهد يوماً واتخذنا الصدق دينا
يا فرنسا لا تغالي وتقولي الفتح طابا
سوف تأتيك الليالي ضوءها يجلو الحرابا

ايـه يا دار الفخاريا مقر المخلصينـــــــا
قد هبطنـاك شبابالا يخافـون المنونـــــا
يا رنين القيد زدني نغمة تشجي فـــؤادي
ان في صوتك معنى للاسى والاضطهاد
لسـت والله نسياّما تقاسيه بـــــــلادي
فاشهدن يا نجم أني ذو وفـــــاء ووداد . .

الاستفادة من هذا اللحن في الفن الشعبي

حين درست الموسيقا فيما بعد عرفت أن لحنها من مقام الحجاز كاركرد، وهو لحن شجي جميل والأغلب أنه من تلحين الأخوين فليفل وهما أشهر ملحني الأناشيد العربية في الماضي، واستفدت منه فيما بعد في أعمال غنائية وضعتها على المسرح يوم صرت مديرا للفنون في وزارة الثقافة والارشاد القومي وخاصة في حفلة اقمناها على شرف جميلة بوحيرد حين جاءت إلى دمشق.

وكان مع هذا اللحن أيضاً ألحان من العراضات الشعبية كنت أول من استخدمها كموضوع موسيقي وهي (الله الله يامفرج المصايب)، (وهبوا على الخصم اللدود)، (ومن عمرنا نحمي جملنا)، وغيرها وهي من هوسات المظاهرات في أيامنا التي أحدثكم عنها أي في أول الثلاثينات.

قادة المظاهرات

أعود إلى المظاهرات فأقول أن قادتها في التجهيز كانوا في أغلب الأيام من صفوف الطلبة العليا وأذكر من بينهم واحداً كان لامعاً عام ١٩٣١ وهو عبد الستار العلمي، وقد سمعت فيما بعد أنه صار صيدلياً وذهب إلى السعودية وتوفي فيها والله أعلم. كان عبد الستار قوي البنية رغم قصره وبطلا من أبطال الرياضة الذين يشرف عليهم استاذنا أحمد عزت الرفاعي (الذي ظل قوياً نشيطاً حتى توفي في عام ١٩٨٧ وربما كان عمره يوم وفاته يناهز المئة، رحمه الله). ومأأزال أذكر يوم أعلن أول اضراب حضرته وكان مديرنا عبد الحميد الحراكي فأوعز إلى بواب المدرسة كاظم آغا بأن يغلق بابها الحديدي فلا يفتحه، خوفاً علينا. وكان هذا البواب من الارناؤوط وله هيبة وكنا نترضاه في الايام العادية حتى إذا تأخر واحدنا دقائق عن الدوام لايسد الباب في وجهه ولكنه في أيام المظاهرات ينقلب فيصبح هو العقبة بيننا وبين الخروج. ومرة أذكر أن بعض العساكر كسروا اصبعه وهم يحاولون تخليصه المفتاح. وأعود إلى عبد الستار العلمي فأقول أنه الهب خيالنا كبطل حين قاد الاضراب في ذلك اليوم العصيب وجاءت قوى كبيرة من الفرنسيين والشرطة فرابطت أمام الباب لتمنع خروج المظاهرة وتعتقل المحرضين، ويومها قفز عبد الستار العلمي من نافذة خلفية في المدرسة تطل على زقاق خلفي وظل مختفياً مدة من الزمن. وكما كان عبد الستار ملء السمع والبصر في تلك الأيام، كان المغمورون الاخرون من التلاميذ الذين هم مثلي في الحادية عشرة من العمر ومافوقها يشاركون في التظاهر والاضراب، ثم يدور الفلك فيختفي البارزون فلا يسمع بهم أحد وينتقل المغمورون إلى مقدمة الساحة فيملأون مجالات الحياة العملية. هكذا هي الحياة!

الاضراب والجماهير الغفيرة

وأعود إلى حديث المظاهرة فأقول أن أنطلاقها من التجهيز كان الشرارة الأولى ويخرج الطلبة من مكتب عنبر إلى زقاق الصواف فالقباقبية والمسكية والحميدية وإلى البزورية فسوق مدحت باشا، وحيثما وصلوا تبدأ الدكاكين تنزل أغلاقها بسرعة.

وحين تكون النفوس مهيأة للاضراب منذ الليلة الفائتة (لاعتقال وطنيين أو رفع سعر الخبز قرشا أو زيادة كيلو الكهرباء قرشين) كان مايسميه الفرنسيون بالتلفون العربي يعمل، أي ينتقل الايعاز همسا من فم إلى اذن، وعندئذ يأتي تجار هذه الأسواق إلى محلاتهم منذ الصباح، بعضهم يفتح ولايفرد بضائعه، وبعضهم يتربص ويصهين ويمهيص كما يقولون في دمشق والبعض يفتح نصف الغلق وينتظر.

وإذا كانت الكتلة الوطنية وهي الحزب المسيطر في الثلاثينات تسيطر نظريا على بورجوازية الأسواق، فإنها في الواقع لم تكن تأمن لكل هؤلاء أمناً تاماً وكان لابد لتحملهم على الاغلاق أحياناً من مفرقعة أو من انطلاق الصبية الصغار وهم يضربون الحجارة وينادون (ياعرصة سكِّر سكِّر) فما كل الناس كانت تهون مصالحهم عليهم.

والاضراب الخمسيني الكبير عام ١٩٣٦، ويسمى كذلك لانه امتد خمسين يوما، كان بقوة الجماهير الفقيرة التي فرضته -ولاتخسر شيئا- مثلما كان بوعي التجار والشعور الوطني العام.

شيخ الحرامية يتعهد

ومن القصص العجيبة التي تذكر في هذا الصدد أن السلطة الفرنسية حين رأت التجار مصممين على الاضراب في احدى المناسبات أوحت اليهم عن طريق عملائها بأن محلاتهم سوف ينهبها اللصوص. في ذلك الوقت قيل أن (شيخ الحرامية) في دمشق، وهو على مايقولون لص قديم ويعرفه الجميع، جاء إلى (شيخ الوطنيين) فخري البارودي وعاهده بأن المحلات لو فتحت وتركت سائبة فلن يضيع منها شيء، ومن يسميهم الفرنسيون (اللصوص) يحمونها، وهكذا فشلت محاولات السلطة هذه كما فشلت كل مساعي كسر الاضراب.

الفقراء عصب الاضراب

والعادة ان الاضراب ينشأ عن المظاهرة، ثم تكبر المظاهرة عينها مثل كرة الثلج إذا تدحرجت إذ ينضم إليها في كل خطوة عمال المحلات التجارية والصناعية من فقراء الناس الذين يروح منهم أكثر القتلى والشهداء.

لقد كان الطلبة والمستخدمون الفقراء في المحلات التجارية وفي الحرف هم عصب المظاهرات والأكثر شجاعة في مقدمتها ودام ذلك إلى أن أستولت الكتلة الوطنيةعلى الحكم فرأت مع الأسف أن تجند هؤلاء الشباب في منظمة شبه عسكرية خاضعة لرقابتها حتى تمتص تأججهم وعنفهم، فابتدعت منظمة القمصان الحديدية، واشتقت شعاراتها وهتافاتها وتوجهها من النظام النازي الذي كان في مقدمة الساحة الأوربية، والنظام الفاشستي، وعلى غرارهما نسجت احزاب عديدة.

تأسيس القمصان الحديدية

كان يشرف على هذه القمصان الحديدية، فيما أذكر، ثلاثة هم منير العجلاني وسيف الدين المأمون وعاصم النائلي، وقد كانت صلتي بالقمصان الحديدية، أن ابن عم الوالد المرحوم أمر الله جودت قصاب حسن (والد صفوح قصاب حسن) كان هو الذي تعهد صنع ملابس القمصان الحديدية ولاسيما الخوذة، وقد عاونته في محله. وكانت هذه مناسبة لأرى أية روحية كانت تبث في نفوسهم لتحويلهم من شباب ثائر على الاستعمار طامح إلى بناء وطنه، إلى زلم للحكومة وعناصر قمع لمن يخالفونها.

لقد حضرت كل المظاهرات من عام ١٩٣١ بلا استثناء، ومازال حتى اليوم حين تقوم مظاهرة في مناسبة قومية أو وطنية عامة، أسير فيها ولو بضع خطوات وأعتبر هذا استكمالا لمشاعري أيام الفتوة واحتراما لتقليد اسست عليه سلوكي كانسان منذ تلك الأيام. حضرت كل المظاهرات وكنت فيها نشيطاً كالفلفلة كما يقولون، وهتفت، وحاجرت، وكنت عام ١٩٣٢ بين من اقتحموا مكتب الكتلة الوطنية في شارع المستشفى الوطني واخرجوا بالنخوة جميل مردم ولطفي الحفار ليسيرا في مقدمة المظاهرة، وعفوا عن هاشم الاتاسي الذي كان موجوداً فلم يخرجوه بسبب سنه، ويومها كسرت يد السيد لطفي الحفار على يد الجنود السنغال أمام فندق الشرق المقابل لمحطة الحجاز.

ثم مامن مظاهرة خرجت بعد ذلك إلا وشاركت فيها ورأيت القتلى يسقطون أمامي وأنا على جانب نهر بردى مقابل سراي الحكومة في حين كان

الشرطة يقوصون على المتظاهرين من جانب البلدبة فيسقط هؤلاء في ساحة الشهداء (المرجة). وماأكثر مابدأت أنا مظاهرة ولاسيما عام ١٩٣٨، أوعدت فجمعت فلولها حين تنفرط لتجتمع من جديد. فيعذرني قارئي إذن إذا أنا قلت رأيي فيما فعلته الكتلة الوطنية من تحويل الشباب الثائر إلى زلم لها واتباع عن طريق القمصان الحديدية والطراز الفاشستي في التنظيم، وكانت سابقة سيئة لسواها ممن أتوا بعدها فكالوا لها بالكيل نفسه. فقد مرت سبع وخمسون سنة على عام ١٩٣٦ الذي شهد انتقال الكتلة الوطنية من النضال السلبي إلى سدة الحكم، فصار من الممكن أن نتحدث عن تلك الأيام بحرية ومن دون أن نأخذ الحساسيات بعين الاعتبار، ومع الاحترام لنضال الكثيرين من القادة الكتلويين أيام العمل السلبي ضد الفرنسيين ولي بينهم أصدقاء كثيرون احبهم ودامت علاقتنا طويلاً.

ومن المعلوم أنه في العالم كله يجري الافراج عن الأسرار والوثائق المكتومة بعد خمس وعشرين أو ثلاثين سنة، فبالاحرى أن نستطيع اليوم الافراج عن آرائنا في تلك الاوقات، وهي الاراء التي كان الجهر بها في وقتها مكلفا للانسان، وقد يدفع ثمنه من رزقه بل حتى من حياته.

لقد أخذت الكتلة الوطنية من يؤمنون بها من شباب دمشق - وعنهم اتحدث لا عن شباب المدن الأخرى وقد يكون الأمر بينهم مثل ماهو بين أهل دمشق وقد لايكون - فحولت من استطاعت منهم من شباب ثائر على الاستعمار منفتح على التقدم، وفي عينيه شوق إلى دخول الحضارة، إلى مرتزقة يخدمون الحاكم ويضربون المحكوم. لهذه الغاية نظمت فرق

القمصان الحديدية تحت شعار (الجهاد لله والطاعة للكتلة الوطنية)، وكان هتاف مجموعاتهم هو: حديدي جهاد، حديدي طاعة. ولكن كان الهدف غير المعلن - طبعاً - هو أن تكون هناك قوة تكبت أية معارضة كانت موجودة، وسنرى أنها نتيجة لهذا السلوك قويت المعارضة بدل أن تضعف وساعدت على زوال الحكم الكتلوي.

وشهدنا في تلك الفترة وما بعدها كيف صار بعض شباب الحارات يخرجون في العراضة ثم يعودون فيأكلون الصفيحة ويجدون تحت كل صحن خرجيتهم نصف ليرة أو أكثر.

قصة طريفة

وعرفنا كيف كان بعضهم يقتل القتيل فتطمس قضيته، وروى لنا زميلنا العزيز الاستاذ زهير الشلق وهو ابن خالد الشلق الشهير بأبي عمر أن اباه كان سهران في مكتب الكتلة مع واحد آخر من الكتلويين النشيطين اسمه أبو ريحان حين جاء إليهم واحد ملهوف في منتصف الليل يقول، وانقل القصة بصيغتها العامية للطرافة:

- عمي أبو عمر، صار معنا الليلة قصة لاتنزل لابميزان ولابقبان.

- خير ان شاء الله؟!..

- عزات الحركوش، تعرفه، لايحب الزاحلة. جاء واحد من الحارة عند باب الحديد تبشتن (أي قام بأمور غير مستحبة)، عزات نكشه، آمنت بالله كانت منيته.

- يعني مات ؟!. . .

- مات. وعزات كمشوه. . .

- اى، والمعنى ؟

- بدنا نطالعه ! . . .

-يا أخ غير ممكن. شغله فيها قتيل. بكره رح لعند سيف الدين يشوف القضية.

- أى والله مابيته ! (اى لااتركه يبيت في المخفر)

ولما وجد أن أبا عمر لايرد عليه، نتر سترة من كان معه وقال:

- امش يا، شو هالحكومة اللي ماخلت لحدا حيثيه ! . . .

ومن أطلق العفريت من القمقم لايعود يستطيع أن يضبه بسهولة.

من رفاقي في مكتب عنبر

في ثمان سنين قضيتها في الثانوية - إذ أعدت الصف السادس - عرفت عدداً كبيراً من الطلاب الذين سارت بهم الاقدار فيما بعد فرفعت من رفعت إلى مركز القيادة والشهرة أو هبطت بسواهم.

فمن رفاقي في الصف عدا من ذكرت في المناسبات المختلفة مظهر وصفي الذي صار محققاً عسكرياً لامعاً وتوفي رحمه الله، ونذير بسمار وهو مهندس ممتاز ومازلنا نلتقي حتى توفي في آذار ١٩٩٣ قبل أن يتم طبع الكتاب رحمه الله، وعلي حيدر الذي صار محامياً في السلمية وكانت كنيته وهو فتى في المدرسة (أبو حديد) لقوة جسمه وجرأته، وممدوح القباني،

ومحمد خير قطرميز وهو تاجر وأديب لم يقطع صلته باللغة والشعر وقد سهرت عنده مؤخراً، وحيدر صندوق وهوتاجر أيضاً وتوفي منذ سنوات طويلة، وأحمد حمزة رسول وكان بارعاً في الكيمياء والرياضيات عند أستاذنا خالد بوظو، وعبد الستار هدايا الذي كان أول صفنا أيضاً وعبد الرؤوف شيخ ديب الذي أعطاني مؤخراً نشرات الطلبة من ١٩٣١ التي انشر بعضها على سبيل التذكار مصورة بالزنكوغراف.

وأصادف بين الحين والحين بعضاً من هؤلاء الأصدقاء القدامى وأبناء الصف فأعود بالذكرى إلى خمسين سنة خلت. أرى صلحي القلعي الذي صار صاحب منتزه حديقة القمر وتوفي هذا العام. فنتذاكر في ايام الصغر.

واكثر من ألقاه نشأة كحال (وكان قديماً اسمه مصطفى جراح، لان اسمه الأصلي كان مصطفى نشأة الجراح الكمال كما ذكرت في الجزء الأول من مذكراتي (حديث دمشقي) فهو جاري وصديق عزيز محبوب شديد الذكاء والبراعة، ثم آخرون أتى ذكرهم في مناسبات مختلفة.

انتقالنا إلى المبنى الجديد

لاأدري الآن لماذا تم انتقالنا من مكتب عنبر إلى البناء المعروف حالياً باسم ثانوية جودت الهاشمي، وربما كان ذلك لأسباب أمنية ليخلصوا من علاقة الثانوية بالأسواق ومن قدرتها على اغلاقها، وربما كان ذلك لأن البناء الجديد أحدث وأوفى بالغرض. على ان ذلك تم في مطلع عام ١٩٣٧ الدرسي بعد أن كان معرض دمشق الدول الأول قد شغل البناء وانتهى.

ولكن المبنى الجديد لم يسلم من السياسة والمظاهرات وظل يعرفها وكانت (المحاجرة) تجري حواليه ومن على سطحه حين تخرجت منه عام ١٩٣٩ . ثم عدت إلى المبنى ولكن من جانبه الشرقي، حين عينت معلماً في مدرسة التطبيقات.

وقد حزت الثانوية الأولى (كنا نأخذها بنهاية الصف الحادي عشر) عام ١٩٣٨ وكانت من الفرع العلمي، ولكن الثاني عشر قدمته في الفرع الفلسفي وكان استاذنا في انلسفة جميل صليبا وفي المنطق سعيد البحرة رحمهما الله، والباقون ذكرت معظمهم ممن وعته الذاكرة أو جاءت به المناسبة. وأنا حين أعدد الأسماء أعرف ان دراسات ستجري في المستقبل ويجري فيها تقاطع مابين ماكتب العديدون، وعندئذ تأخذ كل الشخصيات الاجتماعية حجمها وننقذ من النسيان أعداد كبيرة من الشباب النابهين.

البكالوريا الأولى والثانية

كان النظام في أيامنا أن المرحلة الابتدائية خمس سنوات يحصل الطالب في نهايتها على الشهادة الابتدائية (السرتيفيكا)، والمرحلة الثانوية ست سنوات يحصل في نهايتها الطالب على البكالوريا الأولى وهي إما علمية أو أدبية، تتلوها سنة ينال فيها القسم الثاني من البكالوريا أو كما كنا نسميه البكالوريا الثانية وفيها فرعان رياضيات وفلسفة. وقد ألغي هذا النظام فيما بعد على يد ساطع الحصري في نهاية الاربعينات وصارت البكالوريا (الثانوية) واحدة موحدة بفرعين علمي أو أدبي وبسبع سنوات، أي هي

بكالوريا ثانية في الحقيقة وكان الناجح في القسم الأول من البكالوريا قد يكمل أو لايكمل البكالوريا الثانية حسب رغبته ولكن لابد من الثانية للقبول في الفروع الجامعية.

وكان نظام الفحص في الثانويتين وفي الجامعة يقوم على أساس أن قسماً من المواد يجري الامتحان فيه كتابياً ويسمى (التحريري) وقسماً آخر يكون فيه شفهياً، حتى ان هذا النظام كان موجوداً حتى بالنسبة للابتدائية فيما مضى. وكان الاختيار يجري بالقرعة فتعلن في كل عام أسماء المواد التي تفحص بالكتابة والمواد التي تفحص بالمشافهة. وهذا النظام غايته سبر أفضل لمعلومات الطالب لأن الذي يحفظ يقدر على الكتابة ولكن لايقدر على الاجابة إلا من يفهم، وعادة لايقبل في الشفهي إلا من نجح في التحريري. وأعتقد أنه نظام أفضل من كل الوجوه من نظام الفحص الكتابي برمته بسلالمه المعقدة وتوزع العلامات على عشرات الاسئلة الصغيرة، ولكن يبدو أن العدد الهائل الذي صار يتقدم للفحوص الآن لايسمح بالمقابلات الشفهية.

وقد استفدت أنا من النظام القديم بنوع من الشطارة اقصه عليكم معترفاً به، علماً بأنني ولو نجحت بالشطارة ذات مرة فانني لم أخيب من أنجحوني فقد مضيت أتوسع وأتعمق في كل أنواع المعارف ومازال حتى الأن تلميذاً باحثاً ومنقباً في عالم المعرفة الكبير.

أما كيف نجحت (بالشطارة) فأساسه أنني أتقن فن الكتابة على نحو يظهر معه القليل من معلوماتي كأنما هو اشارة إلى معلومات أخرى غزيرة أعرفها وتلمح إليها الكتابة، كما إن ماأكتبه يمتاز دائماً بالوضوح وهذه نعمة، فلولا

سهولة الكتابة عندي كيف كان يمكن لي أن أكون من أكثر الكتاب غزارة حتى الآن؟ فالكتابة السهلة الواضحة والايماءات إلى معلومات أخرى تجعلان الفاحص يرتاح إلى المكتوب ويعطيه علامة جيدة. ولذلك فقد استطعت أن أمر بفحص الفلسفة بنجاح كبير مع أنني كنت في عام ١٩٣٩ قليل الدوام لانشغالي بالأعمال السياسية وكانت المدرسة نفسها لم تسجل سوي ٣٧ يوم دوام في النصف الثاني من العام بسبب الاضرابات. وقد أتانا فيما أذكر سؤال عن (الشك) لم أكن قرأته أبداً. ورأساً وبلا تردد قلت لنفسي: افرض أنك انت أول من يبحث في الشك بين الفلاسفة. ماذا كنت ستقول؟ كنت تقول أن الشك أما أن يؤدي إلى نفي الحقيقة، وأما أن يؤدي إلى التحقق منها حتى لاتؤخذ على علاتها بسهولة. وأخذت أكتب بهذا الاتجاه، وأضرب له الأمثال من عندي عن الحالتين حتى استكملت موضوعاً مفيداً، وتجنبت فيه الاشارة إلى أسماء الفلاسفة لأنني لم أكن أعرف من هم ولاما قالوه ولا أن كانوا قالوا كما قلت، مكتفياً بالقول (بعض الفلاسفة يقولون. . . وآخرون يقولون. . .) وإذا بي حين خرجت من الفحص أجد الموضوع لايخرج من عمومياته عن الشيء الذي ذكرته من معطيات ثقافتي العامة، ونجحت بعلامة جيدة. وقد ذكرت هذه الحكاية لأنها تصلح نصيحة للشباب الذين يواجهون الامتحانات في بعض المواد الثقافية العامة.

وبعد ذلك رآني المرحوم الاستاذ سعيد البحرة، وكان أستاذي في الصف ينصحني دائماً بالقراءة والا فانني سوف اسقط، وقال لي: هذه المرة نفدت بالتحريري وعلامتك جيدة، وسنرى في الشفهي. وفي الشفهي كانت اللجنة

الفاحصة من ثلاثة هو أحدهم ومعه استاذ حموي أوحلبي من آل النعساني لايعرفني. وقفت أمام اللجنة فقالوا لي اسحب من هذا الكيس موضوعاً، فمددت يدي وسحبت (نصيبي) فكان (العمل).

وبحث العمل بما فيه من نظريات كثيرة جداً لم أكن وجدت الوقت لقراءتها وحفظها يمكن أن يربكني، فقلت على الفور وبلا تردد: (ان العمل مثار لنظريات كثيرة ونتائج خطيرة ربما كان من أخطرها أن يخرج عن الجانب النظري ليدخل في الجانب السياسي، وهذه المذاهب الاشتراكية تعتبره اساس القيمة الوحيد، وتبني على ذلك نظرية القيمة الزائدة. . .)

الأستاذ الحموي قال لي على الفور: أوقعت نفسك. حدثنا عن القيمة الزائدة. . فتبسم الأستاذ البحره وحرك رأسة بلطف من يقول (ليس هو الذي أوقع نفسه، بل أوقع اللجنة بجره الموضوع إلى مجال اختصاصه) إذ كان يعلم أن هذا الموضوع من الأبحاث التي كنت اتقنها بحكم توجهي السياسي. وانطلقت فعلاً بحديث متدفق أخذت بنتيجته علامة عالية.

وكانت لي في الفحص دائماً طريقة اعتقدها مفيدة وهي أنني قبل أن أقرأ السؤال الذي يوزع على الطلاب، أمضي فأتفرج على الطلبة وهم منهمكون فهذا يستعجل الكتابة وذاك يظهر البشاشة وثالث يبدو عليه الضيق والارتباك، وأنا بعد أن اتسلى دقائق بالنظر اقعد اعالج موضوعي بهدوء أعصاب وآخذ رؤوس الأقلام وأنظم أفكاري قبل أن أشرع بالكتابة. ان الهدوء يساعد كثيراً على حل المعضلات الصعبة وسد ثقوب الذاكرة.

التعليم وأصحاب الدخل المحدود

ولابد أن أقول أنني بين الثانويتين الأولى والثانية عينت معلماً. وحكاية العمل في التعليم فيما يبدو لي من أقدار كل أصحاب الدخل المحدود، فما قابلت واحداً من أصحابي في أية مهنة أو مرتبة عالية إلا وجدت أنه عمل معلماً لفترة من الزمن والسبب هو حاجة الشاب إلى مال يضعه في جيبه ويصرف منه، فقد كان أهلنا محدودي الدخل والبلاد كلها في أيام الفرنسيين محرومة من الرخاء الاقتصادي. وآباؤنا عملوا جهدهم من أجل أن يعلمونا ولايتركونا نعمل في مهنهم لأن المطامح الثقافية التي فاتتهم في شبابهم حققوها عن طريق ابنائهم. وكم من آذن صار ابنه استاذ جامعة أو طبيباً ناجحاً، وكم من عامل بسيط قطع عن فمه اللقمة ليعلم ابنه ويصير انساناً مرموقاً. وقد حدثت حوادث مؤلمة قليلة تنكر فيها الأولاد الذين تفوقوا لأهلهم ولكن كانت حوادث شاذة والأكثرية الساحقة ممن تعلموا ظلوا يذكرون منبتهم الشعبي ولايتنكرون لأهلهم ولا للفقراء. ولعل هذا ماطبع الحكم في بلادنا بطابعه إذ أن اكثر المتعلمين والأكثرية الساحقة من الضباط مروا بطريق التعليم، حتى يمكن القول أن حزب البعث الذي تولى مقاليد الحكم كان في أكثريته حزب معلمين !.. ولم أخرج عن القاعدة. عينت معلماً في دير الزور عام ١٩٣٨ بقرار واحد مع رفيقي شاكر مصطفى. فذهبت أنا إلى دير الزور وداومت عشرين يوماً وحدثت هنا مصادفة لطيفة إذ ان المدرسة التي عينت معلماً لها في دير الزور وهي (مدرسة هنانو) كان اسمها قبل ذلك مدرسة (النجاة)، وكانت هي المدرسة التي دخلتها طفلاً عام ١٩٢٦ في الصف الأول. ولكني لم أبق في دير الزور سوى عشرين يوماًوعدت إلى دمشق لإكمال الشهادةالثانويةقسمها الثاني،وهذا الذي تم

الباب الثاني

قصة التعليم في سورية، ٢٦٤ - وزارة المعارف، ٢٦٦ - المعلم كان معززاً في البداية، ٢٦٨ - معلم في الديماس، ٢٦٨ - تجربة التعليم، ٢٦٩ - علاقتي بأهل الديماس، ٢٧٠ - يوم حققنا الجلاء بالمجارف، ٢٧٣ - الملاحقة، ٢٧٤ - دار المعلمين الابتدائية، ٢٧٧ - الولد الذي علمني، ٢٧٧ - رفاقي في دار المعلمين، ٢٧٩ - ٢٧٠أساتذة دار المعلمين، ٢٨٤ - رنيه تريس، ٢٨٥ - الطالب يظل تلميذاً، ٢٨٩ - توقيفي وحبسي، ٢٩١ - دوري في الدفاع عن مطالب الطلبة، ٢٩٢ - صراحتي مع كوليه، ٢٩٣ - تجاربي التعليمية، ٢٩٤ - طوع قدوره، ٢٩٤ - تعييني في التطبيقات، ٢٩٦ - رمزي الركابي، ٢٩١ - دار المعلمين العليا، ٢٩٩ - الفترة التعليمية في مدرستي الصنائع والتجهيز الثانية، ٢٩٩ - تركي التعليم ثم العودة إليه، ٣٠١ - الكلية العلمية الوطنية، ٣٠١ - كيف أنشأت معهداً للباليه، ٣٠٢ - المعهد الموسيقي الشرقي، ٣٠٤ - فخري البارودي، ٣٠٥ - مشروع الفرنك، ٣٠٧ - يوسف البتروني، ٣٠٩ - تتمة الحديث عن فخري البارودي، ٣١٠ - جنازته لخصت حياته، ٣١٢.

الباب الثاني - قصة التعليم في سورية

لابد لي قبل أن أتكلم عن احترافي التعليم ودخولي دار المعلمين من أن أذكر لمحة عن قصة التعليم في سورية.

كنت في الجزء الأول من هذه المذكرات كتبت أن اهلي لم يضعوني في الكتاب، وكان ذلك بتأثير عمي الذي عانى من الكتاب أول يوم وتركه صغيراً بعد ساعات ولم يعد اليه فجنبني هذه التجربة. وقد وضعوني في أول مدرسة حضانة تابعة لدار المعلمات فتحت في دمشق في حوالي ١٩٢٦ وكنت في الخامسة، وبقيت فيها قليلاً. ولكن أضفت أن الكتاتيب لعبت دوراً كبيراً في تاريخ أمتنا فمهما قيل عن تخلفها بالمقارنة مع أساليب التربية الحديثة - وهو قول حق ورأيته بعيني حين صرت معلماً ودخلت الكتاتيب متفقداً - فان الكتاتيب تبقى أحد معالم الثقافة العربية الاسلامية التي كافحت الأمية وعلمت القرآن والفقه و الحساب، ومنها تخرج كل السلف الذي السابق لنا.

محاربة الكتاتيب

وقد حفظت الكتاتيب القرآن والعربية خلال عهود التجهيل ولاسيما الحكم التركي ومع أن الأولاد كانوا يرون فيها أنواع العذاب والتنكيل من شيخ الكتاب، إلا أنها كانت هي الصلة الوحيدة بعالم الحرف والكلمة المكتوبة. وقد كان للكتاتيب أثر في بقاء العربية في شمال افريقيا وهي التي اقلقت الفرنسيين ومنها خرج التيار العربي المناهض للفرنجة التي كان يسعى

اليها الاستعماريون عساهم يميعون شخصية العربي والمسلم في افريقيا.

وحتى عندنا كان (الكتّاب) يلقى المحاربة من الفرنسيين تحت غطاء التربية الحديثة، فكانت محاربة صحيحة وغير صحيحة ومما اذكره أن الحكومة التي تأتمر بأمر الفرنسيين حاولت في عام ١٩٣٥ أن تحد عمل الكتاتيب فلا يقبل فيها من كان في سن التعليم (أي السابعة) ولاتدرس إلا الدين وخارج ساعات التعليم الرسمي، كما فرضت فيها شروطاً صحية وأن تقفل إذا وجد مع الكتاب مدرسة رسمية إلى جانبه، فكان هذا موضوعاً لاحتجاجات وخطابات في بعض الجوامع بسبب التحسس من كل تدبير تتخذه السلطة ويخشى أن يكون الهدف منه محاربة الثقافة الاسلامية. واذكر أن وزير المعارف الذي أصدر هذا البلاغ كان حسني البرازي وأنه اضطر أمام الاحتجاجات إلى التراجع والتفسير. ولكن المدارس انتصرت في النهاية لأنها انتشرت وعمت وأغلقت الكتاتيب وصارت من مخلفات الماضي إلا فيما ندر.

والتعليم في سورية في العشرينات ومابعدها كان يقوم على هذه الكتاتيب أولا، وعلى عدد من المدارس بدأ بتزايد بالتدريج، منها الحكومي والخاص ومنها مدارس الارساليات. وأذكر في أواخر العشرينات أنه كانت هناك مدرستنا وهي (انموذج عرنوس) وسميت كذلك لانها في حي عرنوس ولانها مدرسة انموذجية نظامية وقد سبق أن تحدثت عنها وعن معلميها في الجزء السابق من هذه المذكرات (حديث دمشقي)، وكانت هناك مدرسة انموذج المهاجرين، ومدرسة البحصة المشهورة والكبيرة جداً وهي من أيام

الاتراك. وإلى جانب هذه المدارس الابتدائية القليلة كانت هناك مدارس عربية خاصة منها الكاملية ويديرها الشيخ كامل قصاب وهي شهيرة في أيامها، والمحسنية ومازال موجودة حتى الآن، والكلية العلمية الوطنية وقد أغلقت منذ سنوات طويلة، ومدرسة الشيخ عبد السفر جلاني، ومدرسة الاسعاف الخيري وغيرها.

كما كانت هناك مدرسة الفرير ويديرها الاخوة المريميون، (الفرير ماريست) ومازال موجودة، والمدرسة الآسية الارثوذكسية في القصاع، والمدرسة الكاثوليكية في باب شرقي، ومدرسة الاليانس في حي اليهود وهي لابناء الطائفة الموسوية، ومدرسة اللاييك أي العلمانية وهي مدرسة فرنسية وصار اسمها اليوم معهد الحرية ومعاهد مماثلة أحدها للأرمن.

ولم يكن التعليم منتشرا في القرى، ولكن بدأت الحكومة تفتح المدارس. أنا افتتحت مدرسة (الديماس) كما سبق الحديث، وشاكر مصطفى افتتح مدرسة (تلفيتا) في الوقت نفسه، وهكذا كلما عينت الحكومة معلمين من حملة الثانوية او دار المعلمين فتحت مدارس جديدة لأن المعلمين كانوا قلة في تلك الأيام.

وزارة المعارف

ان أول وزير للمعارف أعرفه وأذكره كان المرحوم محمد كرد علي، وهو الذي وقع على شهادتي الابتدائية التي فقدت فيما بعد غير أنني مأزال أذكر توقيعه عليها وهو بكتابة واضحة ومقرؤة وبقلم عريض واثق من نفسه (أقول ذلك لان عندي هواية قراءة الطباع من التواقيع ونقضي جلسات حلوة في

تحليل بعض الشخصيات من التواقيع وانجح في ذلك بتقريب ٩٠٪). وأذكر بعده أنه جاء وقت كان فيه حسني البرازي وزيراً للمعارف وسبق القول اننا سمعنا بقصة ضربه من قبل ابناء الريس وقدرويتها في مكان آخر.

ثم أذكر ان اسم وزارة المعارف كان مقرونا في الثلاثينات برجلين كبيرين هما شفيق جبري ومصطفى تمر كانا كل شيء في هذه الوزارة. وبعدها جاء كامل أشرفيه الذي كان أيضاً من النافذين الأقوياء في الوزارة.

ولما صرت أنا معلماً في أول الاربعينات كان مفتشنا المرحوم عوض العامري، ويشرف على التعليم الابتدائي توفيق الجابري وكمال الهبراوي وعلى التعليم الثانوي جميل صليبا.

ثم جاء المرحوم أحمد الفتيح وكان من أقوى الشخصيات التي تعاقبت على الوزارة وكأنه وزير دائم وحقيقي لها. كما كان رئيس الوزارة المرحوم عبد النبي قلعي وكان من أصدقاء والدي ومن جيراننا وما نزال نحس بأننا وإياهم أسرة واحدة.

ومن الطرائف التي تذكر ان وزارة المعارف كلها كانت تشغل ست غرف في الطابق الثالث في سراى الحكومة، وظل الامر كذلك حتى منتصف الاربعينات، ويوم وصلت موازنتها السنوية إلى مليون ليرة في الاربعينات دهش الناس لضخامة المبلغ.

المعلم كان معززاً في البداية

وهنا لايفوتني أن أقول أن المعلم في أوائل الثلاثينات كان حين يعين في المعارف بناء على تخرجه من دار المعلمين (يدخلها بعد التاسع ويتخرج منها بعد سنوات مثل حملة الثانوية) كان يبدأ براتب (تسعة ديناري) أي تسع ليرات ذهبية دينارية كل منها خمس ليرات سورية، أي بخمس واربعين ليرة. وكان البيت يمكن أن يكفيه نصف هذا المبلغ لتأمين حياة لائقة، والمعلم يستطيع أن يجمع من وفر ثلاث سنوات نحو مئة خمسين ليرة عثمانية يشتري بها بيتاً لابأس به. ولكن الأمر لم يظل على حالة وما جاءت نهاية الثلاثينات حتى كان الراتب أصبح لايكفي للمعيشة وحدها.

معلم في مدرسة الديماس

بعد حصولي على البكالوريا - القسم الثاني فلسفة - كان عليّ أن أختار دراسة عليا، ولم يكن أمامي إلا الطب وطب الأسنان والحقوق والتعليم، وكان الدخول إلى معهد الطب -كذلك كان يسمى - متاحاً بأي أقسام الشهادة الثانوية.

كنت أحب الطب وأقرأ كل مايقع تحت يدي من أبحاثه، ولكن دراسة طويلة تحتاج إلى تفرغ وقدرة مالية عند الأهل لينفقوا على ولدهم سبع سنوات وكان هذا صعباً ولو أنه ليس مستحيلاً. فوالدي عامل همام ومحب، ولكن الأسرة المؤلفة من ثلاثة عشر شخصاً لم تكن قليلة المطالب. وزاد من تنحية الطب عن فكري أنني حاولت النظر من النافذة إلى مشرحة

كلية الطب حيث كان الجثث الآدمية المشبعة برائحة الفورمول، فأصابني دوار وسقطت على الأرض إضافة إلى أنني لم أكن رأيت إنساناً ميتاً أمامي.

ولنفس السبب المالي استبعدت الحقوق واخترت أن أبدأ بسلك التعليم كما يفعل أكثر أبناء الفقراء ورقيقي الحال. وقدمت طلباً وعينت من فوري معلماً في قرية الديماس في مدرسة محدثة أنا أفتتحها لأول مرة وتتألف من صفين أول وثان، احدهما للمبتدئين والثاني لمن كانوا من قبل في (كتّاب) القرية. أما الراتب فخمس وعشرون ليرة سورية في الشهر يصل إلى اليد منها ثلاث وعشرون، ولكنهاكانت تكفي لحياة بسيطة.

تجربة التعليم

لم أكن غريباً تماماً عن عالم التعليم. فقد سبق أن علمت في بعض العطل الصيفية في مدرسة أهلية في حي سوق ساروجة بنوع من التطوع، وعملت في مدرسة المهاجرين معلماً ووكيلاً بدلاً من معلم مريض لعشرين يوماً، كما علمت الأميين في نادي الفاروق وفي مشروع انعاش القرى في قرى عرطوز وجديدة عرطوز وسقبا، وعينت معلماً وكيلاً قبل البكالوريا الثانوية في دير الزور كما سلف القول.

ولذلك كان من الطبيعي أن أعرف الجو واستسيغه، فذهبت إلى وزارة المعارف وقابلت فيها المفتش المختص السيد عوض العامري، وخرجت من عنده وأنا احمل قرار تعييني معلماً في مدرسة الديماس. وكان عوض العامري من حوران، وهو رجل مثقف كريم النفس تربطه بوالدي صلة مودة

جعلته يقول للمداعبة أنه من ورثتنا ومن حكاياته الطيفة والتي يرويها لنا أنه كان مسافراً مرة بالقطار إلى بلدته من حوران، فصادفه شرطي القطار وسأله: من أين البيك؟ أجابه من حوران. فنقز الشرطي وقال له: حاشاكم سيدنا... فالى هذا الحد كانت اناقته تصوره على أنه من أكابر العاصمة!...

وعاونني في تنفيذ قرار التعيين المرحوم عبد النبي القلعي وقد اعطتني الوزارة اثاثاً مدرسياً جديداً افتتحت به المدرسة في خريف ١٩٣٩ حين كانت الحرب قد بدأت، اذ اعلنتها المانيا في ٢٩ آب ١٩٣٩ وبدأ معها انعكاس سلبي لآثارها إذ أن السلطة العسكرية الفرنسية لاحقتني وحاولت اعتقالي ليلة أول أيار عام ١٩٤٠ وسأعود إلى ذلك بعد قليل. أما الآثار العامة فمنها قلة المحروقات وصعوبة السفر وبدء موجة الغلاء التي جعلت الراتب البسيط وهو خمس وعشرون ليرة شهرياً يتضاءل في قدرته الشرائية بالتدريج.

علاقتي بأهل الديماس

ان أهل قرية الديماس المجاورة لميسلون والتي تقع على أربعة وعشرين كيلو متراً من دمشق قوم وادعون بسطاء ومعشرهم ليّن ومنفتحون للغريب. محصولهم قمح وعنب وتين وحليب الماعز الذي يسوقونه يومياً إلى دمشق، ولم يكن في القرية كهرباء ولكن المواصلات كانت على شيء من السهولة لأن وقوع القرية على جانب الطريق العام بين دمشق وبيروت كان يسهل الوصل إليها والعودة منها.

وكان مختار القرية محي الدين العرسالي (أبو مصطفى) رجلاً طيباً، وكان رئيس مخفر ميسلون المساعد الدركي عبد المجيد من اصل شركسي، وكنت أعرف معنى العلاقة بين الدرك والفلاحين وهي قائمة على تسلط الدرك. وبسبب من تكويني السياسي كنت لا أحب الدرك وانحاز إلى الفلاحين (مع أن عمي كان ضابطاً في الدرك ولكنه للحق كان رحيماً ومهذباً ومستقيماً ونقي اليد نقاءً مطلقاً). ولذلك ومنذ وصولي إلى القرية صرت أصادق أهلها - وهم آباء تلاميذي واخوتهم - وحين يحتفلون بعرس كنت أجلس معهم لامع الدرك كما يفعل بعض المعلمين باعتبار أنهم من صف (السلطة). وبطبيعة الحال كانت السلطة السياسية قد نبهت المخفر إلى ضرورة مراقبتي لأنني ذو اتجاه سياسي معروف فكان عليّ أن أتصرف بدقة وحذر.

نجحت في التعليم جداً وكانت تجربة المعلم الوحيد في القرية تجربة جيدة: فأدير صفين أحدهما للمبتدئين والثاني للمتقدمين. أعطي الصف الأول درساً بينما يكتب الصف الثاني نقلاً عن السبورة، وأظل أتحرك بين الصفين. ان بين تلاميذي في تلك السنة من صاروا الآن من الشخصيات المرموقة في مجالات العلم والمحاماة والوظيفة العامة وغيرها، وانعقدت بيني وبين الفلاحين كافة صلات مودة حتى صرت بسرعة أعرف الجميع بأسمائهم وقراباتهم، رجالاً ونساءً، وأعيش معهم حياة بسيطة نظيفة، وأبرز العائلات العرسالي ونقرش والكردي وأبو صبحة وغيرها وعذراً ممن نسيت أسماءهم.

كانت حياتي بسيطة في تلك القرية الوادعة التى تطورت الآن كثيرا عما قبل. كان الأثاث مؤلفاً من سرير حديدي منفرد بسيط وطاولة وكرسيين

وبعض الآنية وكتب وأوراق. أعمل بيدي وأخدم نفسي إلا قليلاً من المعونة من جيراني. واذكر ذات صباح باكر وأنا بين النوم واليقظة أنني نظمت معارضة مع التشطير والتخميس لقصيدة شوقي (مضناك جفاه مرقده) لما أصابني من ارق بسبب بساطة المضجع وبعده عن الراحة، فأفقت وأنا أبتسم وفي ذاكرتي هذه الأبيات التي نظمتها:

(مضناك جفـاه مرقده) مذ نام بتخت أسـهـده
والصبح تباعد موعـده قد مات ولم يطلع غـده
(فبكاه ورحّم عُوّدُه)

(أودى حرقاً إلا رمقـا) أبقـاه لكـي لاينفلقـا
والليل الداجي قد غسقا ولحاف قد حاكى الورقا
(يلقيه عليه فيبرده)

(ويعلم كل مطوقـة) سجعاً يزدان بمعرفـة
بالسهر خبير ذو هبة وعلمت الطير بمـوه
(شجناً في الدوح تردده)

والمعارضة في الشعر تقليد مع تغيير الاتجاه وغالبا ما يكون إلى الفكاهة. أما التشطير والتخميس فهما من فنون الشعر التي تعلمناها في الثانوية والتشطير أن تأخذ البيت فتضيف إليه واذا خمسته فعليك زيادة مقطع خامس والمثال السابق يوضحهما تماماً إذ أن البيت الأصلي هو الذي بين القوسين.

وقد بلغ من اندماجي بالفلاحين والالفة معهم أننى نظمت بالاتفاق مع امام القرية عيداً للمولد النبوي في جامع الديماس والقيت فيه من على المنبر

خطاباً بالمناسبة وصليت بالناس بدعوة من الامام نفسه. أما حين تعقد أعراس فقد كنت آخذ عودي وأحضر العرس وأعزف على العود والمغنون يلقون العتابا والميجنا وأشارك فيها وفي الدبكة. وأعتقد أن الجيل القديم من أهل الديماس يذكرني وكذلك الجيل الذي منه تلاميذ كثيرون صاروا الآن في الستين (حين أكتب هذه الأسطر في ١٩٩٢ أي بعد ٥٣ سنة من تلك السنة اللطيفة من حياتي).

يوم حققنا الجلاء بالمجارف

ومن الذكريات اللطيفة جداً والتي لها مغزى حادثة سجلتها في مقال كتبته في صحيفة الرأي العام في سنة ١٩٥٤. فحين دخل الفرنسيون الحرب، وفي ربيع عام ١٩٤٠، بدأوا يشقون طرقات تسهل حركة جيوشهم إذا اضطرتهم الأمور، وكان من طرقهم أن يجبروا الفلاحين على العمل في فتح الطرقات بالسخرة وبلا أجور. وجاءت مجموعة من جيش الشرق إلى قرية الديماس فنزلت في بيوت القرية وأمرت المختار بأن يخرج بأهل قريته إلى الطريق لفتحها من الطريق العام المزفت إلى القرية حتى تستطيع الآليات سلوكها، ومن قبل ذلك كانت مجرد طريق للمشاة والمواشي. ولكن الفلاحين على عادتهم تهربوا، ومجموعة الجنود استمرأت ذلك فتوزعت على البيوت وتأمر كل يوم بذبائح يأكلها أفرادها على حساب الفلاحين مع أصناف الجبن والمعقود التين والدبس من مؤونة أهل الديماس، ويأمرون بجلب القهوة وعلب سيكارات (الجوكي كلوب) وهو أغلى صنف.

وكانت ستكون كارثة على أهل الديماس عدا الاهانة، فاتفقت مع المختار على أن أخرج أنا بالتلاميذ إلى الطريق لنعمل في شقها، وندعو معنا كل أهل القرية رجالاً ونساءً وفتياناً وفتيات لانهاء الطريق وانهاء (احتلال) هؤلاء العسكر بسرعة. وهكذا فوجىء أولئك العسكر المتربعون في البيوت، بالقرية كلها تخرج وعلى رأسها المعلم وتلاميذه ليعملوا في الطريق بالمجارف والمعاول، وينجزوها في أيام قليلة. وهكذا اضطر هؤلاء المحتلون إلى (الجلاء) والبحث عن قرية أخرى ينزلون عليها ضيوفاً غير محبوبين.

وكان عنوان مقال الرأي العام الذي قص هذه الحكاية (يوم أجلينا المتطوعة بالمجارف!)

الملاحقة

وفي صباح يوم ٣٠ نيسان ١٩٤٠، وبينما أنا أعلم في المدرسة فوجئت بوالدي يدخل عليّ الصف وكانت هذه زيارته الأولى للمدرسة وللقرية. اسرعت إليه وقبلت يده أمام التلاميذ (وهو كعادته يتملص من إعطائي يده) ثم بعد الترحيب لم أتمالك أن سألته: خير إن شاء الله؟! ابتسم ابتسامته المشرقة التي لاتنسى والتي لاأذكر سواها فما قابلني إلا بها كل حياتي، وقال لي: زيارة. اشتقت لكم... (كانت عادته أن يخاطبني بلفظ الجمع دائماً..). أدركت أنها مجاملة ولكنني أحسست أن شيئاً يكمن وراءها.

فَرَدَ أبي زوادة كان يحملها وفيها شعيبيات بلحم وأخرى بقشطة وقال: اشتهيت لك هذه، من عند مهنا -وهو بائع حلوى شهير تزوج من ابنة

خالي- فأكلت منها يسيراً ثم سألته: ماالحكاية ؟ بان الجد على وجهه وقال لي: فجر اليوم جاء الشرطة وكبسوا البيت يبحثون عنك لاعتقالك، وطبعاً لم يجدوك. ولما سألوني عنك تذكرت حكايتك الضاحكة مع أحد أصحابك الذي أراد أن يأتي فيزورك في محل عملك وضحكت معه وقلت إنك في كفرسوسة، فقلت لهم: الله أعلم في كفرسوسة... هم ذهبوا يبحثون عنك هناك وأنا جئت إليك هنا. فان لم يكن عليك شيء أو لم تكن فعلت شيئاً يستوجب التوقيف فابق حيث أنت ولابد أن يأتوا إلى هنا، وإن كان عليك شيء تصرف!... كان رحمه الله آية وغايةً في اللطف والايناس والصبر واحترام الحرية. وكنت أعرف أن سلطات الأمن العام الفرنسي - وتوابعها السورية- تقوم بين الفترة والفترة باعتقال أحرار الفكر المناهضين للاستعمار. ولم يكن في رغبتي أن أوقف، كما كنت أعلم فعلاً ولأنني شاركت في طباعتها أن هناك منشورات أعدت للتوزيع.

قلت لوالدي ليس عليّ شيء ولكن من قبيل الاحتياط سأنزل. اخبرت المختار أنني مضطر للمغادرة ومضيت إلى الطريق العام فأخذت سيارة عابرة إلى دمشق، ونزلِ والدي بسيارة أخرى قبلي.

في دمر نزلت، وكنت من أيام الكشافة أعرف أن طريقاً جبلية تقود من دمر إلى عين الصاحب فبلدة (منين) فسلكتها ماشياً، وأنا نشيط ومشّاء. بعد سير بضع ساعات وصلت - ولكن منهكاً- إلى منين فنمت عند صديق لي معلم في القرية، وفي اليوم الثاني غيرّت حّلاسي (في الفصحى الأحلاس هي اللباس) وقصدت إلى قرية تلفيتا القريبة راكباً بسيارة شاحنة تنقل

الحجارة، إذ كان يعلم فيها رفيق العمر شاكر مصطفى. وقد بقيت عنده بضعة أيام لاأظهر للناس، ثم تركت تلفيتا إلى التل حيث كان يعلم صديقي المرحوم عبد القادر حتيتاني الذي عرفته من جمعية انعاش القرى، ومن عنده انتقلت عن طريق معربا فدمشق إلى المزة في دار صديق لوالدي حيث بقيت لفترة من الزمن حتى هدأت الملاحقة. ومما يذكر في تلك الفترة أن الدرك كانوا يلاحقون أخباري وقد سمعوا من بعض أعوانهم أن شاكر مصطفى استضاف في تلفيتا شاباً اسمه (الشيخ محمد) فكبسوا القرية ولكنني كنت غادرتها، وكان على رأس الكبسة الزعيم الدركي الأرمني هرانت بك، وهو صديق عمي ويعرف نشاطي ولكنه كان انساناً شريفاً يقوم بواجبه دون تحمس للسلطات الفرنسية - من أعماقه -وقد كان حتى نهاية عمره حسن السيرة لايتخذ من المواطنين موقفاً شرساً قاسياً كما يفعل بعض المتحمسين للسلطة المنتدبة. ثم خفّت الملاحقة وعدت إلى القرية حتى انتهى العام.

دار المعلمين الابتدائية

وفي صيف ١٩٤٠ أعلن عن الترشيح لقبول طلبة من دار المعلمين الابتدائية، وكانت هذه المدرسة تأخذ حملة الثانوية (القسم الثاني) الذين علموا سنة على الأقل في قرية أو في المدينة ويظهرون كفاءة يسجلها مفتشوهم، ثم يدرسون سنتين على يد أفضل الأساتذة. أي أن سويتها جامعية لأن الدراسة فيها سنتان بعد الثانوية العامة وبعد سنة من التعليم.

إن هذه السنة من التعليم المسبق كشرط لدخول دار المعلمين كانت شيئاً جيداً جداً لأن طالب دار المعلمين يأتي في هذه الحال ومعه تجربته ونجاحه أو فشله ويناقش ذلك في نفسه على ضوء مايعطى إليه من دروس وتدريبات. وكنت أنا فوق ماذكرت قد مارست التعليم في مدرستي المهاجرين بدمشق وهنانو في دير الزور، وكانت لي تجربة مفيدة أسردها فيمايلي.

الولد الذي علمني

فأما مدرسة المهاجرين وكان مديرها المرحوم توفيق أفرام وهو رجل فاضل سمين ولطيف صبور، فقد أدخلوني فيها إلى الصف الأول، وفي هذا الصف تلقيت أول درس في التربية على يد طفل اسمه محمد دحّو وهيهات أن انسى اسمه ولو أنني لاأعرف أين صار وأتمنى أن يأتي فيزورني ذات يوم!

كان هذا الطفل يعبث في الصف ولاينتبه إلى دروسي - التي أعترف بأنها كانت لحداثة عهدي لم تكن تتصف دائماً بالتشويق - وإنما يظل يلعب بمسمار وزجاجة صغيرة بيده. عنفته فلم يرتدع. خلصته الزجاجة والمسمار فأخذ شيئا آخر. اتعبني بحركته فضربته. رد على ضربي بعين فيها (جآرة) أي اجتراء، عين

جامدة تحمل التحدي فازددت ضربا، ولكنه لم يبك. تعبت أنا ولم يتعب هو. لمعت في رأسي فكرة فقلت: محمد أخرج، انت عريف الصف. لم اجد أفضل من أن أعطي هذا (المقروش) مسؤولية ضبط الصف. كانت تجربة غريبة ولكنها نجحت. وقف أمامهم بعينين (تبرزقان) فسكت الصف، عد إلى مكانك يامحمد! عاد، تكتّف! فشبك يديه على صدره وهو ينظر إليّ، حتى تعبت عنه وماتعب. ومن لحظتها ماعاد يلعب وصار الصف ممتازا، وأدركت أن الضرب كاد يفقدني السيطرة عليه وعلى نفسي، وأن الخطة التي نجحت كانت تسليم القيادة له لحظة ليشعر بمسؤوليته. ونفعتني هذه التجربة فيما بعد في تفادي العنف كلما أمكن لي أن استخدم المرونة، ونجحت معي في مواقف أكثر من أن تحصى. وفي دير الزور كانت المدرسة التي عينت فيها بعد تخرجي من البكالوريا الأولى عام ١٩٣٨ وهي مدرسة هنانو تحمل فيما مضى اسم مدرسة النجاة وكانت هي المدرسة الأولى التي دخلتها في حياتي طفلا، والأولى التي دخلتها معلما أصيلاً، وقد سبق لي ذكر ذلك.

ولكن تلاميذ دير الزور رأوا أن اسمي (نجاة) وهو اسم بنت غالباً، لاسيما وان نجاة علي كانت في تلك الفترة تمثل فيلما مع محمد عبد الوهاب، فصار هؤلاء الأولاد ينادونني في الطرقات نجاة علي. وأدركت أن لاحيلة تنجح معهم، وأن نفوذي كمعلم مهتز قبل أن يبدأ لسبب لايد لي فيه. وهذه من مغارم المعلم الذي ماينبغي أن يكون في اسمه ولا في جسمه ولافي سلوكه مايمكن أن ينقص من اعتباره أمام الأولاد، وتركت التعليم وعدت إلى الثانوية معترفاً بالفشل لهذا السبب.

رفاقي في دار المعلمين

كان الصف الأول من دار المعلمن الذي ضمني قد جمعني بعدد من الطلبة أجد من الوفاء أن أذكرهم واحداً واحداً، لأننا قضينا سنتين من حياتنا معاً نعاني الشظف ونتعلم وتغمرنا المحبة.

فمن ادلب سامي المارتيني أبو علي، الرجل الطيب الخلوق المجدّ الذي تألق في تعليم الرياضيات ثم صار مديراً لثانوية المدينة وأحد كبار المربين فيها حتى تقاعد ثم توفي في مطلع عام ١٩٩٢ . وكنت دائم الزيارة له كلما مررت بادلب - وأمر فيها مرة أو أكثر كل عام- وهو مؤنس وناعم وودود والأهم من ذلك أنه قنوع. حفزت همته ليكتب فرأيت منه عزوفاً، وأردت في ربيع ١٩٩٢ أن آخذ منه حديثاً لبرنامجي الاذاعي (رحلة في الذاكرة) ولما وصلت إلى داره ومعي المسجلة قال لي جار له: يسلم رأسك، الاستاذ أعطاك عمره. شعرت بحزن عميق وحسرة، ثم خرج أحد ابنائه لاستقبالي وكانت مناسبة أليمة. ولكن سامي المارتيني بقي في ذاكرة أبناء إدلب بوصفه مربياً كبيراً لايجارى.

ومن حلب: عبد السلام كنعان، وهذا رجل عصامي عمل في شبابه بمهن بسيطة ثم نال الثانوية وعلّم وانتسب إلى دار المعلمين ثم انتقل إلى وزارة المالية وصار معاوناً للوزير فيها وفاز بالنيابة عن حلب كما حمل شهادة الحقوق والدكتوراه وعمل محامياً حتى توفي قبل سنتين في حادث سيارة قرب مدخل حمص، وكان صديقاً ودوداً لاينقطع عني ولا أنقطع عنه ويسعدني لقاؤه حتى توفي رحمه الله.

وعثمان عقيلي وهذا علّم سنوات ثم انتقل إلى سلك الشرطة ضابطاً حتى تقاعد ثم عمل في التجارة ومازلت أراه بين الحين والحين واستمتع بحديثه الذي فيه شيء من الحدة وكثير من الجد والصراحة.

وأحمد عيسى وهذا بعد التخرج والتعليم انتقل إلى سلك الدرك ولم أعد أراه وأنا آسف على ذلك، فان قرأ هذه العبارات أشكره إذا جدد المودة.

وبدر الدين كرزون الذي سمعت أنه درس الصيدلة بعد دار المعلمين وفتح صيدلية ثم ضاعت أخباره عني...

ولطفي الشعار وهو الانسان اللطيف الطيب الذي فيه كل البساطة والصفاء وداوم في التعليم الابتدائي والثانوي وحاز على شهادتين في التربية وعلم النفس وانقطعت أخباره عني منذ عشرين عاماً، وسأعود إلى ذكره في مناسبة أخرى.

ومن حماه - أديب اللجمي: وآخر مناصبه إن كان معاوناً لوزيرة الثقافة ومشرفاً على مجلة (المعرفة) ثم تقاعد وذهب إلى الاونسكو حتى تقاعد منها أيضاً.

من حمص - سامي الدروبي: درس في دار المعلمين العليا فيما بعد، وحصل على شهادة الدكتواره من مصر، وانتقل إلى الخارجية سفيرا، وتولى وزارة التربية، ودّرس في الجامعة، وله مؤلفات كثيرة وترجمات وتوفي وهو سفير رحمه الله، وسأعود إلى حديثه مفصلاً.

ورياض الجندي: حصل على اجازة في العلوم ودرس في الثانوية، ثم علمت أنه توفي رحمه الله.

يحيى الترجمان: حاز بعد ذلك شهادة الحقوق ودرّس في حمص ثم صار مديراً ناجحاً مرموقاً للثانوية ومديرا للتربية في احدى الفترات ثم تقاعد وعمل محامياً في حمص ثم مستشاراً في السعودية وتوفي قبل سنوات، وكان يمتاز بالحدة وسرعة الحركة وخفة الظل والاستقامة.

عبده رباحية: بعد فترة من العمل في التعليم انتقل إلى العمل المصرفي لفترة من الزمن، وهو من الطف الناس ظلاً ولنا ذكريات طويلة في المباسطة والمضاحكة.

من دير عطيه: عطا الله مغامس وقد سافر إلى مصر موفدا من دار المعلمين العليا وعاد مدرسا وكان قومياً عربياً واسس حركة الأنصار فيما أذكر، كما كان شاعراً ممتازاً، وتوفي رحمه الله.

فايز ديب: ترك التعليم وعمل في التعهدات ومايرال يبني على الأرض بعد أن كان يبني في الأنفس عن طريق التعليم، ونلتقي بين الحين والحين.

من دمشق: شاكر مصطفى: اختير طالباً في دار المعلمين العليا، واوفد إلى مصر، وحاز شهادة الدكتوراه وتولى وزارة الاعلام، كما كان استاذاً في جامعة دمشق وجامعة الكويت وأخيراً استقر في دمشق وهو من مشاهير الادباء والمؤرخين ولنا حديث طويل جداً في صحبتنا ذكرت طرفاً منه في الجزء الأول من هذه المذكرات ويعود الحديث مرات ومرات.

محمود سلامه: بعد التعليم حاز شهادة الحقوق ثم الدكتوراه وانتقل إلى القضاء حيث بلغ فيه رئاسة محكمة الاستئناف وهو الآن محام في دمشق ناجح وموفق، وكان رفيقي منذ الصف السادس في تجهيز دمشق (مكتب

عنبر) طالباً داخلياً. وكان الأول علينا دائماً حتى دخلنا دار المعلمين، وهو مكافح عنيد في سبيل الثقافة.

وسليم الزعيم -وقد أصبح مفتشاً للتربية ثم تقاعد وعمل طويلاً في مكافحة الأمية وهو ودود ناعم مهذب وشديد الوفاء لاصدقائه والاخلاص لعمله.

أنور البرازي: عمل في التعليم وتولى رئاسة التعليم الخاص ثم تقاعد، وانقطعت أخباره. وهو لطيف ذكي لماح وذو شخصية متميزة.

عز الدين المناقلي: عمل في التعليم والتدريس في سورية وفي السعودية وتقاعد، وهو ذكي ومايزال يزورني وله الفضل ويحدثني عن بعض شؤونه وقضاياه.

جواد الطيب: عمل في التعليم والتدريس حتى تقاعد وانقطعت عن أخباره.

تيسير قره بلا: عمل في التعليم والتدريس حتى توفي، وهو من أطيب الناس قلباً وأكثرهم تقىً واستقامة رحمه الله.

حقي محتسب: عمل التعليم والتدريس وصار مدير الدار المعلمين وتوفي رحمه الله بحادث مؤسف.

زهير شعيب: لم يطل أمره في التعليم وترك لعارض صحي.

عادل سودان: درس الرياضيات وصار أستاذا في جامعة دمشق وجامعات السعودية وانقطعت أخباره عني منذ سنوات.

نجاة قصاب حسن: كاتب هذه السطور.

أرايتم نوعية هؤلاء الطلبة وكم كان يمكن أن يخدموا لو أنهم - وأمثالهم في السنوات التالية -ظلوا في التعليم الابتدائي يعطون كل ماعندهم من طاقة تجلت في المراكز التي شغلوها؟ وهذا ماحملني على أن اكتب في الخمسينات مقالا في هذا الموضوع عنوانه (كان ينبغي أن يحبسوني) أعني ليمنعوني من ترك التعليم أنا وسواي، فالبلاد لاتحتمل تبديد جهودها وان تصرف على أربعة وعشرين من ابنائها المتميزين سنتين من الجهد المكثف ليذهبوا بعد ذلك فيعملوا معظمهم في غير ما أعدتهم البلاد له.

انه ترف لايحتمله أي بلد فضلا عن أن يحتمله بلد فقير ناشئ. ولكن المسألة هي أن التعليم لم ينظر إليه أحد على أنه لبنة أساسية وحجر الزاوية في حياتنا الوطنية، وكلنا نظرنا إليه على أنه درجة نرقاها ونحن ندوس عليها- مع الاسف - لنبلغ منها إلى درجات أعلى وأكثر ربحاً.

ولاحل لمثل هذه الأمور إلا بتوفير الكفاية المادية والمعنوية لرجال التعليم وسواهم من أهل الحرف الاساسية، حتى يبقوا فيها سعداء لامرغمين ولا مرهقين باحساس الفقير والتفاوت في الدخول. وقد صنعت الدولة شيئا من هذا حين أصدرت عام ١٩٧٥ المرسوم القاضي بمنع الاستقالات ولكنها لجأت فيه إلى القسر وحده دون تأمين الكفاية، وفي رأيي أن كل تدبير يقوم على قدم واحدة لابد ان يظلع، أي بصريح العبارة يكون أعرج ولايفيد، وهذا ماحول الأمر من حرص على بقاء الموظفين المدربين إلى نوع من حجز الحرية والعمل الاجباري، وهو قانون سيء بلا مفعول ايجابي.

أساتذة دار المعلمين

وماأقوله عن الطلاب في دار المعلمين أقوله عن اساتذتها وكانت هيئة التدريس مؤلفة من :

١- المدير السيد كامل نصرى وهو اختصاصي قديم في الجغرافية . وطني، مقتدر، دمث، استطاع الطلبة أن يتفاهموا معه في ظروف الانتداب الصعبة، وكنت على صلة طيبة به وسيأتي حديث ذلك.

٢- الاستاذ الدكتور كامل عياد، وهو من يعرف القاصي والداني علمه وسعة افقه وحسن تقدير الطلبة كلهم له واقبالهم على دروسه . وكانت دروسه في التربية وعلم النفس وفي الثقافة العامة التي تتألق بها كل جملة يقولها محط الاعجاب. وقد تخرج من ألمانيا وعرضوا عليه التدريس فيها فاعتذر وجاء إلى دمشق. وكان يكرمني بصداقته ولدى وفاته رثيته بمقال فيه كل حرارة القلب.

٣- الاستاذ الدكتور جودت الكيال، وهو استاذ الصحة المدرسية ومن المقتدرين والمحترمين.

٤- الاستاذ خلدون الكناني في التربية أيضاً وقد تولى أعمالاً علمية في الاونسكو فيما بعد.

٥- الاستاذ انطون الجناوي في العلوم.

٦- الاستاذ خالد شاتيلا في علم الاجتماع وعمل استاذاً في جامعة الرباط، ثم توفي من سنوات.

٧- الاستاذ عبد الوهاب أبو السعود في الرسم وأفادنا في الالقاء، وقد

توفي من سنوات طويلة . كان من الرواد في الحركة الفنية ولاسيما التمثيل وسيعود ذكره مفصلاً .

٨- الاستاذ رنيه تريس، الفرنسي، في اللغة الفرنسية والدروس العلمية ولنا معه وعنه أحاديث شتى سابدأ بها فوراً .

٩- الاستاذ غينيوبه، الفرنسي - في الاعمال اليدوية .

١٠- وعلمنا الاستاذ كوليه في السنة الثانية، واساتذة آخرون زائرون .

وكان يشرف على الدروس العملية في مدرسة التطبيقات الاستاذ رمزي الركابي وسيأتي حديث هذا الرجل المتميز مفصلاً .

رنيه تريس

واليكم ماكتبته عن رنيه تريس وعن هذه الفترة في صحيفة (الثورة) الدمشقية في عام ١٩٦٨، وهو يفي بوصفه :

في عام ١٩٤١، وفي الساعة الأولى في دار المعلمين الابتدائية، دخل علينا رجل ربعة القوام أشهب، كنا نعرفه من بعيد أنه مدير الدروس الفرنسية والمسلكية في دار المعلمين، ثم نمقته لانه فرنسي جاء في ركاب جيش الاحتلال. وقمنا للرجل كمايقتضي الادب فأشار لنجلس ثم استند بكفيه على المقعد الأول وبادرنا بأول جملة نسمعها في مدرسة تعد المعلمين: انتم حملة بكالوريا ولكنكم لاتعرفون شيئاً! . . .

كانت الكلمة شديدة الوقع . ثار في نفوسنا جميعاً شعور بالكراهية لهذا الاستعماري الذي جاء يحطم ثقتنا بأنفسنا. وتصلبت أرواحنا في وجهه ورفضنا الكلمة في أعماقنا ابتداءً، ولكن ابتسامته غير الجميلة كانت تخفي

وراءها ذكاء رجل يعرف مقدماً ماذا سيكون رد الفعل لدينا بل هو استنفر هذا الرد عامداً لغاية في نفسه وكان أن أردف يقول: الان علي أن أثبت زعمي. خذوا قلما وليكتب كل منكم على ورقة يخفيها - فلايرى جاره ولايراه - رقما يجيب به على هذا السؤال: كم يبلغ ارتفاع دمشق عن سطح البحر عند الربوة؟

كنا أربعة وعشرين طالباً من كل المدن السورية، ويومذاك لم تكن في البلاد دور للمعلمين بل دار واحدة سويتها جامعية، وكان في صفنا طلبة بينهم من صار فيما بعد وزيراً للتربية ومن صار وزيراً للاعلام ومن صار استاذاً للجغرافيا في الجامعة، وكان مفروضا فينا كلناوفي الدمشقيين خاصة أن نعرف كم تعلو دمشق التي نحن فيها (أي كم نعلو نحن) عن سطح البحر، ولكننا سقطنا جميعاً في أعمق بحر من الخجل ومعنا شعور المقت لهذا السائل المتبجح، فقد كانت ارقامنا متباينة كلها، وبعيدة أحيانا بمئات الأمتار عن مستوى دمشق الحقيقي، ولم يكن فيها رقم قارب الحقيقة بالخطأ المغتفر. وأغضينا ونحن نتساءل:

أحقاً ترانا - حملة الشهادة الثانوية- لانعرف شيئا ؟

رنيه تريس يقيم اليوم في فرنسا استاذا وكنت أتمنى لو يقرؤني الان ليراني أقول له: من الجانب الاخر من المتراس الذي كان ينتصب بينكم أنتم المستعمرين وبيننا نحن الوطنيين، جزاك الله خيراً عنا أيها الرجل، فلقد ذكرتنا بالحديث القائل:

(لايزال الرجل عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه علم فقد جهل).

ولقد نسيتك في مطلع الشباب وفورته وفي الخامسة والعشرين إلى الثلاثين، يوم حسبت أنني ملكت مقاليد الحكمة ومفاتيح المعرفة: أكتب فوراً إذا استكتبت، واحاضر على الندهة إذا دعيت، وأدفع الكتاب إلى المطبعة وأنا موقن أنني قد بلغت الاحكام والغاية التي مابعدها غاية، وأجزم في الحكم إذا سئلت حتى كانني فقيه الناس بلامنازع!...

ثم ذكرتك في الثلاثين حين قذفني مد الحياة على صخرة من صخور الشاطئ فظننت أنني حطام من جهل وعجز وفشل، فلزمت داري والزمت لساني الصمت وقلمي الجمود، وقلت أنها النهاية ...

ثم عرفتك في الاربعين، يوم أدركت أنني كنت في الحالين واهماً، وان من يتصدى لمخاطبة الناس - ولاأقول تعليم الناس فالكلمة كبيرة- يجب أن يدرك أولاً وأصلا مدى جهله، وان هذا الشعور هو مايخرج به الرجل الصادق مع نفسه حين يقرأ كتابا مفيدا أو يتعلم شيئا جديدا.

واليوم بعد ثمانية وعشرين عاماً من تلك الحادثة أرى ابتسامتك غير الجميلة والتي فيها كل المعاني التحذير بل السخرية، كلما رأيتني ادعى لكتابة أو محاضرة، فأظل أقرأ وأقرأ، كتاباً بعد آخر، وأنا في حصار من القلق الذي يأكل الأعصاب، وأظل أكتب وامزق حتى أصل إلى اللحظة التي لامجال بعدها إلى امهال، فالقي ماعندي ولسان حالي يقول: لقد بلغت الجهد في احترام قارئي أو سامعي وله أن يعذر أولا يفعل!.. واني لأسائل نفسي وأسائلك: أكان خيراً أنك اقلقتني أنا وجيلي، أم الخير في أن نظل على جرأتنا ونحن شباب، وفي الشباب أحياناً سحبات من العبقرية لاينبغي أن تلجم أو

تكبت؟ واني ليخامرني أن أجيبك ونفسي: اليس الزمان رفيق النضج؟ والذين نراهم يتفتحون اليوم بما نحب، ونهشّ لمستقبلهم وهو مستقبل الوطن، ألم يكونوا هم أنفسهم خيراً منهم اليوم لو اقلقتهم مأساة الكمال؟.

كان (رنيه تريس) عدوا عاقلا، فعلمنا بالصدمة المنشطة أن نعلو على خمولنا واطمئناننا الذي تمتزج فيه المفاخرة بالبلادة، ثم علمنا أن من يقف من الناس موقف (المعلم) ينبغي له أن يعرف كثيراً ليقول قليلاً. كان يقول لنا: ((التعليم هو أن نختار)) وأن تختار معناه انك تعرف عشرة أضعاف ماتقول لان حول كل كلمة تطلقها هالة من الثقافة وخلفية من المعرفة يحس بها القارئ أو المستمع، حتى ان الجواب بالنفي أو الايجاب على سؤال انما يكشف عن تفاعل طويل صامت بين الاضداد وعن حل حاسم لحوار الافكار المتناقضة. ولو كان علّم شبابنا أكثر من (رنيه تريس) ينقف جبينهم بالصدمة المقلقة، لكان الكثير مما يكتب اليوم بسرعة لاهثة لاذاعة لايمكن أن تسكت ومطابع لاتقدر أن تقف وتلفزيون لاينبغي أن ينطفئ، افضل وأكثر احساساً بالمسؤولية. ولو مر على كتابنا الشباب مثل هذا العدو العاقل، بدل بعض (الأصدقاء) المتسامحين في مراكز المسؤولية لكان الذين يتصدون -شاؤوا أم أبوا- لتعليم الناس في أكبر مناهل الثقافة في عصرنا نعني وسائل الاعلام احسوا بأن عليهم أن يقلقوا كثيراً قبل أن ينتج واحدهم أعواد ثقاب لاتعيش إلا حياة الومضة، وأن عليهم أن يكتبوا ويمزقوا ويكتبوا ويمزقوا حتى يصلوا إلى اللحظة التي يسلمون فيها نتاجهم بيد يرعشها احساس صادق بالمسؤولية!

الطالب يظل تلميذا

كنا شباباً كباراً بعض الشيء في العمر، في العشرين وأكبر وهي سن رشد وتدل على شيء من النضج والاستواء، ولكن مقعد الدراسة كان يعيدنا أولاداً، وهذه مسألة يجب أن يعرفها المعلم حتى يتعامل مع تلامذته.

في حديثي عن دراستي الثانوية ذكرت كيف فررت من النافذة وأنا أستطيع الخروج جهرة من الباب وبأذن رسمي لايحجبه عني أحد، لأنني تولدنت. وأضيف بأننا جميعاً، ولكنا اليوم في مراكز مسؤولة تولدننا في معاملتنا مع الاساتذة، ونظمنا قصائد في مداعبتهم وهجائهم.

وهذه القصائد أحداها معلقة (حائية) من أكثر من مئة وسبعين بيتاً تناولنا فيها اساتذتنا بالنقد والدعابة واحيانا بالتهكم والسخرية وحتى بعنف أحياناً.

هذه المعلقة التي اشترك فيهاعلى الأقل شاكر مصطفى وسامي الدروبي وعطا الله مغامس وأنور البرازي وكاتب هذه المذكرات، بدأت كمايلي:

الناس حقا إذ تذم وتمـــــدح ان الاناء بما تضمن ينضـــــح
دار المعلم نعم ماخلقت لــــه لكنما التعليم فيها أفكـــــح
ماغير عيّاد بها نرضى بـــــه ليظل يهدم جهلنا ويصحــــح

ومن أبياتها عن أحدهم:

جعل المجاهر فوق ميكروباتـه ومضى يبرّم عينه ويصحصـــح
خمسون يوماً ظل ميكروسكوبه موضوع درس فاسمعوه وسطحوا

وعن آخر:

من ذلك الآتي يتيه بقــــده   متأبطاً لوحاتـه يترنـــــح
متكزلكاً وتنفخت أوداجـــه   الله أكبر، ان هذا بحبـــحُ . .

اشارة إلى الممثل الذي قام بدور المعلم بحبح في تلك الفترة. وقد جمعتنا في آخر العام الثاني مناسبة عند التخرج دعونا فيها كل الاساتذة إلى غداء في الربوة، وفي هذه المناسبة اجترأنا وقرأنا لهم القصيدة، ولكن بعد حذف مايسيء كثيرا. ولست أدري أين بقيت هذه القصيدة، ولكنها ظلت في نفوسنا جميعاً ذكرى باسمة من جهة، وعبرة لنا حتى لانعرض انفسنا ونحن نعلم لنقد تلامذتنا لمعرفتنا، كما قالت القصيدة:

ان يضحك التلميذ من استاذه   فالحق من ضحكاته يترشــــح

ولم تكن هذه القصيدة الوحيدة، وكان غيرها كثير، ففي فحص كان سيبدأ في يوم من أيام السبت قصيدة هذا مطلعها:

ياسبت أى جديد فيك نرتقب . . .   إلى آخر القصيدة الدعابية.

والمرحوم انطون جناوي وكان استاذ العلوم تلقى منا مع بقية الاساتذة قرادية تبدأ هكذا:

يا عيني عالجنــــاوي   فاتــــح مخبر كيمـــاوي
يوم بيجيب لــــك CO_2 ويوم بيحمل صود كـــاوي
وصاحبنا أبو صيــــاح   قاعد وبدرسه مرتــــاح
عم يتــــلاعب بالأرواح   والقلــوب والكــــلاوي

كان هذا الصف عجيبا في مستوى اساتذته، ومستوى طلبته، وفي

الدراسة الجادة التي تتم فيه وفي كمية الضحك التي ينثرها حولنا.

ولكننا كنا نتعلم جيداً، وينتقد بعضنا جيداً، ولانتساهل في المستوى، ونحب كلنا مهنة التعليم. وكان بيننابعض البسطاء وأكثرية من الملاعين. لن أسمي هؤلاء وأولئك لانني أحبهم جميعاً، وأكاد أكون وحدي قد احتفظت بعلاقات جيدة ومستمرة مع أكثرهم (إلا من توفي، ومن هو بعيد وترك الصنعة والجو). وأكاد أكون صلة الوصل بين الجميع انقل الاخبار وأسعى لمبادلة الخدمات.

ومن الطرائف التي صحبت هذه الدراسة الحوادث التالية التي وقعت معي:

توقيفي وحبسي

ففي /١٦/ آذار /١٩٤١/ أوقفتني السلطة الفرنسية العسكرية وحكمت عليّ بالسجن تسعة عشر شهراً مما يجد القارىء تفاصيله في القسم المتعلق بنشاطي السياسي. ولكن حين أطلق سراحي في حزيران /١٩٤١/ بعد أن دخل الانكيز سورية، وبعد أن أعلنت ألمانيا الحرب على الاتحاد السوفييتي وأطلق سراح اليساريين، كان فحص السنة الأولى في دار المعلمين قد جرى وأنا غائب عنه. وتبعاً لمبدأ لم يفارقني طول حياتي وهو أنني أسعى وأحاول ولاأيأس ذهبت فور خروجي إلى وزارة المعارف وكان وزيرها المرحوم الدكتور محسن البرازي. وطلبت مقابلته. قابلني على الفور وهنأني بخروجي من السجن لأنه كان علم به من مراجعات الطلبة الكثيرين واحتجاجاتهم على توقيفي، وسألني عن طلبي، فقلت له أني أطلب عدم

تضييع مستقبلي، فأمر على الفور بصرف رواتبي عن فترة حبسي وعقد دورة امتحان خاصة بي وهي حادثة فريدة من نوعها وأخذها على مسؤوليته كوزير. وجرى الفحص وحزت الدرجة الأولى على من كانوا قد أجروا الفحص قبلي، وقبضت رواتبي، وأكملت السنة الثانية أيضاً بنفس النجاح.

دوري في الدفاع عن مطالب الطلبة

وكان الطلبة ينادون بزيادة رواتبهم كطلبة في دار المعلمين وكانت تسع عشرة ليرة سورية ونصف الليرة للدمشقي ولسواه، وكيف لانسان أن يعيش بمثل هذا المرتب، أي بخمسة وستين قرشاً في اليوم؟ ولذلك أوفدني رفاقي الطلبة لمقابلة المسؤولين.

ذهبت أولا إلى المدير الاستاذ كامل نصرى وقلت له: الطلبة مضربون، ولكن انت ماعندك خبر. أقول لك لأننا نحترمك، ولكن ماعندك خبر لاننا لانريد احراجك. ثم أنا ذاهب الان لمقابلة المسؤولين في الوزارة، ولما كان لايحق لي تقاضي راتبي عن هذا اليوم وأنا غائب فأرجوك أن تحسم عني راتب هذا اليوم. كانت طريقتي مزيجا من الاحترام والمكاشفة وعدم تحميل الاخرين المسؤولية، فكنت صريحا ومريحاً. وكان المسيو تريس يقول لي: أنت عدو، ولكن لانخافك لانك عدو صريح. . ولذلك كان يعاملني معاملة جيدة.

وحين ذهبت لمقابلة الدكتور جميل صليبا في الوزارة باسم رفاقي أحب أن "يكمشني" فقال أنت لايحق لك أن تتقاضى راتباً وأنت غائب.

قلت له اسأل مديري ياسيدي، فقد طلبت قطع هذا الراتب! . . . . وسكت عندئذ، وعاملني -شأنه معي دائماً- بمحبة ورعاية. وأنا مازلت احترمه واسعى إلى أن أرد بعض جميله لعائلته التي اتولى بعض شؤونها القانونية حتى الآن.

صراحتي مع كوليه

وفي ذات يوم وكان المستشار كوليه يدرسنا، والحكم فرنسي مباشر عام ١٩٤٠ فقال لنا أن فرنسا ألغت التعليم الديني - تعليم الرهبان- واقفلت مدارسهم بقانون جول فيرى عام ١٩٠٣ . فوقفت أقول له -ولغتي الفرنسية الجيدة تسعفني- هل لي أن اسأل الاستاذ عن السبب الذي يجعل فرنسا تلغي مدارس الجماعات الدينية في فرنسا وتشجعها هنا في سورية؟ سألني ماذا أعني؟ قلت له مدارس الفرير هنا تحضنونها أنتم رغم أنها تخالف في طريقة التعليم كل مبادئ التربية التي نتعلمها هنا ونادى بها جول فيري.

قال لي كوليه: هل لي أن اسألك بالمقابل عن سبب سؤالك؟ قلت نعم. فان عمي وضع ابنه في مدرستهم وأرى اسلوبهم السيء في التعليم القائم على الحشو والضغط . .

. . نظرا لي كوليه

وقال باسما: معك الحق.

هكذا كنا نتعامل مع الفرنسيين، وأشهد أن من كانوا بينهم في سلك التعليم كانوا، حتى حين يتبنون النزعات الاستعمارية، لاينسون أنهم من بلد ديموقراطي ويحبون من يقارعهم الحجة بالحجة، وكنت أنا أفعل ذلك.

تجاربي التعليمية

كان المعلمون في مدرسة التطبيقات التي نتمرن فيها صفوة بين المعلمين، أذكرهم هنا مع التقدير والاعجاب: علي الجبان - وعلي علايا - وسركيس قداح - وصافي أكرم - وأبو الخير الرفاعي، وكان المدير المرحوم رمزي الركابي يشرف عليهم وعلى دروسنا.

وقد كان هؤلاء المعلمون قدوة حسنة لنا بطرقهم البارعة في التدريس، وساعدونا جميعاً في أن نحسن المهنة.

طوّع قدوره!

كان أول درس تجريبي لي في الصف الأول، وكنت قد راقبت الأطفال فيه وبينهم طفل شديد الحركة لايفتأ يحوص في مكانه ويرعب كل طلبة دار المعلمين اسمه عبد القادر قدوره. وقد وضعته في اعتباري حين حضرت درسي الأول ونبهني إلى ذلك ماسبق ان رأيته من حركته...، وبدل أن أهمله أو أتحاشاه، جئت به إلى أول الصف وجعلت الحديث أكثره موجها إليه، وأدرت الدرس من خلال تشغيلي له، فكان أن نجح الدرس بتخطي هذه العقبة. وأذكر ان المرحوم رمزي الركابي كتب بخط كبير على ورقة النقد: طوّع قدوره.

إنني أهدي هذه الذكرى لتلميذي القديم الذي صار نائباً لرئيس الوزارة ثم رئيساً لمجلس الشعب وكان من قبل مديرا ناجحاً لمؤسسة كبيرة، ولروح استاذي المرحوم رمزي الركابي. واقف عندها وقفة خاصة لأقول أن التلميذ

النشيط كثير الحركة هو الذي يرجى منه في المستقبل الخير ويكون من ذوى الشأن، فلا يجدر بنا أن نضيق به، ولكن يجدر بنا أن نوليه أكثر العناية. ولاأزال كلما التقيت (أباقيس) عبد القادر قدورة أقول أنني كنت معه في صف واحد... وكان مرد نجاحي في دار المعلمين أيضاً إلى أنني ارسم وأمارس الموسيقا وسائر النشاطات التي تكمل لسان المعلم، والمعلم الذي يعمل بلسانه فقط لايبلغ أقصى مداه. وكنت أعتمد الحكاية والقصة، وأجعل الصف حركة دائمة، واشغلهم بدل أن يشغلوني.

وشيء آخر تعلمته من دار المعلمين وأفادني فيما بعد في عملي الاذاعي وعمل المحاماة وكان ألقاه علينا تريس وهو أن التحضير أساس النجاح. ولذلك فأنا حين يبدو علي أنني أرتجل في أي ميدان في المحاضرة أو المرافعة أو حديث الاذاعة أو حديث التلفزيون، أكون في الحقيقة قد حضرت موضوعي تحضيرا دقيقا ومفصلا، وفي كل مرة يكون فيها التحضير سريعا أو مرتجلا أحس أنني متضايق ولا أملك الموضوع وقد أفشل فشلا صغيراً أو كبيراً. ولاأزال حتى الآن أطبق قواعد التعليم في كل ميادين الاعلام والكتابة، من حيث التحضير ومن حيث التوضيح، ومن حيث اللغة المفهومة، ومن حيث التلخيص في النهاية، وأخيراً من حيث الاختيار لانني لا أنسى كلمة رينه تريس وهي (أن تعلم يعني أن تختار). فالتعليم هو اختيار لما يجب أن يقال على الضبط ليفيد من يسمع، من بين كثير من المعلومات الجانبية التي اذا ذكرها المتحدث تعالماً أو تفاصحا اضاعت مستمعيه.

وهذا يستتبع، من أجل أن تكون عندي القدرة على الاختيار، أن أتعلم

أكثر بكثير مما أعلم، وأن أوسع دائرة معلوماتي وثقافتي بالاطلاع المستمر، وفي هذا الجو، مع هؤلاء الاساتذة الاذكياء الطيبين، ومع هؤلاء الزملاء والرفاق المتميزين، انقضت سنتا دار المعلمين، وتخرجنا لنبدأ الحياة العملية.

تعييني في التطبيقات

باعتبارنا أنا وشاكر مصطفى كنا أولي دفعتنا في التخرج من دار المعلمين فقد انتقتنا وزارة المعارف لنتقاسم صفا واحداً في مدرسة التطبيقات التي يجري فيها تدريس طلبة دار المعلمين، وهذا يعني أن يكون معلموها من المقتدرين الذين يصلحون لتدريب سواهم.

وكان السبب في اننا تقاسمنا صفا واحدا هواننا نحن الاثنين - وثمانية أخرين- جرى انتقاؤنا لنكون طلبة في دار عليا للمعلمين فتحت في تلك السنة لتخريج مدرسين للتعليم الثانوي في مادة اللغة العربية، وكان الطالب في دار المعلمين العليا يكلف بنصف نصاب تعليمي في مدرسته الابتدائية إذا كان معلماً، وهكذا تقاسمنا الصف الواحد.

وكان المعلمون في مدرسة التطبيقات صفوة بين المعلمين وأذكرهم هنا مع التقدير والاعجاب، كما كانوا قدوة حسنة لنا بطرقهم البارعة في التدريس، وساعدونا جمعياً في أن نحسن المهنة.

رمزي الركابي

كان مدير مدرسة التطبيقات رمزي الركابي واحدا من أفضل الناس الذين عرفتهم ثقافة واخلاقا وشخصية متوازنة واتساعا في ا الافق. كنا قد صحبناه سنتين ونحن طلبة نتمرن على يديه ويحضر دروسنا كطلاب معلمين وينتقدها، وكان في نقده جريئا دقيقا ولكن بنّاءً يقدم المحسنات على النقائص، ويبني الكفاءات ولايحطمها، وكنا نتمنى أن يكون دورنا عنده في نقد الدروس النموذجية. فلما عينت معلما في مدرسته جئت أول يوم أحمل دفتر تحضيري للدروس التي عليّ القاؤها في ذلك النهار، وقدمته إليه ليوقعه، فرده بلطف بيده، وقال: دفتر التحضير لك وليس لي، وأنا أثق بمعلمي مدرستنا ولاأراقب دفاترهم. هذه البادرة الحلوة النامّة عن ثقة عميقة ربطتني به باعجاب متزايد وأصبح تحضيري منذ ذلك اليوم أفضل لأنه ليس واجبا روتينياً وانما هو عمل واتقان.

وأرانا هذا الرجل سعة أفقه حين راجعته على استحياء وتردد اقترح عليه تجربة تربوية وهي تسليم بعض ادارة المدرسة للتلاميذ، فيكون على من ينتخبهم التلاميذ اسبوعياً واجب رقابة النظافة، ومراقبة رفاقهم في الباحات، وضبط الهدوء والنظام عند الاصطفاف والدخول والخروج، وتأمين السلامة عند قطع الشوارع المحيطة بالمدرسة، فرحب بالفكرة متحمساً وقال: بل نعطي كل الادارة الذاتية في المدرسة بين أطفالها ونجح هذا النظام نجاحاً كبيراً.

وأنا الان إذ أرى بين تلامذة تلك الايام من صار نائباً لرئيس الوزارة

ورئيساً لمجلس الشعب، ومحامين وعلماء ومهندسين وأطباء، أشعر بالاعتزاز لثمرات تلك التجربة.

وازداد على أثر هذه المعاملة الكريمة دوامنا في المدرسة، وصرنا نفضل أن نبقى فيها فترة الظهر ونتغذى معا -وكان الدوام النصفي لم يبدأ في سورية بعد. ثم صارت لنا سهرات تجمعنا مرة كل أسبوع في بيت أحدنا فنضحك ونسمر ونأكل وتتوثق بيننا الصداقة. وكان دور أحدنا الاستاذ الطيب الناعم المهذب على علايا (وقد توفي منذ سنوات رحمه الله) اننا إذا استبطأنا العشاء غمزناه، فصفق بيديه على ركبتيه وقال كمن يستأذن لانهاء السهرة أي سيدي، بتشرفوا؟!.. فتكون اشارة ناعمة وضاحكة لصاحب البيت ان عجّل بالعشاء. ومازلت حتى اليوم اذا دعيت إلى أية سهرة واستبطأت العشاء حكيت قصة الاستاذ علي علايا ثم أردفتها بأن اضرب بيدي على ركبتي وأقول: أي سيدي بتشرفوا؟!..

والاستاذ صافي أكرم كان أكبرنا سنا، ناعما مهذبا خلوقا مشجعا، والاستاذ علي الجبان (توفي رحمه الله) كان قوى البنية وكلما تصافحنا شد بيده على يدى ليريني أنه وهو الكهل أقوى مني وأكثر فتوة، وسركيس قداح أصبح صديقا دائماً مع زوجته الطيبة حلوة الدعابة، وأبوالخير رفاعي ظل يزورني ويوكلني في أموره وماتزال صلتنا لطيفة ودائمة. ويؤلمني أن يكون رمزي الركابي، هذا الرجل النادر، قد كف بصره نتيجة لتفاقم السكري في آخر حياته، وأن يكون توفي لايبصر الدنيا وهو الذي فتح ابصارنا وبصائرنا على قيم جميلة كثيره وكان نعم الاخ والصديق والمرشد، رحمه الله.

دار المعلمين العليا

العشرة الذين تم انتخابهم ليكونوا طلبة في دار المعلمين العليا هم: شاكر مصطفى وعطا الله مغامس وحقي محتسب ونجاة قصاب حسن من صفنا في دار المعلمين الابتدائية، وأضيف من الدفعات الاخرى عبد المعين ملوحي ونديم عدى وعبد الكريم زهور ونهاد هبراوى ومنلك كبارة وعز الدين العطار.

أما اساتذتنا فكانوا محمد البزم، وقد قرأنا عليه مغنى اللبيب لابن هشام الانصاري، ومحمد سليم الجندي، ومحمد المبارك، وكامل عياد وخالد شاتيلا وغيرهم.

كانت سنة من أفضل السنوات التعليمية في حياتي، وفي نهايتها نجحنا ولكن وزير المعارف في تلك الايام (نصوحي البخارى) لم يشأ أن يمضي في التجربة ويااليته فعل، فاوفدنا جميعاً إلى مصر نكمل فيها دراستنا الجامعية في كلية آدابها.

الفترة التعليمية في مدرستي الصنائع والتجهيز الثانية

كان مدير مدرسة الصنائع هو الاستاذ حمدى الروماني (توفي رحمه الله)، وهو رجل طويل عريض مهيب السمت جهوري الصوت ولكن ناعم في الوقت نفسه ولطيف المعشر ويقدر الناس.

وقد سعدت في تلك المدرسة بصحبته وصحبة اساتذة بقي في ذاكرتي منهم المرحوم عبد الله نيازي (توفي أيضاً).

علمت في هذه المدرسة اللغتين العربية والفرنسية لاستكمال النصاب،

وهذا الجمع بين اللغتين نادر، ذلك أنني كنت دائما أول صفي باللغة الفرنسية كما اتقنت العربية قدر ماأستطيع وهو أمر تحدثت عنه، وكانت سنة الاختصاص في دار المعلمين مفيدة جداً.

وقد تعمدت أن تكون الشواهد اللغوية والاعرابية من الشعر اللطيف، الضاحك، خفيف الدم فكان التلاميذ يقبلون على الشواهد ويحفظونها لذلك السبب. وحتى الان يذكرني هؤلاء التلاميذ - وأحدهم صار قائد السلاح البحري في الجيش العربي السوري وبرتبة لواء وآخرون حقوقيون واساتذة كبار ومدراء دوائر - بالابيات المستطرفة، ومن بينها:

سقط الحمار من السفينة في الدجى ... فبكى الصحاب لفقده وترحموا
حتى إذا طلع الصباح اتت به ... نحو السفينة موجة تتقدم
قالت خذوه كما أتاني سالما ... لم أبتلعه لانه لايهضم

أو كأبيات الوأواء الدمشقي:

رأيت كلاب مولانا وقوفا ... ورابضة على ظهر الطريق
تغدى بالجداء فليت أني ... وحق الله خركوش سلوقي
فيا مولاى رافقني بكلب ... لآكل كل يوم مع رفيقي

وربما كنتم معي في أن مثل هذا الشعر يحفظه الولد مرتاحا ومسرورا وقد تابعت في ذلك سنة استاذي محمد البزم الذي كان يعطينا الشواهد الاعرابية من أفضل الشعر العربي مما تحدثت عنه عند الحديث عن البزم، فاتصل بذلك حبلي بحبله، ولوكان البون بيننا شاسعا فهو السابق وأنا الاخير في شوط المعرفة بالعربية (ولو كنت أفاخر باتقانها إلى حد كبير).

تركي التعليم ثم العودة إليه

ومضى العام حتى آخره ثم تركت التعليم هكذا، بلااستقالة لانصرف إلى الصحافة والعمل السياسي، فاعتبروني مستقيلاً، وفي ذلك الوقت لم يكن القانون يعاقب على ترك الوظيفة كما هو الشأن الآن. وبقيت خارج التعليم ست سنوات جرى خلالها تصنيف الموظفين وأخذ شهاداتهم بعين الاعتبار واهملوني بطبيعة الحال لأنني تارك/ ثم عدت إلى التعليم في عام ١٩٥٠ وكان وزير المعارف آنذاك المرحوم رئيف الملقي، وكان الوقت في شهر أيار، فأمر بتعييني في الحال في دار المعلمين الريفية في يبرود وندبني إلى المعهد الموسيقي لاستطيع المباشرة رغم قرب بدء العطلة الصيفية، وعدت في المرتبة السابعة والدرجة الثانية براتب (٢٠٢) ليرة سورية وسأعود إلى البحث هذا الأمر في حينه. على أنني استبق الأمور فأقول إن حكومة خالد العظم عادت في عام ١٩٦٢ فعينتني بصورة استثنائية مديراً من المرتبة الأولى في وزارة الثقافة، فكانت حادثة نادرة أن ينتقل موظف مرة واحدة من المرتبة الثامنة إلى المرتبة الأولى في مدى عشر سنوات فقط.

الكلية العلمية الوطنية

وقبل أن أتوسع في حديث الموسيقا والمعهد. أقول أن الدوام فيه كان مسائياً فقط ولذلك كان نهاري حراً، فكلفتني ادارة الكلية العلمية الوطنية بثلاثين ساعة اسبوعية منها ست عشرة في الانشاء العربي لمختلف صفوف الكفاءة في كلية الشباب وكلية البنات، وبعدد من ساعات اصول التدريس

في دار للمعلمين فتحتها جهة من جهات الاغاثة للمعلمين الفلسطينيين في مدرسة الكلية العلمية، وأكمل نصابي من الساعات بالتفتيش على معلمي ومعلمات القسمين الابتدائي ومادونه أي الحضانة.

وقد أعطاني الدكتور عدنان العائدي لقاء ذلك ثلاثمئة ليرة فصار دخلي خمسمئة ليرة سورية في الشهر ولكن لقاء عمل في الليل والنهار، وهو مبلغ محترم في تلك الأيام واعطاني امكاناً لحياة لابأس بها بعد سنوات الضيق والحرمان في العمل السياسي بين ١٩٤٦ و١٩٥١. ونعمت بصحبة آل العائدي فوق ذلك، ولا سيما عميدهم الدكتور منيف والصديق الدكتور عثمان الذي صار الآن من اعلام الاقتصاد ومن أكثر الناس خدمة لوطنه وبراعة في التوجيه والإدارة.

ولم أكرر هذا العمل في السنة التالية إذ كنت انتسبت للمحاماة وتفرغت لها ولكنني استفدت من تدريسي مادة الانشاء صداقات مع الطلبة في هذه الكلية دامت حتى الان وبينهم قضاة كبار ومحامون وأطباء ومهندسون ومثقفات وسيدات فاضلات في كلية البنات وغيرهم من النابهين الذين يذكرون طريقتي في التدريب على الانشاء الشفهي عن طريق التعبير بكثير من المودة.

كيف أنشأت معهدا للباليه

وفي تلك الفترة أيضاً كان لي موكل وصديق اسمه مظفر البكري وهو من آل البكري الاكارم. وآل البكري عرف منهم مجاهدون وزعماء كتلويون بارزون مثل نسيب بك الذي سمعته يخطب بنا في عام ١٩٣٦ يوم عينه

الحكم الوطني محافظاً للسويداء، كما أعرف منهم زعماء في الاحزاب الأخرى وكان الناس في دمشق -والسنتهم طويلة - يقولون ان آل البكري لهم ممثل في كل حزب. وحتى لاأستثني اليسار فقد انتحلت أنا في فترة الملاحقة واختفائي في لبنان اسم (زياد البكري) وبذلك تكون النكتة صدقت.

ولكن لآل البكري شهرة أخرى هي أنهم يحبون الحياة، أو الاصح أن نقول أن بينهم أفراد بالغوا في حياة الكيف يسعفهم مال كثير يأتي من أملاكهم في الغوطة، وسيرة هؤلاء غطت على الاخرين حتى قيل في تصنيف العائلات أن آل البكري مشهورون (بالبسط والكيف). وبالمناسبة روى لنا المرحوم حسني تللو أن في دمشق تصنيفا للعائلات فكانوا يقولون: قنزعة كذا، وغلاظة بيت كذا، وكذب بيت كذا، ثم حيونة أو جنان أو بخل أو لؤم آل كذا وكذا وبيت البكري كان نصيبهم في التصنيف (الجهل) بالمعنى الذي ذكرته. وأنا أعرف هذا التصنيف بدقة وارى أنه ينطبق على كثيرين من أبناء هذه العائلات، ولكنني لاأجاوز المعرفة الشفهية إلى التسجيل الكتابي حتى لايتأذى أحد.

وكان مظفر البكري من هؤلاء (الجهلة) الظرفاء: لطيف معشر، كريماً إلى حد الاسراف، وفياً لاصدقائه. وقد تزوج من فنانة يونانية اسمها آني فرانكولي وكانت مدهشة في رقص الباليه. فلما رأيت ذلك اتفقت معها ومع مظفر على أن نفتح مدرسة للباليه في بيته، وهكذا كان، وتعلمت في هذه المدرسة بنات كثيرات رقص الباليه وكان من بينهن ابنتي سلمى وبنات

أصدقاء كثيرين، وألفت كراسا عن فن الباليه طبعناه ووزعناه على سبيل التثقيف، ثم أغلق المعهد بسبب سفر مظفر وزوجته وهما يقيمان الان في اليونان وقبرص.

وكان فتح معهد للباليه من أهدافي بعد ذلك حين عملت مديراً للفنون في وزارة الثقافة، وحاولنا الاستفادة من سيدة فنلندية متزوجة من حلبي، ومن سيدة فنلندية أخرى متزوجة من دمشقي، وكلاهما باليرينا ممتازة. ولكن تركي مديرية الفنون عاق اكمال المشروع.

غير أنني كنت حققته لفترة، وهذا شيء أراه جيداً، والآن يوجد قسم للباليه في المعهد العالي للموسيقا تابع لوزارة الثقافة.

المعهد الموسيقي الشرقي (١٩٥٠)

كان هذا المعهد باشراف الاستاذ فخري البارودي زعيم الشباب وناصر الموسيقا العربية، وحديثي معه طويل ويأتي، وقد بدأ المعهد عمله في بيت عربي قديم في سوق ساروجه مقابل جامع الشامية وهو بيت واسع وجميل صالح للتعليم والتدريب، أما الطلبة فمن الهواة وقد استفاد كثير منهم واحترفوا فيما بعد حين تخرجوا وهم الآن من الموسيقيين البارعين. وكان التعليم يجري فيه مساءً فقط.

أدار المعهد في البداية الاستاذ احسان البزرة، ثم ندب له زميلي في دار المعلمين العليا الاستاذ عز الدين العطار وتوليت أمانه السر، ولما غاب الاستاذ العطار لسبب صحي توليت الادارة الفعلية نيابة عنه تسعفني في ذلك

معلوماتي النظرية والعملية في الموسيقا. وكان الاساتذة والمدرسون فيه هم مصطفى كامل الصواف وفايز الاسطواني واستاذ نمسوي لآلة الكمان، ويحي السعودي للنظريات الموسيقية العربية، ويوسف البتروني للنظرية الموسيقية الغربية، وصالح المحبك للموشحات، والشيخ عبد الوهاب سيفي للسماح، وحسن دركزللي وحسني الحريري للصولفيج، وسعيد فرحات للايقاع، وتيسير عقيل واستاذ نمسوي للفيولونسيل، وكان هناك استاذ نمسوي أيضاً للبيانو، وعبد السلام سفر للناي ومحمد النحاس للعود.

وكان يتردد على المعهد الاستاذان عبد الغني شعبان وتوفيق الباشا من لبنان لاعطاء دروس فيه.

فخري البارودي

ثم لابد قبل مباشرة الحديث عن المعهد الموسيقي الشرقي بتفصيل يسجل تاريخه بعد اغلاقه، من أن أبدأ بذكر فخري البارودي والسبب في أنه أعطي من قبل الدولة صلاحيات واسعة في ميدان الموسيقا كان من آثارها انشاء المعهد.

كان فخري البارودي واحدا من الزعماء الذين لهم شعبية هائلة لامثيل لها وتعود إلى عوامل عديدة.

فقد كان وطنياً صادقاً بلا ريب وظل في حياته كلها يعمل لوطنه بحرارة واندفاع، وكانت له مواقف جريئة في قيادة المظاهرات الشعبية وفي حركة مقاطعة البضائع الأجنبية ومناهضة النفوذ الفرنسي.

وكان فوق ذلك يتقن مخاطبة جموع الشعب بلغتها ويستخدم لذلك

حرارة العاطفة والفكاهة معاً، وكل مواطن كان يحس أنه قريب اليه ويحبه. وكان فوق ذلك يملك داراً كبيرة وجميلة جداً في حي القنوات وهو نقطة مركزية، فكانت تستخدم للاجتماعات الشعبية أكثر من سواها وهي مفتوحة دائماً للناس.

ومن المؤسف أن هذه الدار بعد أن تملكتها مطبعة خاصة قد تهدمت أجمل قاعاتها الأثرية وصارت صالاتها مستودعات ورق أو أمكنة لآلات الطباعة بما فيها من زيوت وحبر وقتام، وهذا يهدد مَعلَماً من معالم المدينة بالزوال والاندثار، ثم يجري الآن ترميمها لتكون متحفاً للكفاح السياسي القديم براً بذكرى صاحبها فخري البارودي، وربما متحفاً لتاريخ الموسيقا العربية ومكاناً لحفلات خاصة تقام لهذه الموسيقا الأصيلة، وقد تم الاستعداد لذلك الآن بفضل وزارة الثقافة.

وكان فخري البارودي وهو من عائلة كبيرة من ملاكي الاراضي وينتمي في أصله إلى شخصية تاريخية مشهورة هي (ضاهر العمر) كما كتب في مذكراته المعروفة باسم مذكرات البارودي(١)، قد تعلم في دمشق ثم ذهب إلى فرنسا ليكمل دراسته ولكنه انساق في تيار الحياة الاجتماعية فلم يتعلم، وعاد فكان مع الوطنيين الأوائل، وكان بيته مقراً لأكثر الاجتماعات السياسية والانتخابية التي تعقدها الكتلة الوطنية.

---

(١) نشرتها جريدة الحياة البيروتية على جزئين وهي من أمتع وأطرف وأصدق ماقرأت، وسأحاول اعادة طبعها لأنها سجل جميل لتاريخ هذا الرجل الكبير.

وقد نفته السلطة في الثلاثينات إلى شمالي سورية ثم لما أفرجت عنه وسمع الناس بعودته ناموا على الطريق ثلاثة أيام بالالوف ليكونوا في استقباله، وزحفت دمشق وقراها إلى بيته وشهدت بعيني وأنا فتى هذه المظاهرات الحارة التي لامثيل لها وكانت ترفع زعيمها على الأعنـــاق.

مشروع الفرنك

وكان مشروع الفرنك الذي أطلقه فخري البارودي من المشاريع الحالمة الكبيرة، إذ كان يرمي إلى انشاء صندوق قومي يقوم على التبرعات الطوعية من المواطنين ولو بفرنك واحد من أجل الانفاق على الأغراض السياسية القريبة والبعيدة والتأثير على الرأي العام بكل الوسائل كما فعل اليهود حين أسسوا الصندوق القومي اليهودي ولكن عند تنظيم هيكل هذا المشروع وتعيين موظفيه وفتح مكاتبه تجلت ضحالة التنظيم وتوقف المشروع ولم يعد يسمع به أحد. ومما يرويه بعض الظرفاء الذين كانو دائماً يحتاطون فخري بك أنه لما كان لايريد ان يضع أموال المشروع في المصارف التي كانت أجنبية فقد خطر له أن يخزنها في صندوق حديدي. ولذلك ذهب -فيما يروي هؤلاء الظرفاء- إلى محلات كوكش التي تبيع هذه الصناديق في سوق الحميدية وانتقى واحداً ثمنه سبع عصمليات (أي ليرات عثمانية) دفع منها لصاحب المحل واحدة سلفاً، وقال له في كل شهر أدفع لك مثلها. صاحب المحل قال له يافخري بك انت زعيمنا ولو طلبت المحل كله لقدمته لك، ولكن تسمح لي بسؤال صغير؟ قال تفضل. قال التاجر: من يشتري صندوق الحديد

بالتقسيط ماذا سيضع فيه ؟! . . . وكانت من الفكاهات التي ضحكت لها دمشق في حينها .

ثم لما رشح فخري البارودي نفسه بعد ذلك في الاربعينات خذله رجال الكتلة في دمشق ودفعوه إلى أن يرشح نفسه عن منطقة دوما التي له فيها قرية تدعى (جربا)، ثم حاولوا تعويضه عن الخسارة السياسية بأن (اقطعوه) الموسيقا إذ كان يهواها ويجمع رجالها من سوريين وعرب، ويدعي هو نفسه المشاركة فيها بالنقر على (الدف). وقد كان يفتخر بأنه ضابط في الجيش برتبة فخرية هي رتبة العقيد، و(ضابط ايقاع) بنفس الرتبة. ولذلك فحين طلب من رجال الحكم أن (يقطعوه) الموسيقا مجالا خاصاً به وافقوه، فما من أحد مثله يفهم بالسيكا والبيات والسماعي والبشرف والموشح والدور. فبدأ بأن نشّط السماح بالتعاون مع اساطينه الحلبيين كالمرحوم عمر البطش، ثم أنشا المعهد الموسيقي الشرقي وكان له نفوذ كبير فيه بوصفه راعي الموسيقا الأول، وكان يحضر جلساته ويوجه أموره بوجه عام رغم وجود جهاز اداري حكومي مستقل، وهذا الجهاز هو الذي انضممت إليه منتدباً من وزارة المعارف لأتولى أمانة السر فيه .

ومما يذكر عن طرائف تلك الفترة ويوضح ملامح شخصية فخري البارودي في حماستها وطرافتها أننا كنا ذات ليلة في اجتماع في المعهد الموسيقي برئاسة فخري بك وحضور الجميع ومن بينهم الاستاذ يوسف البتروني .

يوسف البتروني

والبتروني موسيقي فلسطيني هاجر مع من هاجروا عام /١٩٤٨/ وجاء إلى دمشق يحمل علمه النظري الكبير، إذ كان قد درس الموسيقا في ايطاليا. كان هذا الرجل مقتدراً، وله أسرة لطيفة أذكر منها ثلاث بنات أحداهن تزوجت رياض البندك من الموسيقيين الفلسطينيين ولي معه حكايات استمرت حتى قبيل وفاته في عام ١٩٩٢ والثانية تزوجت المغني الشهير في تلك الفترة سركيس طنبورجي (ومن أغنياته التي لاتنسى تانغوانا في سكرين من خمر وعين) -والثالثة صبية حلوة اسمها لاأزال أذكره (واذكرها) وهو فابيولا والظاهر أنها ولدت في ايطاليا وقد سافرت العائلة بعد وفاة عائلها إلى لبنان وانقطعت أخبارها عني. أعود إلى القصة فأقول أن المناقشة احتدمت تلك الليلة حول السلم الذي تكتب عليه موسيقى العود، هل هي على مفتاح الـ (صول) أم على مفتاح الـ (دو).

البارودي كان يقول بمفتاح الصول لان كل الموسيقا التركية تكتب على مفتاح(الصول). البتروني أصر على مفتاح (دو) لأنه الأنسب لطبقة العود بالنسبة للآلات. (صول)، (دو)، (صول)،(دو)، البتروني أثناء المناقشة (انزحم) وخرج لحاجة طبيعية، ودخل مرحاض المعهد في آخر الساحة الكبيرة. نحن لم نعرف إلى أين ذهب وظنناه حرد وانسحب، فانتهى الاجتماع وخرجنا فأطفأنا الأنوار وأغلقنا الباب ورمينا عليه كالعادة قفلا من الخارج خوفاً من السرقة.

البتروني كان سمينا، والمستراح صغير ضيق، فالى أن جلس واستراح ثم

قام وزرر ثيابه وخرج كنا ذهبنا وتركناه محبوساً في المعهد. انتظر الرجل ربع ساعة ثم اتصل بفخري بك قائلاً له أنا محبوس أرجوك ارسل مفتاح المعهد مع أحد الأشخاص ليخرجني، فحبكت النكتة مع فخري بك، وقال له: ترس (بفتح التاء والراء) خلي مفتاح الدو يطالعك! . . .

تتمة الحديث عن فخري البارودي

وأرى أنني مادمت بدأت الحديث عن فخري بك فيجب أن أتمه. فقد كان الرجل بعد أن هجر السياسة وهجرته الموسيقا (باقفال المعهد الموسيقي الشرقي) وبعد بيعه بيته في القنوات للضيق المالي ولأنه لم يبق عنده من يعيش معه ويخدم هذا البيت الكبير باعه وانتقل إلى بيت قرب ساحة الأمويين في قلب بستان وأصبح يستقبل عدداً محدوداً من الزوار وكنت بينهم. وقد توطدت صلتي به بفضل الصديق رجاء الشربجي، لأن رجاء كان جاره وأبو رجاء المرحوم رضا الشربجي كان من رجال الصف الأول في الوطنيين ولكنه توفي في ريعان الرجولة وكان صديقا حميماً للبارودي. ثم كان من أسباب توطد صلتي بالبارودي أنني كنت أهتم أيضاً بالموسيقا مثل اهتمامه وأكثر، وأنني لما صرت فيما بعد مديراً للفنون كنت أدعوه وأزوره وأسمع آراءه وأحقق منها ماأمكن، ولو اختلفنا أحياناً، ولكن أعامله باحترام شديد ورعاية. وكان لنا عند فخري بك غداء (مجدّرة) مع المخلل يوم الثلاثاء، لايختلف اللون ولايختلف اليوم، كما كانت عنده سهرة يومية مفتوحة للأقربين ولكن مائدتها فقيرة فشرابها العرق ومازتها الزيتون،

وكان يكره أكل البزر كثيراً. ولكن شخصه لا طعامه كان يجمع الظرفاء وفي طليعتهم حسني تللو وأحمد الجندي ورجاء الشربجي وغسان الالشي، والموسيقيين أمثال عدنان قريش وسعيد فرحات وابناء المنيني، والممثلين وفي مقدمتهم حكمت محسن وصبري عياد رحمهما الله، ونهاد قلعي الذي استعار لهجة فخري بك وصوته لشخصي حسني البورظان. وقد نشرت صورة للمرحوم فخري بك وحوله أكثر من ذكرتهم وأنا معهم في نهاية الجزء الأول من هذه المذكرات.

وظلت السهرات تنعقد وأيام الثلاثاء تشهد الغداء التقليدي حتى جرت حوادث ١٨ تموز ١٩٦٣ التي دارت معاركها حول بيته، فتهدم أكثره واحترقت المكتبة، وقال صديقنا الظريف رجاء الشربجي عن ذلك أن الكناسين ظلوا اشهرا وهم يلملمون النوطات (الكروش والدوبل كروش) ومن حول الدار. اليس شر البلية مايضحك؟ وقد ساهمت أنا في إعادة تكوين المكتبة الموسيقية التي ماحزن البارودي على شيء حزنه عليها، فاهديته كتاب المؤتمر الموسيقي المنعقد في القاهرة عام / ١٩٣٢/ وهو كتاب نادر وكان اهداني اياه قريبي عبد الكريم بدر كما سبق الذكر في الجزء الأول (حديث دمشقي) وعدداً من الكتب الأخرى، وصارت الآن مع كامل مكتبته في مكتبة الأسد.

ثم أدرك فخري بك الكبر إذ تقدمت سنه كثيراً وانهكه الربو، فأقعد في داره وكانت آخر زياراتي له وهوفي الفراش مع الفنان التونسي صالح المهدي وزرته مرة أخرى قبلها مع المستشرق جاك بيرك، ثم توفي رحمه الله.

جنازته لخصت حياته

وكانت جنازة فخري البارودي كحياته تماماً أي حباً للجمال وشعبية هائلة وفوضى، واليكم الخبر.

فعندما علمنا بوفاته زحفت دمشق لوداعه وتجمع الألوف من أبنائها أمام جامع بدر في أبو رمانة في انتظار قدوم الموكب من دار شقيقته في المهاجرين. وكنا جميعاً واجمين يحيي بعضنا بعضا لأنه مامن دمشقي قديم إلا جاء وكانت فرصة لمن لم يكن رأى الآخرين منذ زمان طويل ليراهم، ولكن الجميع يتحدثون بصوت منخفض وحزين عن هذا الرجل الذي كانت دمشق تلتف حوله وتلتقي في بيته وتتناقل أخباره ويهزها بأخلاصه.

وحين أتت إلينا من بعيد أصوات تهتف جليلة مؤثرة (لااله الا الله، والشهيد حبيب الله) وأطلت علينا جنازته محمولة لاعلى الاكف بل على رؤوس اصابع العشرات من الشباب من أبناء وأحفاد الجيل الذي قاده فخري البارودي. خشعنا وأخذنا جلال الموقف وأحسسنا اننا على وشك أن نوارى قطعة من نفوسنا ومن ماضينا بهية محببة، ودمعت عيون كثيرة كان الدمع فيها جف من زمان طويل...

في تلك اللحظة حدث ماقلب الموقف.

أنا أحب البارودي من أعماق نفسي وصحبته طويلاً وسهرت معه اسمع قصصه بصوته اللاهث وأكلت على سفرته كثيراً أيام الثلاثاء ورأيت كيف

كان يغرد ويطيّب لكل لقمة يأكلها كأنه يسمع لحناً جميلاً وذلك بيا عيني وياسلام والله ماأطيبها ويهمهم ويزمزم. . . وأحببت اقباله على الحياة، ثم هاهو الآن يودع حياة عاشها عريضة بكثير من المعاني ويمضي فيسبقنا إلى التاريخ الذي يظلم وينصف. . .

أنا أحب هذا الرجل فلا تقولوا أنني أسيء إلى صورته حين أذكر أنه في تلك اللحظة على الضبط وقد حبسنا أنفاسنا وملأنا آذاننا بلا اله الا الله وقلوبنا بجلال الموت، جاءت فتاتان المانيتان غلاميتان في الخامسة عشرة كانهما تفاحتان فجتان وتلبسان بنطلونين قصيرين (ميني) وصعدتا إلى باب جامع بدر ووقفنا على الجانبين في أعلى الدرجات القليلة التي توصل إلى قلب المسجد، في لحظة وصول الجنازة إليه، فلم يبق أحد من الحضور وهم ألوف إلا واعتبرها عجباً.

فالجمال ومن نوع يحبه البارودي، وقف حارس شرف يستقبل ويودع هذا الجثمان، هو أيضاً، وقال واحد يقف قربي لجاره: يوشك الفقيد أن يرفع رأسه ويقول كلمته المشهورة في دمشق: تقبروا عيوني! . . .

صلى الناس على الجثمان صلاة الجنازة، ثم سار موكبها (وكانت الحكومة نظمته رسمياً) سيرا جليلاً بهيا تتقدمه مئات الاكاليل ووراءه السيارات ارتالا لاتنتهي ومن حولها شرطة السير بأعداد كبيرة تنظم الحركة كأية جنازة رسمية ضخمة حتى بلغنا القصر العدلي.

وفي المنعطف الذي تبدأ منه الدرويشسية لم نر إلا عشرات من الشباب تقدموا وخطفوا الجثمان وحملوه وساروا به في سوق الحميدية مرة أخرى يهتفون بلا اله الا الله ولكن بلا نظام، في (عراضة) شعبية يقودها القلب والاخلاص والحماسة، وفي الأماكن التي كان فخري البارودي يسيطر فيها سيداً.

وأغلق السوق حين مر، وكانت أصوات الأغلاق الحديدية وهي تنزل تباعاً جزءاً من سنفونية الوداع لهذا القائد الشعبي، حتى بلغ الموكب المسجد الأموي، وهناك صلى الألوف عليه ثانية (وماحدث قط أن صلي على أحد قبله صلاة الجنازة مرتين!) ثم حملوه من باب القوافين إلى البزورية فسوق مدحت باشا ومن حوله الأغلاق تنزل والناس يبكون ويودعون ويلتحقون بالمظاهرة غير الرسمية والمنظمة وهكذا عاد فخري البارودي سيداً محمولاً على الأعناق إلى الشارع الذي كان يصنع الحياة السياسية خلال نصف قرن سبق الوفاة...

نعم، كان يومه الأخير تلخيصا وتجسيدا لحياته كلها بما فيها من ملامح الشعبية وحب الجمال والفوضى التي تميز الأيام الحارة الصاخبة في دنيا السياسة.

رحمه الله ماكان أكبره وأحسنه وألطفه!...

الباب الثالث

الحياة الأدبية في الثلاثينات ،٣١٧-أعلام الأدب، ٣١٨- ثقافة خمسين عاماً - مجلة الثقافة، ٣١٩- لحظات حميمة، ٣٢٢- جيل الثلاثينات، ٣٢٣- المجلات رخيصة الثمن، ٢٣٥- تمارين على نظم الشعر، ٣٢٦- معروف الأرناؤوط، ٣٢٧- الاتجاهات الأدبية في الثلاثينات، ٣٢٩- الثقافة في الأربعينات - مكاني في هذا المجال الأدبي، ٣٣٠- موشور ثقافي ملون نافع، ٣٣١- مفهوم الشعر، ٣٣٢- كيف بدأت الشعر، ٣٣٣.

الباب الرابع - اشهر المنتديات الأدبية في دمشق

مقهى الكمال ،٣٣٧- الياس مالك -فريدي ،٣٣٨ - مقهى البرازيل، ٣٣٩-حملة هجائية ملأت دفتراً، ٣٤٦- الهجاء والتردد في نشره، ٣٥٢ - ابو حسن رمضان ، ٣٥٤- ابو ايوب الكردي ، ٣٥٥-ديبو بائع اليانصيب، ٣٥٥- ابو جورج ، ٣٥٦-الأدباء الذين اشتهروا في تلك الفترة أي حتى (١٩٤٦)، ٣٥٦.

الباب الثالث - الحياة الأدبية في الثلاثينات

كنت أحب لو اقتصرت على ذكر ما رأيت وماسمعت مباشرة من أهل الخبر والخبرة دون أن أرجع إلى المراجع لأن هذا عمل المؤرخ والمحقق غير أنني سأخرج مرة أخرى عن هذه السنة وكما فعلت في التاريخ السياسي من أجل وضع الحياة الأدبية في دمشق منذ بداية الثلاثينات في إطارها الأقدم، فاستعرت من أخي وصديقي الدكتور شاكر مصطفى، بعضاً مما كتبه في مؤلفه الرائع (القصة في سورية).

وقد حضرتني في هذه اللحظة وبالتداعي قصة باسمة استبق فيها الزمان وانتقل فيها من الثلاثينات إلى الخمسينات.

ففي عام ١٩٥٦ أردنا في دمشق أن نكرس تقليداً في المحاماة هو أن كل محام عربي له الحق في أن يترافع أمام أية محكمة عربية دون إذن مسبق من الجهات النقابية والعدلية فأخذنا أثناء انعقاد مؤتمر للمحامين محامياً من كل قطر ورافقتهم أنا إلى محكمة الجنايات في دمشق ليترافعوا أمامها. المحامي المصري وكان (خفيف دم) طلع من نصيبه متهم سوري (خفيف يد)، فترافع أمام المحكمة بالطريقة التالية: (الشاب ده يبقى مين؟ شاب قومي عربي. وعمل ايه؟ أخذ مال أخيه القومي العربي. وماله؟ ده يبقي ماله!) . وكانت ضحكة لاتنسى في تاريخ هذه المحكمة. وأنا - على غراره- شاب من دمشق خطف كم كلمة من أخيه شاكر (اللي برضه) من دمشق، فيها ايه؟

فمن قدامى المثقفين الدمشقيين في أوائل هذا القرن، الذين ذكرهم شاكر مصطفى وكانوا هم السابقين في حركة اللغة والأدب: صادق العظم ورفيق

العظم وجمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار والمفتي محمود حمزه ومسلم الكزبري وسليم العطار وعبد المجيد الخاني ومحمد الطنطاوي وسليم البخاري وعبد الحميد الزهراوي وراغب الطباخ ومحمد كرد علي والمطارنه ملاثيوس وغفرائيل شاتيلا وغريغوريوس جريس شاهين، ثم جرجس مرقس وغيرهم من العلماء واللغويين والأدباء.

وعد منهم محمد كرد علي نحو مئتين وكان أول من ذكرهم من شعراء القرن الماضي سليم قصاب حسن (خطط الشام - جزء٤ ص٧٣) وقد ذكره الأستاذ شاكر أيضاً أول ماذكر، ولكنه أنقص اسمه فجاء (سليم القصاب) فقط في الصفحة /٣٨/ فإذا أعاد الطبعة فليصحح الإسم مشكوراً.

أعلام الأدب

أبرز ماتجلى به النشاط الأدبي الشعر، ثم المقامة وأشهر المقامات ماكتبه محمد بن محمد المبارك ومنها (أبهى مقامة في المفاخرة بين الغربة والإقامة) و(غريب الأنباء في مناظرة الأرض والسماء) و (نضرة البهار في محاورة الليل والنهار) و(المقامة اللغوية). كما نشطت حركة الترجمة وكان من أوائل المترجمين جرجي بليط وحنا عنجوري ومحمد كرد علي وإبراهيم عيسى الحوراني ويوسف اليان سركيس وخليل ميخائيل بدوى. أما في القصة فكان بين الأوائل شكري العسلي ومحمد كرد علي والياس القدسي وسليم عنجوري وسليمان الصولة (وهذا الأخير كاثوليكي ودرس في الأزهر ليتمكن من اللغة!) والخورى جرمانوس معقد.

ثقافة خمسين عاماً

وأكتفي الآن بهذا القدر من المنقول، لأعود فأتحدث عن المنظور والمسموع، أي الذكريات المباشرة. فقد دعيت قبل عشر سنوات (في عام ١٩٨٣) إلى إلقاء محاضرة فجعلت عنوانها (ثقافة خمسين عاماً) وبدأتها كمايلي: لماذا الخمسون عاماً ولماذا الذكريات؟ وكان الجواب كما قلته:

فأما الخمسون عاماً فلأنها هي التي صحبت وعيي منذ كنت فتى في الحادية عشرة بدأ رحلته مع الأدب والشعر عن طريق القراءة، ولكم أن تتأملوا كم تبدلت المدن والمساكن والشوارع والمظاهر والأخلاق والعادات في هذه السنوات الخمسين، حتى يكاد أبناء جيلي الراغبون في متابعة حركة الحياة يلهثون من الركض. نعم فبين جدي وأبي لم يكن فرق يذكر، وبين أبي وبيني كانت هناك جسور كثيرة، أما بيني وبين بناتي فعلي أن أركض قدر ماتحملني رجلاي لألحق بالجيل الجديد وهيهات! ومادامت رحلتنا الآن مع الأدب، فسترون أن بين من كانوا في بداية هذه السنوات الخمسين وبين من يحتلون الساحة اليوم فرقاً هائلاً في الشكل والموضوع، في المعنى والمبنى، وأن تاريخ هذه الفترة كان تاريخ الصراع الحامي بين التيارات.

مجلة (الثقافة) الصادرة عام ١٩٣٣

هذا أولاً. ثم إن هذه السنوات الخمسين هي أيضاً عمر مجلة صدرت عام ١٩٣٣ باسم مجلة (الثقافة) وقد أسسها كاظم الداغستاني وخليل مردم بك وكامل عياد، وجميل صليبا. إنها مجلة راقية جداً من مجلات تلك

الأيام، وقد نحتفل بيوبيلها الذهبي لنكرم الإثنين الباقين على قيد الحياة من مؤسسيها الداغستاني (توفاه الله) وكامل عياد[1].

وقد كتب في مجلدها الأول ثلاثة عشر كاتباً سورياً واثنا عشر كاتباً عربياً ومثل ذلك تقريباً من الكتاب الأجانب. أماالجانب الطريف من قصتها فهو التالي.

أحب كاظم الداغستاني فتاة من آل مردم بك حباً عميقاً عجيباً في رومانسيته، وكان الحب في تلك الأيام طريداً ومحرماً، وبنات العائلات يحتجبن إلا عن المحارم الأقربين، ولكن بنت مردم بك هذه جاءت لزيارة رفيقاتها بنات الداغستاني، والوسط الإجتماعي وسط راق ومتماثل في الغنى والشهرة، فرآها كاظم وأحبها وأحبته وسعت في المراسلة بينهما بعض القريبات، ولكن أخاها رفض تزويجها على عادة الشباب الأغنياء في تلك الأيام إذا كانوا ممن "يعضلون" الشقيقات أي يمنعونهن من الزواج حتى تبقي الثروة العقارية في العائلة.

وعبثا حاول الداغستاني، وذهب فأخذ الدكتوراه من فرنسا في موضوع قريب من موضوع حبه وهو حالة المرأة المسلمة في سورية، وعاد يخطب ويرفض! فأحب أن يتودد إلى أخيها فأسس هذه المجلة ووضع اسم الأخ بين المؤسسين، وأنفق الداغستاني عليها، ولكنه ظل محروماً من الفتاة..

---

(١) في عام ١٩٨٣ كانا على قيد الحياة، والآن توفيا منذ سنوات رحمهما الله قبل أن ينتبه المسؤولون إلى ضرورة هذا التكريم الاحتفالي.

وهكذا ولدت مجلة وحركة ثقافية من هذا الحب المحروم، وأنجب هذا الحب المحروم، إذا صح التعبير، ابنتين هما رواية (البيت الشامي الكبير) ورواية (عاشها كلها) وهما قصة الحب الرومانسي المختنق، مبهراً بصور الحياة الدمشقية إلى حد يمكن معه أن تكون الروايتان من مصادر الفولكلور الشامي.

ولم أكن لأقص هذه القصة لولا أن المعشوقة توفيت عانساً وأخاها مثلها توفي، وأن كاظم الداغستاني العاشق الأديب الذي جاوز الثمانين قص علي القصة في لحظة بوح وأذن لي بنشرها، رحمهم الله جميعاً.

نصف هذا القرن الذي انصرم، علّمني ولوّن موشوري الثقافي والإنساني، ودفعني إلى أن أمضي في صراعي مع النسيان لاستنفذ ما أمكن من صور الأحداث الأدبية والأشخاص الذين صنعوها.

وأضيف أن التقدم في السن وأنني بدأت أسير في العقد الثامن لم يترك في نفسي صورة مأساوية، بل انني أخذت منه زيادة الإهتمام بالزمن وباللحظة، والتركيز على الإستفادة من كل ثانية إلى أقصى الطاقة. فإذا كنت أعلم علم اليقين أن مابقي أقل بكثير جداً مما ذهب، فإن هذا يعطيني الحب للحظة التي أعيش فيها والتفاؤل بها وقد قلت.

التقط الثواني النشوى الخفاف الهاربـه
امسكها من ذيلها، ولو تشكّت عاتبـه
اسألها في رقة، أيـن تراها ذاهبـة،
ومالنتهينا من حديث الود والمجاذبـة؟

ياحلوتي، ياقطعة العمر الجموح الصاخبة
ان تهجريني تقترب نهايتي والعاقبـــــة
أرجوك الا تذهبي، إن كنت حقا صـاحبه

إن ماأعطاني إياه الزمان الهارب هو المزيد من الحب له والحرص عليه فأملؤه بما أشتهي. ولعل هذا مايجعلني أكتب وأرسم وأنظم شعراً وأسجل ملاحظات في كل لحظة من لحظات اليقظة والفراغ، في البيت والشارع وفي المحاكم حين أنتظر دوري، ولي في هذا الباب طرائف كثيرة.

لحظات حميمة

ثم إن ذكرياتي عن الأدباء ذكريات من كانت له معهم جلسات ومراسلات ومداعبات، وتلقيت الكثير من كتبهم ومؤلفاتهم ودواوينهم إهداءً أو اقتنيتها شراءً ولذلك فإني أعتقد القدرة على أن أبرز جانباً من تاريخ الحركة الأدبية رجالها ومنتدياتها، ولو كانت هذه الصور في أكثرها صوراً جانبية مسطحة وقد تكون محدودة. غير أن الصورة الجانبية لاتلبث أن تصبح مجسمة اذاً جاء من يجمعها مع مثيلاتها فعل النحات الذي يلملم ملامح التمثال من صور مختلفة .

ولابد لي هنا من أن أقول أن الإنسان يقف دائماً على عتبة الكمال، ولايجاوز هذه العتبة إلا قلة من الرجال وفي قليل من المجالات.

جيل الثلاثينات

كان أول اتصال لي بالأدب عن طريق كتاب (زهر الآداب) للحصري الذي كان مقرراً للدراسة ككتاب للقراءة، ثم عن طريق مجلتي (الرسالة) و(الرواية) الراقيتين اللتين كانتا تصدران في مصر، وفيهما عرفت كبار الكتاب المصريين وبعض الكتاب العرب.

في تلك الأيام - وهذا يفسر الكثير - لم تكن توجد تسليات إلا القراءة. فلا راديو ولا تلفزيون، والسينما نذهب إليها إن ذهبنا من العيد إلى العيد، ولما كبرنا أكثر وشاعت السينما وصارت ناطقة بعد صمت، كان قصاري مايتاح لنا دخولها مرة في الأسبوع لنري فيلماً من المغامرات.

ولذلك تعلقنا بالأدب وبهاتين المجلتين. وكان يرأس تحرير (الرسالة) أحمد حسن الزيات ويكتب فيها المقالة الأولى، وتخصص المقالة الثانية دائماً لمصطفى صادق الرافعي هذا العملاق في فن الترسل الجزل الذي يحاول أن يكتب بلغة القرآن.

ولست أنسى وما أحسب ان احداً من جيلي نسى مقالاته عن ابن الباشا المدير وابن الفقير، وكيف خاطب الثاني الأول قائلاً: ((أنا إذا جعت أكلت طعامي وأنت إذا جعت أكلك طعامك. . .)).

وكان الرافعي هو أول استاذ لي في الأسلوب الذي يجعل الكلمة على مقياس المعنى فلا نقص فيها ولا زيادة. وأثر فيّ تأثيراً كبيراً أحمد زكي في (قصة الميكروب) فكان يحدث عن اكتشاف العلماء لهذا (المتناهي في الضآلة) في أسلوب علمي وخيالي قوى ورشيق يجعل هذا الموضوع محل

الشغف فنكاد نعب منه عبّا كما يفعل العطشان ولانقرأ قراءة. ثم أخذ علي نفسي دريني خشبة في نقله (الإلياذة والأوذيسة) من اليونانية إلى بيان عربي يكاد يكون شعراً كله، فعاشت في نفسي بطولات (أخيل) تنافس عنترة في أحلام الفتيان الطامحين إلى البطولة، وأحببت (هيلينا) في الطروادة كما أذكر، وسبحت في آفاق السماء مع (ديانا).

وكرهت (فولكان الحداد) ولم تبق في الأساطير واحدةإلا أذكت نار خيالي وأنا بعد في الثانية عشرة من العمر، سن القراءة الفضلى. وأحببت الشيخ عبد العزيز البشري في قصصه الكاريكاتورية وأسلوبه الضاحك ومازال أذكر كيف وصف الفلاح الصعيدي الذي هبط القاهرة للمرةالأولى فرأى رجالا كبارا يلبسون السراويل القصيرة ويتراكضون وراء كرة، وعجب لصغر عقلهم! أو حين وصف حافلات الترام في لهجة من يستغرب ويرتاب. ولعلي تعلمت من أسلوبه الكاريكاتوري وأسلوب إبراهيم عبد القادر المازني طريقة الكتابة الساخرة التي عرفت بها زمناً.

وفي تلك الحقبة، ونحن نعيش على زاد المصريين في الأدب، كانت تصدر في القاهرة أيضاً مجلتان هما (الفكاهة) و (الكواكب). وكانت الأولى يتألق فيها (أبو نضاره) وهو اسم مستعار لحسن شفيق المصري وهو ملك الشعر الخنفشاري الضاحك الذي يسميه بالحلمنتيشي (وقد حاولت النسج على منواله). وكنا نشتري أو نستعير هاتين المجلتين، حتى اتحدتا في مجلة واحدة اسمها (الإثنين)، ومنها كنا نعرف أخبار أهل الفن وأهل الأدب وأهل الفكاهة، فكانت مدرسة.

المجلات رخيصة الثمن

والمجلات كانت رخيصة الثمن نسبيا رغم عدم توفر الإعلان الذي تقيس منه المجلات في العصر الحاضر، وفي مقدورنا أن نشتريها. كنا نتهافت على سوق المسكية يوم صدور كل مجلة - ونعرفه- لنشتري الرسالة والرواية والإثنين والمضحك مبكي ومجلة (ألف ليلة وليلة) اللبنانية التي يحررها كرم ملحم والمسلسلات البوليسية. وكان ثمن أكثرها لايجاوز الفرنك الواحد، أي على مقدار مايعطيني أبي كل يوم ثمناً لطعام الغداء. وكثيرا ماكنا نوفر في طعامنا لنشتري المجلة والكتاب، وقد نتشارك في العدد الواحد أو نستأجر أو نستعير. ومن الأمور التي لاتخفى أن الأدب كان في الأغلب حرفة الفقراء وتسلية الأغنياء. وكانت المعارك الأدبية بين العقاد وشوقي وطه حسين وحديث إمارة الشعر والمهرجانات هي المجال الوحيد الذي نجد فيه الإثارة والحماسة.

وكنا نعرف كيف عشق الرافعي مي زيادة، ونتبع قصص حب مي لجبران خليل جبران، ونعرف آخر قصيدة كتبها الأخطل الصغير أو فوزي المعلوف، فضلا عن اهتمامنا الكلي بمعارك أساتذتنا ولاسيما البزم مع المبارك والجندي مع اليازجي (في اصلاح الفاسد من لغة الجرائد) ونتبع الحركة الصاعدة التي يمثلها الأدباء القادمون من الغرب والناسجون على منواله مثل كاظم الداغستاني وفؤاد الشايب وكامل عياد وجمال الفرا وغيرهم في سورية، وتوفيق خياطة ورئيف خوري وابراهيم يوسف يزبك في لبنان.

وكنا نحضر مهرجانات الشعر، ونهتم بأخبار الشعراء، ونحاول أن نجد

مجلسا قريباً من الاديب والشاعر في مقهي الكمال أو في الأماكن الأخرى التي يرتادها الأدباء والشعراء، ونستمع إلى أحمد الصافي النجفي وهو يحدثنا بأسنانه المقلعة من أجل أن نروي عنه أو يسمع منا إذا اجترأنا فنظمنا بيتا من الشعر. وكنا في فترات الظهيرة -لان المدرسة كانت قبل الظهر وبعده- نتغدى ببعض الشطائر في صحن الجامع الأموي أو لدى باعة المآكل حول المسجد نفسه، وقد نذهب إلى المكتبة الظاهرية لنقرأ كتبا نستعيرها وكلها من كتب الأدب الدسمة. وحين اقتنيت (زهر الاداب) للحصري لانه تقرر في الدراسة قرأته في ليال قليلة ومثلي فعل كل واحد فلم ننتظر أن يقرر علينا درساً بعد درس.

وكان الشعر عندنا أوزانا تمتزج بالنفس وتسلك منها مسلك الطباع لا (شحطات ونقطا) كما يعلمون العروض اليوم.

تمارين على نظم الشعر

وكنت وبعض أصدقائي لانتحدث كلامنا العادي، إلا بكلام موزون على بحور الشعر التى بدأنا نتعلمها. فإن نقص الوزن كلمة جئنا بأية تتمة ولو كلمة غير مفهومة حتى يستقيم الوزن من نوع (اعطني أكلا بلا خرفشة إنني جوعان ياشيخ الشباب. . . .)

وأذكر أيضا أن عمي اشترى لي من معرض دمشق الأول الذي افتتح عام ١٩٣٦ (في البناء الذي تحتله الآن ثانوية جودة الهاشمي) كتابا لمعروف الأرناؤوط اسمه (عمر بن الخطاب).

واعترف بأن هذا الكتاب هزني فما قرأت أجمل منه أسلوبا ولا أوغل في جمال الحديث في بيان عربي جزل مبتكر غير مألوف.

وقد بحثت كثيرا عن هذا الكتاب بعد أن فقدت مني النسخة الأولى - على سبيل الإعارة التي تعرفون أثرها في ضياع الكتب وتبديد المكتبات- فما وجدته، ولاوجدت كتب معروف الأرناؤوط الأخرى وهي (سيد درويش) و(طارق بن زياد) و(فاطمة البتول) ولا أعرف إن كان ورثة معروف الأرناؤوط قد تخلوا عن طباعتها أم عادوا فنشروها، ولكنني كنت أعرف هذا الكاتب بالذات حين آراه كل صباح يتخذ مجلسه أمام صحيفته المسماة (فتى العرب) قرب سراي الحكومة مع بعض أصدقائه كما سلف الذكر.

معروف الأرناؤوط

والذي ظل عالقا في ذهني هو أن الأرناؤوط الذي تصدى لكتابة روايات عن التاريخ الإسلامي بنفس جديد، لم يضع في كتابه عن عمر بن الخطاب شيئا يذكر بعمر إلا لمحات في أسطر قليلة، وكان الباقي غوصا في حياة الروم ومباذلهم وقصص حبهم وخمريات قصورهم الفاخرة. ولكن الأرناؤوط أخذ مع ذلك في نظر الكثيرين صورة العالم المسلم حتى أنه مما يروى عنه للطرافة والمداعبة أنه حين جاءه وفد من مسلمي الشرق (من الهند ومايسمى اليوم بالباكستان) استأجر شيخا ذا عمامة ولحية جليلة ليحل محله في استقبالهم، فما كانت الصورة التي في ذهنهم عن البحاثة التاريخي

المسلم معروف الأرناؤوط لتنسجم مع جسمه الضيئل ووجهه الحليق وحياته التي كانت عبثاً ومجونا على خلاف قلمه الذي كان يشع إيمانا يقرب من التصوف.

وفي تلك الفترة من الثلاثينات تألق عدد من الأدباء السوريين الذين عرفت أغلبهم معرفة شخصية فيما بعد، إلا أنني لم أكن وأنا فتى أستطيع ان أخالطهم وهم الكبار ولا أجلس مجالسهم وأقلها في مقهى الكمال وأكثرها في أماكن الشراب كمحل الياس مالك، واستثني من ذلك من كانوا أساتذتي في التجهيز، وهم محمد البزم وعبد القادر المبارك وسليم الجندي وجمال الفرا وكامل عياد وغيرهم ومن عرفتهم عن طريق الصحافة ومنهم نسيب الاختيار وفؤاد الشايب، أما الآخرون ومنهم صبحي أبو غنيمة وعلي خلقي ومنير العجلاني وكاظم الداغستاني وليان ديراني وسامي الكيالي وخليل الهنداوي وشكيب الجابري وعلي الطنطاوي وصلاح الدين المنجد وأحمد الجندي من سورية، وسليم خياطه ومارون عبود وعمر الفاخوري ورئيف خوري وأنور العطار وسليم الزركلي وجميل سلطان وقبلان مكرزل وميشيل طراد من لبنان، ومحمد مهدي الجواهري من العراق، فقد عرفتهم فيما بعد، في الأربعينات والخمسينات، وأنا شاب أكثر قدرة على المخالطة.

الاتجاهات الأدبية في الثلاثينات

أما عن الاتجاهات فأذكر أن الأدباء والمفكرين انقسموا في الثلاثينات إلى فئتين إحداهما سلفية معنية بالقديم ولاتحب الجديد يتزعمها علي الطنطاوي وجميل سلطان وأنور العطار ومنير العجلاني وزكي المحاسني وسليم الزركلي، وقد أطلقت على نفسها اسم (المجمع الأدبي).

والثانية متجددة من أعضائها مشيل عفلق وصلاح الدين المحايري وفؤاد الشايب ونسيب الاختيار ونادر الكزبري وليان ديراني وإبراهيم الكيلاني ويوسف سماره وتوفيق يوسف عواد. كان الأولون ذوي موقف اجتماعي وأدبي واضح التعلق بالقديم وتساندهم مجلات مثل (الحياة الأدبية) لمنير العجلاني و(الناقد) لأديب الصفدي و(الشام) لخليل محصل و(الحديث) لسامي الكيالي و(الضاد) ليوسف شلحت التي آلت فيما بعد إلى عبد الله يوركي حلاق، والآخرون ينشرون حيثما أمكن ولكن ادوات نشرهم كانت أصغر فلجأوا إلى الصحف اليومية يعاونهم شباب من الصحفيين والأدباء منهم سعيد الجزائري وسليم خياطة وسامي الشمعة، الذين كانوا يحركون الجو الأدبي بالنشر والنشر المضاد. وانتقلت هذه المعركة من معركة أدب إلى معركة اجتماعية حول الحرية والتحرر والأخذ بأفكار اليسار الجديدة، وبدأت القمم الأدبية القديمة تهتز، والشعراء الجدد والمجددون كعمر أبي ريشه يقفزون إلى مقدمة الحياة الأدبية، ودخلت في الميدان لأول مرة أفكار نيتشه وماركس وكتابات بندا وغوركي وجيد وبروست، وكان أن تم في ذلك الوقت شق الطريق لانقلاب أدبي كان غريبا

وجديدا ومثيرا للذعر عند الطبقة الحاكمة، وليس كما قد تعودناه اليوم، وكل ذلك وفاه حقه بتفصل رائع صديقي الدكتور شاكر مصطفى في كتابه الذي لا مثيل له عن القصة السورية بين الحربين.

الثقافة في الأربعينات

أما في الأربعينات فقد لوحق الفكر اليساري والوطني في بدايتها على السواء، عندما قضت ظروف الحرب وسيطرة حكومة فيشي بالتعتيم الثقافي، ثم عاد فانطلق من جديد منذ مالت الكفة إلى الجانب الآخر على المستوى العالمي وتحقق في وطننا الجلاء والاستقلال.

مكاني في هذا المجال الأدبي

لقد عشت كما ترون في جو أدبي خالص، وكانت قراءاتي منوعة وتتراوح بين القديم والحديث والأدب الجاد والأدب الضاحك والقصة والرواية، فكان كل ذلك هوائي الذي استنشقه فى كل يوم.

بهذه المناسبة أذكر الكثيرين الذين إذا أحبوا أن يمتدحوني قالوا عني: لوأنك ركزت على جانب من الجوانب في حياتك التي تشبه الموشور لتعدد ألوانها لأنجبت أعمالا كبيرة. وكنت دائما أجيبهم بأنني لاأريد أن أكون شيئا واحدا لأنني اريد ان أحيا. كانت قصتي مع الحياة قصة الشوق الذي لايهدأ إلى كل شيء. تذوقت الشعر وأحببته وحين جربت نفسي فيه أعانني على نظمه لغة مسعفة وادراك لموسيقاه، ولكن أن أعيش كما كان يفعل أصحاب

المعلقات أو الشعراء الذين يتقدمون إلى الناس بهذه الصفة، فهذا كان سيحرمني من أن أتمتع بالباقي كله من ألوان الأدب والفن.

وأصح ماأصف به نفسي هو أنني كنت في حياتي - بمعنى ما- ألهو. تأتي مناسبة الشعر في دعابة أو كلمة غزل أو قصيدة تربوية تطلبها بناتي أو نشيد يستدرجني إليه ملحن يبحث عن كلمة حلوة، فأنظم القصيدة. ولقد تأتي في دقائق، ولقد أعود إليها في دقائق أخرى، ونادرا ماأخذت مني قصيدة ساعة تركيز فإذا هيكلتها واسترحت إلى صورة فيها شعرت بفرح الإبداع ثم انصرفت عنها إلى ألوان أخرى من حياتي وكل ما فيها متحرك.

موشور ثقافي ملون ونافع

وقد انتفعت بكل ماقرأت، حتى الروايات البوليسية فإنها شحذت خيالي وكونت عندي فكرة عن الدوافع النفسية وراء الجرائم، وعلمتني كيف تكتشف الجرائم، وكيف يدور الصراع الكلاسيكي فيها بين ذكاء خبيث هو ذكاء المجرم وذكاء خير هو ذكاء من يكتشف هذا المجرم ويساعد بذلك على استقرار المجتمع.

وحين وجدت نفسي محاميا جزائيا استفدت مماتراكم في ذاكرتي من قصص الجرائم وكشفها، وحين دعيت لأكتب للتلفزيون حلقات خمساً من مسلسل (الجريمة والعقاب) ساعدتني هذه القراءات القديمة على اتقان الحبكة وتأخير كشفها إلى النهاية. ولذلك فأنا لست مع الذين يمنعون أولادهم عن هذه القصص أو عن أية قراءة لاتكون مؤذية أذى مباشرا وصريحا. . .

مفهوم الشعر

والشعر نفعني فلطّف حياتي كما أنني تكسبت منه إلي حد ما. والشعر هو تصور (آخر) للحقيقة على أرض جديدة، فيها الإختراع والإبداع. والشعراء أقدر من سواهم على الرؤية الشعرية المفاجئة. ولا ننسى أن الإبداع تحويل للحقيقة، وأن الحلم والشعر والإصلاح كلها من طبيعة واحدة. وقد ساعدني الشعر على أن أرى الأشياء كما ينبغي أن تكون في حلم الإنسن التوّاق إلى الجديد. وأذكر مرة أن عاصي الرحباني وأخاه منصور، وكلاهما شاعر ممتاز، كتبا قصيدة للإذاعة المصرية عنوانها (النهر العظيم) وتتحدث عن النيل وعن طاحون على ضفافه تدور. قال المراقب الإذاعي المصري: ولكن ليس على النيل طاحون فارفعا هذه الجملة، فأجابه عاصي بل أنتم ضعوا طاحونا على النهر. وهذا فوق أنه من كبرياء الشعراء لأن النيل عليه نوع خاص من الطواحين يسمونه (الشادوف) فما الذي يمنع تصوره على نحو آخر شاقولي لاأفقي؟ ولولا خيالات الشعراء لما طار الإنسان في الفضاء ولامخر البحار ولابنى الأوابد على اليابسة. ولعل من الأمور الملفتة للنظر أن يكون المصور الفنان ليوناردو دافنشي قد صمم في زمانه الغواصات والطائرات المروحية والكثير من الآلات التي لم تجد سبيلها إلى الظهور إلابعد مئات سنين. ولو سأل سائل: مادخل دافنشي بالآلات؟ لكان الجواب أنه شاعر مبدع سواء أرسم لوحة (ولايرسم الناس كما هم ولكن كما يريدهم الفنان) أو نظم قصيدة أوصمم آلة جديدة.

إن مايصنعه الشاعر والفنان بخياله هو تكوين يحمله وجهة نظر وفلسفة

وموقفا من الحياة ورأيا فيها . ولذلك فالشعراء في وطننا ليسوا من طينة خاصة بهم وإنما كانوا إما من القانونيين مثل نزار قباني زميلي في دراسة الحقوق الذي قضى حياته كدبلوماسي محترف، وأما من الأطباء، من أمثال عبد السلام العجيلي ووجيه البارودي وعزة الطباع في دمشق وكثيرين غيرهم من الأطباء الممارسين. أو من المهندسين، الا يحضركم فورا اسم علي محمود طه المهندس؟! . . وقد يكونون من المدرسين والموظفين وغيرهم وغيرهم من ذوي المهن المختلفة.

كيف بدأت الشعر

كان أول التفاتي إلى جمال الشعر في الصف الرابع الإبتدائي، حين أدركت القافية وانسجامها مع القافية المماثلة. أذكر من ذلك فقط أن معلمنا كان يتحدث عن الدم الذي يجري في جسد الإنسان وهو أساس حياته، ولعله هو قال أو أنا قلت بناء على مافهمت (الجسم يحتاج إلى ماء، لكي يحوله إلى دماء) هذه العلاقة بين ماء ودماء، ملأتني بالغبطة. ثم كنت - لما دخلت التجهيز -قد بدأت أتذوق الشعر وأحفظ نماذجه، وإذا بي عام ١٩٣٤ أنظم القصيدة الأولى في حياتي لمناسبة مرور سنتين على ولادة ابن عمي خالد (العميد المهندس خالد قصاب حسن، اليوم) وكنت في الصف الثامن فكتبت أبياتاً أذكر منها:

ياخالدا كالبدر أشرق في الدجى　　فبدا منيرا للفؤاد ونيّـــرا
من شعرك الذهبي تبدو طرة　　تبر على بدر بغيرك لايرى

هذه الأبيات سمعها المرحوم أستاذ العديد من الأجيال سعيد مراد فقال لي أنك ستكون شاعرا. وكانت شهادة من رجل نشأ في دوحة الشعر يفهمه وينظمه، وأخوه الشيخ أبو السعود مراد كان من فحول شعراء الزمن الماضي ويحسن التأريخ للولادات وغيرها من المناسبات شعرا بحساب (الجُمّل)، مما سأعود إليه. أما عمي فقد سر من الأبيات وأهداني عليها أول ساعة يد حملتها في حياتي.

وبدأت سيرة (التكسب) بالشعر التي اتندر بها الآن، إذ أنني ربحت من الشعر مالاً حين كتبت قصائد للأطفال لتلفزيون دمشق، وفي برنامج (افتح ياسمسم) الخليجي المشهور. كما سبق أن أعطوني قيمة قصائد في الإذاعة غناها بعض المطربين أو مجموعات الأطفال. ولكن أكبر (مكاسبي) كانت صداقات وابتسامات وعواطف، وهي بلاشك أغلى. وفي فترة انتسابي للكشافة وجمعية انعاش القرية كنت أحول بعض القصائد إلى فكاهات عن الطعام وسواه، وفي فترة دارالمعلمين شاركت مشاركة نشيطة في قصائد داعبنا بها الأساتذة.

وأذكر ذات يوم وأنا معلم في الديماس أنني صحوت بردان موجوع الجسد من سوء السرير، وأنا أذكر أبياتا بدأت تتهيكل في حلمي، وهي تشطير وتخميس لقصيدة مضناك جفاه مرقده، إذ قلت:

مضناك جفاه مرقده   إذ نـــام بتخت اسهده
والصبح تباعد موعده   قد مات ولم يطلع غده
فبكاه ورحم عوّده

أودى حرقا إلا رمقـــا　　　أبقاه لكـــي لاينفلقـــا
في ليل داج قد غســقا　　　ولحاف قد حاكى الورقا
يلقيـــه عليه فيبرده

وفيها مقاطع أخرى، وإنما أوردت هذه لتروا أن السوية كانت اقتدارا في النظم وتساهلا في الفصاحة وسعيا وراء التسلية. وفي عين الفترة كنت سمعت أن صديقي ورفيق صفي عبد الستار هدايا عين معلما في قرية كناكر فكتبت له قصيدة أذكر من أبياتها:

ويل المعلم كم يحـــاذر　　　من أن يعيـــن في كناكـــر
فيها براغيث كواســـر　　　هي في الوحوش من (المساطر)!

وكذلك يسعفني في ذلك تمرين على النظم كنت أجريه مع بعض رفاقي، فلم أتعلم تقطيع الشعر كما يتعلمه التلاميذ الان، على أساس هندسي (خط ونقطة أي – ٠) وانما على أساس الوزن وموسيقاه. (مفاعيلن) تعني مثلاً وكما كنا نقول للضحك: أنا أمشي، بصباط، ولاأرضى، بقبقاب... أي شيء يأتي على لساننا بمعنى أو بلا معنى!.. والأفضل أن يكون فكاهة لنتسلى كما رأيتم في المثال السابق. المهم تركيز الوزن، فاتقنته. وأنا ناظم أكثر مني شاعرا.

ثم نظمت شعرا كثيرا كله في الدعابة حين قلدت الشعراء في مناسبات الكوليرا والتصنيف ومقهى البرازيل والكثيرين من الأدباء والمحامين، مما مر أو يجده القارئ في مكانه من هذه المذكرات.

وحين صحبت أحمد الصافي النجفي كان يلح - على أن لديّ نفسا شعريا، وأنا أعابثه وأرفض، وأتابع نظم (الخنفشارى).

هو يقول لي: لابد أن أجعلك شاعرا، وأنا أقول له لابد أن أنسيك الشعر. والحقيقة أنه كان وراء ذلك شيئا أخر غير الدعابة والتسلية، فقد كنت أحب الشعر وأقدره وأميز جيده من رديئه، ولكن كان (مايأتيني لاأريده وماأريده لايأتيني) على حد قول أحد النقاد القدامى، فمن شدة احترامي للشعر لم أكن أجرؤ على ادعائه فتمترست وراء العبث والضحك. وأرجع اليوم إلى قصاصاتي التي لم أنشرها فأجدها كثيرة وفي عدد من الموضوعات المختلفة.

ومازلت حتى اليوم أسر بقصيدة دعابة أكثر مما أسر بقصيدة جدية، حتى أنني أصدرت جريدتين تكتبان باليد وكلهما شعر (على غرار مجلة الكلب الشهيرة التي عرف بها المرحوم صدقي إسماعيل) أحداهما باسم (القزيطة) وصدرت منها أعداد خمسة وتتحدث عن القصر العدلي بقضاته ومحاميه، والثانية باسم (القنديل) للأدباء وهي تصوير الأشخاص والاهتمامات في الوسط الأدبي في أواخر السبعينات.

وفيما سوى ذلك وهو محدود لم أقدم نفسي على أنني شاعر فلم أصدر ديوانا ولانشرت قصيدة ولاقدمت أمسية شعرية على الإطلاق ولو كان عندي مئات القصائد في مواضيع مختلفة أقلب النظر فيها الآن لأرى إن كنت سأنشرها كلاً أو بعضاً أم أتركها - كمايقول أحد الفلاسفة - لنقد الجرذان!

الباب الرابع - أشهر المنتديات الأدبية في دمشق

من يتحدث عن دمشق الثقافة منذ الثلاثينات حتى الخمسينات لابد أن يذكر من هذه الأماكن مقهى الكمال ومحلات الياس مالك في بناية العابد، ومطعم السنيور في أول شارع بغداد، ومشرب أبي عزيز إبراهيم الديراني، ومحلات فريدي وسقراط والبرج الفضي وبريمو دنونه واللاكتاريوم ، وكلها انقرض. وإليكم حديث بعضها.

مقهى الكمال

كان مكانه في ساحة الشهداء في الطابق الأول - فوق الدكاكين- من الجهة الجنوبية وله شرفة كبيرة على الساحة وكان تأسيسه فيما يقول صديقي أحمد العشا، ابن كامل العشا آخر أصحابه، في الثلاثينات. وكان مشهورا بنظافته ومشروبه الأنيق من القهوة وتوابعها من الأشربة الحلال والأركيلة الفاخرة شكلا وطعما تقدم فيه، وبنوعية الرواد الذين يأتون إليه منذ الصباح الباكر من علية القوم وكبار الموظفين والأدباء والصحفيين، والكثيرين من اللاجئين السياسيين العرب وأذكر منهم الحبيب بورقيبة الذي كان نهاره يتوزع بين مقهى الكمال ومطعم السنيور. كان كامل آغا يلبس طربوشا بلا قش، وهو أقرب إلى صورة الأتراك القدامى من سواهم وهو بنظافته ورقته فرض هيبة مقهاه. وكنت قد بدأت أتردد على المقهى في عام ١٩٣٧ لصداقة جمعتني بابن صاحب المقهى أحمد العشا وبقريبه مصطفى العشا، فكنا نتردد عليه مجانا وهذا شيء له قيمة أمام موازنة الشباب البسيطة، وأحيانا يضيفنا صاحب المقهى مشروبا بلا ثمن. وفي هذه الفترة انتقل المقهى إلى مكانه

الجديد خلف سراى الحكومة تحت سينما غازي، وبقي هناك سنوات طويلة جدا حتى أغلق. في هذا المقهى تعرفت على الشاعر أحمد الصافي النجفي وصارت بيننا صداقة متينة دائمة، وفيه تعرفت على هاشم الأمين وعبد المطلب الأمين وهما أديبان معروفان ووالدهما هو العلامةالأستاذ محسن الأمين. وفيه رأيت الكثيرين من رجال السياسة والأدب في مجلسهم الصباحي مع الأركيلة. ان مقهى الكمال كان شيئا مذكورا في تاريخ دمشق بمن ضم من الناس وماااتصف به صاحبه من نظافة حتى الوسوسة وسيأتي ذكره خلال هذه المذكرات مرات كثيرة.

مشرب الياس مالك

كان هذا المشرب في بناية العابد، وقد حل محله الآن محله بائع حلوى وجانب من قسم الشرطة المركزي، وأعرف من رواده فؤاد الشايب ونسيب الاختيار وعلي خلقي ولابد من أن كثيرين آخرين كانوا يجلسون فيه ولكنني لم أكن من رواده. ولما تحدثت عنه في بعض وسائل الإعلام اتصل بي حفيده مستأنساً بذكرى جده.

محل فريدي

كان مكانه على ضفة بردى مقابل سراي الحكومة ومديرية الشرطة، وكان يرتاده بعض الأجانب وعدد من الأدباء بينهم المرحوم سعيد الجزائري، فكان من يريد أن يراهم يقصد إلى هذا المشرب على غير موعد فيجد الجماعة في الإنتظار، وأذكر من رواده أيضاً ضياء الحكيم وفريد الكيلاني وغسان الألشي، أما أشهر المقاهي وأبقاها ذكراً فهو مقهى البرازيل.

مقهى البرازيل

قلت أنه لم يكن مقهى البرازيل وحيداً ولا الأول من نوعه ولا الأخير، ولكن اشتهر اكثر من سواه لأنه لم يكن فيه مشروب كحولي، ولأنه صغير ضيق. كل المناضد فيه متلاصقة محشورة في أطرافه حشراً، ورواده كأنهم في غرفة واحدة، والكلام ينتقل من أوله إلى آخره بسهولة، والضحكة تعدى فتنشر الضحك عامة وكان من أشهر رواده المداومين عبد السلام العجيلي، وخالد العسلي وصلاح المحايري وسعيد الجزائري وممتاز الركابي وفريد أرسلانيان وسعيد الكنج وزهير الشلق وعبد المطلب الأمين وسليمان سركيس ونزيه الحكيم وأحمد علوش كما يتردد عليه بدر الدين الخطيب وبعض الشخصيات النموذجية الطريفة مثل (أبو حسن رمضان وأبو أيوب الكردي وديبو بائع اليانصيب). وذكرت هؤلاء الثلاثة بوجه خاص لأن لهم حكايات تأتي.

في هذا المقهى يبدأ الدوام قبل الثامنة صباحا ويستمر حتى المساء، والقاعدون فيه يصطادون النكتة والتعليق على الطاير، ورجال السياسة وغيرهم يوضعون على المشرحة في كل لحظة. ولكنه مثل محلات الـ (تيرو) أي النيشان من أصاب فيه الهدف طنطنت له أجراس أو دقت له ساعة أو زمّرت له زمّيرة، ولكن على الفاضي فلم يكن يرعب أحدا. أنه نموذج من قياس ١/ ١٠٠٠٠ من هايد بارك والضحك فيه هو الشعار.

ولكن مقهى البرازيل اشتهر على الضبط حين أغلقوه فترة قصيرة ثم حين هدمته المحافظة وكان المحافظ هو الدكتور ياسين الأسطه. واكتب

للتاريخ أنه معه الحق فيما فعل لأن نهضة العمران تحتاج إلى ذلك فإذا كنا داعبناه لأنه (تقاوى) على المقهى فلأن القافيه جرتنا وغلبتنا، وهو من ألطف الناس وأكثرهم مقدرة وأخلاقاً ومحبة لأصدقائه. حين هدم الملهى بدأ الرثاء بقصيدة مطلعها:

قف بالطلول وقل يادمعتي سيلي اخنى الزمان على مقهى البرازيل

[مؤلفها الدكتور عبد السلام العجيلي] وعلى غرارها وفوراً نظمت أنا قصيدة كاريكاتورية على لسان نزار قباني أقول فيها:

ودعته فتندى من مناديلـــي الليلكي ولون الزهر والنيـــلي
سفحت دمعي على أبوابه أسفا ففي الزاويا بقايا من مـــواويلي
مقهى البرازيل يابيتاً بلا امـــرأة ويالقـــاء بلا ضم وتقبيـــل
قد كنت رغم جفاء الطبع طاقتنا نطل منها على أحلى التفاصيـــل
مامر ساق يهز الكون عترسة إلا لحقناه بين القـــال والقيـــل
ولاتراءى لنـــا نهد بروعتـــه إلا اشرأبت له الأعناق مـــن جيلي
وساعة الصبح كم مرت موظفة تسير تيهاً ويزهو الخصر في التول
فان تعد واللعين الشغل جعلكها نشيّع الحسن حزنا بالتراتيـــل
أيا مطـــلا على نهر أنوثتـــه تبدو فيقصر يوم الشوق في الطول
نشكو إلى الله من ياسين فعلته فقد تقاوى على مقهى البـــرازيل

ولم أكتف بالنظم على لسان نزار قباني بل نظمت على لسان شعراء كثيرين قصائد واجتزئ لكم منها هذه المقطفات التي فيها مزية التقليد والمعارضة.

فقد كتبت على لسان ابن الرومي ومن عروض المنسرح وهو غاية في الصعوبة، (والبيت الأول لابن الرومي):

ياوهبُ ياصاحب البريد الا — تكتب بالحادث الذي حدثا
فقد دهت في دمشق داهية — موجعة من مضى ومن لبثا
مقهى البرازيل وهو آبدة — من الأوابيد بات منتكثا
قد كان أمس هنا فهدمه — ياسين من اسه وقد حرثا
ماراعني منذ ان هجوت أنا — إلاالبرازيل قولها خبثا
ياويحنا بعده فليس له — مماثل مذ عكاظ قد بعثا
فيه الدسائس كان يصنعها — جماعة ما تجمعوا عبثا

وتقمصت الشاعر الفحل محمد البزم فكتبت:

وطّن النفس على نأي القطين — واكسر الجرة اثر الراحلين
فالبرازيل على ماكان من — شأنها، كانت تضم الفاشلين
جمعهم يلتم في ثرثرة — ان تكن تضحك حينا بعد حين
فهي أقوال كما عاهنة — أرسلت في مهمه الحرب الزبون
وإذا قام فتى من بينهم — سار في أعقابه القول المهين
سبةً أن لم تفرق أوجعت — وهي لاتبقي خدينا لخدين
اكسر الجرة وامدح رجلا — كان سباقا على كرّ السنين
قسما بالشعر أوفى حلفة — برّة من صادق ليس يمين
ماالبرازيل إذا ماهدمت — مهبط الوحي ومهد الراشدين
رقعة الشطرنج لا تعرفها — كرة البليار فيها لاتبين

إن تكن تهدم لا رجعى لها ولتعش فيها أيادى الهادميـــن

وعلى لسان عمر أبو ريشة وتحريا لتقليد أسلوبه في المبالغات قلت :

مقهى البرازيل لالوم ولاعتـب إذا الجماهير سارت وهي تنتحبُ
فقد تهدم صرح للعلا شمخـت أذياله وتهاوت دونها السـحب
لاالنسر يدرك شأواً قد سموت له ولا السماء اتساعا فيـك يُطَّلبُ
إيوان كسرى ضئيل إن قرنت به وبرج بابـل قزم حيـن تقترب
هـذا فتاك أبو جورج وعترتـه يكون مجدك والسوداء تنسكب
والذكريات تكرّ اليوم راجعـة إلى زمان مضى هيهات ينقلـب
هنا سطور من التاريخ قد كتبت وقد توهج في تاريخك اللهـب
كـم مر دونـك تيّاه بموكبـه وأنت وحدك باق إن همو ذهبوا
وكم شهدت من الأحداث صاخبة ورحت تسخر مما القوم قد لعبوا
حتى أتاك زمان فارتميـت على سفح الحياة فداك العلم والأدب

وعدت إلى الحطيئة فتصورت أنه قال أبياتاً يرثي بها بيته المفضل لأنه كان موطن الهجاء والمسبّات مثلما شعر الحطيئة المشهور بالهجاء وشتم الناس :

أبت شـفتاى اليـوم ألا تكلمـاً بشرٍّ فما أدري لمـن أنا قائلـه
أأهجو الذي بالعسف يهدم منزلا يعيش به سـبيٌ وتحيا وسائله
فمقهى به للدس صرح ممـرّد يعيث به ياسين تهوى معاوله
ويمشي بلاخوف من القوم شردوا إلى كل مقهى لاتسر دخائله
محافظكم ياقوم ليس محافظـا إذا كان للحلو التراث يعاجله
هنا واحة للسب تنقـع غلـة وتفرج كربا حين تغلو غوائله

ثم على لسان بدوي الجبل مقلداً أسلوبه قلت:

محافظ الشام هل تعنيك شكوانا فقد هدمت لدنيـا الشـعر بنيانـــا
بـل جنة زرعها الاداب وارفـــة أغصانهــا أينعت عطـرا وألوانـــا
حتى المعاول انحت في جوانبها هـــزا فعانقـت الجدران جدرانـــا
جعلت أبراجه حصباء ناعمـــة وحــول واحتـــه ألقيت كثبانـــا
ياوحشة الكون أين الجمع ضاحكة أفواهـــه والنشـيد الحلو غنّانـــا
حلت عليه عروس الشعر باكية ضفائـرا وتنزى الدمـــع هتانـــا
لم تتل سورة (ياسين) لتحفظها بل جئت بـ(الذاريات)السود تلقانا
سقيتنا حنظـــلاً مما نكابـــده وكـان يسقيك بالراووق فنجانـــا

وكتبت على لسان فدوى طوقان:

سرت وحدى، في غربة العمر، في التيـــه المعمى، تيه الحياة السحيق
سرت وحدى لا أستبين سبيلي حــين أمشــي ولايبـين طريقـــي
فأنـا أيـن والمعـــالم ضـاعـــت لســت أدري وليس يدرى رفيقـــي
أهنا كانت البرازيل أم تلــــــك تهاويـل مـن غـلا فـــي الرحيـــق
أم سـراب بقيعـة يتـــراءى حين نمضي فـي صيفنـــا الافريقي
أيها الـهـادمون كل تـليـــد فـــي بلادي وكـــل بيـت عتيـــق
غصة العمر أن تروح البقايـا مـــن شـبابـي وان تجف عروقـــي

أما الجواهري فقلت على لسانه:

قف بالبرازيـل والعن خدها التربـــا
وقـل لـها(لالـعـا)والمحشـر اقتربـــا

اليس فيك التقى (وهّاب) زمرتــه
ليهدموا من بناء الشعر ما انتصبا
وراح كل ركيك الطبع منهتك
يلقي القصائــد لا وزنا ولا طـربــا
قالوا عكاظ فقال الشعر بل خسئت
دعواهمو وطوى الاعراب كشح إبــــا
الشعر ليس كلام السوقة انحـدرت
فيه المعانــي ونظما ظل مضـطربــا
وليس لعبــة أطفــال فيلقفهــا
من ليس يفهـم ما يعني وما كتبــا
الشعر روعة احساس يجيش بهـا
صدر كبير وتعلو في الســما لهبــا
لو كنت فينــا أبا تمام لاحتبســت
منك القوافي واعلنت دونها الحجبا
إذا رأيت عيون الشـعر باكيــة
وشممت روح البوادي تنفث الغضبا

واذكر أن الجواهري ضحك لهذه المحاكاة وازدادت الأواصر القديمة بيننا آصرة جديدة.

وكتبت على لسان الصافي النجفي مقلداً أسلوبه المبسط مشيداً بمقهى (السلوان) وشامتا بالبرازيل التي هدمت لانه لم يكن يجلس فيها، ولان بدر

الدين الخطيب خصمه اللدود كان يرابط في البرازيل.

لملمت أطراف العباءة خشية   من أن يلوثها قدوم اللاجئة

ممن تهدم بيتهم في ليلة   ظلماء غارتها الغشوم مفاجئة

وشمتّ فيهم مثلما شمت الذي   صلى وآمن بانتكاس الصابئة

هذا أبو جورج يسير على رصيف خرابة كانت تضل الناشئة

يلقي على الهافانا نظرة حاسد   فهي التي ظلت ترابط هانئة

فيجيبه النرد الملعلع هاهنا   وكأنه أصوات جن هازئة

اذهب إلى قعر الجحيم مع الألى   سكنوا لديك فان ناري دافئة

ان اصطحاب النرد والدخان خير   من سباب الناس ياابن الخا طئة

ثم يضيف بالتحدي النشوان مقارناً بين البرازيل والهافانا المسمى بالسلوان:

اليوم تعلو راية الهافانا   والناس مرغمة اتت تلقانا

قل للذين على الرصيف تناثروا   صبراً ترون ولن تروا سلوانا

ولم أنس وانا اداعب الكل ناسبا لهم قصائد في رثاء البرازيل ان اكتب على لسان شاعر من الموجة الحديثة للشعر:

البرازيل وشيلي..

فوق ارض الريح ينساب الجريح

مثل خبز في فحيح

والبرازيل رذيل، لايزيل

والبرا وزن ثقيل

انبرى، ليس يميل، في الأصيل
ضرس عقلي، حين يغلي، مثل شغلي في السهر
وانبهر
ليس يدري ماالخطر، والبطر
والبرازيل كرات سقط، تلقط
واذا الاقوام يوما قلفطوا
فلنكن مثل الهرم
عندما اقعى الكرم، وانشرم
في لحم، احم!..

وأذكر أنني قرأتها لبعض أصدقائي فقالوا لي في قصيدتك على الأقل بضع كلمات لها معان مفهومة...

حملة هجائية ملأت دفترا...

ومادمنا في حديث مقهى البرازيل وذكرياته فلا بد من ذكر حادثة شغلت الجو الأدبي في عام ١٩٥٨ وحرام أن تموت لما فيها من نقد لاذع وضحك عام. والقصة ان أحدهم ألف كتابا وأراد أن يتكسب منه، فأهدى نسخة إلى أحد الأثرياء من عائلة الصحناوى كل مزيته أنه غني فقط، ولكنه وجه الكتاب إليه قائلا أنه العالم الكبير وأنه يهديه الكتاب اعترافا بفضله على العلم والعلماء والادب والادباء. وكان أحد أصدقائنا يتولى بيع الكتاب النسخة بخمس وعشرين ليرة من أجل أن يساعد الرجل من جهة وأن يحرض عليه من جهة أخرى لأنه كان من اساطين الدعابة. فباع نسخة منه

إلى عبد السلام العجيلي بالخوة والقوة. عبد السلام قال في نفسه مادمت دفعت خمساً وعشرين (عام ١٩٥٨ قيمتها كبيرة) فسأدفع نصف ليرة أخرى ثمن دفتر نبدأ به حفلة الانتقام. وهكذا كان فاشترى الدفتر، وافتتحه بقوله: كل العلم في هذا الكتاب، وكل الأجيال في هذا الرجل. . .

ثم بدأت حملة التنكيت والهجاء التي افتتحها عبد السلام وشارك فيها الكل. ومن سنذكرهم هنا لعل بعضهم لم يعرف أن الكلمة نسبت إليه، وأنا أنقل من الدفتر بعض محتوياته وكنت نسختها بينما الدفتر الأصلي مجهول المصير. واضيف للنكتة أيضا أنني استفدت من الكتاب وشاركت فيما أسميناه عملية النصب اذ جمعت ليرة ليرة من الذين أرادوا نسخة، على أساس اننا سنطبع الدفتر، فبلغت الحصيلة سبعا وعشرين ليرة أكلتها على من دفعوها، بالعدوى! . . . كانت التعليقات على السنة الكتاب والشعراء والادباء القدامى والمحدثين، من تأبط شرا والحطيئة وابن الوردى إلى محمد البزم والصافي النجفي وعبد القادر المبارك، حتى فخري البارودي وسلامة الاغواني والقرادية الشامية. ومما ضمه الدفتر على لسان الصافي النجفي، وأظن الابيات للعجيلي:

هز العصـــا وتنمرا　　　متمخطا متنخـرا
لـمـــا رأى تاريخــــه　　　مستشرياً بين الورى
قالـــوا كتاب فاخــر　　　قلنا تزيد وافتـرى
وروى روايــة جاهــل　　　في حكيه عما جرى
لو كـان الطف ضحكة　　　أو كان الطف منخرا

أو كان يوما عاقــلا ما قال هال. . . . . . . ونسيت باقي البيت!

وكتب محي الدين الكاظمي والأرجح أنه اسم مستعار:

الـف الحبــر كتابــا جعل الريــق مداده
ادخــل السطر علـــى السطر بلاعرف وعادة
وانتهى العنوان للعنوان مــن غيــر زيــادة

وكتب بدر الدين الخطيب بتوقيع أبو الكلام علي أكبر خان استاذ اللغة العزبية في جامعة عليكرة: فخريار كتاب است شاهنامة دربخش أي بيان اعليحضرت خان تاريخ افخر في همايون خرازاداكيكمار باهي زاها. . . .

وكتب وصفي القرنفلي أو كتب العجيلي على لسانه والله أعلم.

كتابك الفذ سفر الدهر صاحبــه ما كان بالعلم تياها ومغـرورا
كتابك الصخرة الصماء خاطمها يرتد عنها ذليل القرن مدحورا
من كل واد عصا ذق ياحسود عصا ان العصا لم تزل للحق دستورا
فيه الحوادث اشتات منوعــة فان احطت بها اصبحت مشكورا

وقيل على لسان محمد الفراتي:

هذا كتابك سفر لا مثيــل له سماه حاسده صفرا فما صدقا
اسمى من النقد راز النقد وزنته فناء من ثقل الابداع وانفلقــا

وكتب أحدهم على لسان عبد المعين الملوحي:

في الحي هذا كتاب مثل الدراري يلوح
منزّل لــــم يبدّل من عهد طوفان نوح

وعلى لسان محمد الحريري:

مؤلف يرضيك منه الاسم		الجهل في أثنائه لا العلم
ألفه من يزدهيه الغـــم		بغير جمع المال لا يهتم
وحبه للشركات جـــم		كأنهـــا أب لـــه وأم

فهو بايدي مالكيها سهم

وكتب من أسمى نفسه فتى غسان:

قالوا كتاب لتاريخ وتفكهـــة		فيه الفنون ترى والحبر لمـــاع
(فلان) يزهو بسفر من شمائله		جلد كعوسجة والقلب خرواع
ضم المديح ويحوى كل كاذبة		ياحبذا للســان المدح قطـــاع

وكتبت أنا على لسان ابن الوردي أتمم قصيدة طويلة مطلعها:

ما الحج سيرك تأويبا وادلاجا		ولا اعتيامك احمالا واحداجا
الحج أن تسبطر اليوم معتمـــدا		وتقتني (فردة) فالسفر قد راجا
واوشكت تذهب الاكوام قاطبة		ويذهب السفر حتى أنه ماجا
ان ينتج الناس اسفارا منقحة		فقد تجاوز كل الناس انتاجا
قد راش في غيهب الأيام جعبته		فاصمت الناس اعرابا واعلاجا
ولاحق الشمس حتى كان مغربها		ومشرق الشمس حتى ضاء اثباجا
يا طالب العلم في اشراق صنعته		عليك بالسفر لاتعدل به حاجا
هذا المؤلف عز الجيل عترتـــه		قد أولجت في (دنى) الامجاد ايلاجا

ولكم ان تغيروا كلمة (دنى) بما هو أنسب...

وقلت على لسان محمد البزم، من قبره، على طريقة لزوم مالايلزم:

أقمت في اللحد دهرا لا أبارحه — وصاحب اللحد لا تجفى مطارحه
وحول جثماني المعروق شرذمة — من الفساكيل تأباها جوارحه
قوم ابيت مدى الايام عشرتهم — حتى اتى الموت واستشرت بوارحه
صبرت فعل كرام الناس مرتجيا — يوم الحساب به المولى اصارحه
حتى اتاني حديث عن فتى قرم — يكن للمال حبا لا يبارحه
يشي إليه على الاخبار ينبشها — وسيرة الناس تجلوها مسارحه
قد الف الكتب مما لست تفهمه — ان لم يكن حضرة الاستاذ شارحه
قالوا سيأتيك يرجو بيع نسخته — فقلت للقوم قد طابت مجارحه
حتى إلى الرمس لاينفك يلحق بي — ولو أتى، انني في القبر طارحه

أما تقليد فخري البارودي فقد اتعبني لأنه أصعب من اصطناع الجزالة فكتبت على لسانه:

كتابك حين وافاني — عن الندمان ألهاني
وأعجبني وأيم الحق — من جلد إلى الثاني
وقد كانت طباعته — تطالعنا باتقان
ولكن فيه اغلاط — وانت بذلك الجاني
فذكرى فيه مختصر — كما اهملت الحاني
فهل انسيت اذ غنوا — بلاد العرب أوطاني
فكيف تعيش اوطان — اذ ماأهملوا شاني؟!

ومثل ذلك كثير، وربما كان ثلث مافي الدفتر مما نحلته أنا للشعراء

والكتـاب. على أن القـفلة كـانت في نظري أبرع من سـواها والأمـور خواتيمها. فقد كان المؤلف الذي نحن بصدده يلثغ بالصاد والسين فكتبت على لسانه يرد على جميع من هجو ، وتصوروا كلماتها وهي تقال باللثغة محولين الصاد والسين إلى ثاء:

سألتك الصدق هل آساك افلاسـي — وقصة السفر مست كل احساسـي
أم سولت نفسك السوداء سيرتـها — ان تستثير بسقط الدس وسواسـي
لقد تسولت باسم السفر ياسندى — هذا صحيح وهل في ذاك من باس
حتى تسبسبني والناس سامعة — وكل جبس ونكس أسود الرأس
لقد تفصدت حتى سال من أسني — ما سمم الجو واستقذاه جلاسـي
ذهبت بالفلس لااستاء من قصص — سوداء قد صدرت عن كل نسناس
سدوا عن الدس والتجريس بوزكم — لن أسحب السفر تسكيتا لدساس
ان العصا وسلاح النحس قد كسرا — وما أحس ولو مسـوا بمسّاس

قبل أن اختم قصة البرازيل مع الكتاب ومؤلفه اقول أنني ترددت كثيراً في نشرها لانها كانت بنت ظرفها وساعتها، وتأبيدها بالنشر قد يؤذي الرجل وأسرته من بعده.

ثم وجدت أنني لا اسميه بل اعمّي عنه، وان القصة كانت فعلا جزءا من التاريخ الادبي، والهجاء يعيش كالمدح بل هو اوقع.

وقد كان في تاريخ العرب فيما أذكر قاض أديب فاضل اسمه الشعبي، كان الناس سينسون اسمه وعمله لولا أن غضب عليه شاعر لسبب من الأسباب فنظم فيه الابيات التالية:

فتــن الشـــعبي لـمـــا　　رفع الطــرف اليهـــا
خلبتـــه حـــين ابـــدت　　غمـــزة من حاجبيها
قال للجـــلواز قربهــــا　　واحضــر شاهـــديها
وقضى ظلما على الخصم　　ولـم يحكـم عليهـــا

واعتقد أن الشعبي بريء من هذه التهمة، ولكن جمال القصة ولو كانت ظالمة كان وحده الذي جعل ذكر الشعبي خالدا.

والهجاء والتردد في نشره

وقصة التردد في النشر والتسجيل لها حديث طويل. فقد يعرف الكثيرون منكم أنني كتبت أكثر من الف قطعة من قطع الهجاء السياسي الضاحك في صحيفة الرأي العام في الزاوية المعروفة بعنوان (بالعربي الفصيح) وكنت أوقع بتوقيع مستعار هو (فصيح)، وكان الناس يبتهجون بها واجمعوا على أن أول مكان يقرأ في صحيفة الرأي العام، وهي أقوى صحف تلك الأيام، كان العمود الذي فيه الأخبار الصغيرة وزاوية العربي الفصيح والافتتاحية ويختلف الترتيب بينها يوما بعد يوم حسب مزاج القارئ.

ثم خطر لي أن اجمعها في كتاب اسمه (الغليان) للدلالة على الطبيعة السياسية الحامية لتلك الفترة فانتقيت منها ماأتوسم أنه سيعيش لمدة أطول بسبب أن موضوعه اكثر اتصالا بالتاريخ الباقي. واعطيت مئة وأربعين قطعة فقط إلى صديقي الدكتور بديع الكسم قائلا لم أعد أستطيع اسقاط أية قطعة منها لانها كلها عزيزة علي فاخترلي منهامئة فاعادها يقول لست أكثر قسوة

منك عليها، خذها جميعا (اوكما قال. . . لم أعد أذكر سوى المعنى).

ولكنني مع تغير الظروف الدولية والعربية مازلت اسقط منها واسقط، فما قيل منها اليوم قد لايقال غدا، واخيرا تركتها جميعا تعسّ في ظلام الملفات لأن الكلمة صارت مكلفة وقد يدفع الانسان ثمنها غالياً.

ولكنني بعد تردد من هذه الناحية وتردد من ناحية أخرى هي طول هذه الصفحات حزمت أمري على نشرها حتى لاتضيع لأنني ربما كنت الوحيد الذي يحتفظ ببقاياها وحرام أن تضيع في مطاوى النسيان.

ولكنني ماأزال اتساءل هل التزم جوانب الرصانة والمجاملة والحياء من فلان وفلان ونضيع نصف تاريخنا الادبي؟ وهل لو فعل ذلك مؤرخو الأدب وامتنعوا عن نقل صورة الحية حتى ولو خدشت سمعة انسان أو اجترأت فذكرت الاضداد إلى جانب المحاسن ؟ وهل كان تاريخنا الادبي يكون سوى صورة سطحية خالية من أية أبعاد أخرى تعمقه وتعطيه الحجم والبروز والحرارة التي تعيد إليه صورته الانسانية ؟ ولذلك حزمت أمري على الصدق كاملا قدر الامكان، فما الصدق دائما ممكن، ولافي كل شيء.

ولأنني استمتعت بحياتي أحببت أن أنقل لكم هذه المتعة كاملة قدر ماأستطيع فنشترك في المسرة، وأنها أحسن شركة في العالم.

وأخيرا وحتى تكتمل صورة مقهى البرازيل لابد من وصف بعض المتميزين من رواده.

أبو حسن رمضان

أولهم أبو حسن رمضان الذي كان يصف نفسه بمؤسس وزعيم حزب (يصطفلوا) ومن أجل الضحك كنا كلنا من اتباعه ولكن من كان هذا الرجل وقد توفي إلى رحمته تعالى؟

كان شاباً مدللا من حماه، أبوه يعمل في مديرية المال ويحبه حبا لا مثيل له، وتشاركه في هذا الحب زوجته (وهي خالة امرأة أب لأن امه كانت قد توفيت) وقد قضى حياته كلها مرفها لايعمل ويأخذ خرجيته اليومية، كما لم يتزوج. وحدث مرة أن أوقف لمدة ساعتين في أوائل الخمسينات للتحقيق معه، ولكن أمرا صدر من أديب الشيشكلي بالافراج عنه فخرج وجاء إلى المقهى يقول ياأخي (يصطفلوا) أنا مادخلت. وراحت الكلمة التي كانت دعابة تنم عن موقف كل الهامشيين الذين يخافون الدخول في المشكلة السياسية وكل العقلاء الذين يقفون موقفا مشابها، وشيئا فشيئا بدأ الناس يتحدثون عن حزب (يصطفلوا) وصار تعبير (الاصطفال) شائعا ومدارا للتندر.

ولانصاف الرجل نقول أنه كان صاحب نخوة فمن قصده في وساطة مع أي مسؤول حموي يستطيع الدخول عليه كان لايتردد في انجاده والذهاب معه دون أن يطلب لقاء ذلك شيئا.

وقد كان ظرفاء البرازيل يصرون على أن يجالسهم في مقهاهم بينما كان يفضل الهافانا وقد توفي منذ سنوات وحيدا في دمشق، ولكن بقيت ذكريات الاصطفال بعده تغذيها روح الدعابة.

أبو ايوب الكردي

ومن رواد البرازيل أيضاً أبو أيوب الكردي كنا نسميه مداعبة (قبو قيوب). هذا كان ظريفا على طريقته، يعرج عرجا قويا ويتكئ على عصا، ويأخذ الخوة هو الاخر من الناس يجمعها موفورة بلسانه الطويل الذي لايستحي من شيء، ثم يوزعها على الأولاد المشردين الذين يجتمعون أمام سينما غازي، ويعرف كل واحد منهم باسمه "وصفاته" وكان له موعد للتوزيع يعرفونه جميعا.

وأذكر مرة أنه كانت في البلد حملة انتخابية فجاء يقول أنا رشحت نفسي. قال له جلوس البرازيل على أي شيء تعتمد ياقبو قيوب؟ قال لنا اسمعوا: عدوا على أسابعكم (يجعل الصاد سينا على عادة اكراد الحارة في دمشق) عدوا على أسابعكم من ينتخبنى: سكرجيه ينتخبوني. تمام ولامو تمام ؟ قلنا له تمام. قال: حشاشه ينتخبوني، حرامية ينتخبوني. عرسات (يعني عرصات) ينتخبوني. بيلحقوا نسوان ينتخبوني، بيلحقوا ولاد بينتخبوني. أي مين بقي؟

للنكتة قالوا له: أقل من القليل أي مايقارب الفوز "بالتزكية"! . . .

(ديبو) بائع اليانصيب

وهناك ديبو بائع اليانصيب وهو رجل ثقيل من فرط السمنة ومن فرط البلادة الظاهرة وقد يكون عالمه الداخلي غير ذلك. وكان يقف أمام الواحد جامدا كأنه ثور يلهث ويمد يده بأوراق اليانصيب ولايتكلم ولايتزحزح ولايريم حتى نشتري. كنا نعتبر شراء الورقة نوعا من الفدية حتى لايظل

مرابطا أمامنا بوجهه الجامد المدور كأنه كرة ملطخة بالطين، وقد كتبت عنه قصة بعنوان (بائع اليانصيب) جملتها المسيطرة هي : رنّخ ديبو!

أبو جورج

أما آخر شخصيات البرازيل فهو صاحبه أبو جورج. يتظارف دون أن ينجح في أن يكون ظريفا. كل ماتعلمه من رواده أنه كان طويل اللسان عالي النبرة حين يتكلم، ولكنه كان غصباً عنا صاحبنا جميعا، ويقعد على أية طاولة يشاء، وكنا نسايره لأنه يسايرنا، فما كل من دخل شرب، لاننا قد ندخل ونخرج مرات في اليوم، ومجلس ربع الساعة -لبعضنا على الأقل- لم يكن مأجورا، فاذا لم نشرب القهوة مشى الحال فأبو جورج صاحبنا. وتفيد الصحبة أحياناً.

الأدباء الذين اشتهروا في تلك الفترة
أي حتى ١٩٤٦

لما كنت ذكرت أسماء عدد من الأدباء في الفترة التي امتدت حتى الجلاء في ١٩٤٦ وبعضهم ممن صحبت فإنني سأترك الحديث عنهم إلى الجزء القادم لأنهم كلهم ظلوا يتفتحون وينشرون ويتقدمون حتى السبعينات وما بعدها، فلا يجوز أن يتجزأ الحديث عنهم، وسنكون على موعد معهم قريباً وفي الجزء الثالث الذي اخترت له اسماً يطابق المرحلة التالية وهو (الغليان).

القسم الثالث

الباب الخامس

ذكريات عن الإعلام في سورية، ٣٥٩، الصحافة التي وعيتها، ٣٦١- ١- المضحك المبكي، ٣٦١- ٢- القبس - سامي الشمعة، ٣٧٤- نمط من كتابات صحف تلك الأيام، ٣٧٥- بعض مقالات للمقتبس، ٣٧٦-بعض مقالات للقبس، ٣٧٧- جريدة الإنشاء، الأيام، النضال، ٣٨٠- الفيحاء، ٣٨١- صحف أخرى، ٣٨٣- المقالة الأولى، ٣٨٤- صحفيون قدامى، ٣٨٥- مجلس صباحي، ٣٨٦- أخطار لا تغتفر، ٣٨٧- مراسل يومي لصوت الشعب، ٣٨٩ - مجلة الطريق، ٣٩٠- عصا الجنة، ٣٩٠- أشعار كاريكاتورية، ٣٩١- الجندي، الصرخة، الأسبوع، ٣٩٢.

القسم الثالث

ذكريات عن الاعلام في سورية

الصحافة التي وعيتها

١- المضحك المبكي

ربما كانت المضحك المبكي "أول مجلة للكبار أذكرها، وكان عمي يأتي بها، فيعجبني الكاريكاتور، وأحفظ كثيراً من فكاهاتها وهي من نوعين: نوع يتعلق بالسياسة ونوع يتعلق بالضحك العام، والنوع الأخير كان الأستاذ حبيب كحاله ينشره بين سنوياً في كتاب تحت اسم (كشكول) المضحك المبكي. وكانت هذه المجلة وطنية الاتجاه و رمز السوري فيها هو (أبو درويش) ويقابل شخصية (أبو خليل) التي تمثل اللبناني في الصحافة اللبنانية المماثلة، و(المصري أفندي) في الصحافة الكاريكاتورية المصرية.

وعرفت آنذاك أن شخصية (أبو درويش) مستمدة من (أبو درويش سويد) الوجيه الدمشقي الظريف الذي كانت قصصه ومداعباته تملأ المجلة. ومنها: أنه جاء مرة راكضاً إلى بيته وفتح الباب وأغلقه وراءه ووقف كمن (يترس) الباب بجسمه وهو يلهث. قالت له أم درويش: مالك مقطوع النفس؟ قال لها: اسكتي ياأم درويش، الحكومة بدأت تلم الجمال. . . قالت له بسلامة عقلك وأنت مادخلك؟ أنت جمل ؟ قال لها: ولك لأ، ولكن إلى أن يعرفوا أني بني آدم لاجمل يكون الحمل قطع ظهري. . .

وذات يوم نشرت المجلة صورة كلبين يتنافسان على جيفة فقال أولهما: أنا حقي اللحم! . . وقال الثاني! وأنا حقي العظم! . . وكان حقي العظم رئيس دولة سورية، وأظن - من الذاكرة- أن المجلة عطلت نتيجة ذلك.

ويجب القول أن التعطيل الاداري كان بيد الحكومة وتشهره فوق رأس الصحافة، ولكن توجد حريات نسبية تسمح بمثل هذا التهكم دون أن يتلو ذلك سوى التعطيل أو الدعوى. ومن حكايات جرأة الصحافة على الفرنسيين وأعوانهم الحكام، أن مجلة الدبور رسمت صورة كلب يضربه أبو خليل وتحتها كتب: أضرب الكلب كيلا ينبح..

وكان المندوب السامي اسمه (دوكيلا)، فهل كان صاحب المجلة يقصد تسمية المندوب السامي بالكلب؟ رفعت الدعوى على صاحب المجلة وترافع فيها كبار المحامين اللبنانيين والسوريين ودارت فيها مناقشة لغوية فريدة. فالدفاع نفى أن القصد هو شتيمة المندوب السامي والادعاء قال أنه يقصده لأن الكلب إذا ضربته ينبح. ودارت مناقشة مستفيضة أمام المحكمة، فهل الكلب ينبح إذا ضربته أم تضربه حتى لاينبح؟ ثم هل تكتب كلمة واحدة من (كي لا)، أم يجب أن تكتبا متفرقتين.

واستنجد الفريقان بفقهاء النحو والاملاء وشهدوا وكتبوا. ثم لفلفت المفوضية العليا الدعوى لأنها بدل أن تكون وسيلة لارهاب الصحافة صارت مناسبة لجمع الرأي العام ضد الفرنسيين والتندر عليهم.

أعود إلى المضحك المبكي فأقول أن الناس عن طريقها كانوا يعرفون أخبار السياسة والسياسيين، وكانت مدرسة مبتكرة في الدعابة السياسية. ومن أبرز ملامحها القديمة أنها كانت تداعب الشيخ تاج كثيرا، وهو تاج الدين ابن الشيخ بدر الدين الحسني الذي تولى رئاسة الوزارة متعاونا مع الفرنسيين سنوات كثيرة ثم تولى رئاسة الجمهورية السورية في أول

الأربعينات وتوفي وهو رئيس للجمهورية. فقد كان هذا الرجل موضع جدل كبير، لأنه من جهة كان عالما دينياً ذكياً جداً ويعرف كيف يرضي الناس، وفي عهده وجدت نهضة عمرانية وبنى الكثير من الدوائر الحكومية ذات الطابع الهندسي العربي ومازالت تحمل لافتاتها اسمه حتى الآن، ومن جهة ثانية كان مع الفرنسيين، ولذلك فحين علا تيار الوطنية شيعه أهل دمشق بمظاهرات معادية ماتزال كلماتها النابية في سمع الناس. فيقول واحد من المتظاهرين: "أنا الشيخ تاج حبوني: فيجيبه الجمهور بكلمات الشتيمة...

وقيل، والعهدة على من روى، أن الشيخ تاج كان يرضي من يدخل عليه بالكلمات والوعود، فاذا أدار ظهره ليخرج بدأ الشيخ تاج يقمقم له بالاصبع الوسطى استهزاء دون أن يراه ذاك، حتى أن أحد من عرفوا هذه العادة لديه وهو حسني البرازي دخل عليه ثم لما أراد الخروج خرج ماشياً إلى الوراء ووجهه إلى مضيفه الشيخ تاج حتى لايشيعه بالحركة المعروفة، وضحك الاثنان معاً. وقيل أيضاً، والعهدة على من يروى، أن الشيخ تاج حين شيعه أهل دمشق في منتصف الثلاثينات بهذه الألفاظ القبيحة والعراضات غير المليحة أقسم يميناً أن يجعل أهل الشام يلحسون قفاه. وأنه برّ بيمينه حين عاد رئيساً للجمهورية، فصنع طابع بريد يحمل صورته على طوله (ولم يكن المرحوم طويلاً) فكلما أراد أحد الناس أن يلصقه بلل الطابع بريقه (من القفا طبعاً) عن طريق اللسان، فتحقق التهديد!.. وكانت المضحك المبكي تعلمنا عن كل مايجرى في الكواليس السياسية وعن طريقها نعرف أسماء الحكام والوزراء والموظفين والأدباء والظرفاء وقصصهم،

والضحك خير طريق للتعليم والتوجيه. وعن طريقها كنا نسمع بأخبار الحاج ربيع المنقارى الذى هو بالنسبة لحلب مثل أبي درويش بالنسبة لدمشق.

ومماأحفظه عن الحاج ربيع أنه دعي مرة إلى دار شاكر نعمت الشعباني وهو من الوزراء الحلبيين في وزارة الشيخ تاج، فحبسوه - ليضحكوا- في دار الخلاء بعد غداء (ماكن) أي قوي على لغة أهل حلب وقالوا لن تخرج حتى تقول شعراً، وبعد دقائق قال لهم بيتين:

يكفيه فخرا أنــــه	شعباني زاده من حلب
قد أطعمونا يبرقا	والمنتـهـى بيت الأدب

أطلقوا سراحه من حيث كان. وهذه من طرق الضحك في تلك الأيام (وقد تتبعت أخبار الظرفاء فوجدت أكثر فكاهاتهم من نوع (المرقعة) أي الاستهزاء اللفظي أما النكته الذكية البارعة التي تسير مع العصور فهي نادرة) ومثلها كثير في دمشق الشام وقانا الله منها.

وتشــاء الظروف أن اطلع على المجلد الأول من (المضـحك المبكي) في زيارة قمت بها لآل كحالة من سنوات، وحتى أضعكم في جو تلك الأيام وجو المجلة اخبركم عن محتويات العدد الأول وبعض الأعداد الأخرى مما رأيته وانا أقلب الصفحات لاعلى التعيين. وقد ركزت على المضحك المبكي لتميزها عن سواها وطول مدة صدورها وللفكاهة التي تبل القلب وتخرجنا من جفاف الحديث عن الماضي.

العدد الأول

لايحمل العدد الأول من المضحك المبكي تاريخ صدوره، وهذا عجب، ولكن نعرف من سياق الأحداث ومن متابعة تقليب المجلد أنها صدرت عام ١٩٢٩ . كان غلاف العدد الأول يحمل صورة الشيخ تاج رئيس الوزراء المعين حديثا وأمامه رجل فرنسي وتحت الصورة عبارة (سبحان الخلاق العظيم). وبذلك ودون أن تقول المجلة ذلك بصراحة كانت تعتبره (مخلوقا) والذي صنعه بالمعنى السياسي هو الفرنسي. . . ثم في الصفحة / ٣/ تحت عنوان (الشيخ تاج الدين كما هو) كتبت المجلة تعرف به فقالت:

الشيخ تاج شاب في مقتبل العمر، لايزال خيره بظهره، عمره ٢٨ سنة وله لحية لاتزيد عن نصف سانتي فلا يقدر أحد أن يراها الا إذا وقف على بعد أقل من نصف متر. وله فم صغير بقدر الفستقة حقيقة، وشاربان صغيران جدا وأنف صغير منمنم، وعينان سوداوان كبيرتان تنمان عن ذكاء مفرط ولكن قلقتان مضطربتان لاتستقران، وجبين عريض جداً ورأس كبير، إذا نظرت إليه تحكم عليه حالا بأنه من الأذكياء، ولو كان متعلما لكان داهية هذا العصر.

وهو قصيرالقامة مكرش قليلا ربما لم ينقص وزنه عن ثمانين كيلو (يخزي العين) ومن قصر قامته اعتقد أنه لاأحد يفتل له خيطان، ولذلك فلا أخاف عليه لاسيما وأنه ليس بين وزرائه من هو أقصر منه فكلهم طويل وبعضهم طويل جداً.

والشيخ تاج لايعرف من اللغات الا العربية وقليلاً من التركية، أما

الافرنسية فيعرف منها بعض الكلمات لم تنقص ولم تزد وهو يرددها دائماً. أما من جهة (الكالانترى) (أي المعاملة واللباقة مع النساء Galanterie) فقد ارتقى عما قبل وربما لايترك الرئاسة حتى يصبح شاب شيك (كالان) بكل معنى الكلمة.

ويمتاز الشيخ تاج بأنه يقدر أن يجمع الضدين في وقت واحد. فقد يكون صديقك وصديق عدوك معاً، وقد تجتمع بحضرته أنت وعدوك في وقت واحد فتخرج من عنده وأنت راض عنه كما أن عدوك يخرج وهو راض عنه أيضاً. وأكثر من ذلك فعدوك يعتقد به أنه من طرفه كما أنك تعتقد أنه من طرفك أيضاً. ومن مميزاته أنه (بير غميق) فلا أحد يقدر أن يعرف باطنه مهما كان صديقه ومهما كان واقفاً على أسراره. وأنه مع حداثة سنه سياسي من الطبقة الأولى. ولكنه مع هذه الفضائل له بعض سيئات، والكمال لله وحده. وأهمها وهي المشهورة عنه أن أصحابه لايقدرون أن يعتمدوا عليه وأنه سريع النسيان فلا يذكر إلا الساعة التي هو فيها.

وتحت عنوان (اسمع) عبارات منها: بعض الشعراء ينظمون لقتل الوقت، وبعضهم ينظمون الشعر لقتل الناس، ومن فضلة دياتك كان عدد التلاميذ الذين أخذوا شهادة محاماة هذه السنة ٩٥ تلميذاً إذن دبروا لنا ٩٥ وظيفة!...

في الصفحة /٤/ كاريكاتور عن الشيخ تاج وحكم وأقوال مأثورة من كتب العرب.

في الصفحة /٥/ حديث عن راثق المؤيد جاء فيه: في زمن الداماد

(والداماد في اللغة التركية هو صهر الملك، وكان الداماد أحمد نامي قد عين رئيساً للحكومةالسورية في بعض الظروف أيام الفرنسيين.) كان واثق بك وزيراً للزراعة ومديراً للمصالح العقارية، ثم صار وزيراً للداخلية ووكيل وزير زراعة ومديراً للمصالح العقارية ، ثم وجدت الحكومة أن لاثقة لها بأحد لمديرية الشرطة فانتدبته ليكون فيها أيضاً، ثم سلمت إليه المتصرفية والبلدية. . أليس من حق السلطة أن تقول العمى بقلب هذه الأمة التي ليس فيهاإلا واثق واحد؟!..

وتحت عنوان (دسائس) جمل كثيرة منها هذه: خبروا محمد علي العابد أنه مادام الشيخ تاج موجودا فمالك خبز، وأنه إذا قام من فكره الرئاسة فالشيخ لايعز أحداً عليه. وخبروا الشيخ تاج (أن المي عمال تمشي من تحته) وأن الأحزاب اتفقت عليه.

وتحت عنوان: ألحان وأشجان: ثلاثة تنفي عن القلب الحزن، الماء والخضرة والمسيو بونسو إذا نطق. إذا كان السكوت من ذهب كما يقول سقراط فالمسيو بونسو من أغنى أغنياء العالم. (بونسو هو المفوض السامي الفرنسي الذي كان مشهوراً بالتكتم).

وبعنوان (جمعية الرفق بالحيوان): خبر عن سيدة افرنجية طويلة جداً ونحيفة جداً تقف كل يوم في مفرق القصاع وكلما رأت انسانا على دابة أخذت منه القضيب الذي يضرب به الحيوان. وبعد حديث مفصل عما جرى يختم التعليق: بردون ياحضرة الست، قبل أن تعاملوا الحمير معاملة الأحرار عاملوا البشر عندنا بهذه المعاملة.

طرائف

في الصفحة / ٧/ حديث طريف عن نهضة المرأة وسعيها للمساواة وعن الرجل وسوء معاملته للمرأة أخذت منه هذه العبارة: ياسيداتي المحترمات جميل منكن أن تطالبن بحريتكن ولكن ماذا تفعلن إذا كانت عقلية رجالكن بهذه الدرجة؟

في الصفحة / ٨/ فكاهات ونوادر وأقوال حكماء، ولكن تحت عنوان (على هامش الحوادث) كتب مايلي:

ان الذين أعطوا السم إلى المرحوم فوزي الغزي[١] كانوا كريمين جدا جدا فقد أعطوه أكثر مما يحتمل مع أنه كان بإمكانهم أن يقتصدوا تسعة أعشار هذه الكمية. ومع ذلك ينكرون عليهم هذه الفضيلة . . .

وفي الصفحة / ٩/ قرادية بتوقيع أبو معروف جاء فيها:

بعدت عني بقلب قاسي — وخلت بالصدر حسره

ومع أنه شيبي برأسي — نفسي لساها خضره

---

(١) كان فوزي الغزي رئيس لجنة الدستور في المجلس النيابي وقد سممته زوجته بالاتفاق مع ابن أخيه لعلاقة غرامية بينهما.

قصة مكافحة الجراد

وعلى غلاف أحد الأعداد صورة الشيخ تاج والوزراء راكبين على حمير تركض، وتحت الصورة هذه جملة على لسان الوزير الشيخ الكيلاني: يالله ياجماعة، خلينا نزحف عالجراد وخلينا نتغداه قبل مايتعشانا. . . والطريف في هذه الصورة أن المصور رسم اذني حمار في الخلف وكأنهما ينبتان من طرفي لفة الشيخ تاج. وكان الجراد - بالمناسبة - قد حل بالبلاد وهددها بكارثة ولم تكن هناك وسيلة لمكافحته سوى جمعه فأخذت السلطة تجند الناس من الطرقات رغماً عنهم ليخرجوا ويشاركوا في جمع الجراد من الحقول. وستأتي بعد قليل فكاهة كتبتها المضحك المبكي عن اجبار الناس على جمع الجراد.

اعراب المضحك المبكي

وفي عدد آخر اعراب جملة: (بلع الشيخ ريقه وأكل طبخته) وهو كمايلي:

بلع: فعل ماض والفعل الماضي ينسى بسرعة في بلادنا. والمصدر منه البلع، وهو مشتغل في أكثر دوائرنا مثال ذلك: صار البلع في عدلية حلب - ونتيجة البلع الجخ؛ الموظف الذي معاشه معلوم لايكفي نفقاته ودخل إلى الوظيفة طفران (اندبوريا) فصار غنياً كبيراً على آخر طراز بعد أن كان على الحصير فقل هذا (يبلع) و (هذا الجخ نتيجة البلع).

الشيخ: فاعل، والفاعل يكون مرفوعاً، والذي يكون مرفوعاً يمكن

خفضه وذلك إما بحرف من حروف الجر وأما بالاضافة واما بكلمة تصدر من فم المسيو بونسو.

ريقه: مفعول به منصوب، ويكون الاسم منصوباً إذا كان مفعولاً به أو فيه كما تفعل الضرائب بهذه الأمة، أوإذا دخل عليه حرف من حروف النصب أو إذا صادفه موظف من الذين ببالك منهم ووقع بين أيدي جماعة الدخولية (وهي نوع من الضريبة على المستوردات ولو من المدن الأخرى).

الواو: حرف عطف تشبه عطف جميل الالشي على الريجي وعطف الدكتور أحمد راتب على الشريف علي حيدر وعارف باشا على الداماد.

اكل: فعل ماض مبني على الفتح ومصدرها الأكل وهو على أنواع منها نوع (عمال نأكل بمنامنا) يعني لانستطعم بشيء، ومنها نوع (أكل عليّ المصاري) وهو كثير الشيوع بهذه الأيام ومنها نوع (أكل الموظف لقمة كبيرة) يعني بمقدار سرقة حلب.

طبخته: مفعول به أيضا ولكن يجب أن تكون غير (مستوية) لأن المسيو بونسو صار له أكثر من سنتين وهو يحرك فيها وماكانت تستوي. والطبخة عادة إما أن تكون سايطه وإما أن تكون شايطه وإما أن تكون مستوّية. واما طبختنا فلا تزال سايطه يعني بدها (تَسبيك) ولكن نخاف أن تشوط وتحترق ولانحس. وعلى كال حال شط ريقنا ونحن نسمع بهذه الطبخة ومتنا من الجوع وما كنا نقدر نحط لقمة بفمنا منها، الله يساعدنا! . . .

مداعبات فخري البارودي

وكانت المداعبات لفخري البارودي مستمرة في المجلة ومنها هذه: فخري بك أحب أن يعيد أيام المدرسة فدخل مكتب الحقوق ولما وصل إلى الامتحان في مادة الحقوق الجزائية سأله فائز بك الخوري: بأي شيء تريد أن امتحنك؟ قال: بجناية المجنون. سأله الأستاذ:

- ولماذا اخترت من كل الفصول فصل الجنان؟ قال لأن دخولي لعندكم من أساسه فصل جنان!..

صورة عطلت المجلة

وعلى غلاف العدد /٤٦/ تاريخ /٢٦/ تموز /١٩٣٠/ الذي أدى إلى تعطيل الجريدة: الشيخ تاج ومعه الوزراء لابسين في الرؤوس طراطير وهم يحملون آلات موسيقية بطبول وزمور وتحتها التعليق التالي: الوزراء يوم /١٤/ تموز وهم ينشدون المارسلييز.

في العدد الأول الذي صدر بعد أشهر حين عادت المجلة إلى الصدور، نرى على الغلاف صورة المضحك المبكي امرأة تقوم من قبرها، والشيخ تاج والوزراء مذعورين، وتحتها التعليق: ولي على هالعمر، رجعنا للمضحك المبكي. والافتتاحية تعليق طويل بعنوان فصل من كليلة ودمنة خلاصته أن (أبونا الخوري) شاهد طنوس وقال له بعد ١٥ سنة من زواجه: زواجك فاسخ. نسينا ونحن نقرأ الاكليل المزمور الاربعين!.

- دخلك بعرضك، اولادنا كبروا - مافي خواص.

شأن المضحك المبكي، بعد سنة وأربعة أسابيع فطنت الحكومة إلى أن معاملة اصدارها ناقصة فأوقفتنا . . .

ثم هذا مقطع من معارضة مضحكة لقصيدة ابن زريق التي مطلعها:

لاتعذليـه فـان العـذل يولعـه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه

. . . .

هذى الوظيفة قد سدت برونقهـا آذانه عن سماع الحق ترفعـه
قد كان من قبلها حرا تعـززه اصحابه فغـدا لافرد يتبعـه
فهمّه اليـوم ان يبقى بمركـزه ولو تداعت لهذا الشعب اربعـه
فيستحلّ أمـورا لايجوّزهـا عقل وما يأمر المندوب يصنـعه
نهاره كلـه هـم ووسوسـة وليله بالأماني ليس يهجعـه
وقلبه خافق في كـل حادثـة فان (تبعج) بونسو كم يفزعـه
وان رآه عبوسـا لايكلمـه لايطمئن له في الحال مضجعـه
بالله ياحضرة المندوب مرحمـة متى تحقق عهدا كنت تقطعـه
لاأكذب الله، ثوب الحكم منحرف قد مزقته الليالي، لاترقعـه
ففي لباس الفني الترقيع(شرشحة) وفي السياسة ان رقعت تنزعـه

ومما يذكر أيضاً في تاريخ هذه المجلة أن صاحبها الصحفي الأشهر والأكثر براعة وخفة دم في تاريخ هذا البلد حبيب كحاله، وقفها عن الصدور

حين أضربت البلاد الاضراب الخمسيني الكبير عام ١٩٣٦ تضامنا مع كل المواطنين. كما أنها عطلت مرة عام ١٩٣٢ ثلاثة أشهر فأصدر صاحبها مجلة مثلها تماما بالشكل والمحتوى باسم (ماشي الحال).

وقد ظلت المضحك المبكي تحتجب وتبدو، في سماء سياستنا المتقلبة حتى توفي صاحبها عام ١٩٦٦، ثم استمرت حتى السبعينات حيث ألغيت نهائيا.

وكان يصدرها بعد المرحوم حبيب كحاله ابنه الفنان سمير كحاله، وهو في الأدب ركن وفي المحاماة ذكاء وصفاء وفي الكاريكاتور أبرع من عرفت على الاطلاق وقد رسمني صوراً كثيرة حين تدرب في مكتبي وصار محامياً يتميز بالصفاء، ثم خلفني في رئاسة تحرير مجلة (المحامون) فكان مجدداً فهيماً، ثم سافر إلى فرنسا حيث يقيم وقد تزوج وأنجب، له تحيتي وإعجابي على البعد.

ويمكن لي أن أقول، من موقع المشاركة والمتابعة والاختصاص، أن مجلة المضحك المبكي كانت من أرقى انواع الصحافة المؤثره عن طريق الفكاهة التي تغلف الجد، وانني حين اطلعت بعد ذلك على مجلات سياسية باسمة عالمية مثل (الكانار انشينه) وجدت مجلة المضحك المبكي أسرع إلى النفوس وألطف مدخلاً، ومازال أسمع من كثيرين من المسؤولين الكبار عن الاعلام حتى الآن أسفهم لاحتجابها وتمنيهم لو يصدر مثلها. والأمنيات ليست سهلة، فإن كتاب الفكاهة نادرون في العالم، ولسوف أعود إليهم.

٢- جريدة القبس

ومن الصحف تلك الأيام التي عرفتها وقرأتها (القبس) لصاحبها المرحوم نجيب الريس وهو من الوطنيين القدامى وقد عرفته السجون والمنافي بما فيها أرواد، وكانت افتتاحيته اللاهبة تنتهي دائماً وبصورة لاريب فيها ببيت من شعر المتنبي أو الشعر العربى القديم يصور الموضوع المطروح، وكان نجيب الريس في هذا كاتباً عجيب القدرة في تطويع اللغة والشعر للمقاصد السياسية. وفي جريدة القبس عمل - وهذا من الذاكرة أيضاً- من المرحومين: وجيه الحفار وسامي الشمعة كما عمل نشأة التغلبي والأمير يحيى الشهابي والمرحوم عباس الحامض ثم كان آخر رؤساء تحريرها المرحوم الأستاذ سعيد القضماني وهو من أذكى الساخرين. وقد ألغيت رخصتها فيما بعد حين ألغيت الجرائد القديمة في الخمسينات أيام الوحدة.

وابنه رياض نجيب الريس صحفي الآن ولكن لم يسلك نهج والده في الصحافة الثائرة واختار صحافة الإثارة، وقد عبرت عن أسفي لمخالفته نهج أبيه في مقال نشرته في ١٩٩١ وهو يعمل ويعيش في لندن.

سامي الشمعة

وقد تألق في هذه الفترة صحفي شاب اسمه سامي الشمعة كان انساناً متميزاً متعدد المواهب. فهو في الوقت عينه بطل من أبطال الرياضه ويلعب كرة القدم مع نادي بردى وله شهرة واسعة، وصحفي بارز في ابتكاراته ولاسيما قصته (الرجل الغزال) التي ابتكرها وروّج واشغل بها الرأي العام، وهي أن مخلوقاً نصفه إنسان ونصفه غزال شوهد في الصحراء وأن الناس

بدأت تتبع آثاره، فكانت (صرعة) مايزال القدامى يذكرونها بابتسام. . كما أنه كان قديراً في اختراع حرب تقوم في بلاد بعيدة ثم في اطفاء نارها وعقد الصلح، فتأملوا. . . وكانت له جولات واسعة في الحرب الحبشية الايطالية يملأ منها كل يوم صفحة في الجريدة من مخترعاته.

نمط من كتابات صحف تلك الأيام

وبهذه المناسبة أذكر أن الصحف في تلك الأيام كانت لها طرق في كتابة الأخبار غير ماهو قائم الآن. فكان فيها دائما -أوغالباً- مكان بارز للوجهاء الذين (يدفعون) وكان مديحهم يبدأ كمايلي: أمّ الحاضرة (أي جاء إلى العاصمة دمشق زائراً) الوجيه المعروف أوالكبير السيد فلان الفلاني لقضاء بضعة أيام فيها وقد نزل في فندق كذا، وتوافد أصدقاؤه وصحبه للسلام عليه وسيقضي بين ظهرانينا بضعة أيام يكون فيها موضع الحفاوة والتكريم. والوجيه المذكور معروف بكرمه وأخلاقه العالية ونجدته ومساعدته للفقير والمعوز، (إلى اخر تلك الصفات).

وحين يغادر (الحاضرة) يشيع بخبر آخر فيودع بالسلامة ويذكر أنه كان موضع الحفاوة وأقيمت على شرفه مآدب كثيرة بينها المأدبة السخية التي أقامها الوجيه فلان الفلاني والوجيه علاّن العلاّني (إلى آخر المعزوفة).

وبطبيعة الحال فالوجاهة تقتضي الدفع النقدي إذ أن هذه الأخبار كانت مأجورة دون مداخلة جهات اعلانية وثمنها اشتراكات سخية ودفعات أكثر سخاء. أما العناية فكانت تبذل للمقالات الافتتاحية والتي تعبر عن الرأي، وكانت دسمة دون ريب.

بعض مقالات المقتبس (السابقة للقبس)

وتشاء المصادفة أن تعلق بيدي صور عن بعض أعداد قديمة من صحيفة المقتبس للاستاذ محمد كرد علي التي كانت تصدر في أواخر العشرينات فأرى أن قيمة الاشتراك السنوية اربع ليرات سورية وأن سطر الاعلان بعشرة قروش سورية والعدد ثمنه قرشان سوريان. واحد الاعداد كان يحمل ان الاشتراك السنوي / ٣٠٠/ قرش رائج أومايعادلها ورقا سوريا، وكان ذلك أيام العملة الفضية فتحت عنوان (دموع القلم) قالت: روت احدى صحف العاصمة ان المستشار الافرنسي المسيوفلوريمون بينما كان في مركبته بجوار عرنوس سقط الجواد في حفرة كانت البلدية قد احتفرتها وارجعت اليها التراب بصورة غير متقنة.

قال الراوي: أشهد المسيو فلوريمون رجالا على كيفية اغتيال الجواد بشرك تهامل بلدية الشام وبعث المريض إلى مستشفى الحيوانات (فوراً) ثم رفع دعوى على المجلس البلدي الشامي طالبا تعويضاً لما أصاب حصانه. وقد اشغلت هذه القضية حيزا من فكري. ثم رأيت في المنام أنني حائز على شهادة تجيز لي تعاطي صناعة المحاماة عن الدواب. وأني وفي يوم المحكمة نهضت وقلت: بماأن موكلي (الحصان العاثر) افرنسي باعتباره ملكا لرجل افرنسي، وبما أن المدعى عليه سوري، وبما أن الغاء الامتيازات الاجنبية احدث في البلاد قضاءً باسم المحاكم المختلطة، وحفظا لحقوق موكلي من أن تزهق تحت تأثير القضاء السوري، أطلب عدم رؤية هذه الدعوى في هذه المحكمة وتحويلها إلى المحاكم المختلطة الجديدة...).

وتستمر الكتابة على هذا النحو وهي تكشف من نفسها الجو السائد في سورية وفي صحافة تلك الأيام، أما التوقيع فهو (ابن مروان) وإلى جانبه اسم (حماة) ولعله نجيب الريس ذاته.

بعض مقالات القبس

أما صحيفة (القبس) لصاحبها نجيب الريس فقد علق بيدي أحد اعدادها فوجدت فيه الرسالة التالية:

درعا - في ٩ آب ١٩٢٩ - لمندوب القبس المتجول:

في كل يوم اهانة جديدة - السوري خنزير قذر

- ألست أنت سورياً؟ -نعم- اذن انت خنزير قذر كأمتك المتوحشة القذرة..

هذه هي بعض كلمات التحقير والاهانة التي وجهت إليّ أمس في مركبة القطار قبل حركته من محطة القنوات في دمشق، وهذا مانضحت به نفس ضابط فرنسي مفروض فيه أن يمثل الثقافة والادب والاخلاق الفرنسية بل يمثل الانتداب الذي يقول رجاله كل يوم انهم ماجاؤوا إلى هذه الديار الا لارشاد أهلها وتثقيفهم ورفع مستواهم الأدبي والعلمي. ويتابع مندوب القبس وصف الحادثة فيقول أنه ركب في غرفة خاليه من القطار وجلس إلى نافذتها اليمنى فدخل عليه ضابط فرنسي برتبة (اجودان) فوضع حقيبته فوقه وطلب منه أن يخلي مكانه لانه وضع امتعته فوقه وحصل جدل بينهما فثارت ثائرته وخرج يبحث عن جنود يستعين بهم ولكن القطار تحرك... فعاد هذه المرة

وجلس أمامي على المقعد الثاني وسألني مبتسما ابتسامة صفراء: ألست أنت سورياً؟ قلت نعم. عندئذ انفجر بالشتائم والسباب ومنها بعض ماذكرته في راس كلمتي ونضح مافي نفسه من حدة وضغينة فقابلته بالصمت ولو لم يكن مرتديا ثوب الجندية لكان جوابه مني غير الصمت طبعا...

هذه حادثة جرت لي بالأمس أرويها وأنا عالم أنها لست الأولى في بابها فالسوريون لم ينسوا بعد كلمة (انت سوري قذر) التي وجهها الضابط الافرنسي في سمر ليالي (الكرمس) لاحد الشبان السوريين في حلب، ولم ينسوا أيضاً حادثة ادلب واعتداء احد الضباط الافرنسيين على صاحب أحد الكراجات وضربه واهانته على مرأى ومسمع من مئات الحاضرين دون أن يجني المعتدى عليه ذنباً.

ويتابع على هذا المنوال حتى يختم ببيت من الشعر للمتنبي:

ولايقيم على ضيم يراد به   إلا الأذلآن عير الحي والوتد

والتوقيع منير الريس. وأعتقد أن هذين المقالين يعطيان فكرة واضحة عن صحافة تلك الأيام في العشرينات والثلاثينات وعن جرأة منير الريس وهو شقيق نجيب الريس وقد توفي منذ نحو سنتين في ١٩٩١ رحمه الله وقد رافقته طويلاً ولاسيما وأنه كان من رجال الثورة قبل أن يعمل في الصحافة.

وبالمناسبة فإنني أذكر أن وكالات الأخبار العالمية في تلك الفترة كانت (هافاس) الفرنسية و (رويتر) الانكليزية و (د. ن. ب) الألمانية.

- **جريدة الإنشاء**

وكانت جريدة الإنشاء هي التوأم لجريدة القبس، وقد أنشأها المرحوم وجيه الحفار وهو شاب مثقف حاز على شهادة الحقوق من المدرسة اليسوعية في بيروت ومن جامعة دمشق، وعمل صحفياً منذ عام ١٩٣٤ في جريدة القبس ثم أسس جريدة الإنشاء عام ١٩٣٦ ، وكان من أعضاء الشباب الوطني والكتلة الوطنية والحزب الوطني، وله مؤلفات تنم عن ثقافته أحدها عن المملكة المتحدة والثاني هو كتاب الدستور والحكم وهو من موجودات مكتبي.

وقد ألغيت جريدة الإنشاء في الخمسينات حين ألغيت الجرائد كلها أيام الوحدة وشقيقه الأستاذ حسن الحفار كان من زملائنا وقد صار قاضياً لفترة ثم تقاعد.

- **جريدة الأيام**

من أقدم الصحف الدمشقية صاحبها الأستاذ نصوح بابيل، وهو والد زميلنا المحامي الأستاذ غسان بابيل.

كانت هذه الجريدة تمثل المعارضة للكتلة الوطنية، أي أنها جناح وطني ومعارض، ولهذا السبب اشتهرت. وكانت دارها في المكان الذي فيه اليوم البناء الثاني لمحافظة مدينة دمشق، وهي دار عربية كبيرة تعقد فيها الاجتماعات والمظاهرات وقد حضرت بعضها فيها.

ثم احترقت هذه الدار في إبان العدوان الفرنسي عام / ١٩٤٥/ فيما أذكر

مع سائر أبنية هذا الطرف من الشارع، حين أطلقت القوات الفرنسية القنابل الحارقة وذلك في مساء / ٢٩/ أيار، وعلى أثر ذلك سمي امتداد هذا الشارع باسم / ٢٩/ أيار.

وكانت معارضة (الأيام) للحكم فعالة كثيراً ولكنها حالت دون وصول صاحبها إلى مراكز وزارية كبيرة. وفي هذه الصحيفة تربى جيل كامل من الصحفيين، ولكن صلتي المباشرة بالأيام كانت شبه معدومة. وقد ألغيت رخصتها مع سواها. ولكن من طرائف الأمور أنه عمل فيها في وقت واحد شابان هما خالد بكداش الذي تزعم الحزب الشيوعي أكثر من خمسين عاماً وانطون سعاده الذي أسس الحزب السوري القومي وأعدم في لبنان.

- جريدة النضال

وكانت صحيفة المعارضة الرئيسية - في وجه الكتلويين - جريدة النضال التي صاحبها ورئيس تحريرها الدكتور سامي كباره، وكانت له شعبية بسبب معارضتها للرئيس القوتلي. ومما يذكر ولا يمكن أن ينسى أن الدكتور سامي كباره كتب مرة مقالة بعنوان (العظمة لله) انتقد فيها بعض مظاهر الأبهة التي استقبل بها الرئيس القوتلي في إحدى المرات إذ استقبلته موسيقا الشرطة كما يقضي البروتوكول.

ولكن الدكتور سامي كباره حين تولى وزارة الداخلية في حكومة سامي الحناوي ذهب مرة إلى (الحمة) ليرتاح فلما عاد خرجت ذات موسيقا الشرطة تستقبله عند محطة الحجاز، وكان الناس لم ينسوا ماكتب عن سواه، ولكن

كان هو قد نسي، والكرسي أحياناً يكون من أسباب النسيان، وأحياناً من سبب الصمم والطرش.

هل منكم من يعرف قصة الخوري سمعان وكرسي الاعتراف؟ من كان لايعرفها فليسأل عنها من يعرف لأنني أنا نسيتها. ألسنا نتحدث عن النسيان؟!

- جريدة الفيحاء

أما جريدة الفيحاء التي يصدرها المرحوم سعيد التلاوي فكانت ذات نفوذ في أوساط كثيرة. وكان صاحبها رحمه الله من أظرف أبناء حمص بل وكل هذا القطر. حديثه العذب ينسيك وجهه الذي فيه ملامح جهمة قاسية وعينان جاحظتان، ولعله أشبه الجاحظ بظرفه وبعينيه، وكان الجالس إليه يأنس به ويحبه ويطرب لكلماته. لقد كان من الناس الذين تحبهم (برغم)... لا(من أجل)... كما يقول الفرنسيون. وكان كريماً سخياً، وماأكثر ماالتقينا عنده في الجريدة بعد التاسعة ليلاً أو العاشرة حين يكون الشيء الأساسي في الجريدة الصباحية قد انتهى تحريره، فتدور النكات والقصص الجادة والضاحكة ، ونتبادل أخبار السياسة وأسرارها ماينشر منها ومالاينشر، والصحفي البارع هو الذي ينشر أقل مما يعرف أو الذي يعرف أكثر مما ينشر.

وبعد المداولات تأتي السفرة الدمشقية الشهيرة في آخر السهرة، من فول وحمص وفته ولحم، ثم نضحك جميعاً حين يقوم أبو خالد سعيد التلاوي

متوجهاًإلى بيته قائلاً (الله يعيننا على الحلال) وكانت هذه نكتته الشهيرة وللايناس فقط على عادة الرجال حين يكونون وحدهم، ولايعنيها بطبيعة الحال لأنه رب أسرة ممتاز.

ولسعيد التلاوي معي قصص عديدة كمداعبات منها أن وزارة كانت ستؤلف من (كبار) الشخصيات وعددهم اثناعشر أي (دزينة) فصدرت الفيحاء تسميهم جبارين.

وعلقت أنا في زاويتي (العربي الفصيح في الرأي العام) على هذا التعبير وكانت خاتمة التعليق أنهم بلاريب من (جباري خواطر) بعض الزملاء، وبلعها المرحوم سعيد لأن النكته ركبت وهو يجب النكتة (الراكبة) ويتذوقها.

ومما يروى عنه انه حين غادر دمشق إلى بيروت لظروف جعلت إقامته في دمشق غير مسطابة صار يلجأ إلى ناد يجتمع فيه السوريون أمثاله، فكان إذا جاءهم واحد جديد بادره سعيد التلاوي يقبله ويقول: هذا من (الشام لادش) قياساً على بنغلادش!

وله قصة شهيرة مع المطربة زكية حمدان ترونها في قسم الغناء، فلانكررها.

رحم الله أبا خالد ماكان أطيبه وألطفه في كل حين.

صحف أخرى في الأربعينات

وكانت تصدر جريدة (العلم) لعزت حصرية، و(الناس) لحسني البرازي وكانت ذات اتجاه موال بصراحة للغرب، و(النصر) وهي من كبريات صحف الخبر وصاحبها المرحوم وديع صيداوي وكانت لها قوة ورواج و(المنار) التي يصدرها بشير العوف و(الشام) لصاحبها بكري المرادي، ثم صحف أخرى شارعية أو زقاقية حسب التعبير الغربي لأنها تعتمد على القارئ غير المسيّس وغير المثقف والذي تهمه الإثارة ومنها (دمشق المساء)، وكان باعتها ينادون عليها ذاكرين خلاصات الجرائم والفضائح التي تنشرها بصورة مثيرة أيضاً حتى منعت الحكومة من أجل ذلك المناداة على محتويات الصحف. وكانت التيارات السياسية تتوزع على هذه الصحف بين يمين ويسار ومعتدل ومحافظ وسلفي، وتتهارش فيما بينها وتقام فيما بينها الدعاوى. وظلت هذه الصحف تصدر حتى أيام الوحدة حين ألغي بعضها، أو بدأت تزول واحدة بعد أخرى لأن الصحافة صارت عملاً من أعمال المؤسسات التي أنشأتها الدولة.

وتميزت في الخمسينات صحيفتان هما البعث، والرأي العام، ولكن مادمت أتحدث عن ذكرياتي وعن تجربتي الشخصية، فلأبدأ بها رجوعاً إلى الوراء، من البداية.

مساهمتي في العمل الإعلامي

لعل علاقتي بالإعلام هي الأطول والأكثف من سواها بين الإعلاميين الأحياء في سورية الآن عام ١٩٩٣، فعليّ إذن واجب الحديث عنها أمام

الإعلاميين الشباب الذين يملأون الساحة، وأمام كل من يهتم بهذا الجانب الخطير من جوانب الحياة الحضارية في عالمنا الحاضر، لعلي بذلك ألقي أضواء عليها مما يفيد في تاريخ الصحافة والإعلام.

المقالة الأولى

وأعود بذاكرتي فأجد علاقتي بالإعلام تمتد ثمانية وخمسين عاماً منذ كتبت المقالة الأولى في مجلة للطلبة كانت تصدر في دمشق، مطبوعة في مطبعة، هي (سمير التلاميذ) التي كان يصدرها صبحي فؤاد الرئيس، ولاأعلم عنه الآن شيئاً ولو أنني أتمنى أن أتحرى عنه ولعل أحداً يعلمني أخباره. كان ذلك عام ١٩٣٤ أو ١٩٣٥. وفي تلكم السنوات، وقبل ١٩٣٦ على كل حال، كانت لي علاقة وثيقة بمطبعةالشعب التي يملكها المرحوم توفيق جانا وتصدر عنها جريدة (الشعب) التي تحولت بعد ذلك إلى اسم (الاستقلال العربي). فقد كان يدير هذه المطبعة عبد الله العشا، شقيق صديقي وزميلي في الدراسة مصطفى العشا (الطبيب وقد توفي منذ بضع سنوات رحمه الله) ولذلك فقد كنت مع مصطفى نتردد إلى المطبعة ونرى كيف تصف فيها الأحرف وكيف تصلح البروفات وكيف تطبع الصحيفة ومن ذلك انتقلنا إلى العلاقة بين التحرير والتنضيد والطباعة مما أفادني كثيراً في حياتي الصحفية التالية. فأنا إذن أكاد أكون بدأت في الصحافة من أول درجات السلم.

منضد برتبة أجير

وقد تعلمت صف الحروف، وعرفت تسمياتها بلغة عمال الطباعة، ومارست هذا العمل فضولاً، وعرفت في هذه الفترة المرحوم عزت حصرية الذي كان عامل طباعة في مطبعة الشعب ثم تحول بذكائه واجتهاده إلى صحفي يصدر جريدة (العلم) لمدة سنوات طويلة حتى احتجبت وتوفي.

صحفيون قدامى عرفتهم

وهناك أيضاً تعرفت إلى المرحومين فؤاد الشايب ونسيب الاختيار وهما من أول الصحفيين الذين تركوا الأثر الكبير في حياتي.

وقد عرفت أيضاً وبطبيعة الحال توفيق جانا صاحب الجريدة والمطبعة، وكنت أراه فيما بعد يجلس مع المرحومين معروف الأرناؤوط صاحب جريدة (فتى العرب) وأحد كبار الأدباء أصحاب الأسلوب البارع الجمال، ومعروف الرصافي شاعر العراق الكبير، ويوسف العيسى صاحب جريدة (ألف باء) ومن أشهر الكتاب السياسيين في الثلاثينات. وكانت للأخير قطعة يومية نادرة في أسلوبها اللاذع الباسم عنوانها (مباءة نحل) إشارة إلى لسعها، وقد نسجت على غرارها حين كتبت في الخمسينات في صحيفة الرأي العام زاوية (العربي الفصيح) لسنوات طويلة، وهي زاوية مازالت في ذاكرة الكثيرين حتى الآن.

مجلس صباحي

قلت أنني كنت أراهم يجلسون سوية، وكان مجلسهم الصباحي أمام جريدة فتى العرب التي كانت إدارتها ومطبعتها بين سراي الحكومة والبلدية، والسراي هي مقر وزارة الداخلية اليوم أما البلدية فقد هدمت وااسفاه لأنها المبنى التاريخي الذي انعقد فيه المؤتمر السوري عام١٩٢٠ وأعلن من شرفتها استقلال سورية والعراق وقامت محلها بناية تطل على ساحة المرجة في دمشق المسماة ساحة الشهداء، وتعلو أربعة عشر طابقاً. ولكنني لم أكن أجرؤ على الاقتراب منهم وهم كهول وأنا فتى لم يبلغ الخامسة عشرة. غير أن أسرة المرحوم توفيق جانا اعتمدت عليَّ حين أصبحت محامياً، ومن بينها ولده عدنان حتى توفي هو الآخر رحمه الله، وأنا الآن أرعى مصالح الجيل الثالث، أحفاد توفيق جانا الصحفي القديم ومن بينهم توفيق جانا (الصغير) وفق التعبير الأميركي. ومادمت في حديث المطبعة والطباعة الصحفية أقول: أن الذين يعملون اليوم في صحافة متقدمة الطباعة (كصحيفة تشرين أو البعث أو الثورة، تعمل على آلات التنضيد الالكترونية وقد نظرت إليها منذ سنة فأثارت دهشتي) يجب أن يعرفوا كيف كانت الأمور تسير فيما مضى. كان عمال الصف يقفون أمام صناديق الحروف التي فيها الحرف الأول والوسط والأخير والحرف المستقل والحرف نفسه يجمع مع بعض الحروف الشائعة، وكان عليهم أن يفرقوا بين حرف الهاء المتصل الأخير والتاء الأخيرة المربوطة المنقطة، وبين الياء الأخيرة والألف المقصورة، ثم أن يفرقوا بين

أجناس الحروف من رقعة وثلث ونسخي وديواني وكوفي، ومقاييس الحروف من صغيرها إلى حروف العناوين، من قياس ٨، ٩ إلى قياس ٤٨ و ٦٤ (ان كانت ذاكرتي حسنة) ثم عليهم أن يلموا الحروف على المصف ويضعوا بينها الوصلات واسمها فيما أذكر (كشيدة)، ويفرقوا بينها وبين المسافات حتى تأتي الأسطر متكاملة ومتساوية ثم يصححوها برفع الحرف بالملقط ووضع آخر مكانه، ثم يربطوا الأسطر والصفحات بالخيطان والمشدات، بعد ذلك يدوزنون الصفحة، فعملهم تجميع وترتيب ثم تفريق للحروف بعد الطبع لتوضع في بيوتها دون خطأ وبسرعة وكان ذلك كله باليد، فهم يقومون بما يشبه المعجزات بالنسبة لسهولة العمل اليوم وسرعته. وصدقوني إذا قلت لكم أنني تعلمت صف الحروف ولكن برتبة أجير، أي لم أصل إلى الاتقان والسرعة، وتعلمت التصحيح بنفسي. واستبق الأمور فأقول أنني في كل فترة كتابتي لزاوية (العربي الفصيح) في الخمسينات (وسأعود إليها) كنت أجري التصحيح قرب منتصف الليل خشية من الخطأ المفسد للمعنى، إذ كانت هذه القطعة ذات مستوى لغوي أعلى من المعتاد وقائم أحيانا على اللعب باللفظ، فكان فهمها ليس سهلاً على عامل المطبعة ويقع فيها أحيانا خطأ بقلب المعنى.

أخطاء لاتغتفر

أذكر لكم من قبيل استباق الأمور أيضاً في باب الأخطاء المطبعية حادثين اثنين أولهما: أنني كنت في أيام الوحدة، وفي أواخر هذا العهد حيث كانت قد نشأت حساسيات بين الإقليمين، كتبت قطعة فيها عبارة (العلك المصدي)

وهي كلمة شامية تدل على أن الكلام هرف عتيق لحق به الصدأ، فاذا بعامل الطباعة، يصفها على أنها (العلك المصري) وكانت هذه الغلطة لو بقيت ستثير مشاكل، ومن حسن الحظ أنني اعتدت التصحيح بنفسي في المطبعة اعتماداً على معرفتي بهذا الفن فصححتها ولم تقع المشكلة. أما الغلطة الثانية، فكانت في مجلة (المحامون) حيث وردت عبارة (فلم يبق لنا سوى الاستنجاد بقرارات المحاكم العليا) فأخطأ عامل المطبعة ووضع بدل الدال همزة فصارت، (الاستنجاء) وهو معنى قبيح ولكن من انتبهوا إليه تغاضوا إذ ليست لديهم حساسيات السياسيين.

وقد شوّه لي بعض المصححين في الصحف زواياي الشعرية الباسمة التي أكتبها بتوقيع (متحرش) المستعار فاضطروني إلى أن أكتب في هجائهم هذه القصيدة التي (أفشّ) بها خلقي، وكان عنوانها (بخاطركم) لأني قررت بعدها ألا أنشر في تلك الصحيفة.

أرسلت شعري رائقاً ما عابه ... شيء وقد حررته في حسن خط
فحروفه مرسومة في دقة ... لااهمل التشكيل فيها والنقط
ولقد بلغت مع الكتابة حالة ... فيها التأنق بالغ حد الشطط
كي لايجيء منضد ومصحح ... فيحرّفا، وأرى كلامي قد هبط
روح الدعابة كلها في لعبة ... تلقى بها المعنى تداخل واختلط
فإذا المصحح ماتفهمها ولا ... رسم الحروف كما رأى وقع العبط
ولقد قرأت قصائدي منشورة ... فوجدت فيها من أعاجيب الغلط
ما لا يطاق ويقلب المعنى فما ... يبقى له طعم ولا أرضاه قط

واحترت في تفسير هذا، هل ترى لغة المصحح عندكم دون الوسط
أم لم يحبّ (تحرشي) فأراد أن يزري به، أم أنه جهل فقط؟
ياسادتي القراء عذراً إن أنا غادرتكم ومصحح الشعر انبسط
فالشعر كالعقد الجمان نظمته ببراعة، فإذا تخلخله انفرط

مراسل يومي لصوت الشعب

وأعود إلى الماضي فأقول أنني في عام ١٩٣٧ وكانت جريدة (صوت الشعب) ذات الترخيص اللبناني تصدر في بيروت، بدأت أساعد في كتابة رسالة دمشق وكانت هي رسالة التوجيه الأساسية في الجريدة ومساهمتي فيها علمتني الدقة في الكتابة إذ ليس مثل هذه الصحيفة في التدقيق في الكلمات والمعاني ومايكمن تحتها وذلك من قبل الحذر والانتباه إلى النتائج الشعبية والسياسية لكل عبارة.

ثم صارت (صوت الشعب) تطبع في دمشق في مطبعة صغيرة تحت المصرف التجاري السوري رقم (٢) الآن، مقابل القصر العدلي، وأذكر أن اسمها كان مطبعة الاعتدال.

وفي تلك المطبعة كنت أنزل لأعمل في مراقبة التصحيح الذي يجريه العمال حتى لاتكون هناك أخطاء فكنت بذلك صحفياً ومراقباً طباعياً في الآن نفسه. واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٩ .

مجلة الطريق

وفي تلك الفترة كتبت مقالات عديدة في مجلة الطريق منها ماهو مترجم أو ملخص، ومنها مقال عنوانه (دفاع عن الموسيقى العربية). فكانت صلتي بالعمل الصحفي صلة مزدوجة سياسية وفكرية وأدبية. وقد نشرت مقالاً في الطريق منذ سنتين فقط وبعد انقطاع طويل.

رابطة محرري الصحف - مجلة عصا الجنة

وعندما انتخب المجلس النيابي الأول صرت أحضر جلساته لأنقل صورتها إلى الجريدة باعتباري مراسلاً برلمانياً، وتعرفت أثناء ذلك إلى كثيرين من الصحفيين العاملين ومنهم سعيد الجزائري ونشأة التغلبي وأحمد علوش وجورج شاتيلا وعباس الحامض وحسيب الكيالي وعبد الغني العطري وبشير العوف وغيرهم ممن كانوا يعملون في الصحافة. وقد اتفقت مع عدد منهم على تأسيس رابطة محرري الصحف فتم ذلك وكنت من المؤسسين. ثم اقترحت عليهم إصدار مجلة باسم الرابطة واقترحت أن تكون من حيث الإتجاه نقدية ساخرة لاذعة فصدرت في تشرين الثاني ١٩٤٧ باسم (عصا الجنة). فكان محرروها الأساسيون نشأة التغلبي وحسيب الكيالي وعباس الحامض ويحيى الشهابي وجورج شاتيلا والدكتور صبري القباني والشاعر نزار قباني والدكتور عزة الطباع وكاتب هذه السطور، وأذكر أنني كتبت فيها افتتاحية العدد الثاني وكانت بعنوان (خير وشر) كما رسمت لها بالكاريكاتور صورة المرحوم الدكتور أحمد قدري وكان أمين عام وزارة الصحة وذلك لمناسبة انتشار وباء الكوليرا وقلت أنه بعدان أعطى تصريحاً مطمئنا دعا بسطل ماء بارد فوضع فيه يديه ورجليه. ولكنني بعد صدور بضعة أعداد منها وبسبب أنني لوحقت سياسياً أخذت أرسل إليها قطعاً مختلفة بأسماء مستعارة تجنباً للإحراج.

أشعار كاركاتورية

ومن ذلك أنني في ذلك الوقت جربت أن أنظم شعراً كاريكاتورياً لمناسبة الكوليرا على لسان الشعراء المختلفين فكان مما كتبته على لسان المرحوم محمد البزم يخاطب الكوليرا:

هتف المجد بها هل تنتهين ... ويفيق العرب من غيل المنون
أم ترى المـوت سيبقى نمرا ... مزبئرا أحمر الناب حرون
نحن قوم دوّخوا الدهر على ... طوله، كيف نخاف (المكروبين)
كيف أفشى الموت في رئبالنا ... جرثم بصّقنا الدمّ لعين
يا ابنة الأوضار يا تربا على ... شسع نعل العرب كلا لن نهون!

وعلى لسان بشارة الخوري:

لهف نفسي كم فتى قد هصرت ... قده كف المنايا الجائرة
(هاضه) السقم فماتت بسمة ... في حنايا الثغر كانت خائره
وفتاة ركعت من دونه ... تلثم الكف وتهوى خائره
فاذا ماانتبهت عاجلها ... (قيء) من دارت عليه الدائره
فقضت من بعده، والهفي ... شمّ أنفي الآن ريح الآخرة

وعلى لسان سعيد عقل:

ياانطلاق النفوس من مسرح الهم ... وذعر الارواح عند الغروب
وانسياب الشعاع في ظلمة الشر ... وركض الأشباح وقت المغيب
ياحصادا اذاقنا الموت مع الإلف ... و(واوا) لجمع كل القلوب
مرحباً بالوفاة كل مهيض ... يلتقي عند موته بالحبيب

والواو والضمة هما شكل جرثوم الكوليرا التي تسمى بالهيضة.

الجندى، الصرخة، الأسبوع

وفي الفترة التالية لعام ١٩٤٧ ولعملي في عصا الجنة، انقطعت بعض الزمن عن الصحافة حتى عام ١٩٥١، ولعلها الفترة الوحيدة التي لم أكن فيها صحفياً منذ بدأت سيرة الحبر والورق، على أنني في عام ١٩٥١ عدت إلى الصحافة وأصدقائي فيها، وكتبت كثيراً في مجلة (الجندي) التي كان يشرف عليها أخي برهان قصاب حسن الضابط في الجيش كما كان يشرف على الإدارة السياسية، وظللت أكتب فيها سنوات كثيرة بتواقيع عديدة منها اسمي الصريح ومنها أسماء مستعارة وهي (الناقد، أبوعمر، ثلاث شعرات، زياد وغيرها) في مواضيع مختلفة جدا. وكتبت كثيراً في مجلة الصرخة التي صار اسمها الأسبوع، وصاحبها الصديق المرحوم أحمد علوش الذي كان من أعز أصدقائي.

وكنت وأحمد علوش نتعاون في إصدار مجلته ونسهر مساءً ونتعشى ونلعب أحياناً الكونكان مع مجموعة من الأصدقاء كلهم من الصحفيين، فكانت الصحافة تحيط بي وهي هوائي الذي أتنفسه. وعن طريقه عرفت الأخوين رحباني مما أحدثكم عنه في الفصل الخاص بالظاهرة الرحبانية في الكتاب القادم، وفي مجلته داعبت الدكتور عبد السلام العجيلي أكثر من مرة، وسيأتي الحديث عن ذلك، واكتفى الآن بأن أقول أنه كان من الصحفيين النظيفين أصحاب المبادئ، رحمه الله. وسيأتي الحديث مفصلاً في الجزء الثالث من هذه المذكرات.

الباب السادس

- الموسيقا والغناء في سورية في الثلاثينات وما بعدها، ٣٩٥-العود المسكين، ٣٩٦- إذاعة متنقلة، ٣٩٨- أشهر أغاني أم كلثوم، ٣٩٨- عمر الزعني، ٤٠٠- أغنيات سلامة الأغواني، ٤٠٣- مونولوجات عبد الغني الشيخ، ٤٠٤- أغنيات دمشقية تصف الجو، ٤٠٥- ملاحظات حول مواضيع الأغنيات، ٤٠٧- كيف هويت الموسيقا، ٤١٠- شكار في الصالحية، ٤١١- خطفوها الحراستة، ٤١٢- قم في دَجى الليل، ٤١٣- شوقي زربا، ٤١٤- فؤاد محفوظ، فؤاد البزرة، تيسير عقيل، ٤١٥- سعيد فرحات، ٤١٧- أولاد اللحام، ٤١٨- أبو قاسم الرتا - نشاطات موسيقية، ٤١٩- ألحاني الموسيقية، ٤٢٠- دراستي الموسيقية، ٤٢٢- مع عبد الله شاهين، ٤٢٤- تبسيط الموسيقا العربية، ٤٢٦- الأندية الفنية في دمشق - وصفي المالح، ٤٢٧- النادي الموسيقي ونادي الكشاف الرياضي، ٤٢٩- نادي الفنون الجميلة، ٤٣١- توفيق الصباغ وسامي الشوا - المعهد الموسيقي الفني والأندية الأخرى، ٤٣٢ - بقية الموسيقيين، ٤٣٣-

مصطفى كامل الصواف، ٤٣٤- نادي الفارابي ومجمع أصدقاء الفنون، ٤٣٥- مصطفى هلال-نشوة الماضي، ٤٣٦-ألعاب السهرات، ٤٣٧-لعبة الباط - المقرعة، ٤٣٨- لعبة (سكت)، ٤٣٩- أبو صياح الكراكوزاتي، ٤٤٠- كيف ضحكوا علينا، ٤٤١-شخصيات إذاعية مستمدة من كراكوز - حكمت محسن، ٤٤٢

الباب السادس

الموسيقا والغناء في سورية في الثلاثينات ومابعدها

نشأت في بيئة تفسح مجالا للموسيقا والطرب. المرحوم عمي (ابراهيم قصاب حسن) كان ندى الصوت اذا ترنم لنفسه، وكان يعزف قليلا على الكمان والعود وكان في بيتنا هاتان الآلتان.

ووالدي يحب الغناء ولاتسمعه إلا منشدا وهو يعمل في النجارة أو حين يكون في الدار منشرح الصدر أو يحوص في البيت يساعد أهله، انما انشاده من النوع الديني، والمشايخ شاطرون بتحويل الأغاني كلها إلى نمط ديني على طريقة القدود الحلبية. ذلك أن (القد) هو أن تضع كلمات على وزن ولحن أغنية معروفة فتأتي على (القد). ولذلك فاغنية:

هزي هزي هزي محرمتك

الساعة ستة يا حبابه ما شفتك

ياريتني نعنعه وسط الميه لغني

بركي بيمرق محبوبي بيقطف شي ورقة مني

تصبح عند المشايخ:

عزي كنزي دوما فوزي بفضلك طه اني حبك حرزي وقولك

ياريتني في طيبه ذات الشرف والهيبة .... الخ

وما من أغنية شائعة الا وضعوا عليها قدا، ولذلك فأنا احفظ قدود المشايخ كلها ولو أنني أجدها (تركيبة)، لأنهم يريدون أن يطربوا كالآخرين،

فيتدبرون الأمر بحيث تنقلب الخمر إلى شاي سكر زيادة، وينقلب الحب إلى وجدصوفي. أما أبي فكان صادقاً في تقواه.

وكانت تعقد في بستان الكركه مجالس طرب بدعوة من عمي، يحضرها من الموسيقيين الهواة رشدي الصغير وشمسي الصغير وحسني كنعان وقانونجي هو رجب خلقي.

وكان البستان لطيفا، والجلسة على فرع نهر تورا الذي يمر في بستاننا جلسة رائقة، والكنافة تجيد عمتي صنعها في البيت، وعندنا طباخة اسمها أم سليم مصرية جدا وبكل معنى الكلمة بما في ذلك الطرب وخفة الدم اضافة إلى اللون والقسمات التي تتصل بقدامى الفراعنة. وذات يوم لاأعرف من جاء بقنينة خمر (يمز) منها بالسرقة أثناء السهرة، فشم أبي الرائحة واكتشف القضية، فأخذ العصا وطرد (بلطف) صاحب (الغرمة) وأبطل السهرات لأنه كان شديدا لايتساهل في هذه الأمور حتى ولو كان هو الأخ الأصغر وكان أخوه الأكبر صاحب الدعوة.

العود المسكين

ولكن بقي من آثار هذه السهرات العود والكمان. فأما العود فقد عرفت مصيرا (رطبا) أنهى صوته (الندي).

دخل ابي مرة إلى الدار فوجد بنت عمتي الصبية تمسك العود فقال لها: خالو، أرني اياه!... فاعطته العود فوضعه في بحرة الماء، وذهب العود المسكين لأن الوالد لم يرد أن يرى بنتا تعزف على العود في بيته.

وظل الأمر كذلك حتى كبرنا ودخل العود بيتنا من جديد، فقد كان الزمان تغير وبقيت الكمنجة في غرفة عمي فلم تغطس في البحرة، وقد استوليت عليها أنا في مطلع الشباب. وسيأتي حديث ذلك وكيف تم بعد صفحات.

أما (الصندوق سمع) فقد سمعت منه أولى أغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب وسيد درويش والست سكينة حسن ومنيرة المهدية والشيخ أمين حسنين، ولكن ذكرياتي الأولى عنها فيها بعض الغموض إلى أن بدأت أغنية عبد الوهاب الشهيرة وهي (ياجارة الوادي). ذلك أن عمي وأبي افترقا في السكن حوالي عام ١٩٣٠ وبقيت الموسيقا في بيت عمي، وعندنا بقي الانشاد الديني بصوت أبي. ولم يكن صوت ابي جميلا جدا، ولكن كان مضبوطا على النغم، وكذلك صوتي فهو مضبوط ولكن ليس صوتا جميلا. ولهذا كان صديقي المرحوم سامي الدروبي كلما ركب معي في سيارتي لسفر أو مشوار، فخطر لي في لحظة ضجر أن ارفع صوتي بأغنية يسكتني فورا، مع أن صوتي غير قبيح في نظري على الأقل وخاصة اذا غنيت من (الاراضي) أي الطبقة المنخفضة لان صوتي من درجة الباريتون وهي بين الباص (الخفيضة العريضة حدا كصوت محمد الطوخي في الإلقاء) والتينور (كصوت وديع الصافي من حيث الطبقة).

اذاعة متنقلة

ولكن الأغاني التي يقدمها الحاكي (الغرامافون) أو الصندوق سمع كانت تلعلع عند باعة البوظة التي نسميها (القيمق) في سوق الحميدية وفي المقاهي الصيفية. واضافة لها كنا نسمع الاغنيات من رجل أعمي صوته ظريف يمشي في الطريق يبيع كتب الأغاني التي كان يصدرها محل (صناديق ونوري) في السنجقدار. وحتى يبيع الكتب التي نشرت فيها أحدث هذه الأغاني (وعلى الغلاف صورة محمد عبد الوهاب بطربوش طويل مائل إلى جنب أو أم كلثوم أو غيرهما) وكان بصوته العريض العميق وبحركات من فمه الكبير تضيف إلى اللحن (نكهة) خاصة، يغني الأغنيات، ويغني المونولوجات الفكهة التي كان يكتبها ويلقيها عمر الزعني في لبنان وسلامة الأغواني أو عبد الغني الشيخ في دمشق.

أشهر أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم
وفتحية أحمد - وسكينة حسن

وقد وقع بيدي عدد من مجموعة الأغاني الصادرة في أوائل الثلاثينات وسأعطيكم موجزا من محتوياته لما فيها من دلالات موسيقية وسياسية وانسانيةواجتماعية ، لأنها صورة كاملة لمرحلة من مراحل الحياة عندنا.

أغاني عبد الوهاب المنشورة هي:

(كلنا نحب القمر، وياجارة الوادي، وأهون عليك، وفي الليل لما

خلي، ويللي يحب الجمال، وأنا أنطونيو، وتلفتت ظبية الوادي) وهذه كلها من نظم أحمد شوقي. ثم : (كل اللي حب اتنصف، وعلى غصون البان) وهمامن نظم أحمد رامي.

ودور (أحب أشوفك) من نظم حسن أنور، (ويللي انكتب عالجبين) من نظم ابراهيم عبد الله، و(خايف أقول يللي في قلبي وكتيريا قلبي الذل عليك) وهما من نظم أحمد عبد المجيد.

وبعدها (لما أنت ناوى تسيب على طول) لمحمد عبد المنعم، و(الليل يقول) لأمين عزت الهجين، و(حسدوني وباين في عينهم) ولاأذكر لمن. أغاني ام كلثوم المنشورة وكذلك وهي: (روحي وروحك في امتزاج، عيني فيها الدموع، خاصمتني، دور هوده يخلص من الله، قصيدة أكذب نفسي، قصيدة افديه أن حفظ الهوى، قصيدة لي لذة في ذلتي وخضوعي، قصيدة وحقك انت المنى والطلب، قصيدة كم بعثنا مع النسيم سلاما، طقطوقه يللي حبك ياهناه، مونولوج ان كنت اسامح، طقطوقةحبيته ولابانش عليّ، اغنية الشك يحيي الغرام، وأغنية شرّف حبيب القلب، ومونولوج ان حالي في هواها عجب) ، ولا أذكر من ألفها ومن لحنها.

وأغنيات فتحية أحمد كانت: يانايم الليل، والله لاأستطيع صدك، بلغوها اذا اتيتم حماها، أماناً أيها القمر المطل، عودوا لها وسلوها.

وأغنيات الست سكينه حسن هي: ياحادى العيس، غرام واشجان وقلة منصفين، وقصيدة أحبٌ في فؤادي أم لهيب.

عمر الزعني

وتأخذ مونولوجات عمر الزعني الانتقادية في تلك الفترة حيزا بارزا وكنت احفظها جميعا بنغماتها سماعا من الاسطوانات أو المغني الأعمى.

وأظن أن هذه المونولوجات تستحق أن أقدم منها مقتطفات من كلماتها لأنها هي الاهم وليس اللحن والغناء لو كانا يتميزان بجمال زائد، ولها دلالات واضحة على الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أوائل الثلاثينات.

لو كنت حصان

أول هذه المونولوجات هو التالي:

لو كنت حصان / مثل سلطان/ والاغزوان/ كان فضلي بان

لو كنت حصان / مثل سلطان/ والاسرحان/ كان نسلي انصان

لو كنت حصان / في هالايام/ كان لي خدام/ من ورا وقدام/ مثل الحكام/ واحسن بزمان

لو كنت حصان / شوعابالي/ أبو زيد خالي/ رأسي عالي/ من الهم خالي/ عايش سلطان

لو كنت حصان / في بيت سرسق/ باكل فستق/ باكل بندق/ ماكنت بسرق/ مثل الزعران

لو كنت حصان / في بيت فرعون/ كان لي بانسيون/ عشرين كارسون/

ماكان بالكون/ مثلي انسان

لو كنت حصان / في بيت بيهم/ بعيش بفيهم/ أوفي حيهم/ باكل زيهم/ كل الألوان

لو كنت حصان/ الشرقاوي/ والصقلاوي/ والدنكلاوي/ كنت بساوي/ الف أم حصان

لو كنت حصان / وحصان عيان/ اهل الاحسان/ والاميركان/ جابوالي كان/ دكتور ديران

من سوق حظي/ مخلوق انسان/ من هالبلدان/ ذليل منهان/ جوعان هفتان/ حافي عريان.

عالهوب الهوب

وهذا مقطع من الأغنية التي يتكّلم فيها عن القضاء لمناسبة تعميم لبس الأرواب السوداء للقضاة والمحامين على الاسلوب الفرنسي، والابوكاتية هم المحامون من (آفوكا) الفرنسية.

(ويروى عن عجوز انهاجاءت إلى محام وقالت تناشده مساعدتها: يا أبوكات الله يخلي لك كات تستعجل لي بالدعوى).

عالهوب الهوب الهوب والقاضي لابس روب

والحـق آخـذ مجـــراه   ما عاد في ظلم منوب
على حقك لابقا تخاف   الحكام صاروا نضاف
والابوكاتيـه ظـــراف   ما فيهم واحد جوب

ومقطع من الأغنية التالية التي فيها:

كله نضيف، كله ظريف، كله مهفهف، كله لطيف
يالطيف، تتلطف، بالصبايا يالطيـف، يالطيـف
هرج ومرج، سوق افرنج   تكسيات بتكرج كرج
كله جديد، كله خلنج
والاسواق زي الشطرنج   نضيفه ظريفه مثل التلج
فيهـا الستات تتمايـل   والبنات بتكـرج كـرج
كله نضيف
ايد الست بايد الشـب   بعلـم الأم بعلـم الأب
غرقانين بين النهريـن   نهر ابراهيم نهر الكلب
كله نضيف

من أغنيات سلامة الأغواني

كنا صغار وصرنا كبار

كنا صغار وصرنا كبـــار   وصــــرنا نقبــل المعيـار
كيف العمل يـا ربـــي   كتـــرت علينـــا الامّـار
الجمرك قاعد من صوب   والبلدية دايره الطـــوب
عيشـتنا كانـت حلــــوه   وقت المافي ظلم منــوب
حـالتنـــا بتبكـينـــا   والزمـــان هـابط فينـــا
والحكـــم علينـــا اداري   ربــي منــه تنجينــــــا
العبيـــد صارت اســياد   أخدت رتبـــة الأمجـاد
دخــلك يا ربــي العلـي   تعجـل بيـــــوم الميعـــاد

أغنية الجراد

شـو جايه تعمل يا جراد   ما واحـد منـا حبـــك
يكفينـا جـراد البــــلاد   ارحل لا تتعب قلبك
يللـي فينـا بيكـفينـــا   اكلونـا ولسانا صغـار
وانتـه جايـه تزكيهــــا   وتعملهـا فينـا تــذكار
ولو سـكنت باراضينا   لا تأمـن منـا قلبـــك
شو جايه تعمل بالشام   ما فيهـا اكلـــه دسمـه
كانت ارضا ريش نعام   صارت سودا كالفحمه
وانت جايـه كاللحـام   تجرم ما تخلـي لحمـــه
صفينا خيالات عضـام   خاف شويـه من ربـك

مونولوجات عبد الغني الشيخ

وكان عبد الغني يتبع نفس الخط أيضاً في مونولوجاته فواحد منها يبدأ هكذا: حاجه تصيح، اقعد و استريح شو ماشفت قول مليح

وبطبيعة الحال كان هذا تحريضاً على العكس. . . وهناك مونولوج:

عصفور ان طار من كمك نَقّر بقـا عـلى دفـك

أما أشهر مونولوجاته فهو مونولوج الحماة:

احترت واضطربت أفكاري

احترت واضطربت أفكاري	ما بين مرتـي والحمـــا
رايـح طيـــر من نـــاري	بين الارض والسمـــا
كل يـــوم مـن الصبحيه	بتجي لي مرت عمـــي
ما بتـــــروح لعشيــــه	حتى تنشف لي دمـــي
فيـه لحمـــات اكلتهـــن	فيه مرقات شرقتهـــن
فيــه مصـاري لفتهـــن	حكاية ماكنت افهمـــا
كل يـــوم بتفهمـهـــا	بنتـــا انها تدشــرنـي
وبتقعـــــد بتعلمـهـــا	اليوم قولـي له طلقـــني
قولــــي ركبني هـمـك	مابقعـد أنـــا وأمـــك
أبوك وأخوك وعمــــك	همهم بقلـبي أرتمـــى
اليوم اعملي تفشيشــــه	قولي تضـرب هالعيشه
كل يوم جبنه وقريشــــه	عيشـه مـــاراح تتسمى

وقبل أن انتقل إلى التعليق على هذه المونولوجات أنقل لكم موالا دمشقيا يصور الأوضاع:

بالشام صبت هالمصايب ماتشيلها جبال
ورصاصها زخ المطر ينزل عليها جبال
ورجالها ما ترتجع لو مالت عليها جبال
سلطان مع الرجال ثاروا على العدا وقامت
بسيوفها تضرب رقاباً للعدا وقامت
عن زحفنا ما نرتجع ولايشمت الشامت
برواحنا نفدي الوطن بسهولنا وجبال

وواضح أنه الفرق ظاهر بين كتابة عمر الزعني الذي كان مثقفا ورئيس قلم في محاكم بيروت ويتمتع باحترام الناس وتقديرهم لنقده الدقيق وبين كتابة الآخرين..

أغنيات دمشقية تصف الجو

وحتى تعرفوا الجو الخلقي السائد في الثلاثينات، وهو بداية التفتح على عالم الحب بعد أجيال من الكبت، وبداية خروج المرأة إلى عالم التعليم والثقافة، وظهور بعض المثقفات الكاتبات والسافرات عن وجوههن، وتقدم صبية من آل القوتلي لتصبح أول قائدة طيارة في بلادنا ومازلنا في الثلاثينات، أقدم لكم هذه الأغنية التي كان يغنيها الأعمى في الطريق ونقرأ

كلماتها من دفتر الأغاني الذي يحمله، وهي تصف تبرم الرجل بهذه النهضة ومحاولته تشويهها.

مهمـا قرينـــــا بروايات وسـمعنـا قصص وحكايـات
قتلى وجرحى وجنايات كون امين، كله أسبابه الستات

كـــان في تنين بيحبوا بعضن أكثر من اخيـــن
طلعـــــوا سـوا لشم الهـوا تقابـــلو بتنتيـــن
ضحكوا معهن لاعبوهن بعد شويه عزموهـــن
قاموا التنتين حبوا الواحد، وهي فعل النسوان
قـــام الثاني قتـــل رفيقـه وهو مالـه صحيـان
يللـــي انحبس ويللـــي مـــات، مـــات
وعيونه بتغزل عالستات

أغنية يعقوب

ومن الأغاني التي راجت في الثلاثينات هذه الأغنية التي كانت تغنى في الطرقات أيضا:

بتعرف يعقـوب، بتعـرف شـــو سـاوى هالمضـروب
ســاوى كتير ، ســاوى كتير، مـا كان يتـوب
مـره يعقـوب كان في زينه في قـدامـه ست سمينـه
زركها زركه المسكينه

كان في بوليس واقف جنبه سمع المدام عما تسبه
فهم القصة ركض سحبه يا قليل الحشمه يا يعقوب
أكل قتله توجع القلوب بتفتكره تاب ما كان يتوب
جلده متمسح عمك يعقوب

ومن الطرائف حول هذه الأغنية أن وفدا من الشباب ذهب في الثلاثينات إلى معسكر عالمي للشباب (جامبورى) ويقال أن أحد الشباب لما سمع أن كل وفد له نشيد جماعي ذائع في بلده يغنيه أعضاء الوفد كلهم، لم يجد سوى أغنية يعقوب هذه التي نالت استحساناً كبيراً بين الوفود العالمية لجمال لحنها، فهو جميل فعلا وطريّ على الأذن. ولو عرفوا المعاني لكان شأنهم غير ذلك. ولكن أقول أن نفس القصة سبق أن سمعتها عن أغنية لسلامة الأغواني هي (نحنا الشوفيرية).

ملاحظات حول مواضيع الاغنيات

كانت العشرينات والثلاثينات، اجتماعيا، سنوات فيها تحكم مطلق من الرجل بالمرأة المدحورة إلى خدرها تحت حجابها السميك وموقعها في الدار لاتخرج منها إلا إلى القبر. وكانوا يعبرون عن ذلك بأقوال كثيرة منها أن المرأة قبرها أسرتها، وأن الرجل الحازم يضع لها مهرها في زبدية على الكتبية لتعرف في كل لحظة أنها يمكن أن تطرد من مملكتها الصغيرة.

وكـان هذا الموقف يجـد تصـويره في أغنيـات هذا العـهـد مـثل الأغنيـة الشهيرة ألتي بدأت تعود في السنوات الأخيرة مع القدود الحلبية التي تروج بين الحين والحين:

يكون بعلمك أنا مش فاضي كل ساعة أعمل لك قاضي

يكون بعلمك

أنا واخدك واخدك على ضره وان ماعجبك انت حره

على بيت أبوكي روحي ثاني بلاش تقولي كاني وماني

يكـون بعلمـك

أرى لجمال اللحن وذيوع الأغنية أن نبدل الصورة الكاريكاتورية ونقول:

يكون بعلمك أنا مش راضي أعـيش بلاكي والعـمـر فـاضي

يكون بعلمك...

ومـثلهـا أغنيـة أم كلثـوم (لي لذة في ذلتي وخضـوعي) وغيـرها من الأغنيات.

ويقابلها -ولكن رياءً- اغنيات تصور التذلل المقابل في الحب وفيها البكاء والنحيب وغناها محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهما وهي من صور الرومانسية الأدبية التي روج لها كتاب جدد أمثال المنفلوطي في الرواية وبعض الشعراء في الغناء.

وفي جـمـيع الأحـوال فـالحب ظل في صـورته الجنسيـة المغطاة بكلمـة

(الوصال) تقلبا كتقلب الافعى في الصيف في السعي المحموم وراء اللقاء دون أن يحمل أي معنى جديد أو نبيل، الا مع شعراء الرومانسية الجديدة في مرحلة متأخرة من الثلاثينات (مثل بشاره الخوري وعلي محمود طه) الذين تحرر شعرهم من هذه الذيلية.

أما السكتشات الانتقادية الشعبية فقد كانت تصور بداية عهد التحول السريع في الطباع والعادات الناشئ عن تزعزع المواقع الاقتصادية والاجتماعية القديمة ودخول المرأة في عالم العمل وبروز نزعتها الاستقلالية وضيق الرجل بهذه النزعة، فأخذ يشوهها بتصوير بعض النساء اللواتي لايبحثن الا عن الملابس الفاخرة والتقليد الأعمى في وسط اجتماعي قلق ليس ابن طبقته الأصلية ولكن يمثل الانتقال من حال إلى حال، أو الرغبة فيه.

وقد جمعت شقيقتي الدكتورة نجوى أكثر من ألف أغنية شائعة لتدرسها في استخلاص المعاني والاتجاهات ضمن دراسة اجتماعية موثقة، ولعلها تكشف صورة حركة المجتمع السوري منذ الاستقلال الأول عام ١٩٢٠ وحتى الآن.

كيف هويت الموسيقا

إذن بعد أن وصفت الجو الموسيقي العام في الثلاثينات انتقل إلى علاقتي أنا بالموسيقا كعازف ومطّلع. قلت أنني هويت الموسيقا لانني عشت في جوها منذ الصغر من آلية وغنائية وموشحات دينية، ومن دروس في المدرسة استهوتني. ولكن كانت هناك عقبة هي اقناع والدي بأن يسمح للموسيقا أن تدخل بيته من جديد بعد أن طردها كما سبق الذكر، وكان بعد ان انفصلنا في السكنى عن بيت عمي لايوجد في بيتنا لا آلة طرب ولا راديو.

وذات يوم جئت إلى والدي وكانت الفتي به كبيرة مثل دالتي عليه لأنني الولد الأكبر البكر ولأنه كان يحبني جداً رحمه الله ماأوسع محبته. قلت له: هل أنت مسرور اليوم؟ قال نعم. قلت: جدا؟ ضحك وقال: ان شاء الله. قلت: لا اقول حتى تعدني بأنك تستجيب قال: يكون خير. قلت له السنة القادمة عندي بكالوريا والدراسة وحدها متعبة، ولابد من فترات استراحة، فإما أن أذهب مع رفاقي إلى القهوة أو السينما واما ان اتعلم الموسيقا لوحدي فتكون عونا على الدراسة. كان قد ضحك فلم يعد يحب أن يتجهم، فأجابني بلطف ولكن بحزم: أعرف أن الطرب شيء جيد، ولكن أنا خوفي أن يجرنا إلى اشياء أخرى، وحكالي حكاية السهرات القديمة وكيف بدأت تتطور حتى فرط الجمع بالعصا. قلت له أعدك بألا يكون شيء من ذلك، فسمح لي، وعاد العود فدخل البيت مع الكمان، وبدأت اتعلم الموسيقا في نادي (المعهد الموسيقي الفني). هل وفيت بوعدي؟ إلى حد ما. ولكنني تذكرت المرحوم والدي حين وقع معي الحادث التالي:

كيف هويت الموسيقا

إذن بعد أن وصفت الجو الموسيقي العام في الثلاثينات انتقل إلى علاقتي أنا بالموسيقا كعازف ومطّلع. قلت أنني هويت الموسيقا لانني عشت في جوها منذ الصغر من آلية وغنائية وموشحات دينية، ومن دروس في المدرسة استهوتني. ولكن كانت هناك عقبة هي اقناع والدي بأن يسمح للموسيقا أن تدخل بيته من جديد بعد أن طردها كما سبق الذكر، وكان بعد ان انفصلنا في السكنى عن بيت عمي لايوجد في بيتنا لا آلة طرب ولا راديو.

وذات يوم جئت إلى والدي وكانت الفتي به كبيرة مثل دالتي عليه لأنني الولد الأكبر البكر ولأنه كان يحبني جداً رحمه الله ماأوسع محبته. قلت له: هل أنت مسرور اليوم ؟ قال نعم. قلت: جدا ؟ ضحك وقال: ان شاء الله. قلت: لا اقول حتى تعدني بأنك تستجيب قال: يكون خير. قلت له السنة القادمة عندي بكالوريا والدراسة وحدها متعبة، ولابد من فترات استراحة، فإما أن أذهب مع رفاقي إلى القهوة أو السينما واما ان اتعلم الموسيقا لوحدي فتكون عونا على الدراسة. كان قد ضحك فلم يعد يحب أن يتجهم، فأجابني بلطف ولكن بحزم: أعرف أن الطرب شيء جيد، ولكن أنا خوفي أن يجرنا إلى اشياء أخرى، وحكالي حكاية السهرات القديمة وكيف بدأت تتطور حتى فرط الجمع بالعصا. قلت له أعدك بألا يكون شيء من ذلك، فسمح لي، وعاد العود فدخل البيت مع الكمان، وبدأت اتعلم الموسيقا في نادي (المعهد الموسيقي الفني). هل وفيت بوعدي ؟ إلى حد ما. ولكنني تذكرت المرحوم والدي حين وقع معي الحادث التالي:

شكار في الصالحية

فقد كنا ذات يوم في النادي المذكور حين قال المرحوم صبحي سعيد المشهور باسم أبو سعيد العربجي قوموا ياجماعة معزومون عند فلان. وكان هذا من زكرتيه الصالحية، وأنا خالي الذهن من السهرة، فأخذنا آلاتنا وقلت في نفسي مناسبة لرؤية سهرات من هذا النوع. ولكن لماوصلنا وجدنا في الجلسة ثلاث نساء، واحدة في العاشرة من عمرها وواحدة صبية ولكن سوداء زرقاء كما يقولون وواحدة عجور. ثلاثة أجيال، والجلسة فيها نبيذ. انا بصدق أقول لكم أنه (كش بدني) من هذا المنظر وبعد نصف ساعة حتى لا أزعج الجماعة تظاهرت بالتعب وانسحبت .

وعندئذ عرفت بالسؤال ماهو الشكار. انه حفلة يأتي بها صاحب الدعوة بصاحبته ويدعو رفاقه للمباهاة، ويجتمع المدعوون وقد يكونون عشرات، ولكن تقاليد الشكار تقضي أن يسكروا بحشمة ولايمكن لأحد منهم أن (يناغش) المرأة لأنها لصاحبها فقط، وحتى النظرة تكون عابرة ولاتستقر عليها. واذا سكر واحدهم وتبارد حصلت طوشة وربما ادت إلى قتلى، وذات مرة أقيم شكار على ملاءة امرأة علقت دون أن يكون فيها امرأة، ومع ذلك حصلت طوشة وتقاتل الموجودون لأنهم لم يحتشموا . . .

ومن تقاليد الشكار اذا كان كبيرا -كما سمعت عنها ولم أرها- ان يأتوا بتنكة عرق وحلة كبيرة فيفتحوا التنكة ليدلقوها في الحلة ويكتّوا فوقها تنكة ماء ثم يضعوا نصف لوح بوظ ليغرفوا العرق بعد ذلك بزبدية كبيرة أوطاسة تدور على الجميع بالدور. فيغب كل واحد غبة ويعطيها للذي بعده ويمسح

شواربه التي تكون شربت معه، أي أن المازة تمسيح شوارب. . . اما المرأة فتبقى تغني وقد ترقص ولكن ينظر الكل اليها وكأنهم يعبسون في وجهها. اما الذي في القلب فالله أعلم به ولاحساب عليه. . والأرجح أن الشكار كله ماهو الا ليكون في جلسة الشراب انس الانوثة لاغير.

خطفوها الحراستة!. .

وعلى ذكر الشكار ومادمنا في حديثه اذكر أنني سمعت من المرحوم عبد القادر الميداني وكان من ظرفائنا فوق مكانته المرموقة: أن أهل حرستا كانوا كلما جاء أهل دوما بامرأة من أجل الشكار طلعوا عليهم فقطعوا الطريق واذا استطاعوا (خلصوهم) المرأة وصادروها. وقال لي أنه كان في أواخر العشرينات في باريس واقفا في جامعة الصوربون ينظر من بعيد إلى صديقنا المشترك الدكتور كاظم الداغستاني وحديثه يأتي مع الظرفاء.

وكان الدكتور كاظم واقفا مع طالبة حلوة يتكلم و (يشوبر) بيديه كعادته، وهو قصير القامةولكن حلو الوجه اشقر الشعر أزرق العينين يغري النساء -على حد قوله!. .

وفجأة جاء واحد طويل عريض وبلا (حاظور) ولادستور شبك البنت من تحت ابطها ومضى بها دون أن تلتفت هي إلى رفيقها كاظم الذي وقف مبهوتا جاحظ العينين.

وكان من عادة الميداني أن يتحدث مع الداغستاني في باريس بلهجة شاغورية فصاح به من بعيد وهو يمط الكلمة: شوكاظييم:؟!. . فأجابه ذاك

وهو ينظر إلى الهاربين: خطفوها الحراستة (اشارة إلى مايفعله أهل حرستا بأهل دوما!..).

وحكاية أخرى عن شكارات دوما التي يقطعها أهل حرستا ان اثنتين من بنات الخطا واحدة كبيرة قهرمانة والثانية صغيرة، اخذهما أهل دوما وعند وصولهم في العربة إلى حرستا التي لابد من المرور فيها خرج أهل حرستا وبدأ القواص واطلاق النار، فولولت الشابة، ولكن الدهقانة اسكتتها وقالت لها: ليش الولولة ؟ ان أخذنا هؤلاء (صخمونا) وان اخذنا الاخرون (صخمونا)..

وهي حكاية تروى في الحالات التي لايكون فيها مناص من النتيجة الوخمة مهما كانت السبل مختلفة، كما فيها تعبير قوي عن (السخام) الذي تحس به الداعرات اذ الدعارة بالنسبة اليهن (مقدور) ترغمهن عليه الظروف، ويحاولن التطهر منه بالاحسان وخشية الله عما يفعلنه، وبالمناسبة فما من داعرة الا وتخاف الله مضاعفا ولايمكن أن تحلف يمينا كاذبة، وتحاول أن تتصدق لتتخفف من ذنبها، وهذا الأمر معروف ومتداول.

قم في دجى الليل

أعود إلى المعهد الموسيقي فأقول أن فايز الاسطواني دربني في علم النغم والنوتة، وهو رجل ذكي مؤنس ومقتدر في الموسيقا، وكان موظفا في وزارة المال. وكان معه من العازفين أحد موظفي الداخلية خليل الزين وأمين سر المحافظة الاستاذ فايز دياب، وعازف العود والجمبش الممتاز زكي العجلاني

المعروف باسم زكي محمد، وكلهم لطيف وناعم وصاحب ذوق. وكان معنا كذلك رفيق من الموسيقيين الهواة القدامى اسمه محمد البارودي، وكان نجارا قصير القامة لطيف المعشر، هوايته لعب الكونكان، فكنا اذا انتهى التمرين وجلس الكبار يلعبون الكونكان لانلبث أن نسمعه فجأة يطلق عقيرته بموال (قم في دجى الليل ترى بدر الجمال طالع) وهو من نغم السيكاه فنضحك جميعا لأن الورق يكون في يده طيبا لامفشكلا. وقد تعلمت منه هذه العادة دون أن أشعر أو لعلي أشعر، وكثيرا ما أكون مع الأصدقاء الاقربين أو مع العائلة فاصرخ من قلب الدنيا: قم في دجى الليل...

ومرة كنت مع الصحفي المرحوم جورج شاتيلا في السيارة، فارسلت الموال عاليا، فقال لي بلهجته المعروفة الساخرة: استاذ، مثل موالك هذا المفاجئ كلفني ان اصبحت ساقي متيبسة. وحكى لي الحكاية فقد كان في فرنسا مع صديق في سيارة، وفجأة بدأ جورج شاتيلا أغنية بصوت عال دون مقدمات، فاضطرب رفيقه السائق وصدم شجرة واصيبت ركبة جورج ولم تشف ابدا وصار ينقل ساقه طول عمره على أنها مع الفخذ قطعة واحدة. وبهذه الحكاية رباني فلم أعد "أقوم في دجى الليل"!...

شوقي زربا

وكذلك استوليت على الكمان من بيت عمي واخذت اعزف عليها متتلمذا على استاذي في اللغة الفرنسية عاصم البخاري وعلمني عزف الكمان بالأسلوب الغربي لفترة قصيرة، ثم على فايز الاسطواني وعلمني العزف

بالأسلوب العربي. وكذلك أيضاً أفادني عازف كمان تركي هو المرحوم شوقي زربا وهو كما وصفه المرحوم فخري البارودي كان عازف كمان متميزا في جوقة السلطان عبد الحميد.

كان شوقي زربا هذا رجلا فيه كل ملامح الاتراك القدامى. أدب جم وتمسك بتقاليد المعاشرة لاتحدثه ولايحدثك إلا اذا قال: افندم، بيورنز (اي تفضل) تشكر ايدرم (أي شكرا) وقد تقربت إليه بوسائله، أي بالأدب والتأدب فأسأله: أفندم، رجاء ايدرم، كيف نعزف (العشاق)؟!..

والعشاق نغم معروف في الموسيقا الشرقية، فيمسك الكمان ويعزف النغم ويقول لي: هكذا. فأتعلم وتحفظ ذاكرتي الطرية ماتعلمت. وهكذا كنت أنا أتقرب إليه بأدب المعاشرة التركي (السلطان حميدي) وبكؤوس الشاي، وكان هو يجود علي بمعلوماته الثمينه التي لايعطيها لسواي... وربما لأنه لم يكن مثلي من يطلبها بهذا الأسلوب العصملّي أي العثمانلي...

ومثله كان موسيقي اخر اسمه (عباس بك) كان يدير لاأذكراية موسيقا عسكرية ولكن كان سخيا في الجواب على من يسخو عليه بكلمة ادب تركية أو كأس شأي. وقد أفادني الاثنان فائدة كبيرة في علم النغم الشرقي.

فؤاد محفوظ، فؤاد البزرة، تيسير عقيل

وكان معنا في النادي عدا من ذكرت الاستاذ فؤاد محفوظ وهو معلم الموسيقى الممتاز وصاحب كتب منهجية في تعليم العود، وفؤاد البزرة وهو عازف قانون وعود متفوق. وأذكر مرة أنني كنت ادندن على عودي في صالة

النادي ثم سكتت، فخرج الاستاذ محفوظ من غرفته وقال أين فؤاد البزرة ؟ قلت له لم يأت. قال فمن كان يعزف العود اذن؟ قلت أنا، فقال: احسنت حسبت أنه هو العازف. وكان هذا تشجيعا كبيرا لي اذ ان عزفي بلغ هذه الدرجة من الجودة. وبالفعل فأنا اتقن النغمات اتقانا جيدا جدا على العود، وشهد لي مرة الفنان عثمان قطرية أشهر عازفي القانون ان اصبعي على العود دقيقة جدا في انها تنحط على الوتر في المكان الصحيح دون أن تزحل أبدا، وان عزفي يمتاز بالنظافة النغمية.

ولكن البراعة الالية تحتاج إلى مداومة والعود تتركه يتركك، وأنا مشغول بأشياء كثيرة ومازدت على الهواية، ولذلك ظللت حتى اليوم أدندن بنغمات صحيحة وحلوة ولكن لااستطيع أن أقول أنني عازف متمكن في فن التقاسيم، واسمع باعجاب وذهول عزف جميل بشير ومنير بشير وعربي الشاطر وقدرى دلال وغيرهم ممن يمزج التكنيك الغيتاري الغربي بحلاوة النغم الشرقي. ولا أحب عزف فريد الأطرش مهما قلتم عني لانه على طريقة تقليدية فيها شطارة اكثر مما فيها من الحلاوة. وعبد الوهاب أجود منه في العزف على العود لأنه يلحن التقسيم بدقة وسلفا ولا يرسله على السجية.

وكان ممن أذهلوني في عزف العود محمد عبد الكريم -الأمير- الذي يكنى بالنوَرَي أيضاً. فهو عازف بزق هائل القدرة وصفه الموسيقار الألماني البارون بيلينغ الذي كان يقيم في دمشق بأنه عملاق- مع أن طوله لا يزيد على ١١٠ سنتمترات. فقد زار مع وفد من الموسيقيين السوريين الملحن وعازف العود الشهير رياض السنباطي الذي نظر إليه نظرة عابرة لأنه لم يكن

يعرفه ولا (أقامه من أرضه) كما نقول في دمشق. ولكن بعض أعضاء الوفد أعطى العود لمحمد عبد الكريم فعزف عليه عزفاً مدهشاً ببراعته وترك أثراً عند السنباطي. فتناول العود منه ولكن بعد أن جسّه سأله: من على أي وتر عزفت؟ ذلك أن محمد عبد الكريم عزف كل النغمات المتسلسلة من مكان غريب على الوتر -وهو ما نسميه بالتصوير- فعقدت لسانه الدهشة. وهذه القصة رواها الموسيقي العالم والعازف المتميز الأستاذ الدكتور سعد الله آغا القلعة.

وللطرافة فإن محمد عبد الكريم كان قد خرج مع وفد موسيقي من دمشق لاستقبال السيدة أم كلثوم في المطار، فلما رأته بقامته الململمة نظرت إليه ملياً فقال لها: (في ايه يا ست حتى تبصّي لي من فوق لتحت؟!) أجابته على الفور: هوّه انت لك فوق؟ تعني أنه كله (تحت)!...

أما تيسير عقيل فكان يعزف في النادي على الفيولونسيل، وهو انسان ظريف وفهيم ومتطور، وكنت أحيانا آخذ الفيولونسيل عنه اذا غاب، أو أعزف معه بدرجة متوسطة من الاتقان. ثم صار تيسير فيما بعد من الأشخاص البارزين في عالم الموسيقا نقابيا وموسيقيا. واذكره للأمانة ولبيان من هم رفاقي في تلك المرحلة.

سعيد فرحات

على أن الرجل الذي لاأنساه في تاريخ الموسيقا هو المرحوم سعيد فرحات، وهو استاذ كبير في الادوار والموشحات وفي الايقاع، علمنا كثيرا من الأدوار اذكر منها (الحبيب للهجر مايل) و(في شرع مين) و(انا هويت)

وغيرها، وعددا أكبر من الموشحات. وكان يعلمني بوجه خاص فن تصوير النغمة، فيكون يغني البيات مثلا من موضعه على العود (على وتر الدوكاه) وهو أوسط الأوتار فاذا به ينحدر به بشطارة بمقدار ربع صوت ثم يجرى البيات على هذه الدرجة التي تسمى (زركله) وأنا أتعب والهث في ملاحقته وأنجح في النهاية، حتى أنني أقول أنه هو الذي ربى أذني تربية صحيحة. وقد علمت أخيراً من عبد السلام سفر الموسيقي الكبير وعازف الناي الأشهر أن سعيد فرحات درّبه عين التدريب، فصار علماً في الموسيقا والتلحين والعزف، وقد ترافقنا بمحبة أكثر من أربعين سنة ومانزال صديقين.

أولاد اللحام

وممن اذكرهم في المعهد الموسيقي ولاأنساهم عبد الكريم اللحام وعبد الوهاب اللحام وعلي اللحام وعدنان اللحام، وكلهم موسيقي، وكلهم يتاجرون بالسجاد وبالأعواد الموسيقية الا عدنان فهو طبيب، ولكن كل واحد منهم يختلف بنكهة خاصة عن الاخرين.

وكانو من أطيب الاصحاب وبقيت في صحبتهم مدة طويلة جدا. وكان المرحوم عبد الوهاب اللحام نحيفا معروقا (مقدقدا) أي مقددا اذا صح التعبير، فكنت اداعبه بأن ارسمه بالشورت لتبدو ساقاه اللتان "مثل العود". وقد توفي عبد الوهاب وعدنان إلى رحمة الله.

أبو قاسم الرتّا

وقد عرفني أولاد اللحام بجار لهم اسمه (أبو كاسم) كان يعمل رفاء سجاد أي (رتّا) كما نسميه في دمشق.

وكان أيام الحرب يتكلم بالناقض والمنقوض باستمرار فيقول لي: قلت لي هالالمان أقوياء؟ لكن ياأخي الروس كسروا رأسهم. وهكذا كل كلمة وعكسها وراءها حتى صار عندي كل من يتحدث بالتناقض اسميه بأبي كاسم، وذات مرة كنت اكتب (بالعربي الفصيح) في الرأي العام فكتبت عن السياسي الفرنسي جاك سوستيل الذي يتحدث بالناقض والمنقوض قطعة عنوانها (أبو كاسم سوستيل)...

وللمناسبة ففي سورية كل محمد يكنى (أبو جاسم) وكل عبد الله (أبو نجم). وفي لبنان كل نقولا يلقب بالحاج، وهناك عادات كثيرة يجب إحصاؤها لطرافتها.

نشاطات موسيقية

كان ذلك كله عام ١٩٣٧، وفي نفس السنة كنت قد دخلت في جمعية انعاش القرية التي سبق الحديث عنها، وكان رفيقي في الجمعية وفي هواية الموسيقا كامل القدسي، وصرنا انا وكامل ثنائيا يؤلف ويلحن ويعزف، تارة في داره وتارة في المعهد، ولاسيما في مخيمات الجمعية في جديدة عرطوز وفي ارض تقع بين سقبا وجسرين في الغوطة، وقد سبق الحديث عنهما.

كما أنني تجرأت فظهرت مع فرقة المعهد الموسيقي في حفلة قدمناها عزفاً

حباً فيها موسيقا وغناء في اذاعة بيروت، ثم الفنا في عام ١٩٤٣ أنا وكامل القدسي وعدنان اللحام (الدكتور عدنان فيما بعد) ثلاثيا مؤلفا من عود وكمان وفيولونسيل، يعزف قطعا موسيقية موزعة على نحو فيه شيء من الابتكار وقدمناها في راديو دمشق.

ألحاني الموسيقية

ثم لاتستغربوا -أرجوكم- اذا انتقلت بكم إلى مايجاوز الفترة التي يصفها الكتاب وتقدمت معكم إلى السبعينات ومابعدها حتى ١٩٨٣، قلت لكم أنني كتبت منذ طويل الحانا موسيقية لاغنيات، وكان ذلك على سبيل التجربة ومن أجل ادراك الاحساس النغمي والتوافق بين الكلمة والنغمة من الداخل، من قلب التجربة، لاستطيع ان اتحدث في ذلك وألفت نظر الأخرين. فكنت مرة في مصر -القاهرة- في زيارة للزوجين ضيا وندى في ١٩٦٢، حين طلبا مني شعراً لأغنية امسكت ورقة وقلماً وكتبت:

لاتكتّر التلميح، قلبي وراق شدّا الريح
قلبي غمر أشواق، والأشواق عم بتصيح

وجلست إلى البيانو، وتلمست أصابعه على نغمة العجم (الماجور) فتلحنت الأغنية، وفيما بعد غنتها هيلدا زخم وهي مسجلة الآن في تلفزيون دمشق. وأظن أن ضيا وندى سجلاها في مصر بلحن منهما.

ثم لحنت مونولج (اي أغنية فيها بوح انسان باحاسيسه) وهو من تأليفي أيضا وعلى طريقة الطرب القديم. فاللحن كله من نغم الحجاز كار، وتتخلله

مقاطع فيها عجم، وبيات نوا، وسيكا، ونكريز، وتعود كلها فتنتهي بالحجاز كار، وكان صنعة متقنة ومطربة وغنته احدى مطربات وزارة الثقافة في حفلاتها.

كما لحنت بعض المقطوعات من اوبريت ورده التي قدمت على مسرح المعرض، ومشروع أغنية من نغم الحجاز. . .

لاأزعم أنني موسيقي، ولكن احساسي بالموسيقا اكتمل بهذه العملية فلم اعد مجرد (مستهلك) ولامجرد (ناقد). ولذلك حزنت لما لحن بعض الملحنين قطعاً من تأليفي الشعري لم يعطوها حقها.

أحد الأناشيد وهو يتأجج بالشرر حيث يتحدث فدائي عن نفسه فيقول (وهذا مقطع واحد منه)

ليس لي وجه أنا — ليس لي من قسمات
أنا طيف عانقته الظلمات — وأنا ثأر وموت وحياة
ليس لي حي فيعرف — ليس لي قطّ هويّه
منزلي ارض ومعطف — ووسادي بندقية
يارياح الثأر هبي واعصفي — يادروب الليل شدّي خطواتي
فأنا أكمن عند الحنوات — في طريق الشرف
وأنا طيف ملثم — اصبع فوق الزناد
رشّة لا تتلعثم — فلعينيك بلادي

أخذها ملحن نعتبره من كبارنا ولكنه بصوته الناعم وطريقة تلحينه العاطفية راح كل ما فيها من ثورة وتأجج فكأننا أمام تانغو، سامحه الله.

وأخذ ملحن آخر قطعة عشقية ناعمة كتبتها في اواخر الثمانينات لتكون صورة الحب الذي يفتح ألف افق والف درب ويضيء بالف شمس. . أحبك أعنى، افيق أمد الجناحا، وافتح صدري يعب الرياحا، وافرح بالشمس تعلو ترش الحقول، بدفء يداعبني ويقول: نعمت صباحا. . .

ومن مقاطعها:

احبك اغني ارافق سرب الصغار

حصاني أسرجته من عصا

واركض اركض فوق الحصا

وارجع والجرح في ركبتيّ

ومن جنبات الحديقة، الملم الف شقيقة

تطوق جيداً حبيباً إليّ

والباقي أجمل - بشهادتي - ولكن الملحن حذف منها مقاطع انقصت الصورة فحزنت وندمت. . . ومثل ذلك حدث في قطع للأطفال. وأعتذر من الأخوة الملحنين ولكنني اعتبر أنه مالم يلتق الملحن بالمؤلف ويعملا معاً لا نبلغ الكمال.

دراستي الموسيقية

وهنا أقول أن الأساس الموسيقي النظري الجيد الذي أخذته منذ الثلاثينات من جو بيتنا ثم من مصطفى كامل الصواف، ثم عن اساتذه المعهد الموسيقي ثم عن كتاب كامل الخلعي في نظريات الموسيقا العربية (الذي فهمته أكثر من الموسيقين المتمرسين بسبب أنني درست الفيزياء الصوتية وهم لم

يدرسوها مكتفين بعلم النغمة فقط). كل ذلك قد أهلني لأن أكتب في هذا الفن أفضل من غيري حتى أنني الوحيد الذي تولى الرد على مبالغات مشيل الله ويردى التي سيأتي ذكرها في حديثي عنه في الخمسينات، كما أهلني ذلك لأن أصبح فيما بعد صديقا ومحاورا للاخوين رحباني، وان ادير المعهد الموسيقي بالوكالة في عام ١٩٥٢، وان أصبح مديرا للفنون عام ١٩٦٠، وان احاضر في الموسيقا العربية مرات عديدة:

- في براغ في مهرجان الربيع الموسيقي عام ١٩٦٢ حين شرحتها لعدد من حضور المهرجان من الموسيقيين.

- ثم في دمشق وسورية مرات كثيرة ومن بينها حفلة في دار السفير الفرنسي تكلمت فيها بالعربية والفرنسية عن علم النغمة العربي مع الايضاح على العود.

- وحفلة أخرى في قصر العظم للسلك الديبلوماسي والذواقين قدمت فيها شرحا بالعربية والفرنسية للموسيقا العربية وقدمت الاوزان والايقاعات ورقص السماح فكانت مناسبة ناجحة، ثم محاضرة في المركز الثقافي العربي بدمشق.

وفي حديث تلفزيوني قدمت فيه الانغام الموسيقية العربية مع أمثلة قدمتها على عودي وقد يكون الكثيرون استغربوا ذلك من محام معروف ولكن رأيت في ذلك امرا عاديا فكل من عنده شيء يفيد يجب أن يعطيه.

وأخيرا كانت دعوتي من قبل اتحاد الاذاعات العربية في تونس في كانون الأول ١٩٨٣ لاكون واحدا من بضعة متحدثين في الفنون المتصلة بالاذاعة

الصوتية، وكان موضوعي البرامج الموسيقية والغنائية في الاذاعة الصوتية، وقد اثار اهتمام الحضور من عرب وأجانب. فالى هذا الحد بلغ الانفصام بين مثقفينا وموسيقانا حتى ان الاهتمام بها - ولو مثل اهتمامي الوسط - يبرز بشكل يلفت النظر.

ثم بعد هذا كله، وللامانة العلمية اعترف بأنني لم ابلغ في علم الموسيقا العربيةكماله لانني لم أتفرغ له ولكنني أعرف مايكفي للتحدث في عموميات هذه الموسيقا النظرية حديث الواثق الذي يدرك ايضا باذنه وعزفه مافي هذه الموسيقات من لوينات ناعمة.

كما أزعم أنني حللت كثيراً من ألغاز الموسيقا العربية والايقاعات لإزالة الصعوبة المصطنعة فيها والتي لا مبرر لها.

مع عبد الله شاهين

كما أقول أن الموسيقي الكبير المرحوم عبد الله شاهين كان أول من وفق إلى صنع بيانو غربي شرقي وذلك بأن احدث لوحتين للاوتار احداهما تدوزن على الدوزان الغربي أي على السلم المعدّل الذي وضعه الموسيقار باخ، واللوحة الثانية (ريجستر) تدوزن على الكومات العربية الموحدة أيضاً. وفي البيانو دوّاسة بالرجل (بيدال) اذا ديست انتقل الريجستر الغربي او انزلق جانباً وحل محله الريجستر الشرقي، وعندئذ تنقر اصابع البيانو الوتر الذي يعطي النغمة العربية. وكان هذا حلاً موفقاً وعملياً وتوليت أنا تقديمه إلى الجمهور بموافقة من وزارة الثقافة في عام ١٩٥٩ على ماأذكر، فذهبت مع

عبد الله شاهين والبيانو محمولا على سيارة مرافقة إلى حمص وحماه وحلب واللاذقية وغيرها، فكنت اقدّم الموضوح بشرح الفارق بين النغمتين العربي والغربي ثم يقدم عبد الله شاهين على البيانو عملياً الفارق. ونجحت الجولة نجاحاً باهراً.

وعلى اساس هذا المبدأ اقترحت أن تزود جميع المعاهد بالبيانو المذكور لأنه يحل مسألة العزف على النغمات كلها. ولكن الذي حصل هو أن المبدأ ذاته طبقه عبد الله شاهين على آلة الاكورديون، وصنعت هذه الآلة المزدوجة الافرنجية العربية في المانيا، وشاعت حتى لم تبق اوركسترا في البلاد العربية إلا وفيها هذان النوعان من النغم، كما هي موجودة الآن في كل آلات (الاورغ) التي تصاحب المغنين في كل البلاد العربية وربما في العالم أيضاً.

اذن ففضل عبد الله شاهين لايجاري في هذا الموضوع وهو الذي حل هذه العقدة المستعصية وأنا الذي قدّمها للناس أول مرة في الصحافة والاذاعة وأمام الجمهور.

وبهذه المناسبة فقد قامت الفنانة المرحومة وجيهة عبد الحق بتجربة أخرى لصنع البيانو الغربي الشرقي، ولكن على مبدأ آخر، وسعت إلى تسجيل اختراعها، وكانت له ضجة اعلامية فقط دون أن يصحبه انتشار عملي.

وقد توفيت وجيهة عبد الحق مؤخراً مأسوفاً على علمها وبراعتها وجهودها الكبيرة، وبقي البيانو للتاريخ وربما امكنت الاستفادة منه لأن تعدد الحلول مفيد.

تبسيط الموسيقا العربية

هذا واهيء الآن دراسة تبسط الموسيقا العربية لطالبيها حتى يمكن أن يعرف اصولها كل انسان بدون جهد كبير وذلك بالغاء التسميات الموحشة وبتقدير أن الانغام العربية البسيطة هي الراست والبيات والسيكا (وهي متقاربة في درجاتها النغمية، ثم الحجاز والصبا، وتأتي بعد ذلك الانغام وهي العجم (ماجور) والنهاوند والكرد (المينور) أما باقي الانغام فهي مركبة من نغمتين اصيلتين أو مشتقة بتعديل بسيط. وكذلك وضعت طريقة لتبسيط إدراك الإيقاعات العربية المعقدة التي يسمونها العرجاء، وذلك بإعادة الأرقام المعقدة إلى أوزان ثنائية أو ثلاثية تتعاقب وفق نظام خاص فيصبح وزن السماعي وهو مؤلف من عشر نبضات مقسماً إلى ٣ و٣ و٤، وهو شيء سهل الحفظ والأداء. كما أنني أفكر ببرنامج تلفزيوني تعليمي ذوقي في هذا الاتجاه.

الأندية الفنية في دمشق

كانت الأندية الفنية هي المنطلق الذي بدأت منه الحركة الفنية، ولعل أحسن من رصد حركتها هو الاستاذ وصفي المالح (رحمه الله) الذي وضع كتابا نادرا عن تاريخ المسرح السوري والأندية الموسيقية الغنائية، وكان الاستاذ وصفي هو نفسه من الرواد فيها ومن أبطال العمل.

اذن فكتابه تصوير صادق، وما استعيره منه لايمكن بأي حال أن يغني عن مطالعة الأصل لأن الكتاب جدير بأن تضمه مكتبة كل باحث وذواق

وصفي المالح

ويعتبر الاستاذ وصفي المالح نفسه أنه الرابع بين رواد هذه النهضة، ويعطي الدرجات الأولى الثلاث لثلاثة من الدماشقة هم أحمد أبو خليل القباني وعبد الوهاب أبو السعود وتوفيق العطري.

لست في صدد الحديث عن القباني الآن ولو أنني من الذين عملوا على تخليد ذكراه وانشاء ومباشرة مسرح القباني بدمشق (افتتح في أيام ادارتي للفنون في وزارة الثقافة) ولافي صدد الحديث عن عبد الوهاب أبو السعود وكان استاذي في الرسم وقصتي معه وردت في القسم الخاص بدار المعلمين من هذه المذكرات، أما الثالث وهو توفيق العطري فاعرفه واذكره مع ان لقاءاتنا كانت قليلة لاختلاف العمر كثيراً، ولكن اعرف انه خال الفنان نهاد قلعي وقد تتلمذ نهاد على يديه.

أما وصفي فنتشابه في قسم من سيرتينا اذ تربينا كلانا في الحركة الكشفية، واهتممنا كلانا بالمسرح وبالشعر ولاسيما الشعر الضاحك، وعمل وأنا من بعده على حفظ سيرة السابقين، ثم بدأنا نسجل المذكرات في وقت متقارب، هو حين قارب التسعين وأنا حين جاوزت الستين، اذ شعرنا أن جزءاً من التاريخ الفني مهدد بالضياع ان لم نبادر إلى تسجيله وانقاذه. وكم يسرني ان أرى أنه عمل في الصحافة الفكاهية رئيساً لتحرير مجلة (حط بالخرج) التي ذكرها الكثيرون من المؤرخين وكان يصدرها هاشم خانكان.

ويحدثنا عن أول فرقة مسرحية من الاولاد اسسها أحمد عبيد وهو الذي صار فيما بعد الشاعر المؤلف صاحب المكتبة العربية وكان من الممثلين صالح الحلبي وفوزي العظم وعبد الوهاب القنواتي وعبد الوهاب أبو السعود، وكان ذلك عام ١٩٠٧ واول عرض لها على مسرح القوتلي في السنجقدار عام ١٩١٢، ثم مسرح قصر البللور في باب توما، وكان عبد الوهاب أبو السعود قد تمرن على التمثيل في القاهرة مع فرقة جورج أبيض.

ثم قامت فرقة مسرحية ثانية عام ١٩١٩ باسم (فرقة عبد الرزاق الاتاسي) وقدمت عرضها على مسرح زهرة دمشق وكانت المسرحية باسم (انتصار المجاهد عودة ابوتايه) الذي حارب الاتراك في الاردن، وبعدها مسرحية (حاتم الطائي) على مسرح القوتلي ومسرح قصر البللور. وتابعت مسرحياتها وهي: عواطف الزوجة، والممثل كين، ولويس الرابع عشر، وعطيل، وصلاح الدين الايوبي. وكان أبرز الممثلين عبد الرزاق الأتاسي وجودة خلقي وبشير الطرزي وعلاء الدين المسوتي وأكرم خلقي الذي قام

بدور الكونتيسة وهو رسام واحترف التمثيل طويلا فيما بعد حتى توفي وفي تلك الفترة زارت البلاد جوقة الشيخ سلامه حجازي، وفرقة برهان بيك التركية، والجوق السوري الجديد والفرقة الألمانية الايمائية وفرقة عكاشة وفرقة ارطغرل بك الارتجالية وفرقة رمسيس ليوسف وهبي وشركة التمثيل لعطيه محمد وفرقة كشكش بك وبطلها نجيب الريحاني ومعه على الكسار وعلى العريس وناديالعريس وسهام رفقي، وفرق مصرية أخرى ومجموعة من الكوميدي فرانسيز فيها الممثلان الكبيران شارل بوايــــه وماري بل.

النادي الموسيقي السوري ونادي الكشاف الرياضي

تأسس النادي الموسيقي السوري عام ١٩٢٨ برئاسة المحامي الاستاذ عزة الاستاذ وكان هاوياً للفنون وانجب ولدين احدهما سعاد الاستاذ وهو شاب شجاع كانت صلتي به قوية والثاني من أصبح يعرف فيما بعد باسم فني هو (فتى دمشق) وكان جميل الصوت. وكان احمد عزة الاستاذ محامياً بارعاً وماسونياً كبيراً ولكنه في نهاية عمره عاش منفرداً في غرفة كبيرة كانت منامته ومكتبه في بناية العابد وزرته فيها وتعقدت من كونه يعيش وينام ويعمل في المكتب حين تقدمت به السن وكانت زوجته توفيت فيما يبدو، أحسن الله ختامنا.

وكان في النادي عازفون كبار منهم على العود شفيق شبيب الموظف في المصالح العقارية ووجيه الشملي، وعلى الكمان مصطفى الصواف ونصوح الكيلاني وفريد صبري ومحي الدين الزعيم ورشاد أبو السعود، وعلى

القانون رجب حلقي وفوزي قلطقجي وخليل الجبه وعثمان قطرية، وكان معهم من المشجعين والعازفين ابراهيم شاميه ومشيل الله ويردي وعلى الاسطة وابراهيم النصر. وكان في النادي ايضاً حمدي طربين ويعزف على الكمان ولو أنه اشتهر فيما بعد وجمع ثروة من تأليف الكتب والعمل في الطباعة ثم تجارة المطابع، وحمدي بابيل وهو أحد صاحبي جريدة الأيام وانضم اليهم بعد ذلك الفنان الحلبي الكبير توفيق الصباغ.

ومن ذلك ترون كم كان الفن يجمع من الشخصيات المحترمة.

أما نادي الكشاف الرياضي فكان بطله عبد الوهاب أبو السعود وتوفيق العطري ومجموعة كبيرة من الشباب المرموقين. ويقول الاستاذ وصفي المالح أنه تقدم ذات يوم إلى استاذه عبد الوهاب أبو السعود وسأله أن يعطيه دوراً صغيراً (كومبارس) لايتجاوز الخمس كلمات، فشجعه أبو السعود وذكّره بانه سمعه يلقي قصيدة في مدرسة الملك الظاهر أبكته كما أبكت الجميع. واعطاه الدور ولكنه كان دور االوزير عماد الدين في مسرحية صلاح الدين وهو دور اساسي خاف المالح وظن في الأمر خطأ واعاد الدور -بعد أن حفظه- إلى الاستاذ أبو السعود ولكن هذا أصر على أن يقوم به. ولما قام بالدور بصورة باهرة حلف توفيق العطري بالطلاق أنه لايمكن أن يكون هذا الشاب يمثل للمرة الأولى. ومن المصادفات ان هذه المسرحية عرضت أمام المسؤولين وكان بينهم الشيخ تاج والجنرال كاترو وكان ذلك في كانون الثاني ١٩٢٩.

نادي الفنون الجميلة

وكان تأسيس النادي بعد أن اغلق نادي الكشاف ابوابه اثر رحلة سرق محاسبها المال وانصرف (وهو ماحدث لاكثر الفرق!)، فقد تألف ناد جديد باسم نادي الفنون الجميلة ضم اكثرية من أعضاء النوادي السابقة، يضاف إليهم توفيق الصباغ والرسام الأشهر توفيق طارق. وجرت الحفلة الأولى بمسرحية (الماريشال موغرانسي) وعرضت في مسرح العباسية في ١٢ تموز ١٩٣٢ وحضرها رئيس الجمهورية السيد محمد علي العابد وكبار المسؤولين، واستطاع الرسام توفيق طارق ان يرسم لوحة لدمشق من المهاجرين أمام الحضور وبالألوان الزيتية في أربع دقائق وخمس وثلاثين ثانية فكانت معجزة واهديت إلى رئيس الجمهورية فتبرع باربعمئة ليرة سورية تعادل قيمتها الشرائية اليوم أكثر من أربعين الفاً بكثير (كانت تشتري أربعين خروفاً سميناً!).

استؤجرت دار كبيرة في حي ستي زيتونة وفرشت بالاثاث الفاخر وصارت مقر النادي.

هنا ينتهي ماأخذته من كتاب الاستاذ المالح لتبدأ ذكرياتي الشخصية عن هذا النادي. فقد كانت صلتي الأول به عن طريق أحد اعضائه الاستاذ شوكة الطرزي وهو من الظرفاء ذوي النكتة الحاضرة، وكان استاذاً بارعاً في الرياضيات ولذلك كان استأذن ادارة النادي في ستي زيتونه (على الطريق الموصلة من سوق ساروجه إلى العقيبة) في أن يعطي دروسه الخاصة نهاراً في النادي، وكنت بين تلاميذه. وحين كنت ادخل النادي كنت اتجول في قاعاته

واری صـــور الاعضاء والحفـــلات فأشــعر أنني فـــي حـــــرم مسرحي.

كما استفدت من شوكة الطرزي طريقته الظريفة في القاء الفكاهات اذ كان يسلسل روايتها بصورة مسرحية تتصاعد حتى تنفجر النكتة أو المفارقة عند الكلمة الأخيرة فيحصل الضحك. شكراً لروحك ياشوكت! .

توفيق الصباغ وسامي الشوا

وكان بين الموسيقيين الذين حضروا في نوادي دمشق لفترة من الزمن سامي الشوا وهو كبير عازفي الكمان على الطريقة الشرقية في العالم العربي، وتوفيق الصباغ الذي هو عازف كمان ومؤلف موسيقي وعالم نظري ومجموعته التي قدم فيها مجموعة البشارف والسماعيات كانت نبراسا وقد تعلمت العزف عليها، وكان يعجبني من تأليفه سماعي السيكاه الذي فيه طرب وفيه حداثة. وكان هذان الموسيقيان الكبيران مثل كميل شمبير وانطوان زابيطا من رواد الموسيقا في سورية وفي العالم العربي. كما كان من اعضاء النادي مصطفى كامل الصواف ومصطفى هلال.

المعهد الموسيقي الفني والأندية الأخرى

أما أقرب الأندية إلى قلبي وإلى معرفتي فهو المعهد الموسيقي الفني الذي كان محله في أول شارع   ايار الذي قدمت الحديث عنه قبل قليل وكان مقره في الزاوية فوق المقر القديم لنادي المحاربين القدماء. كان منزلي على بضع عشرات من الامتار من المعهد فكان بقربه والانس الذي يتجلى في

اعضائه قد اجتذبني، وانضممت إليه أنا وكامل القدسي، وكنا صديقين منذ جمعية انعاش القرية، وبدأنا الموسيقا معاً تعلمناها من ذاتنا ومن السماع، ثم انتسبنا إلى هذا النادي معاً. وكان كما يدل عليه اسمه نادياً ومعهداً للتعليم، ويرد إليه المستجدون فيتعلمون الكمان على يد اساتذته.

بقية الموسيقين

وكان من الأعضاء الموسيقيين عمر الفقير، وخليل جبه وهذا عازف قانون عرفته من قرب فيما بعد، ومحي الدين الزعيم وهو موظف قصير جداً مسن في بلدية دمشق أو الاطفائية ولكن يعزف جيدا على الكمان، ووجيه شملي وهو مطرب وعازف عود واتصلت صداقتنا فيما بعد حتى توفي، ورجب خلقي وهو من أشهر عازفي القانون القدامى وبيننا قرابة نسبية، وفوزي قلطقجي وهو عازف قانون، ومحمود كبتول وهو من المغنين اصحاب الصوت العالي الرفيع القوي، وجميل الحاج وكان صاحب صوت قوى إلى حد اننا نضحك معه فنقول أنه اذا غنى في الربوة سمعوه في باب توما دون حاجة إلى ميكروفون، ونصوح الشعار ومطيع الكيلاني وعبده حنا وزكي حداد ونوري أبو النور وجورج ديب أبو داود وعادل المالح وباصيل سيوفي وفؤاد عكاوي وعلي الشوا وطارق غزال وجورج حنوش، وسعيد فرحات وقد سبق حديثه، ومحمود القربي، وانضم اخيرا اليهم الاستاذ فؤاد محفوظ قادما من حلب.

فرع الرسم وفرع المسرح

أما فرع الرسم فكان يرأسه الفنان الكبير توفيق طارق وهو أكبر رسام كلاسيكي عرفته البلاد وله لوحات ملحمية قليلة ولكنها بارعة جدا، وتعتبر ذات قيمة، ومن هذه اللوحات القليلة لوحة موجودة لدى الصديق المرهف خالد اغريبوز.

وفرع المسرح كان باشراف توفيق العطري وفيه وصفي المالح وعبد الوهاب أبو السعود، وقد تحدث الاستاذ وصفي المالح باسهاب عن النشاط المسرحي ولم اكن متصلا به اتصالا يسمح بان تكون معلوماتي عنه وافية بخلاف النشاط الموسيقي.

مصطفى كامل الصواف - مرة أخرى

وكنت قبل ذلك أعرف النوته الموسيقية من دروس الموسيقا التي علمنا اياها استاذنا مصطفى كامل الصواف. وكان هذا الرجل مخلصا لفنه، وقد بدأ يدرس الطب ويهوى الموسيقا، فسمعه ذات يوم المرحوم ساطع الحصري فاقنعه أن يكون موسيقيا لأننا سنجد أطباء كثيرين ولكننا لن نجد موسيقيين كثيرين. حين قص علي هذه الحادثة تذكرت أن الحبيب بورقيبه رئيس الجمهورية التونسية كان في أول حياته ممثلا هاويا فلما صار رئيسا للجمهورية القى خطابا قال فيه:

حيثما وجدنا وزيرا عنده موهبة ومقدرة مسرحية فليترك الوزارة وليذهب إلى المسرح لأننا سنجد دائما وزراء ولكننا لن نجد دائما مسرحيين موهوبين، وهؤلاء أكثر أهمية!... انتهى كلام بورقيبة.

وهذا ماحدث بالنسبة للاستاذ مصطفى كامل الصواف، فقد صار موسيقيا ودرس الموسيقا ثم عاد يعلمها في تجهيز دمشق، وكان يعزف على البيانو والكمنجة. ولكن التلاميذ الذين أنا منهم لم يكونوا في معظمهم ممن يألفون الموسيقا، وهذا أمر طبيعي فان الموهبة الموسيقية أمر نادر. فكان يعلمنا الاناشيد بالفرنسية ويعربها بكلمات عربية، ويحاول أن يجعل منا (كورسا) لطيفا، فاذا (جعر) بعضنا بصوت منكر، قصداً أو طبيعة، التفت الاستاذ الصواف نحونا وعينه اليسرى ترتجف بعصبية، وهويزوي فمه استنكارا وقرفا من مثل هذه الحثالة (بالمعنى الذوقي)، وقال : فهمت عليكم ماذا تريدون، ثم يقعد على البيانو يخبط عليه بقوة ويغني ونحن نرد معه: على الطريقة الزكرتية

أهلين بربك، أهلا وسهلا ياطيب. . . وقد سبق ذكر ذلك.

نادي الفارابي ومجمع أصدقاء الفنون

وكان هناك ناد آخر قريب منا هو نادي الفارابي، في نفس حينا وفيه نصوح الكيلاني ومطيع الكيلاني وآخرون، وكان هناك مجمع اصدقاء الفنون الذي يرأسه عدنان الركابي واتجاهه الموسيقا الغربية وفيه هشام الشمعة و(الدكتور فيما بعد) شمس الدين الجندي وموسيقيون شباب كثيرون ويشرف عليه البارون بيلينغ عازف البيانو الشهير والذي كان يقيم في دمشق.

مصطفى هلال

ولابد هنا من أن افرد مكاناً خاصاً لمصطفى هلال من اعضاء هذه النوادي منذ شبابه المبكر. فقد كان شاباً جميل الصورة جميل الصوت وكانت والدته ذواقة للاغاني القديمة، فتعلم منها واتقن.

وفي منتصف الثلاثينيات قدم مسرحية غنائية على مسرح سينما الأمبير، وكان في حاجة إلى كورس من المرددين، فجاء إلى نادينا (رابطة الفاروق) وعرض علينا ان نشاركه، فقبل بعضنا وكنت بين من قبلوا.

وهكذا وقفنا في الكواليس اي خلف الستائر الجانبية فكان هو يهتف على المسرح: اننا للحب، ونجيب نحن من الكواليس: والحب لنا.

كلمتان فقط، ولليلة واحدة أو ليلتين لا أذكر، ولكنني بذلك اكون سجلت أول ظهور مسرحي لي في مسرحية غنائية وأنا بعد فتى ثم تبت عن الظهور بعد ذلك!!.

نشوة الماضي

وقد قدم مصطفى هلال برنامج (نشوة الماضي) الشهير في اذاعة دمشق في اوائل الخمسينات فأحيى كل الأغاني القديمة التي تعلمها من والدته ومن الوسط الفني، كان تقديمها بشكل فني بداية العناية بالفولكلور والاهتمام به.

وقد التقيت مؤخراً بابنته (ثم بابنه الشاب) وسألتها ان كان حفظ في داره شيئاً من الآثار الموسيقية فنفت ذلك وقالت ان كل شيء مسجل ومحفوظ في الاذاعة.

بعض المغنين والموسيقيين القدامى

وكان من أعضاء النوادي الذين عرفتهم غرام شيبا اللبناني صاحب الطربوش الأحمر الفاقع وربطة العنق المماثلة، وصابر الصفح والاخير ترافقت واياه في المعهد الموسيقي وهو جميل الصوت ولكنه يتثاقل دائما حتى نكاد نسحب الغناء من فمه بالقوة، ومحمود القربي. ثم اشتهر ايضا مغن مصري كان في نادينا اسمه احمد المأمون ولكن لم نسمع به في مصر بعد ذلك.

ومن الموسيقيين والمطربين الذين جمعتني بهم الصداقة غالب طيفور وعزيز غنام ورفيق شكري وعدنان راضي (المتكتم) وآخرون. وجميعهم انتقلوا إلى رحمة الله.

ألعاب السهرات

ومادمنا في حديث الأندية فلا بأس هنا بأن نذكر بعض العاب السهرات بين الشباب لأنها تدخل في نطاق اساليب التسلية القديمة.

ومن بينها لعبة فيها ذكاء واسمها (ازاي عروستي). فيحملون أحد الساهرين على أن يذهب إلى غرفة ثانية ثم يتفق الحاضرون في غيابه على اسم معين ثم ينادونه فيعود ويسألهم واحداً بعد آخر: ازاي عروستي؟ ويجيبونه بأوصاف قريبة بعيدة وعليه أن يحزر الحقيقة ومتى حزرها عند واحد خرج هذا فكان عليه الدور ان يغيب خارج الغرفة ويعود ليسأل: ازاي عروستي.

وكنت أجيد هذه اللعبة وذلك بإعطاء الأوصاف البعيدة كما في

(شواطة) الحذاء فأصفها كما يلي: عروستك طويلة رفيعة، عروستك تلبس طربوش، عروستك بأربعة رؤوس، عروستك تحب الاماكن المحشورة، عروستك واطية، عروستك متلونة، عروستك اذا حرنت تعضها باسنانك، عروستك تحط العقدة، عروستك تحب الشد، عروستك تربطها صباحا وتفكها عشية، وهكذا...

لعبة الباط (الابط)

وكانت هذه اللعبة تقوم على العنف فيقف واحد ويده اليسرى تحت ابطه الايمن ويده اليمنى على خده الايمن ووراءه ثلاثة يرفعون أيديهم إلى فوق ويحركونها باستمرار بحركات ارتجافية، وفجأة تنقض احدى الايدي المرفوعة فتخبط اليد الموضوعة تحت الابط الايمن وتعود بسرعة البرق إلى مكانها فوق وهي ترتجف، وعلى من أكل الضربة أن يحزر أية يد. والشباب يحبون هذه اللعبة ولكن في كل سهرة يأكلون قتلا حتى يشبعوا.

المقرعة

وهناك لعبة المقرعة وهي محرمة كبيرة مجدولة ومعقودة من نهايتها وضربتها موجعة، ويدور بها واحد على مجموعة قاعدة وبحزرهم ومن لم يحزر يأكل ضربة ومن حزر قام فأخذ المقرعة ودار على الاخرين.

لعبة (سكت)

وهناك لعبة (سكت). ولمن لايعرف هذه اللعبة أقول أنها تكون على شرط ثقيل يدفعه المغلوب فلا يتحمله بسهولة، ويكون رأس اللعبة من الملاعين الذين لايستحون من شيء. يبدأ مثلا فيقبل يد جاره في الحلقة، وكل واحد يقبل يد جاره وهكذا. يقبل خده، يقبل رجله، يعض كعبه، والاخرون يفعلون.

ينقر جاره طيارات على رقبته فينقرون. يخلع ملابسة فيخلعون، وكل ذلك على الساكت ولا احتجاج ولكن يسمح بالضحك ومن هنا تسمى لعبة (سكت) ولو نطق واحدهم بكلمة او احتجاج أو لم ينفذ فالغُلب عليه. وياما رأت حارات الشام من يخرجون بالسراويل فقط ويدورون وهم يضحكون والناس تتفرج عليهم، وقد يغط واحدهم نفسه في البحرة مثلا في عز الشتاء ويلحق به الباقون، ولا تخلو هذه اللعبة من غلاظة ليست من طباع أهل الشام الظاهرة. ولكن التهريج الذي يصاحبها يعطيها طابعها.

ومما سمعته عن أحد ظرفائنا طريقة وصف السهرة الماضية. يقول احدهم مثلا. اسكت، امبارح سهرنا عند عزات[1]، كتفنا جودات وحرقنا له دقنه بزيت الكاز وضحكنا كوميات. . .

---

(١) في دمشق كانوا يمطون اسماء عزت وجودت وبهجت فتصبح عزات وجودات وبهجات.

ولكن الشيخ مصطفى الفرا، وهو من موظفي الجامع الأموي ومن جماعة المولوية- يوم لعبنا لعبة سكت ولم اعدها بعد ذلك، كان رفيقا بنا فلم يزدها. ولكن علمنا لغة التلخين أو التلخيم، وهي عبارات لامعنى لها وتشبه الكلام العادي تورد في سياق الجملة فيسمعها السامع ويستفسر عنها فنبدل ونحور ونضحك نحن -ويشترط أن يكون واحد آخر ممن يعرفونها موجودا- لأننا لخمنا السامع. وكان الشيخ مصطفى علما في هذه اللغة التي أبرز جمله فيها (ملاقعة شوية ملان).. وكنت اتقنها انا وصديقي مصطفى العشا...

على أن من جمع أنواع اللعب في السهرات كان الصديق الأستاذ ياسر المالح ابن أخ وصفي المالح فجعلها مع زوجة السيدة أمل خضركي في كتاب لطيف اسمه (سهرة في بيتنا) يستحق الاقتناء، وهو من معالم الماضي المتجددة.

أبو صياح الكراكوزاتي

بعد مصطفى الفرا اذكر أبا صياح الكراكوزاتي في سوق ساروجه. ان من هم في عمري أو بعدي بعشر سنين يذكرون المقهى الذي كان يعمل فيه كما يذكرون صياح الاولاد: دوس دوس أي والله، ابو صياح ماشاالله. حلّوسي ملّوسي وي، زيده بارك له شوي... ويذكرون فصول كراكوز وشخصياته من كراكوز إلى عيواظ إلى المدلل إلى شمقرين إلى الحمار الناطق المسمى كّرش، وهذا لي معه قصة!

كيف ضحكوا علينا

فقد اخذت البكالوريا أنا وشاكر مصطفى والمرحوم مظهر وصفي، وذهبنا إلى كراكوز. وكان بين ابناء الحارة الذين (يمونون) على ابي صياح، أي لهم عليه دالة، بكري المرادي وسامي النشاوي وكانا لم يأخذا البكالوريا سنتها. الظاهر انهما وشوشا في اذن أبي صياح حين رأيانا، وكنا قاعدين على كراسي عالية. وأثناء الفصل تكلم الحمار (كرّش) بصوته العريض الأجش. فقال واحد من شخوص كراكوز: العمى، حمار بيحكي؟ (كرّش) قال له لاتقول حمار ولا! ليش أخي؟ -معي بكالوريا-. بايش؟ بالحمرنة!.. روح يلعن اللي عطاك ياها.

كنا نحن الثلاثة جالسين على الكراسي العالية، فسلتنا إلى الكراسي الأوطى ننخفض ونحن نضحك حتى ....

أرأيتم أنني تحملت من النكات مثلما حملت غيري؟!.. مرة أخرى في الفكاهة لاأخذ بلا عطاء.

وابو صياح الكراكوزاتي ظللت صديقه حتى صرت مديرا للفنون في وزارة الثقافة عام ١٩٦٠ فدعوته إلى مؤتمر مسرح العرائس الدولي ضيفا على حساب تشيكوسلوفاكيا فرفض الا اذا أخذ مالا كثيرا. لقد كبّر بطنه رحمه الله ومارضي ان يسجل الا بمئات الليرات العثمانية لكل فصل، فذهب معه جزء من التراث لعل بعض الفنانين استطاع ان يجمعه ويسجله فيما بعد، منه أو من سواه، وأظن أن آخر الفنانين في ذلك هو الأستاذ الذهبي كما أظن الفنان تيسير السعدي فعل ذلك.

شخصيات اذاعية مستمدة من كراكوز

وعن أبي صياح الكراكوزاتي وأخيه أخذ المرحوم حكمت محسن شخصياته الشهيرة في مسلسلات أم كامل. أبو رشدي هو كراكوز وأبو فهمي هو عيواظ، وأم كامل هي شمقرين الساحرة، ولكن بقصصه الشامية الواقعية. وحكمت محسن عرفته يوم كتب (صابر افندي) واسمى البنت المجنونة (نجاة). قلت له ضاحكاً بعد أن حضرت المسرحية:

لاه يااستاذ حكمت غيّر لي الاسم! قال: انت غيّر اسمك!..

حكمت محسن

وأظن أنه ماحان الوقت لاكتب عن حكمت محسن من حيث هو ظريف من الظرفاء لامن حيث هو فنان فيكون له حديث آخر، فان علاقتي به بدأت منذ منتصف الخمسينات، فإلى الجزء القادم واذا نسيت فذكروني!

الملامح العامة للمجتمع ونشاطاته من الثلاثينات وحتى الجلاء

الملامح العامة، ٤٤٥- الكشافة، ٤٤٦- كزلك خالد الرفاعي، ٤٤٩- جمعية انعاش القرى، ٤٥١ - العاطفة الأولى، ٤٥٣- معسكر سقبا وعرس النَوَر، ٤٥٥- زيارة لمعسكر شتورا، ٤٥٦.

الملامح العامة للمجتمع ونشاطاته

من الثلاثينات وحتى الجلاء

١- الرياضة والكشفية وجمعية انعاش القرى

وحياة الشباب وسهراتهم

في أيام الفتوة عشقت الرياضة في صغري كسواي من الأولاد، ومارست لعبة كرة القدم بعض الوقت وكان الملعب البلدي في مرجة الحشيش حيث يقوم المعرض اليوم ولما كان المعرض سينقل فأقول أنه في الأرض الكبيرة المقابلة لنادي الضباط الجديد وفندق الميرديان حتى وزارة الدفاع. ومرجة الحشيش (أو المرج الأخضر) هي من أوقاف الملك الظاهر وكان خصصها لتكون مرعى لكل دابة تنكسر فلا تعود تصلح للحمل أو الركوب فتعيش آمنة في هذه الفسحة وتأكل من عشبها وتشرب من بردى المجاور لها والمرافق على طولها. ولذلك لما جاء السلطان سليم فبنى في هذه المرجة جامعه والتكية المعروفة باسمه، كان بعض الورعين الذين يعرفون القصة لايجيزون الصلاة في هذا المسجد لأن أرضه اغتصبت من الوقف دون رضا الواقف وخلافا لشرطه. وتعلقت بركوب الدراجات ولكن لم تكن عندي دراجة بل أستأجر وأستعير. ولعبت قليلا على (الثابت) غير أنني لم أتابع في كل هذه اللعبات ولاأذكر مسابقة رياضية دخلتها سوى سباق دراجات حتى قطنا اشتركت فيه ولم أكمله لتعبي.

الكشافة

ودخلت الكشافة في فرقة قاسيون التي كان يشرف عليها خالد الرفاعي ومحمود الرفاعي، وكانت تقابل وتنافس كشاف المعارف الذي يشرف عليه بكري قدوره، وفريق كشاف ميسلون الذي يشرف عليه الدكتور مدحت البيطار. وكانت هذه المنافسة تشحذ همم الفرق جميعا ولو أنها لم تكن تؤكد فكرة التآخي الكشفي العام.

وقد حضرت مخيمات كشفية عدة، وكان من حسن توجيه والدي أنه سمح لي بذلك وأعطى طفولتي وفتوتي استحقاقهما من التسلية النشيطة قدر مايستطيع. ومن هذه المخيمات مخيم السويداء عام ١٩٣٦ وحضرنا فيه عندما عاد الوطنيون الذين أبعدتهم فرنسا إلى بلادهم وبينهم عدد كبير من القادة الدروز يتقدمهم المرحوم سلطان الأطرش قائد الثورة السورية. وقد تعلمت في أثناء هذه المرحلة الكشفية بعض أهازيج المنطقة ومنها (شديت الهجن)، التي ظلت في ذاكرتي حتى وضعتها على المسرح في وزارة الثقافة يوم صرت مديرا للفنون، كما ذكرت في القسم السياسي، وفي الاعادة تذكير لا إفادة. وحضرت مخيم يبرود الكشفي الذي أقيم على بحيرة (قرينة). ومن ذكرياتي في هذا المخيم أنني (غنيت) فيه على طريقة الدوبلاج. ذلك أن احد الكشافين وهو الذي صار فيما بعد الطبيب العميد صلاح الكوا، كان جميل الصوت ولكن خجولا. وحللت له مسألة خجله وكان الوقت مساء فأجلسته خلفي وهو يغني وأنا أفتح فمي وأتلوى (وأتعصور) كما يفعل المغنون، ويومها ظن الجميع أنني أنا صاحب الصوت الجميل.

وحضرت مخيم بلودان، وذات ليلة كنت في نوبة حراسة، وكان الشقي السرغاوي (من سرغايا) الشهير بـ "معيط" قد (شلّح) القطار وتطارده قوات الدرك في ذلك اليوم، والبرد أشد مايكون في ليالي بلودان وعلى ١٥٠٠ متر، ولم أجد أفضل لاتقاء البرد والخوف من أن أدخل الخيمة وأمد راسي فقط من فتحتها وفي فمي الصافرة حتى إذا جاء "معيط"، صفرت للكشافين لينهضوا واختبأت أنا . . . وهذا قصاري مابلغته شجاعتي وأنا ولد في الرابعة عشرة!

وحضرت مخيم ضهور الشوير في لبنان. في تلك الرحلة التي لاتنسى والتي ربطت بين الكشاف السوري والكشاف المسلم في لبنان، ركبنا القطار حتى المديرج في ظهر البيدر وهناك نزلنا وأنزلنا معنا عربة تجر باليد عليها مؤونة الفرقة وتجهيزاتها، وكل منا يحمل (طُربة) أي محفظة الكشاف التي تحمل على الظهر، وكان عليّ أن أجرّ مع الآخرين العربة وأحمل طربتي ومعها الطبل الصغير الذي أشارك به في الفرقة الموسيقية. وسلكنا مشيا على الأقدام أطول طريق مشيته وأنا صغير من المديرج فحمانا فالوادى حتى أرصون ثم صعدنا إلى الجبل المقابل حتى بلغنا ضهور الشوير.

خمسة وثلاثون كيلو مترا من السير مع الأحمال أخذت منا نهارا كاملا متعبا ووصلنا وأقدامنا متورمة. ولكن المعسكر كان رائع الجمال بين الصنوبر، وقضينا اياماً ممتعة في حفلات سمر واستعراضات، وأحسست أن جناحي الصغير (وكنت في الخامسة عشرة أو نحو ذلك) قد نبت وتقوّى.

كما نزلنا بعد الرحلة إلى ضهور الشوير ثم إلى بيروت مشيا على

الأقدام، ومنها بعد زيارة لمكتب الكشاف المسلم عدنا إلى دمشق، وفي هذه المخيمات والزيارات رأينا الفنان محمد شامل وزميله محمد مرعي وهما فنانان بيروتيان اصيلان وممتعان جدا.

وهنا أذكر أن محمد شامل وقف بلهجته البيروتية يروي قصة عن الوضع في لبنان والتوزع الطائفي والمنافع في أيام الانتداب فقال -وعليكم أن تقلبوا اللهجة إلى بيروتية: قاسم بن ملحم، ضبّر (أي دبّر) حاله، والياس بن بطرس ضبّر حاله، ماراحت غير عاهالضنن (الذقن) على محمد بن مصطفى! ونشكر الله أن الوضع في لبنان بعد انفجاره لعشرين عاماً عاد إلى الهدوء وابتدأت مسيرة الوفاق.

وحضرت بعد ذلك مخيم رويسات صوفر مرتين، آخرهما أثناء سنة الحرب الأولى. وركبت سيارات الجيش الانكليزي على طريقة الاوتوستوب، وكان عندي أكورديون كبير اشتريته من موسيقي في الفرقة الأجنبية أراد أن يفر خفيف الحمل حين ابتدأت الحرب، وهو أكورديون هوهنر (١٢٠ باص) اشتريته بمئة ليرة. ولاتقولوا (يابلاش) فمعاش المعلم الشهري كان / ٢٥/ ليرة، فبمقاييس اليوم كان الثمن يزيد على ألفين. ولكنني عدت وبعته بمئة واربعين وربحت ربحا هو الأول والأخير من نوعه، وكانت الحاجة هي التي أجبرتني على بيع الاكورديون آسفا.

وعلى سبيل الاستطراد فقد كنت أنفر من التجارة، وأؤمن بأن كل ربح لايأتي من العمل ليس هنيئا. وأذكر أنني اشتريت عودا صنعه لي العواد (سمبات دربتروسيان) على قالب استنبولي أي أبطح قليلا، وهو من لونين

أحدهما من لون المشمش الأحمر والثاني من لون الجوز. عود جميل وصوته جميل أتمنى أن أستعيده اليوم بأي ثمن. وقد رآه من الكشافين واحد فعشقه وطلب أن يأخذ وأصر، وكنت قلت له "مبالغا" أن ثمن العود مئة ليرة فأبدى استعداده للدفع، ولما رايت اصراره أعطيته اياه ولكن برأسماله أي بأربعين ليرة فقد نفرت نفسي من فكرة الربح التي كنت أعتقد أنها استغلال. وفي تلك الفترة أيضا وكانت الحرب قد بدأت وشعرت -وقالوا لي- أن السكر سيرتفع اشتريت خمسة أكياس. وبعد أشهر ارتفع السكر ارتفاعا حادا فصار ثمن الكيلو ستة أضعاف ماكان، وعندها وزعت السكر على أقاربي بسعر شرائه ولم أشأ أن أربح قرشا واحدا. وكنت أعرف كيف يمكن الربح ولكنني تنكبت لأسباب مبدئية كل طريقة لكسب المال عن غير طريق العمل. وأستطيع القول بحزم وتأكيد أنني لم أتاجر في حياتي. وكانت الحياة الكشفية سبيلا لخروجي من البيت وحدى في أسفار عديدة، وهذا يقوي في الولد شعور الاستقلال، كما علمتني حياة الجماعة. وفي الكشفية وعلى سبيل المصادفة اكتشفت عندى واكتشف الآخرون أيضا مقدرتي على رواية النكتة وعلى صنعها.

كزلك خالد الرفاعي

وخالد الرفاعي كان لي بعد ذلك وحين كبرت نعم الصديق، وهو الذي حدثني بحكاية ذات مغزى مازلت أرويها تحت عنوان (كزلك خالد الرفاعي) أي نظاراته. فقد يحب أن يلبس نظارات زرقاء ضد الشمس. ويوما دخل على زوجته يقول لها: خذي هذا برتقال ماوردي ممتاز... قالت له:

بسلامة نظرك، هذا برتقال أصفر "ومبعجر" قال لها: بل ماوردي! . . . ماوردي، اصفر، احتدم النقاش فرفع نظاراته غضبان فاذا به يرى مثل مارأت. ذلك ان الذي يلبس نظارات زرقاء وينظر إلى البرتقال الأصفر يراه مائلا إلى حمرة لطيفة. ومن يومها أيقنت أن الانسان الذي يلبس -معنويا- نظارات زرقاء، لايرى الأشياء كما هي وانما يراها وردية أي كما يرغب ويريد. ولذلك فأشد مايصيب الانسان في افكاره أن يدركه عمى الألوان فلا يرى الحقيقة كما هي وانما كما يخيل إليه أو كما يوحيه خداع البصر.

وفي الكشافة تعرفت إلى بقية آل الرفاعي من أخوة الاستاذ خالد، ومنهم الاستاذان فوزي (الذي صار فيما بعد مختار محلتنا حتى توفي رحمه الله) وأبو الخير (الذي تدربت على يديه في مدرسة التطبيقات) والأستاذ أنور الرفاعي الذي سيأتي حديثه مسهباً في الجزء القادم حين أتحدث عن دار الرواد التي تشاركنا في تأسيسها وعن مزاياه التي لا حد لها، وبقية العائلة، وكلهم طيب وظريف ومستقيم ويمثل الاخلاق الكشفية القائمة على المحبة والتعاون. وعن طريق الكشفية تعرفت إلى عدد من رجالها وفي مقدمتهم الاستاذ علي الدندشي هذا الرجل اللطيف الممتاز الذي أنعم بصحبته بعد أن كبرت، وإلى شباب كثيرين جدا ربطتني بهم صلات الود من أيام المخيمات وليس أحسن منها في ترسيخ الصداقة والوداد لاسيما وأنها نوع من الحياة المشتركة وتقاسم المجهود في أحضان الطبيعة الصافية وتحت شعارات كلها طيب تنادى بالأخوة.

جمعية انعاش القرى

في عام ١٩٣٧ انتسبت بواسطة الصديقين عبد الباقي قدسي ومحمد كامل القدسي إلى جمعية انعاش القرى، وهي جمعية سورية لبنانية يشرف عليها في لبنان جماعة من المتخرجين من الجامعة الأميركية ذوي الاتجاهات القومية، وفي سوريا شباب قوميون أبرزهم عبد القادر الميداني وعصام الانكليزي وفؤاد الصواف ورياض الانكليزي، وعبد القادر حتيتاني ومنصور الجابي، وعدد جيد من الأطباء والمهندسين الزراعيين والمدرسين والمدرسات والشباب والشابات بينهن نظمية عياد وابتسام الشريف، ومع الزمن توفي عديدون منهم رحمهم الله.

وكانت هذه الجمعية تعمل على توعية الفلاح وترقية مستوى معيشته عن طريق معسكرات تقيمها في قرى تختارها، فالمعلمون والمعلمات يكافحون فيها الأمية بفتح صفوف خاصة، والأطباء والممرضات يقومون بالتوعية الصحية والمداواة المجانية وتقديم الدواء، والمهندسون الزراعيون يقومون بالارشاد الزراعي وأعمال المكافحة بلا مقابل. وقد تطوعت أنا في عداد مكافحي الأمية وذهبت إلى معسكر الجمعية الأول في انعاش القرى وكان في قرية جديدة عرطوز القريبة من دمشق، ودفعت اشتراكي لقاء المنامة (تحت خيام المعسكر) والطعام الذي يحضره طاه خاص هوالمرحوم شاكر آغا. والخدمة يقوم بها الجميع بلا استثناء بالدور، وتتناول الخدمة التنظيف وتقديم الطعام وسائر الخدمات. معسكر لطيف، فيه عمل جدي ونظيف وحماسي لأنه قائم على التطوع، ويفسح المجال لسهرات سمر كل ليلة لاأمتع منها

ولأحلى، وتسود فيه روح التآخي والايناس والمحبة وفيه -بعد الحياة الكشفية-توطدت صلاتي الاجتماعية برعيل طيب مخلص من الشباب والشابات واتصلت لأول مرة بمجتمع مثقف راق ومختلط.

كان المخيم الأول في جديدة عرطوز جنوبي دمشق. القرية جرى اختيارها لقربها من المدينة ولأن سكانها خليط من مسلمين ومسيحيين ودروز فهي نموذج للتآخي الوطني ولاعتبارات أخرى عديدة. وكانت خيام المعسكر جيدة، والنوم فيها على أسرة حديدية وفرش نظيفة، وعملنا في المعسكر جاد ويومي يستغرق كل ساعات النهار، وحين ناكل فبشهية لأن الطعام طيب جدا وبسيط غير معقد ونظيف، وكنا نرقب في النهار ساعة السمر في الليل وأخذت أنا الكمان التي بدأت العزف عليها وعلى العود في تلك السنة، وأخذ كامل القدسي آلة الجمبش وهي بين العود والبانجو، وكانت سهراتنا عجيبة في صفائها وحلاوتها، ولعل هذه الأيام كانت أسعد أيام شبابي لاسيما وان رفيقنا فيها كان هشام الميداني وهو شاب ليس أظرف منه ولاأنسى أنه وهو يلثغ بالراء ويجعلها (غين) كيف كان يغني: شفت الحلوة عالبغكه (البركه) ضغبتا (ضربتها) بالجانغكه (الجانركه) يخغب (يخرب) بيتا شو حغكه (حركه). وقد توفي إلى رحمة الله منذ سنوات بعد أن عمل في التجارة بتوفيق. من أيام هذا المعسكر كسبت أمورا كثيرة. أولها معرفتي بهؤلاء الشباب الطيبين النادرين وفي طليعتهم المرحوم عبد القادر الميداني الذي احتضنني فيما بعد بالنظر لهذه الصداقة فأخذني متمرنا في مكتبه وأسعدني بصداقته.

سر التفاؤل

والأمر الثاني شعوري بأنني أقدم خدمات ولو بسيطة لشعبي، وهذا ماأعطاني على الدوام شعور الاحترام لكل مجهود بسيط يؤدي إلى التقدم العام ولو بنسبة واحد من الألف، وهذا الشعور كان من وراء موقفي المتفائل في الحياة، اذ التفاؤل ينشأ من شعور الانسان بالرضا عن عمله ونتائجه، فمن يحقق انتصارات بسيطة في أهداف متواضعة ينمو لديه شعور الجدوى وهو يقود إلى التفاؤل، في حين أن من يجعل أهدافه أعلى من طاقة يده يشعر باستمرار بالفشل والانكسار ويتحول إلى متشائم. ولذلك فأنا صرت أنصح كل انسان لكي يبقي على شعور التفاؤل والجدوى لديه أن يضع باستمرار أهدافاً مما يمكن تحقيقه ويدرك مدى قوته: (انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا)- سورة الاسراء.

العاطفة الأولى

والأمر الثالث انني لأول مرة التقيت بنساء مثقفات سافرات جريئات ورصينات في الوقت نفسه، وأنا ابن سبع عشرة في سن التفتح على الحياة والحب.

وقد أعجبت بواحدة منهن إلى حد التقديس، وأحببتها حب الصغير لمن يراها كبيرة ورائعة (وهي تكبرني بست سنوات ولكنها كانت في ريعانها في الثالثة والعشرين) . .

هذه الصبية كانت طويلة القامة، حلوة القسمات، عذبة الحديث، رصينة وجريئة، وبهرني منها أنها في إحدى السهرات وقفت وحدها صامدة أمام

مجموعة من الشباب، هي تقول لهم أنه لايوجد حب عذري، وهم يقولون يوجد. وكانت حجتها الدامغة: اذن فلماذا يتألم قيس لأن ليلى تزوجت غيره ؟ وكانت هي تدافع عن الجانب الواقعي والايجابي والحقيقي في الحياة، فتجبر هؤلاء (الكذابين) الذين أمامها وهم مثقفون ولكن يريدون أن يسدلوا الرومانسية المبالغ فيها على العاطفة الأولى في حياة البشر، تجبرهم على أن يظلوا في حدود المناقشة الرصينة.

هذه الآنسة التي كانت صورة رائعة للأنثى في كل تفتحها، أعجبت بها بصمت، وبكل جوارحي ولم تلمحني أنا حيث كنت أنزوي حتى لايراني أحد ويكشف الخبيئة من وجهي. ولم تشعر بي أبدا، وحين انتهت فترة تطوعها ذهبت ولم تعد، وعرفت بعد ذلك أنها تزوجت وأنها شقيت بزواجين، وأنجبت ولدين، وجاءتني ابنتها فوكلتني في دعوى تفريق فقمت بها بكل ماأستطيع من اندفاع واخلاص وفاء لحبي القديم بل أحسست بصمت كأنما الأم ماتزال صبية أمامي.

ثم التقيت الأم حين عادت من سفر وتطلعت في وجهها فوجدت فيه العذوبة ماتزال والعمر ترك آثاره، وصرنا صديقين، وتضاحكنا بل أغرقت هي في الضحك حين عرفت بمشاعري الخبيئة القديمة وقالت ضاحكة: لماذا لم تتكلم؟!..

ان زوجتي وبناتي يعلمن من هي، ويعرفن القصة، والحديث فيها غير محرج لأحد. ثم توفيت هذه السيدة الرائعة منذ بضع سنين، وأحسست لموتها بصدع في روحي، ولكنها الحياة..

وكنت كلما ذكرتها ذكرت -مع الفارق- بيتين من الشعر القديم:

تعشقت ليلى وهي ذات مؤصـــد   ولم يبد للأتراب من ثديها حجمُ

صغيرين نرعى البَهم ياليت أننا   إلى الآن لم نكبر ولم تكبر البَهْمُ

على أن هناك شيئا آخر أو أشياء أخرى بقيت من المعسكر الأول لجمعية انعاش القرية وهي صداقات مازالت تجمعني بالمتطوعين، وببعض أهل القرية، ثم هذا الحرش الصغير من الصنوبر الذي زرعناه في طرف القرية ومازال قائما حتى اليوم.

معسكر سقبا وعرس النَوَر (الغجر)

أما المعسكر الثاني فكان في سقبا، عام ١٩٣٩ بعد أن قضينا في جديدة عرطوز سنتين.

وسقبا قرية في الغوطة الشرقية تجاور جسرين والمحمدية وعددا من القرى، وكان عملنا فيها عينه في جديدة عرطوز، ولكنني أذكر من هذا المعسكر حادثتين. أولاهما أننا ذات ليلة سمعنا أن في جسرين، قرب معسكرنا، عرسا يتزوج فيه غجري من غجرية. وشاقنا أن نذهب فرحنا إليه وحضرناه، ثم راينا أن الشيخة (الراقصة الغجرية) ترقص على بزق ليس صاحبه بارعا في العزف، فتغامزنا أنا وكامل القدسي، فأرسلنا فجلبنا العود والكمان وأرقصنا النورية على موسيقانا نحن.

فاذا كان الغجر (يدقون) الموسيقا في أعراس الناس فما قولكم بمن دق في عرس النور ؟ أليس غجريا أكثر منهم ؟.

والحادثة الثانية، ان الحرب العالمية الثانية فاجأتنا ونحن في منتصف

المعسكر وبدأ تقنين المحروقات، وصعب علينا الاستمرار، فانتهت حياة هذه الجمعية الرائعة عند هذا الحد، وتوقف بهذا سيل الذكريات عنها، ولكن صداقاتها ظلت في الباقية.

زيارة لمعسكر شتورا

وفي تلك الفترة، وفي أولها على الضبط، شاركت أعضاء هذه الجمعية في رحلة إلى شتورا حيث زرنا معسكر الجمعية نفسها في لبنان وكان يشرف عليه قسطنطين زريق وحليم نجار وشارل مالك وآنسة تدعى هيلدا.

وأذكر أنني يوم وصلنا جائعين بالقطار ولم يطعمونا على الفور أخذت ورقة وقلما وكتبت قصيدة القيتها أمامهم (وأنا ابن ست عشرة أو نحوها) وفيها أقول وهذا ماأذكره منها فقط:

خبرينـــا يا شتوراهل غدوت اليوم بورا
قد اتيناك بكـــوراعلّنا (نلحق) فطورا
ثم عدنا خائبين؟
انت يا بلدة جـــودليس فيها غير صيـد
هل وصلنا لعهودقد عدت اوتـار عـود
في رباها المصارين

ثم اتبعتها بقرادية داعبت فيها الجميع، ولست أذكر منها سوى كلمات. وكانت هذه الحادثة -وهي الثانية من نوعها- من أسباب جرأتي على الشعر وتهيبي له في عين الوقت، وحديث ذلك سيأتي.

الباب السابع

- ذكريات السجن - علاقتي وعملي بالسياسة، ٤٥٩-موقف والدي، ٤٦٢- الاعتقالات في حياتي، ٤٦٤- محمود خدام السروجي، ٤٦٦-من يمد رجله لا يمد يده، ٤٦٨- كيف حبسوني مع الجربانين، ٤٧٠- رطانة السجن، ٤٧٢- حياة القاووش، ٤٧٣- توفيق الخذمتجي، ٤٧٤- القاتل الشرس، ٤٨١- عرضحالجي غرام، ٤٨٢- مشاهد أخرى من حياة السجن، ٤٨٣- الحشيش وإبراهيمات الحشاش، ٤٨٥- المتمارضون، ٤٨٦- سجناء يذهبون إلى بيوتهم، ٤٨٦- آراء في معاملة المساجين، ٤٨٨- اقتراحات في تنفيذ عقوبة السجن، ٤٩١- اطلاق سراحي - السجن ثانية، ٤٩٣- من السجن إلى قيادة الجبهة، ٤٩٥- اعترافات - المغامرة الأولى ، ٤٩٩- انتحال صفة في فحص قبول للجيش الفرنسي، ٥٠٣- يوم زورت هويات وهربت مطلوبين، ٥٠٤- اجتياز الحدود بصورة خفية، ٥٠٥- من أصدقائي في السجن - رشاد عيسى، ٥٠٥- فوزي الزعيم، ٥٠٦

الباب السابع

عملي السياسي - اعتقالي - حياة السجن

هناك أمور في حياة الانسان متى جرت وصارت جزءاً من تاريخه استحال عليه أن يبدلها، فليس الزمان قابلاً للارتداد. إنه أشبه شيء بنهر عظيم مايزال يسير إلى مصب النهاية في عزم لايضعف ولايتوقف. وآه لويرجع الزمان القهقرى لنبدأ من جديد على ضوء تجاربنا ونصحح. لو كان هذا الحلم ممكناً لما صار التاريخ الشخصي لأي إنسان مفكر مثل إلقاء حبات النرد، فمتى انطلقت من بين الأصابع لم يعد في المقدور ردها. وأذكر في هذا الصدد أغنية الرحباني المعبّرة التي تقول: لو خيرونا نعيد، اعمارنا من جديد. . . ، وأسأل نفسي تكراراً: لو انعاد الزمان إلى الماضي ماذا كنت أفعل؟ ولعلي كنت أختار شيئاً آخر، أو على الأقل لاخترت الخط العام نفسه مع تعديل في كثير من التفاصيل. وفي القول المأثور: لو علمت الغيب لاستكثرت من الخير.

وقد فتحت عيني على الوعي في أول الثلاثينات وأنا طالب ثانوي اشارك كالجميع في المظاهرات والاضرابات ضد جيش الاحتلال الفرنسي، وأفعل مايفعله جيل الحجارة اليوم - أحفادنا في العمر - وأصل حبلي بحبل بلادي.

وكانت الحياة الحزبية قد بدأت منذ العشرينات في سورية كما سلف

الذكـر، ووجـدت أحـزاب وتكتـلات أبرزها من الجـانب الوطني حـزب الاستقلال وحزب الشعب اللذان جاء ذكرهما من قبل، وأحزاب أخرى تتأرجح تسمياتها ولكنها تصطف إلى جانب الحكومات الممالئة للفرنسيين. غير أن تأثير الغرب والانقسامات الايديولوجية فيه أحدث في الثلاثينات أنماطاً جديدة من الأحزاب والتكتلات على المستويين الوطني والمحلي، وأبرز هذه الأحـزاب الكتلة الوطنية، وحزب الشعب، وعـصبة العمل القـومي والحزب السوري القومي والحزب الشيوعي، ولم تخل الساحة من تكتلات ومنظمات مثل الشارة البيضاء في الجزيرة والشبيبة الارثوذكسية J.O والشبيبة العلوية J.A في السـاحل، والكتـائب اللبنانيـة والنجادة في لبنان، وحـتى الكتلة الوطنية التي كانت قد أصبحت حزباً حاكماً منذ ١٩٣٦ بدأت بتنظيم القمصان الحديدية على الطراز الفاشستي الأوروبي.

ولما كان الشباب المتحمس لوطنه يبحث عن مجال له كان لابد أن ينضم أفراده إلى هذا أو ذاك من التنظيمات التي من حيث النتيجة تكون اما مع الحكومة واما مع المعارضة أو متأرجحة أو مع التكتلات المحلية، ثم فيما بعد وفي منتـصف الاربعينات كـان قد ظهـر تيار الاخـوان المسلمين، ثـم حزب البعث.

وبصراحة، وبالنسبة للزمان المتقدم الـــذي انتبهت فيه للحياة الحزبية، اي عام ١٩٣٦ و ١٩٣٧ كان يمكن أن أكون أنا في أي واحد من هذه الأحزاب الوطنية التي تتقارب بل تكـــاد تتمـاثل في الأهـداف المنظـورة والمباشرة

وهي الاستقلال والتقدم والرفاه الاقتصادي والحياة الحرة.

وكانت رغبتي في العدالة الاجتماعية قد قادتني نحو أحد هذه الأحزاب فانتميت إليه ببساطة وإخلاص وظلت علاقتي بجميع الأحزاب علاقة مودة ومنافسة شريفة وعندما تنتفي المزاحمة على المصالح الشخصية يكون الحوار مفيداً ويغني الفكر الوطني.

وقد تقدمت بسرعة في الحزب الذي انتميت إليه بسبب النشاط والإخلاص. ولكن بعد نحو عشر سنوات من العمل فيه بدأت أشعر بشيء يثقلني وفقدت بالتدريج ما كان بيني وبين القيادة الحزبية من انسجام وزال معه الفرح الذي يصاحب كل عمل ينطوي على تضحيات آنية، فآثرت التنحي بلطف ولكن قيادة الحزب بادرتني بقرار أليم فصلتني به من صفوف الحزب ولعلها - وهذا من حسن الظن - خشيت أن يكون من وراء عزمي على التنحي محاولة انقسامية أنا بعيد عنها كل البعد. وكان في وسعي أن أجادل وأن أدافع وأعرض الحقائق ولكنني آثرت أن أتحمل ما قالوه واثقاً من أن العمل الشريف على النطاق الشعبي والمهني كفيل بمحو كل وصمة غير صحيحة ولا مستحقة. ورفضت أن أتكلم بكلمة في الدفاع عن نفسي سوى قولي إن المستقبل كفيل بإيضاح الحقائق. وفعلاً بعد ست وثلاثين سنة من الصمت الذي رافقه نشاط عام كثيف في خدمة الشعب عاد الحزب - الذي كان انقسم إلى فصيلين رئيسين وبضعة فصائل أخرى - فأعلن بقرار رسمي إعادة اعتباري معترفاً أنه ظلمني، فقلت في نفسي مليح أنني عشت ستاً

وثلاثين سنة من الصبر حتى اعترف الآخرون بالحقيقة، وظللت في طريقي مستقلاً أتعاون مع كل الشرفاء والمخلصين في مجالات العمل الأيجابي. وقد رفضت وأظل أرفض كل جدل حول ملابسات هذا الماضي معتبراً أن الشعب هو الذي يدين أو يبرىء، وأعتقد أن شعبي الذكي كان يعرف حقيقتي منذ البداية ودائماً لأن روائزه في التقدير هي السلوك، والذكاء الشعبي قادر على إدراك الحقيقة فلا التجهم ولا المديح يلغيان الحقيقة التي يدركها الناس. وقد كان من أسباب تمسكي بالسكوت أنني لا أريد أن أحمل الماء إلى طاحون المخاصيمن لحزبي السابق ولا أريد أن يستغل أحد هذه الحادثة - التي تكرر مثلها مع آخرين بينهم رفيقي الأستاذ رشاد عيسى اتهاماً ثم تبرئة وإعادة اعتبار - حتى لا نرمي حجراً في بئر شربنا منها، وهذه قاعدة أخلاقية أتمسك بها دائماً. وإذا كنت لا أسمّي فلأن الشعب كله يعرف ما أعني ومن أعني وجميع الحقائق والملابسات.

موقف والدي

ولكن حتى قبل عملي الحزبي كان نشاطي السياسي قوياً منذ دخلت التجهيز وأنا ولد ابن إحدى عشرة سنة، وشاركت في كل إضراب أو مظاهرة أو محاجرة. وكان أبي رحمه الله يشفق عليّ إشفاق أي والد ولكنه لم يحاول أن يحتجزني أو يضغط عليّ، بل كان يتفهم بوصفه من أبناء الشعب أن كل موقف وطني شاركت فيه نبع من ضرورة تحسن البلاد بها. ولذلك كان يشد على يدي بصمت ويؤيدني بالقلب ولا يقف ضد نشاطي. وقد اعتقلت عدة

مرات في سبيل ذلك، وأشهد له أنه كان بعيد النظر ونبهني بلطف، ولكنه صبر أمام إصراري واحترم القاعدة التي تقول: (إذا كبر ولدك آخه) واحتمل الكثير من العنت شخصياً وفي أسرته ولم يقم بأي عمل أو بادرة تشعره بعدم الرضا. ولك أذكر له هذه الحادثة:

فحين أصدر الحزب كراسة يهاجمني فيها ويتهمني بأمور عجيبة غريبة وباخلاط من الحوادث التي لا أصل لها، وصلت نسخة من هذه الكراسة إلى أبي ولعل الحزب تعمد أن تصل إليه بصورة غير مباشرة. فلما قرأها - وهو يعرف من ربّى وما هي حقيقة سلوكي، تألم وبعث إليّ في مخبئي قبل أن أقرر الهجر والخروج برسالة كتبها ببساطة المؤمن وعمق تفكير الرجل الناضج وكان أبي أعمق الرجال الذين عرفتهم في حياته ولا أبلغ قطرة من بحره. قال لي في هذه الرسالة: «إلى الابن السابق والصديق اللاحق نجاة حفظه الله ووجهه إلى الخير. لقد قرأت ما كتبه عنك جماعتك فتألمت جداً، وأنت لك الحق في أن تقبل أو ترفض. ولكن لما كان رضا الأب أو عدم رضاه يؤثران على الولد والمستقبل وكنت لا أريد أن يكون عدم رضائي ضاراً بك وبمستقبلك لأن رضا الله من رضا الوالدين، ولما كنت غير راض عما كتبوه، وحتى أترك لك حريتك الكاملة، فإني أسقط عنك أبوتي، وأدعو لك أن يوفقك الله إلى صواب الرأي وحسن الاختيار.

التوقيع: الأب القديم والصديق الجديد

سعد الدين

وتتصورون كم فعلت بي هذه الرسالة العميقة وكم استدرت من دموع الحزن ومشاعر الاعتزاز بأنني أنتمي إلى أب فيه هذه الروح الشفافة، فاتخذت قراري بأن أظل ابنه وعلى طريقه في حب الناس ورفض النزول وشجاعة التخلي. ولم يكن ذلك هيناً، ومررت بأزمة عنيفة إذ كان انفصالي يعني أنني أدرت ظهري لأربع عشرة سنة من الإخلاص والعمل وترك المنافع ودوزنة السلوك على مقتضيات التضحية، ولكنني قررت. وحين تركت العمل الحزبي رجعت معلماً في المعارف وساعدني الوزير المرحوم رئيف الملقي في تعييني فوراً، ورغم أن الوقت كانت مطلع العطلة الصيفية فقد ندبني إلى دار المعلمين الريفية في يبرود التي تعمل في الصيف ليبدأ راتبي، وكان هذا الراتب مئتين وليرتين سوريتين، وعدت أسكن غرفة في بيت أبي مع زوجتي وابنتي الصغيرة، وكانت فترة معاناة لم أكن أستطيع تخطيها إلا بالكثير الكثير من الصبر والشجاعة.

الاعتقالات في حياتي

اعتقلت وسجنت في حياتي سبع مرات أرى من المفيد الحديث عن بعض دروسها: كانت أولى هذا المرات عام ١٩٣٩ حين جاءت الشرطة توقف أثناء المظاهرة أمام تجهيز دمشق رئيس اتحاد الطلبة علي بوظو (الذي صار نائباً عن دمشق ووزيراً للداخلية بعد ذلك بسنوات عشر) فوقفت دونه محتجاً على اعتقاله فأوقفوني معه واقتادونا إلى سجن النظارة في دمشق ولكن اطلق

سراحنا في مساء اليوم عينه. وكان سجن النظارة خلف دائرة الشرطة المدنية وفيه عرفت معنى احتجاز الحرية في مكان ضيق عتم وقذر. ومع ذلك فكان الحبس ليوم واحد بسيطاً. فلما أوقفت للمرة الثانية في آذار ١٩٤٠ كنت كمن (أخذ لقاحاً) ضد السجن من قبل، أي مستعداً لرؤية مارأيت. ونقلوني في الليلة نفسها إلى الأمن العام الفرنسي في زقاق الحلبوني وحقق معي مفتش اسمه فكتور موسى. انه هو نفسه الذي صار فيما بعد صاحب كازينو لبنان كما سمعت ممن عرفوا تاريخ الكازينو.

واذكر أنه حين حقق معي انهال على خدي بصفعة عنيفة لو وصلت إليّ لكان حنكي (التوق) أي التوى، ولكن يده توقفت فجأة عند خدّي لتحوّل الصفعة إلى دغدغة لطيفة للخد مصحوبة بكلمة ناعمة بصوت مخملي: ولك ماتحكي؟! وأشهد هنا، وأنا لا أملك إلا أن أبغض الرجل لمكانه في معسكر أعداء الوطن، أنه أذكى بما لا يقاس من الذين كل ذكائهم في التحقيق عنف يستنفر في كثير من الأحيان رجولة من يعذبونهم فيموتون ولا يتكلمون.

هنا توقف التحقيق واكتفى المحقق بأن أغلق ضبطاً على حادثة بسيطة مثلها عشرات في كل مكان، وأوقف بها اثنين دون أن يحتاج إلى جهد.

بقيت أنا وعدنان الزعيم في الأمن العام ليلة، وفي اليوم الثاني، عند فرصة الغداء، تركني رجال الأمن في انتظار نقلي إلى سجن المزة في غرفة من غرف الأمن العام الفرنسي في حي الحلبوني بلاقيد وبحراسة عنصر أمن أسمر غامق اللون سمين اسمه زكي الأسود ولقبه زكي البعبع. وخطر لي في لحظة

أن أدفع الطاولة عليه فأحشر بطنه خلفها وانطلق بخفة واستلم الدرج هارباً، وكدت انفذ - ولاأعلم ماذا تكون النتيجة - لولا أن جاء آخرون من عناصر الأمن الفرنسي فملأوا المكان وحبطت خطة الهرب.

في اليوم التالي نقلونا إلى مقر الشرطة العسكرية الفرنسية (البريفوته) وهو ذات المكان الذي ظلت فيه الشرطة العسكرية في البرامكة مدة طويلة فوضعونا في القبو. وفي اليوم نفسه نقلونا أنا وبقية الموقوفين لأسباب شتى (وبينهم أربعة من حزب الحرس العربي وهو حزب صغير تأسس وانطفأ بسرعة) إلى المزة. وفي المزة سجلوا أوصافنا المميزة بأن أوقفونا عراة تماماً وادارونا يتفرسون فينا كما يدار سيخ الشاورمة على حد تعبير أحدنا ومن هناك أرسلونا إلى سجن القلعة حيث أدخلونا في قاووش اسمه (الواحد ساده) إذ كان إلى جانبه قاووش آخر اسمه (الواحد مكرر). وكان (الواحد ساده) مخصصاً للموقوفين لحساب المحكمة العسكرية الفرنسية وفيه أناس من مختلف الفئات.

محمود خدام السروجي

أول هؤلاء محمود خدام السروجي، أبو صياح، زعيم شباب حي الشاغور. وكان شاباً مكتمل الشباب قوي البنيان قوي الأخلاق، صاحب دين حقيقي، لطيف المعشر، وكان موقوفاً لحساب المحكمة العسكرية.

ومن قوة بنيته الجسدية أنني لم أستطع فتح يده التي أغلقها وسلمني اياها، رغم اسلوب أعرفه وهو الضغط على القسم المنخفض بين الوسطى

والبنصر من اليد المغلقة. اعطاني يده وكادت أظافري تنغرس فيها ولم يفتح يده ولاتحركت خلجة من وجهه. ومن قوة روحه أنه حين رآني أنظم حلقة سياسية في القاووش حضرها واستمع بهدوء وقال: والله شيء عال، ولكن نريد أيضاً أن توعينا في الدين. وقد فعلت لأنني أعرف الدين شجاعة وكفاحاً وصبراً وصموداً، وكلها كانت من مجالنا الذي دخلنا السجن من أجله. ثم قدمني لأصلي اماماً بالجماعة محتجاً، رغم اعتذاري، بأنني الأكثر علماً بين الموجودين فأنا الأجدر بها. ثم لما عد الموجودين ورأى أنهم يزيدون على الأربعين اعتبر المكان موجباً لاقامة صلاة الجمعة، فخطبت بهم وأممتهم في صلاتها.

ولكن لم يكن الحبس يخلو من فكاهة حتى في موضوع الصلاة. فقد كان خادم ظريف خفيف الدم يقوم في الحبس وقت الصلاة فيصرخ: الصلاة ياحشاشة، الصلاة ياحرامية، الصلاة ياقتالين القتلى، ثم يلتفت ويقول، الصلاة ياأوادم!... وكل واحد يأخذ لنفسه ماشاء من الأوصاف، والله به أعلم. وذات يوم قام محمود خدام السروجي فودعنا صباحاً لأنه ذاهب للتحقيق، وقال لي أنني ان شاء الله لن أرجع. سالته هل أنت متأكد أنه سيطلق سراحك؟ قال لي: اليوم بتشوف.

وفعلا علمنا مساء أنه حين كانت السيارة الشاحنة العسكرية تنقله عائداً إلى السجن وهو مكبل اليدين بالحديد، ووصلت إلى مفرق شارع خالد بن الوليد متجهة إلى القلعة، قفز أبو صياح من السيارة على عكس سيرها وهي

سائرة ويداه مكبلتان بالحديد، وانطلق في شارع خالد بن الوليد مثل السهم ودخل في حارات القنوات، ولجأ إلى أحد البيوت قبل أن يلحق به أحد، وهناك جاء من كسر له القيد الحديدي. لقد كان يعرف أنه سيهرب، والأرجح أن هربه كان مخططاً له، ولكنه عمل لايقدم عليه إلا جريء قوي.

ومايزال محمود خدام السروجي إلى اليوم صديقاً كريماً وفي آخر ١٩٩٢ اتصلت به وسررت بأنه في صحة طيبة. وتذكرت أنني كنت صادفته عام ١٩٤٧ ايام الانتخابات النيابية، وكان جماعته قد طردوا جماعتنا من فوق الصندوق الانتخابي، فذهبت أنا لأعيدهم إلى مكانهم، ولما رآني تحول وقال لي بلهجته الشاغورية المحببة: شوجابك انت، روح من شان "الرصول" (الرسول كما ينطقها الشواغره) قلت له ضاحكاً لاأروح لاأنا ولاجماعتي. فغلبه الود القديم والخبز والملح اللذان يأسران قلب الزكرتي الحقيقي وأبقانا على مضض.

من يمد رجله لايمد يده

وبين هؤلاء الذين لاأنساهم رغم انقضاء أربعين عاماً على الحادثة واحد كان يعمل عربجياً والعربات وقتها كانت تقريباً وسيلة الانتقال الوحيدة لان التكسيات كانت في دمشق نادرة ولايجاوز عددها العشرين، وفي وقت الحرب وشح البزين توقف أكثرها. وكان هذا السجين، ونسيت اسمه مع الأسف، قد وجد معه مسدس فحكم عليه بالسجن سنة، وكان جاري في القاووش.

منه تعلمت الكثير من أخلاق الزكرتيه الذين وصفتهم في الجزء الأول (حديث دمشقي) ص ١٠٥ وقلت أن الزكرتي لها في دمشق معنى الانسان الشجاع الشهم ذي النخوة، وتعلمت من جاري هذه العفة بوجه خاص. كانت كلمته المأثورة:

من يمد رجله لايمد يده. أي ان الانسان المكتفي المستغني بقليله عن كثير الاخرين، لايمد يده اليهم.

ومناسبة ذلك أنه جاءتني علبة حلوى (كل واشكر) كما أذكر، فوزعت منها على من حولي وكلهم أخذوا فأكلوا وشكروا، إلا هو. قال لي: لا أخي لا. مكثور الخير.

قلت له يا رجل لايصير أن واحداً يأكل والآخر ينظر اليه لايأكل، الخير للكل!.. أجابني بلهجة فيها كل التعفف: لايا أخي. زاد الرجال على الرجال دين وعلى الأندال (الأنذال) صدقة. أنا لن يأتيني غدا حلوى مثل هذه فارد لك الضيافة. وعبثاً حاولت أن أحمله على العودة عن رأيه، وصمد في المناقشة كأحسن محاور، وكان التعفف في أقوى صوره هو حجته التي بها غلبني.

وفي السجن التقيت أشخاصاً كثيرين أعرفهم من قبل أو بلاسابق معرفة فمنهم موفق الطباع الشاب الذي ليس أجمل من شبابه ولا أروع من حماسته، الذي خطف بارودة عسكري عام ١٩٣٩ فحكم عليه بالاعدام وخفف عنه إلى المؤبد ولم يخرج من السجن إلا بعد سنوات

طوال[1]. وفيه التقيت بمختلس من بلدية دمشق كثير الصلاة والخشوع يستربهما عمله. وفيه التقيت برفاقي المسجونين قبلي لاسباب سياسية، وفي مقدمتهم رشاد عيسى الذي كان في السجن معلماً ورفيقاً وانساناً مسعفاً في احتمال مصاعب الحياة. وفي السجن أخيراً عرفت من المصاعب مالاينسى.

كيف حبسوني مع الجربانين

كنت في قاووش (الواحد سادة) أهتم بنظافة المساجين وسلامة القاووش من الأمراض المعدية، وكان هذا أمراً صعباً إذ أن القاووش يساق إليه القادمون حديثاً والله يعلم كم قضوا من زمان في النظارات ودور التوقيف التي يغلب فيها أنها حقيرة قذرة قبل الوصول إلى السجن، وكم على اجسادهم من حشرات القمل وغيرها. كان القمل يمشي إلينا من جوارنا ليتسلقنا كأنما يمشي في نزهة. وكنت إذا صادفت واحداً يحك وأحسست أنه الجرب ناديت موظف (الشكية) أي مستوصف السجن فأخذه وعزله وداواه. وفي احد الأيام حككت أنا، وظننت أنني ربما تكون انتقلت إليّ عدوى الجرب، فطلبت من موظف الشكية مرهم الغليسيرين مع الكبريت ولكنه بدلا من ذلك أخرجني لأطلي به جسدي احتياطاً ودون أن اضطر إلى مغادرة

---

(١) وقد أعادته الحكومات الوطنية إلى الوظيفة حتى تقاعد منها في عام ١٩٩٠ وهو جدير بكل تكريم.

القاووش أنا نفسي فوضعني مع اثنى عشر جربا في غرفة منفردة مساحتها ثلاثة أمتار بثلاثة.

وبدأت أدق الباب بعنف، وصرخت مهدداً بأن اقاتل حتى الموت ان لم يخرجوني فجاء المساعد الأول يقول لي: طيب، نخرجك ونضعك في قاووش الأحداث، إنما على مسؤوليتك تحفظ النظام بينهم فلا يعتدى أحد على أحد؟ وفهمت مايعني، فقلت على مسؤوليتي. وأخرجوني وصعدنا إلى الابراج إلى قاووش فيه اثنان وعشرون من الأحداث زعران الأزقة الذين لم يكن في دمشق يومذاك سجن خاص يؤدبهم. وكان هذا القاووش لاتأتيه الشمس إلا لثلث ساعة، من زغلولة في الجدار الشرقي فكأنها تطل لتدور وتذهب.

ورأيت من هؤلاء الجانحين المشردين مايؤلم النفس، وكانوا كلهم مصابين بالجرب وكان لنا مرحاض بلا باب وسطلان من الماء واحد للشرب وواحد لسواه

على كثرة ما عانيت في حياتي ماعانيت مثل الثمان والأربعين ساعة التي قضيتها مع هؤلاء الجانحين. وكانت طريقة المداواة أن نشلح جميعنا بالزلط، ويأتي موظف صحي معه تنكه فيها كلس وزرنيخ وفرشاة عريضة (عرضها ١٥سم) مما يستعملونه عادة في طرش الجدران، فيأخذ في دهننا بهذه الفرشاة من فوق إلى تحت، من الامام ومن الخلف، حتى تتكون على كل أجزاء جسدنا طبقة الكلس والزرنيخ.

دخلت هذا المكان يوم الخميس ظهرا وما أخرجوني منه إلا السبت مساء. والأنكى، أنني في يوم الجمعة وأنا جالس في قرنة منه مطرق أندب حظي وأعد الدقائق، إذا برفاقي في دار المعلمين يطلون علي.... هاه، انت هنا؟ قلت ماجاء بكم؟ قالوا اتينا لنزورك في القاووش فقالوا أنهم نقلوك. ونحن نبحث عنك....

من وراء القضبان رأوني في منظر لايسر. ولكنه بعض مايحتمله الانسان في سبيل وطنه وشعبه وأنا ما احتملت شيئاً ولاأصابني مايذكر أمام الذين عذبوا حتى الموت، وقطعت أوصالهم وذوبت أجسادهم، وماتوا على أيدي الجلادين في تاريخ الحركة الوطنية.

رطانة السجن

ومادمت في حديث السجن فلأتابع وصفه: فالحبس له لغته ورطانته. اذكر للطرفة أن المحابيس كانوا في أيامنا يسمون الأسبوع (لحمة) أي قطعة لحم لأن ادارة السجن كانت تصرف لنا أكلة لحم مسلوق في الأسبوع من أردأ اللحم على مرق لايساغ. فإذا سئل أحدهم كم لك في السجن قال مثلاً سبعا وثلاثين (لحمة) أي سبعة وثلاثين أسبوعاً.

والسجين يحن إلى الحرية، ويشعر بقيمتها بطبيعة الحال أكثر من سواه. تفتيلة في طريق الصالحية عند العشية حلمه الأكبر. ماوراء القضبان من جانب السجان، أي من جانب الهواء الطلق يصبح الدنيا الحقيقية. نكون

جالسين في معازبنا، و(المعزبة) هي جانب من جوانب القاووش، فيرتفع فجأة صوت واحد من المساجين ينشد: (يافتاح، افتح لنا بابك، واكتبنا، من جملة أحبابك) وليس نادراً أن يرد عليه المساجين الآخرون ويشتركوا في نفس الدعاء المرتل على لحن معروف فيكون من ذلك جو خاشع شجي مليء بالحسرة والرجاء المستحيل!

حياة القاووش

هذا الحديث الذي أسوقه عن السجن فيه مع الطرافة أنه لايخلو من عبرة وعظة، والسجن كما عرفته أنا وكما كان أوائل الأربعينات له تقاليد صارمة وعجيبة فعلا وراسخة فمن ذلك أنه توجد في كل قاووش معازب، مرتفعة من الطرفين والصدر، ومابينها قسم أخفض اسمه الميدان، والمعازب درجات فمنها مايكون أقرب إلى الباب ويحتله المستجدون، ومنها مايكون أقرب إلى الصدر ويحتله القدامى وبطبيعة الحال كان أثقل المحكومين حكما أحرى بأن يتزعم القاووش.

وأزيد أن من يضوج من الموقوفين أو المحكومين الذين ليس لهم في السجن سوى بضعة أشهر، ويقوم فيتمشى في القاووش يتندر عليه المحكومون القدامى. هذا يقول له اقعد ياولد، أنا أقضي محكوميتك على رجل واحدة، هذا يقول له أنا أقضيها رأسي تحت ورجلاي لفوق، وثالث يقول له انت كلك (براً) وأصبعك وحدها (جواً)، وهكذا يجعلون من المصيبة الأكبر مزية.

وفي السجن أغان حزينة تجسد التوق إلى الحرية، وفيه أغان نموذجية دخلت الفولكور ومنها اغنية (آه ياجمجمه خاروفه الله محيي شواربكي) التي كنت أنا أول من استخدمها كموضوع موسيقي حلو في فرق وزارة الثقافة ونظمت على غرارها ولحنها أهزوجة تقول، مع التحريف البسيط:

يا خويا لمسافر عالشـــام بالله تقبـــل سورهـــا
ترمي على أرضا السلام ترمي السلام وتزورها
وتقول لهـا يا مرحبـــا والله محيي شوارعكي

وإذا كان هناك من صوته نديّ فالغناء الشجي الحزين النبرة يترقرق في الأمسيات ويصغي إليه السجناء والحرس معا.

توفيق الخذمتجي

وفي القاووش واحد يختارونه عادة من صغار المحكومين أي المحكومين بأحكام بسيطة ويقوم بخدمة الأخرين لقاء جعالة صغيرة، ويسمونه (الخذمتجي). في أيامنا كان الخذمتجي لصا اسمه توفيق، من الصالحية. السجن عنده حالة أساسية، والحرية فترة مؤقته بين سجنين. ألف المحاكم وألفته، حفظ تسعيرة الجرائم ويعرف كل سرقة صغيرة "ماحكمانيتها" فإذا حكمه القاضي بها ابتسم، وان زادها مرة سأله: ليش سيدي غليانه تسعيرة السرقة؟ وكان القضاة إذا طال بأحدهم المقام في نفس المحكمة تعودوا عليه وتعود عليهم وقد يحزن إذا نقل أحدهم ويقول عنه ياحينه، كان ابن حلال. حتى رجال التحري صاروا يألفونه: يسألونه إذا أوقفوه بشبهة: توفيق،

بصلاة محمد أنت عاملها والا لأ؟ فاذا نفاها تركوه وان أقر بها احالوه ولكن بلا ازعاج إلى المحكمة. صاروا يعتبرونه ابن صنعة، بل يعرفونه أنه يريد أن يعيش في السجن ولايحب الخروج منه.

في تلك الأيام لم تكن أزمة المساكن قائمة كما هي الآن لنقول أنه يجد في السجن مأوى لايجده في حارته. كل الناس كانت تؤجر غرفة عندها والمستأجر يكون محشوماً مع صاحب البيت لأنه يعرف أنه إذا تبارد أو تغالظ أخرجوه. يقول المستأجر قبل أن يدخل يالله.. عدة مرات، ويسعل ويتنحنح حتى يعرف أهل الدار من نساء ورجال أنه قادم فتنضب المرأة التي تكون متفرعة، وهو إذا فاجأها أشاح بوجهه. تقاليد لطيفه موجودة وخفت مع الأسف أو تلاشت! . وكان توفيق، "خذمتجي" قاووشنا، يألف السجن ففيه يسكن مجاناً، ويأكل مما يطعمه المساجين ولاسيما الميسورون الذين يتركون له حصتهم من التعيين ويكرمونه لقاء خدماته. فهو الذي يغسل الصحون، وهو الذي يكنس القاووش، وهو الذي يتحرك طول النهار على هات وأعطني وخذ فمثل هذه الصنعة المربحة لماذا يتركها ويخرج؟ ألكي يعود فيسرق سرقة صغيرة ويكمل نفس المشوار. : النظارة، فالمحكمة، فالسجن؟ ماهو في السجن قاعد، محترف! هو والحرس من نوع واحد. الحراس أنفسهم لايحرسونه بشكل قاس، يخرجونه كلما أراد ويطوف بين القواويش يأخذ ويجيب هدايا وأخبارا ومآكل ويشتري لأي سجين مايحتاجه من دكان السجن.

كان يقف فينادم حارس قاووشنا، وكان رجلا بسيطا وظريفا. أيامها كان الحراس من الدرك قبل أن يتوحد الجميع في سلك الشرطة. يقول للحارس. أبواسماعين (أي اسماعيل) يعنى أنت انظم ؟!.. انت محكوم أكثر من كل هؤلاء، ويشير بيده إلى المحكومين بأحكام ثقيلة. انت محكوم مؤبد الا شحطة. لاتخرج من هنا الا إذا خرجت إلى التقاعد، وتكون كتكتت (أي اهترأت) باذن الله. نحن كلنا هنا نحوص ونتحرك ولامسؤولية، وانت واقف (سنكة طق)[1] ولاتتحرك من مكانك. قل لي، اذن من السجين أكثر؟!.. أي والله العظيم انت. ويبتسم الحارس ويقول له أي والله، الله يفرجها علينا وعليكم... ان توفيق هذا الذي أدمن السجن واعتبره داره الأولى وكلما اقتربت محكوميته من الانتهاء أصابه الكرب، فاذا خرج من السجن خرج مرغماً وفكر في طريقة للعودة إليه.

كانت صنعة تعلمها: كان يسكن فيه بالبلاش [2] ويأكل بالبلاش، ويأخذ من المحكومين مبالغ لابأس بها لقاء خدمتهم، ويضحك طولنهاره مع الحرس الذين كانوا يتركونه يتنقل بحرية حتى حين يخرج خارج حدود السور ليشتري غرضاً، فأين يهرب وهو الذي صار هنا كأنه في بيت أبيه؟!..

---

(١) تعبير تركي قديم يعني في حالة التأهب.

(٢) أصلها بلاشيء... أي بلا مقابل.

ومن توفيق سمعت قصته وهو صغير في عدة ليال كان يتحدث فيها حديثا نصفه مرح ونصفه حزين. كان أبوه وأمه يعيشان مع عمته العانس في غرفة واحدة، وفي هذه الغرفة أنجب أبوه وأمه ولدين توفيق وأخته التي لم أعد أذكر اسمها. وكانت امه وابنة حماها مختلفتين في الطباع وأكثر اختلافهما على الطعام فلكل واحدة منهما نملية[1] تنفرد فيها بطبخها وأكلها وعليها قفل. . . وذات يوم قال توفيق أن أباه حط رأسه ومات، وترك الطفلين وزوجته وأخته، ولامأوى سوى هذه الغرفة وكانت اخته لها راتب تقاعدي بسيط من والد كان عسكريا وتوفى، فتعيش منه وتدعمه ببعض التطريز. أما أمه فتشتغل بالحطة [2] في منزلها. وكان عمره قد بلغ ثمان سنوات حين حطته أمه عند خباز الحي. قال لي توفيق أن أيامه عند الخباز كانت ألطف الأيام. كلما خرج رغيف (مجعلك) من الفرن رماه له المعلـــم فأكله وشبع. وحين يودّي الصفيحة وفطاير الجبن إلى المنزل يطعمونه. الكرماء يعطونه قرصين، والأقل كرماً يعطونه قرصاً، والبخلاء لايعطونه شيئاً. وقال في نفسه مرة لماذا لاأجعلهم كرماء رغما عنهم؟ وصار يأخذ من كل وجبة يوصلها قرصين. وذات يوم عد المعلم الأقراص وعـــدها صاحب

---

(١) النملية خزانة للطعام عليهامنخل حتى لايدخل إليها النمل وكانت محل برادات هذه الأيام.

(٢) عمل منزلي تقوم به النساء لتهيئة الكوفيات والحطّات التي تعتمر بها الرجال.

الصفيحة فاكتشفا نقص قرصين، وأكل توفيق طيارتين وقلعه معلمه. . .

أمه أخذته عند ذلك ووضعته عند حداد. كان عند الحداد رزمة مفاتيح في شريط سلك كلما نظر إليها توفيق تذكر القفل على نملية عمته ومافيها من حلوى لاتطعمه منها إلا في المناسبات. وخطرت له خاطرة: كم من عالم غني يختفي وراء الأقفال مليئا بالاطايب، وكم تفتح هذه المفاتيح من مغاليق هذه الطيبات؟ وذات يوم أخذ رزمة المفاتيح مساء في غفلة من معلمه وشكلها بزناره، وفي الدار جرب في غياب عمته فانفتح القفل، وأكل قطعتي معمول كانتا في النملية، ثم اقفل ولاأحد سمع ولاأحدٌ رأى. وجاءت العمة فاكتشفت النقص، واتهمت كنتها وشدت كل واحدة منهما شعر الأخرى وتوفيق قابع في الغرفة حزين ولكن يتسلى. .

هنا بدأ اللص ينمو في الطفل اليتيم. لص جوعان يريد أن يأكل، عريان يريد أن يلبس، ولكن يأخذ بمقدار. وبدأ عالم المفاتيح يطلعه على عالم الأقفال وماوراء الأقفال، وصارت له تجارب. فجسده النحيل يمكنه من التسلل عبر الشقوق والثقوب، وكلما دخل داراً بعد أن يعرف أنها فارغة، كان أول همه أن يفتح النملية أو البراد ليأكل ويتفكه بالحلوى والمعقدات كمعقود الكباد والنارنج. . . ثم يستلقي هنيهة على التخت الوثير ليجرب احساسه، ويجلس على المقاعد ويلقي رجلا على رجل، وقد يدخن سيكارة مما تركه أصحاب البيت في غرفة الضيوف. . .

كان بمعنى ما، يسرق الضيافة. هكذا بدأ، وكل بداية لابد أن تنتهي به إلى

أن يستلطف الحرام ويعتاد عليه، وكان أول المطاف يوم قبض عليه صاحب منزل عاد إلى بيته خارج الوقت المعتاد، وأخذوه إلى النظارة فالقلعة .

وفي غرفة الأحداث في السجن كان بعض الذين قبله من المتمرسين في السرقات سألوه عما كان يفعل فلما أخبرهم ضحكوا عليه، وبدأوا يعلمونه . ولما كان لكل سجن نهاية، وخرج في النهاية، فقد بدأ على نحو (أفضل) مما مضى يمارس السرقات. وعلموه أن يتجنب الكسر والخلع والتسلق وأن يتسلل إلى البيوت المفتوحة ويسرق من المتاح لأن تعرفة السجن تكون أخف حين لايكون هناك كسر أو خلع . وأخذ يسرق بعض الدراهم وأشياء لطيفة يخبئها للمستقبل، لبيت يكون كبيوت هؤلاء الميسورين التي يدخل إليها فيجدها وفيها أنواع من التحف الصغيرة التي تجمّل الدار والحياة. .

وبدأ عقله الصغير اليافع يتخيل حياة من في هذه الدور التي يدخلها . صارت له فلسفة عملية في معرفة الناس من دورهم. المرأة التي تعمل في الدار يفرقها عن التي لها وظيفة. ذات الوظيفة غالباً ماتترك الدار (منكوته) قبل أن تخرج لترتبها عند العودة. يعرف المعلمة من سواها من كراسات التلاميذ. يعرف مافي البيت من أولاد من لعبهم. . الصبيان لهم لعب والبنات لهن لعب غيرها . يعرف إذا كان في البيت (بنت احما) من غرفة مغلقة فيها أشياء تحرص عليها، ولايبعد أن يكون في البيت عمليتان مثل عملية أمه وعمته. وكان إذا أكل في بيت امرأة مغلوبة على أمرها مسبوقة بالعمل من اللواتي يخرجن للوظيفة غسل الصحن الذي أكل فيه وربما جلا ماوجده

على المجلى. كان يشفق على المرأة المتعبة، وإذا أخذ شيئا فليستفيد منه مباشرة: دراهم، ماتلبسه أخته، بعض التحف الصغيرة التي ينظر منها لبيت المستقبل، ولم يكن يبيع شيئا حتى لايعلق بيد أحد.

ومع ذلك علق مرة ومرات، وبدأ السجن يصبح مألوفا لديه، وصارت خدمة المساجين صنعة مربحة تفوق في ربحها سرقاته الصغيرة.

وذات مرة خطر له وهو مخلى سبيله أن يتزوج. استأجر بيتا وبدأ يسرق له مفروشاته شيئا فشيئا، ويضع فيه كل التحف الصغيرة التي يستلطفها.

وخطر له أن يستقيم ويعود إلى صنعة الخبز. وتزوج بنت حلال حط عينه عليها واستحلاها من أقاربهم. ولكنها بعد أقل من شهرين جاءت بحجز وقشت أغراض البيت كاملة وطلبت الطلاق، وعاد توفيق إلى قاووشه.

قصة توفيق، اللص الصغير، غنية بالتفاصيل الانسانية. كان كلما حكا لي طرفا منها، أحسست أنه يمزج حقائق بخيالات. لو كان هذا الشاب تعلم من صغره، لو لم يخطر لأبيه أن يحط رأسه ويموت ولو أبقاه القدر يرعى بنيه ويعلمهم، ربما كان خرج منه بدل اللص روائي أو مسرحي أو أديب مثل جان جينه الفرنسي الذي بدأ لصا وانتهى كاتبا من أكبر كتاب المسرح، أو معلم يرعى الصغار حتى لاينحرفوا مثله.

توفيق، هذا اللص الصغير الذي كان يخدمنا في قاووش السجن عام ١٩٤١، علمني أشياء كثيرة. منها أن السجن لايضم الأشرار دائماً، وأن فيه الكثيرين من ضحايا المجتمع وضحايا الفقر. وعلمني فيما بعد أن من يعمل

في صنعة المحاماة يفهمها أحسن إذا كان ذاق السجن وخالط السجناء وعرف الحياة في أعماقها الحقيقية وخلفياتها . . ولاتكتمل انسانية الانسان إذا بقي يرى وجها واحدا من القمر، الوجه المضيء . .

القاتل الشرس

ثم أحدثكم عن نماذج أخرى من الموجودين في قاووشنا. كان فيه قاتل شرس في رقبته رجلان. هذا السجين كان صموتا، ذا هيبة، وأقدم الموجودين في القاووش، وأهله من الفلاحين الميسورين في منطقة الزبداني الذين يغدقون عليه المال. ذلك أنه كان قد قتل بتحريض من كبار العائلة اثنين من خصوم العائلة في عمليات الثأر التي كانت منتشرة في القرى. ثمناً لهذين القتيلين اللذي حرماه حريته كانت تأتيه المؤونه بكثرة ويكرم الجميع منها وينال حظوة الرجل الأقوى والأغنى. بالنسبة للخادم كانت الحرية تعني فترة مؤقته يقضيها في الخارج بين فترتي حبس.

بالنسبة لهذا القاتل كانت الحرية تعني شيئا بعيداً لايمكن الحصول عليه إلا في مستقبل بعيد وإذا خرج فإنه معرض لأن يقتل بيد الخصوم. الحرية بالنسبة إليه كانت الخطر . . . والدركي الذي كان يحرسنا، كانت الحرية بالنسبة إليه أن يبلغ سن التقاعد في سن معقولة ليعود فيمارس حرفته، إذ كان يشتغل في تنجيد الكراسي. بالنسبة إليّ كانت الحرية تعني العودة إلى دار المعلمين، فقد حبست وأنا في أواخر السنة قبل امتحان السنة الأولى وكانت تعني أن أعود

مــــرة جـــديدة إلـــى العمـــل الـــوطني فمن يمـــارسه لايتوب عنه أبداً.

ان مفهوم الحرية بالنسبة للمساجين متنوع متموج متبدل وكل انسان يراه وفق مشربه، وكان بيننا سجين قاتل هو الآخر، ولكن لسبب عاطفي، وقد قتل غريما له ينافسه على حب واحدة عرفت من الخادم توفيق أنها من بنات الخطا. وذا يوم وقد رآني هذا السجين واسمه علي العويسي -لاأزال أذكره وقد مات هو الاخر رحمه الله- قلت وقد رآني اقرأ وأكتب رسائل من السجن لاصدقائي جاءني وقال لي: الله يعطيك العافية. قلت الله يعافيك. قال، والله انت على عيني، قلت تسلم. قال ياأخي انتم تكتبون وتقرأون، نيّالكم (اي هنيئاً لكم) قلت له: تعلم. قال الان، مابقي من الكرم الا الحطب. قلت له مافات الأوان. (صفن) فيّ وقال: الك والا للديب؟ قلت له على عادة الزكرتية خسا الديب. قال اريد أن تكتب لي مكتوب يبكي الطير. قلت لمن؟ قال لصاحبتي؟! وزادني إنها في (المحل العمومي)! واستطرفت الفكرة، كما لم يكن من ذاك مندوحة. رفض الطلب كسر خاطر، وقد يجر متاعب ففي السجن اما أن يكون الشخص الذي تعيش معه صديقك أو لايكون. قلت له تكرم. سأكتب لك مكتوباً يبكي الطير...

عرضحالجي غرام

وعكفت على كتابة رسالة غرام وشوق وحنين أودعتها كل ماحفظته من أشعار عن السجن وضيقه، عن الحنين الذي يشد الناس إلى الحرية، عن الحرية التي هي المحبوبة ولقاؤها ولحظة يسند فيها الرأس على كتفها..

وتفننت. عاشق بالنيابة. عرضالجي غرام. . هل منكم من جرب أن يكتب لسواه بعاطفة مستعارة؟.

ياليت هذه الرسالة بقيت منها نسخة في يدي. ولكن (أصار حكم) بأنني فيما بعد كتبت أكثر من رسالة لغيري، بالنيابة، أستعطافاً لقلب. مرة كتبتها على لسان فتاة تسترضي خاطبها الذي كان غاضباً، وحرصت كل الحرص على أن لايكون في العبارات مايشبه الشوارب تطل من بين السطور. كانت هذه الفتاة مكسورة القلب وخاطبها تركها وجاءت تسألني النصيحة فقلت لها يبدو مما قلت أن الأمر سهل التصحيح. اكتبي له وقولي كيت كيت. قالت ارجوك اكتب لي أنت.

خطر ببالي علي العويسي وأنني كنت في عام ١٩٤١ عرضالجي غرام، فقلت لم لا. جرب لنرى هل تستطيع الكتابة بعاطفة مستعارة بعد أربعين سنة؟ ثم تذكرت أن الشاعر يفعل مثل هذا بالخيال. . .

مشاهد أخرى من حياة السجن

كان فترات وجودي في السجن فترات متقطعة وغنية بالمشاهد. ففيه عرفت القتله واللصوص والنشالين والشطار والمحتالين، ونفذت إلى عالمهم متسللاً وليس من صفارة حكم تردني. وفي السجن مفروض أن نكون كلنا سواسية ولكن الذي يحدث كلن العكس. فقد رأيت فيه رجلا محكوما هو جورج عوض، أبو ياسين كما يكنى، وكان من الشباب الشجعان في باب

توما والقصاع ودخل السجن في حادث قتل سببه خلافات بين الجماعات المتنفذه في الحي. وكان أبو ياسين سجيناً مدللاً، أعطوه غرفة علوية تشرح الصدر بما فيها من أثاث جيد وبابها مفتوح دائماً، وصاحبها "السجين" أكد لي تحت القسم أنه لم يأته العرق باللليتر أبداً وانما كان يأتيه بالتنكة. وبطبيعة الحال لايمكن لتنكة عرق أن تنط من فوق الحواجز ودون أن تطلع رائحتها أو تعلم بها الادارة، وتتغاضى عنها، والسبب مفهوم.

وكما كان هناك المحظوظون في المقام، كان هناك المحظوظون في الطعام. أنا حصل لي هذا الحظ مرة واحدة يوم أرسلت لي امرأة عمي سفرة (الله مولاها..) إلى الحبس، تطعم عشرة وفيها من الأطايب مالايخطر ببال، ولكن المساجين الكتلويين في أيامنا كانت تأتيهم اللبنية وسائرالطيبات في زبادي الصيني الكبيرة غالية الثمن، فيأكلون ويطعمون من حولهم بينما الدراويش والفقراء حتى من السياسيين والطلاب كانت (سفرطاساتهم) تأتي وفيها المقلّى ومنسّفة الباذنجان وقليلا ماأكلوا اللحم إلا إذا كان ذلك أقراص اللحم المدللة الناشفة الباردة من حين إلى حين.

وأذكر أن زميلنا في السجن المرحوم الدكتور نسيب الجندي، وكان من رفاقنا الذين سجنوا معنا فترة، كانت عائلة زوجته من آل الساطي ترسل له الأطعمة الممتازة، فاخجل رغم كرمه وتحريجه علي من أن آكل من زاده المرة بعد المرة، لاسيما وقد علمني الزكرتي العربجي أن زاد الرجال على الرجال دين فطبقت القاعدة حتى مع رفيق عزيز وكريم!...

الحشيش وابراهيمات الحشاش

وفي السجن عام ١٩٤١ عرفت الحشيش ورأيته لأول مرة بعيني، وهو فيما أذكر ذرور كالحناء وقد يكبس قطعا كأنه البيلون الحلبي، وشممت رائحته الغريبة قبل الاشتعال وبعده.

كان الحشيش شيئا شائعاً وعادياً في الحبس، وكان هناك واحد يأتي إلى القواويش فيتحدث همساً مع اصحاب الطلبات ويعطيهم حاجاتهم، ولايمكن أفتراض أن ادارة الحبس في ذلك الوقت كانت تجهل هذا أو كانت مصابة بزكام يمنعها من أن تشم الرائحة أو تتغاضى عنه بدون سبب، والسبب مفهوم.

وكان بين المساجين واحد من مشاهير حشاشة البلد اسمه ابراهيمات، أقابله في الباحة ساعة (التنفس) وهذا هو الاسم الذي يطلق في السجن على الساعة اليومية التي يخرج فيها المساجين للتمشي وشم الهواء في الشمس. كانت هناك شجرة كبيرة في زاوية الباحة يجلس تحتها ابراهيمات ساهما ثم فجأة يخاطبها ومن فوقها. . . مرحبا ياكينا، سلامات ياسما! . . . وكنت قد سمعت بحكايات ابراهيمات من قبل، فكان اسمه علما على الحشيش ولكن من الصنف الردئ، لأن الأصناف الجيدة يشربها الأكابر وهؤلاء لايسجنون.

المتمارضون

ماذا أحدثكم عن عالم السجن أيضاً؟ أقول أن المدللين كانوا يخترعون المرض فينامون على الأسرة في غرفة المستشفى السجن التي كان اسمها (الشكية) ؟ وإذا زادت قيمتهم أو (بايتهم) كما يقولون في دمشق، و(الباية) هي الوزن المعنوي ولاأدري اشتقاقها من أين- كانوا يذهبون إلى سجن المستشفى الوطني، أي إلى قاعة في المستشفى تعتبر فرعاً من السجن، ولكن شتان. . .

أما طعام السجن فكان الخبز السيء الذي كان موجوداً أيام الحرب، وسجننا كان أيام الحرب من ١٩٤١ وبعدها. ولكن كان هناك شيء يهون علينا الطعام هو وجود الحلاوة والمعلبات المهربة من الجيش الانكليزي

سجناء يذهبون إلى بيوتهم - أدهم عكاش

وفي السجن وجد أشخاص مرضي عنهم كانوا يخرجون ليقضوا ليلة في دارهم ثم يعودونه مع الفجر، باذن خاص ورعاية خاصة من مدير السجن الذي له ثقة فيهم ويرضى عنهم.

وأحدهم وكان صديقي ويعمل محامياً أيضاً انجب عدة أولاد وهو في السجن، وهو لم يأت بهم بالمراسلة، ولكنه كان شهماً فلم يحاول الفرار استغلالا لثقة مدير السجن به. وأنا لاأرى في ذلك أمراً مستغرباً بل أرى أنه القاعدة التي يجب أن تكون واجد من الممكن أن اصرح الآن باسم الاثنين

وقد توفيا فالسجين كان من تلامذتي في الإعدادية وهو المرحوم محجوب طنطا واما مدير السجن فكان المرحوم العقيد أدهم عكاش وهو الذي كان يرسله إلى داره في الخمسينات بين الحين والآخر عطفاً عليه فيبقى ليلته ويعود. وقد حدثني الاثنان بهذا فيما بعد وأنا محام.

وقد توفي أدهم (وكان من الطلاب التجهيزيين القدامى) في أيلول ١٩٨٩ رحمه الله ما كان أوسع قلبه وأعظم شجاعته، وفي كلمة رثائه قصصت هذه القصة عن شهامته.

وقد حدثني أحد مديري السجون فيما بعد فقال أن بلدا عربيا شقيقا يسمح بلقاء السجين بزوجته في مواعيد معينة، فيختليان في غرفة خاصة في السجن فيعينهما ذلك على احتمال المصاعب ويكون في ذلك تحقيق للقواعد الشرعية التي تحض على احصان الرجل والمرأة المتزوجين شرعا بألا يحرما من اللقاء.

فالرجل إذا حلت به مصيبة فخرج عن القانون فاقتضى حبسه فما ذنب زوجته وماذا نفعل بانسانيته التي يجب أن تصان وتكون بمنأى عن الحرمان الذي يؤدي إلى الضلال؟

انه اقتراح مطروح على المسؤولين عند النظر في نظام تنفيذ العقوبات.

آراء في معاملة المساجين

ان السجن عالم عجيب وقاس وصفه فأحسن وصفه شاعر عربي حين قال:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها فلا نحن في الاحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السجان يوما لحاجة فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا
ونفرح بالرؤيا فكل حديثنا إذا نحن اصبحنا الحديث عن الرؤيا

وقد عرفت في السجن انفعالات الناس وراء القضبان ونفعني ذلك أيام المحاماة، لما كنت خرجت من السجن وعدت إليه في الدعوى نفسها عدة مرات فاستصعبت الرجوع ولذلك فانني أنصح غالباً من يوكلني بالايهتم بالخروج الفوري ولكن يهتم بالنتيجة. ومن يعرف السجن يدرك مشاعر الذين في الداخل، وعلى هذا الأساس ناديت وأنادي باصلاح نظام السجون.

ان ادارات السجن يختلف عليها أناس قساة وأناس رحماء. هؤلاء معهم حق فالمساجين إذا كانوا بالمئات وأحياناً أكثر لايجوز أن ترخى لهم الحبال فمن يعلم ماذا يحصل، وأولئك معهم حق أيضاً فان الرحمة هي الطريق التي يرد بها الانسان إلى المجتمع اذا ضل عن سواء سبيله.

واعذروني إذا كنت اطلت في حديث السجون، ولكنني لاأحسب أن أحداً يضيق بهذا الحديث لأن قارئه لابد أن يقدر نعمة الحرية التي هو فيها، وبضدها تتميز الأشياء. ان السيكولوجية الاعلامية تعتمد هذا حين تطالعنا

الانباء صباح كل يوم بأخبار الكوارث. فزلزال هنا، وطيارة سقطت هناك، وأخرى اختطفت، وفيضان في قطر بعيد، وطفل سقط في بئر فاهتز العالم لمحاولات انقاذه. ان كل هذه الأحاديث وهي تبعد عن المسرة بعد الأرض عن السماء محسوب أثرها في النفوس، فاذا اقلقت للحظة فانها تذكر الناس بمقدار النعم التي هم فيها اذا لم يكن أصابهم مااصاب أولئك. لاأقول أن الناس لايتعاطفون مع المصابين، على العكس، ولكن مع ذلك يحسون بالأمان في أعماقهم، ولذلك فمهما كانت أنباء الكوارث التي تطالعنا بها الأخبار كبيرة فانها تعتمد على عنصر الأمان الذي يتكون في نفوس الآمنين حين يسمعون ماحل بسواهم من تعساء الحظ.

وحين نتحدث عن السجن نتذكر نعمة الحرية والأمن وأن ينام واحدنا في بيته وفراشه وبين عياله. وكما أن الكلمة المأثورة تقول أن الصحة تاج على رأس الاصحاء لايراه إلا المرضى، فكذلك الحرية عاج على رؤوس الناس جميعاً لايراه إلا من في السجن. ويالطيف ماأصعب الحرمان من الحرية، ويالطيف ما أسخف الكلمة التي يقولها الاشرار وهي أن الحبس للرجال. لا. الحرية شيء ثمين.

وقد تمنيت ولست الوحيد في ذلك، الا يدخل القضاء الجزائي قاض، الابعد أن يمضي فترة في الحبس كمحبوس عادي دون أن يعرف السبب. ساعتها يدرك إذا قال لموقوف، حكمتك ستة أشهر مامعنى الستة أشهر!

نعود هنا مرة أخرى جديدة إلى مفهوم نسبية الزمان. زمان المسرة ينقضي

بلحظات، وزمان الحزن ثقيل لزج لايكاد يتحرك من مكانه. الحزن يزحف، والفرح يطير ويوم من السجن ليس كالأيام العادية ولاسيما أيام العطلة التي مانراها بدأت إلا ونراها انتهت. كيف يمر الزمان؟ لاأحد يدري. ولكن هذا يصح فقط في زمان الحرية وزمان المسرة. ومن لم يصدق فانا أقول له جرب أن تسكت عشرين ثانية وانت تنظر إلى ساعتك، تعرف كم هو الزمن بطيء لمن لايفعل شيئا، ويقعد بعيداً عن أهله وأحبابه وأصدقائه وعمله، ساكنا صامتا واجماً في جو ضيق ومكان محصور.

جيد أن يذوق القاضي الحبس. ولكن الأجود أن يجرب كل انسان هذا الحبس في داره فيغلق عليه أهله الباب بضع ساعات أو يوما فلايخرج، وعندها لايخاطر بمخالفة قانونية أو بارتكاب الحرام. يكون ذاق سلفة على ماسيذوق من حرمان من الحرية. لو خالف القانون بما يستوجب الحبس!

وأولئك المتفاخرون الذين يقولون وهم في السجن، أمام المحكومين البسطاء، أننا ننام السنوات على جنب واحد فلا نتقلب، انما هم مكابرون. والحبس كان وسيبقى مشروعاً للأشرار، لمن يبقى وجودهم خطراً على المجتمع. وقد أقرته الشرائع كلها والأديان كلها والأنظمة كلها يمينهاويسارها، انما صار في العالم اتجاه إلى جعل الحبس أقرب إلى الانسانية منه إلى العذاب. يبقى فيه جانب احتجاز الحرية، ويبقى فيه أنه يربي. يبقى فيه أنه يعزل الشرسين ويضعهم في مواجهة انفسهم. . ولكن يكون أكثر إنسانية.

مرة كتب آراغون عن سجن ناظم حكمت، وماأروع ماكتب من أدب

السجن هووكبار الشوريين في العالم، كتب: ناظم حكمت سجين في سكين، في مرآة. ولعمري إنهما رائعتان من روائع الوصف. فالسجن يقطع الأعصاب ويفريها. والسجن يدور فيه الانسان فلا يرى إلا نفسه وعالمه الذي يدمن اجتراره. وقد سبق لي أن قدمت اقتراحات عديدة في هذه الصدد من بينها، واعتذر اذا غلبتني هنا حرفة رجل القانون ولكن الشيء في مكانه يستساغ:

اقتراحات في تنفيذ عقوبة السجن

إنه لاجدوى من الاكثار من عقوبات السجن مادام يمكن الاستغناء عنها بعقوبات آخرى كالغرامة الفادحة والأمر بالعمل أياماً معينة في عمل انتاجي ومعسكر خاص ليفي الانسان دين المجتمع ودين المتأذى من جرمه، فهذا أفضل من أن ندعه في بطالة مؤذية وان نطعمه ونسقيه ونخدمه في ظروف لايمكن أبداً أن تكون انسانية. وبطبيعة الحال لايمكن أن نجعل السجون دور استراحة وعطلات ويجب أن يعمل فيها كل سجين عملاً ومتعباً ومجدياً ومفيداً في دفع نفقاته فالعمل هنا تربية وليس عقوبة. أي لايجوز أن نترك السجون أماكن يتعلم فيه المستجدماينقصه من شرور السلوك، ولا أن نجعلها دار بطالة وقعود وتعذيب نفسي. ولو أن القانون عدل ليجعل الحبس في المرة الأولى ومعظم الجرائم الخفيفة يقترن بوقف التنفيذ لارتدع الناس. من أخطأ مرة لايعود إليها لأنه يعرف أنه إذا عاد إليها ضمن سنوات معينة حسب نوع الجرم نفذت العقوبة السابقة وضوعفت العقوبة الجديدة نتيجة التكرار.

ومع وقف التنفيذ يكلف المحكوم بأن يقدم كفالة احتياطية بمبلغ معين وربما كان كبيراً فيصادر إذا هو انحرف مرة أخرى.

الحرية شيء ثمين، ومطلب عزيز، والانسانية تسير قدما نحو توفيرها والاقلال من حجزها وحبذا لو أن قانون العقوبات ونظام السجن تحسنا عندنا في هذا الاتجاه، اذن لحصدنا من ذلك خيرا كثيرا.

ولعلنا نجعل السجون دور تعليم وعمل فيخرج السجين منها أفضل مما دخل، ويعمل وينتج ويكسب مايعادل نفقته ويعاد الباقي إليه وإلى عياله.

وقد جربت السجن في حياتي كما قلت، لامختارا ولكن رغما عني، ولاأحب أبداً أن أعيد التجربة.

وكلماتي هذه موجهة إلى الناس جميعاً، صغارهم وكبارهم، نسائهم ورجالهم، ان اعملوا جميعا ضمن حدود القوانين والشرائع والحلال والمباح، ودعوا عنكم اغراءات الحرام والممنوع فمهما تكن جذابة فإن الثمن الذي يدفع فيها يكون أفدح.. ولهذا فانا مع الذين يجهرون كل يوم بالدعاء: ان اللهم اغننا بحلالك عن حرامك...

ويا اخوتي الذين يمكن أن تصل هذه الصفحات إلى أيديهم وهم في السجن في قلب المحنة أنني أتعاطف معكم وأترقب عودتكم إلى المجتمع ضمن حدوده وقوانينه والتقيد بأوامره والانتهاء عن نواهيه، ولتكن تجربتكم درساً ينفعكم مثلما ينفع الآخرين. وياحبذا أن يكتب المسجونون تجاربهم وروايات من وحي مأساتهم فانها تصبح أدباً شديد العمق كبير الفائدة.

اطلاق سراحي

بعد خمسين يوماً من هذا التوقيف كان الاضراب خلالها شاملاً عاماً بين طلبة المدارس وكان من مطالبهم الرئيسة اطلاق سراح المعتقلين - وكنت أبرز المعتقلين الطلاب في ذلك الوقت - استجابت السلطة للطلب وأطلقت سراحنا. ولكنني لم أكن أعرف، وأنا أعود إلى الدوام في الصف الأول من د ار المعلمين وأذهب لفحص نهاية السنة، إن هناك أمراً مبيتاً، وهو احالتي من جديد إلى المحكمة العسكرية الفرنسية بتهمة جنائية هي توزيع نشرات مناهضة للمجهود الحربي الفرنسي.

السجن ثانية

ففي أيار من عام ١٩٤١، كانت الحرب العالمية الثانية قد شهدت انتهاء أول فصل من فصولها القاسية، فاحتل الالمان فرنسا وأوربا الغربية بكاملها واستسلم المارشال بيتان لهم وتعاون معهم، وقام في سورية حكم باسم المارشال بيتان يشرف عليه المفوض السامي الجنرال دانتز، وبدأت مكافحة شرسة للحركة الوطنية ولليسار بوجه خاص، وكنت في وقتها قد اعتقلت وأنا طالب في دار المعلمين بسبب المنشور الذي سبق ذكره في مقدمة هذا الفصل، فلما اطلق سراحي لفترة قصيرة عادت السلطة فاحالتني إلى المحكمة العسكرية الفرنسية يوم ٩ أيار ١٩٤١ بتهمة التحريض عل الشعب وتوزيع نشرات ضارة هدامة، ولم أخرج من المحكمة الا إلى السجن لاقضي فيه مدة

الحكم وهي تسعة عشر شهرا تضافِ إليها غرامة تبلغ الف فرنك ذهبي وكانت ثروة في تلك الأيام لاأملك منها دانقا. وللتاريخ أقول أن هذه المحاكمة التي جرت في المحكمة العسكرية البعيدة عن دارنا مئة متر فقط، لم يحضرها سوى والدي وصديقي شاكر مصطفى. وأذكر فيها أن ضابطاً فرنسياً حقوقياً عينته المحكمة ليدافع عني القى دفاعاً ممتازاً وصادقاً، وان رئيس المحكمة حين سالني عن التهمة قلت له أنني درست الفلسفة ودرست كارل ماركس باعتباره فيلسوفاً وقلت أنه فيلسوف كالآخرين... فهز رئيس المحكمة رأسه بتهكم وقال: نعم... مثل الآخرين! وكررها مرات ... ثم أصدر حكمه. وهنا لايفوتني أن أذكر أن الدفاع الذي القاه الضابط الفرنسي المسخر كان قد سحرني بصدقه وجماله، ولكن لم يمنع من صدور الحكم أو ربما كان من أسباب التخفيف لاي سقف عقوبتنا كان خمس سنوات وزميلي حكم عليه بثمانية وعشرين شهراً لأنه وزع المنشورات بالذات.

بعد نحو شهر من ذلك، بدأ انعطاف جديد في الحرب العالمية وفي مصيري الشخصي. ففي (٢١) حزيران بدأت ألمانيا الهتلرية غزو الاتحاد السوفيتي، وفي نفس الوقت تقريباً ولسد الثغرة الشرقية على الألمان دخلت الجيوش الانكليزية ومعها الفرنسيون الديغوليون أرض سورية قادمين من الجنوب، من فلسطين، لينهوا حكم الفرنسيين الفيشيين، نسبة إلى فيشي التي كان بيتان جعلها عاصمة له. ولما وصل الانكليز إلى خان دنون، وكانت الجبهة الفرنسية الفيشية متمركزة في الكسوة كنت أنا وعدد من الشباب

المحكومين والموقوفين في سجين القلعة، في القاووش رقم /٥/ الذي كان يسمى في ذلك الوقت (السياسة) لأنه يساق إليه من هم على حساب السياسة. وكنا نتذاكر في أمر هذه الحرب التي بدأنا نسمع قنابلها تدوى بلا انقطاع على بضعة كيلومترات من دمشق، ساهرين في العتمة والنوم يعصى جفوننا، متسائلين: لو قصفت القلعة ماذا سيحل بنا ونحن وراء القضبان؟ وكان الموقف عصيباً بلاريب وبدأت تراودنا فكرة اعتقال الحارس والتمرد والهرب لاخوفاً من السجن ولكن هربا من موت أبله.

من السجن إلى قيادة الجبهة

وفي هذا الظرف كان خروجي من سجن القلعة حادثة غريبة ولاسابقة لها كما لم تحدث مثلها حادثة من بعد فمن المعروف في تاريخ السجن في بلدنا أنه متى حل العصر وأدخل المساجين إلى القواويش المخصصة لهم، يجري تأمين الشبكات أي قفلها بعناية ويجول رئيس الحرس فيتفقدها ولاتفتح في أي حال حتى صباح اليوم التالي، اللهم الا في حالة واحدة هي حالة الاعدام إذ يأتون إلى المحكوم بالاعدام عند منتصف الليل، بعد استنفار الحرس، فيخرجونه ويقتادونه إلى حيث ينفذ الحكم فيه.

وفي /٢٨/٦/١٩٤١ وكنت بعد الحكم عليّ من المحكمة العسكرية الفرنسية بالسجن تسعة عشر شهراً قد انتقلت إلى القاووش المعروف باسم الرقم /٥/ المخصص عادة للسياسين ولبعض السجناء المدللين كما قلت،

تسامرنا بعد (تأمين الشبكات) وسهرنا في أحاديث مختلفة.

عند منتصف الليل، وكنا نتسامر، سمعنا دربكة واستنفاراً في صفوف الحرس، فارهفنا السمع ونحن نقول: جعله الله خيرا، فما يعني هذا إلا أحد أمرين إما اعدام أحد أو محاولة فرار. وبينما نحن نرهف السمع ونحبس الانفاس في مواقعنا، اقتربت الخطوات من قاووشنا وجاء رئيس الحرس يدق على الباب. صرخ: نجاة وعدنان مطلوبان...

لم نرد. فقد كان الأمر مفاجأة. قلت في نفسي بسرعة: الاعدام ليس معقولا لاننا محكومان وجرم الفرار لم نحاوله فما الذي جرى؟

أعاد رئيس الحرس النداء مقرونا بكلمة: خالصان... يطلق سراحهما.

كان هذا غير معقول، ففي كل تاريخ السجون لم يفتح باب سجن في منتصف الليل لاطلاق سراح سجين.

ولكن ماكان في وسعنا أن نتجاهل أكثر، فلبينا النداء.

قال رئيس الحرس والله خالصان، خذا معكما أغراضكما.

اذكر ليلتها أنني لبست بسرعة، ولم أجد وقتا ألبس جواربي فلبست حذائي مباشرة، وخرجنا ولكن باستغراب.

وفي غرفة مدير السجن وجدنا أربعة آخرين من حزب (الحرس العربي)وهم موقوفون مثلنا، وقد اجتمعوا عند نفس الليوتنـــان (لي) الذي حقق معي عندما جـــاؤوا بي إلى مديرية الشرطة لحظة اعتقالي

كان هذا الرجل المشهور بقسوته ينتظرنا، ومن بين الجماعة اختارني أنا

لأنني أعرف الفرنسية فقال لي: أخبر جماعتك أنكم لن تذهبوا إلى بيوتكم، ولكن إلى الجبهة. هناك يطلبونكم. والتفت إلى ضابط فرنسي على رأس مجموعة حرس قادمة قائلا: خذهم. انهم ليسوا سجناء الان ولكن سلمهم إلى مركز القيادة... وانطلقت بنا السيارة العسكرية في منتصف الليل، مارة بشوارع معتمة نائمة على حذر في اتجاه حي الميدان، فالبوابة، حتى وصلنا إلى محطة القدم التي كانت تجيش فيها الحركة بين داخل وخارج، من ضباط وجنود ومدنيين، وكانت فيما لحظنا مركز قيادة الجبهة. أما صوت المدافع فكان قريباً وكثيفا.

كان الفيشيون يائسين من الحرب لايرون أنهم قادرون على خوضها بنجاح في وجه القوي الانكليزية والديغولية القادمة من الجنوب، فسلموا قيادة الجبهة إلى أحد الضباط العرب في الجيش الفرنسي وهو (الكولونيل) حسني الزعيم هو فصار يملك صلاحيات واسعة أقلها أن يعفو عن أي سجين أويطلق سراحه.

وكان عدنان ابن أخيه الشيخ صلاح الدين الزعيم هو رفيقي في الدعوى التي صدر فيها الحكم علي، وكان أخوه المرحوم كامل الزعيم هو الذي توسط لاطلاق سراح ابن أخيه ومن معه بحجة الحاجة الينا لتنظيم مقاومة في الغوطة خلف الجيوش الانكليزية الغازية.

ولما وصلنا إلى قيادة الجبهة كان هذا ماأفهمونا اياه، فانتحيت بكامل الزعيم جانباً وقلت له:

اسمع ياأخي، أنا لاأحارب مع اجنبي ضد أجنبي. ان كان الأمر كماتقول فأنا أرجع إلى السجن.

قال لي -وهو ابن حارتي ومعرفتنا قوية - رُح بلا جدبة! هذه حجة لتخرجوا. ونادى على سائق معه سيارة بيجو من النوع الذي يشبه الصرصور، وقال لسائقها أوصل الجماعة إلى بيوتهم!.. أذكر في تلك الليلة أنني وصلت إلى دارنا التي يحتلها اليوم المطعم الموجود تحت سكني وقرعت الباب. جاء والدي يسأل من؟ قلت: أنا نجاة. قال: غير صحيح جعلت أقسم له أنني أنا حتى استطاع أن يتبين صوتي، وفتح الباب محاذرا، ثم عانقني وهو يقول كلمته المعتادة: ياحنوني!... ثم استقبل القبلة يصلي صلاة الشكر. وكنا في غرفة الضيوف خلف الباب.

كانت أمي قد استفاقت، ولكنها ظلت في غرفتها لاتعرف ماذا يجري. كانت تعودت على الكبسات الليلية على بيتنا، فلما رأت الباب يفتح، ثم أصوات همس، ثم ضوء غرفة الضيوف يضاء، ولم تكن هناك أصوات بساطير الجنود في الدار، تسللت لترى ماالذي جرى، فرأتني من ثقب الباب...

وأذكر يومها هذا الحادث العجيب حتى من أم: فقد ذهلت، وفتحت الباب، وبدل أن تعانقني، انكبت على يدى تقبلها...

يارحمة الله على روحها... وماأعجب عاطفة الأمهات!...

اعترافـــات

ثم انني قبل أن أنهي حديثي عن السجن أذكر أنني تحت تأثير مارأيته فيه وتحت تاثير ذكرياتي وقفت، مرة أمام رئيس الجنايات وأعضاء محكمته وعدد من المحامين اسألهم: بالله عليكم هل منكم من فكر بتطبيق قانون العقوبات على نفسه؟

قال الرئيس: من أين لك هذه الفكرة ؟!.. قلت من أنني طبقتـهاعلي نفسي فـوجدت أنني لو علقت بكـل واحدة لكنت الآن محكوماً بالاعـدام وبعشرات السنين حبساً، وياويل من يعلق. وحتى لايستغرب أحد هذا القول ويحسبه كلاماً ملقى كيفما اتفق، سأحدثكم عن بضع حوادث قمت بها، لتقولوا بعدها هل معي حق أم لا؟ وحدثتهم عن حوادث أرويها للقارئ فيما يلي واعتقد أنهم صدقوني، وكان لهذا تأثير في روحية القاضي حين يعرف أنه لايحاكم إلا من يعلق بيد القضاء فيكفر عن ذنوبه وذنوب سواه ممن صادفهم الحظ فلم يعلقوا...

١- المغامرة الأولى

حين ساقوني عام ١٩٤١ إلى المحكمة العسكرية الفرنسية لأحاكم أمامها وقد ورد حديث ذلك من قبل مفصلاً، قابلت في بهو المحكمة جندياً تونسياً كل ماأذكره عنه أنه يسمى (صالح) ولاأذكر البقية. وكان هو الآخر سجيناً يحاكم أمام المحكمة العسكرية الفرنسية بتهمة عصيان الأوامر والتحريض عليه. وكما يحدث في السجون ودور التوقيف، ولدت صداقة بيننا

أساسها أننا عربيان يساقان أمام محكمة أعداء، ثم زاد على ذلك فأطعمني من زوادته، من خبز وجبن كانا معه في موقف المحكمة، في حين كنت جائعاً ولاأملك قرشاً إذ جردني الحرس حين تقدمت إلى المحكمة من دراهمي القليلة.

بعد صدور الحكم علي بالسجن تسعة عشر شهراً وغرامة ألف فرنك ذهبي -ولاأعلم بكم حكم عليه هو لأنني لم أحضر محاكمته- أخذوني إلى سجن المزة مع أبناء دعواي، وفي اليوم التالي نقلنا إلى سجن القلعة كمدنيين يقضون حكمهم، ولم أعد أسمع عنه شيئا بل كدت أنساه، هذاالصديق العابر. وأطلق سراحنا ليلاً كما ذكرت في الحلقة السابقة حين هاجم الألمان الاتحاد السوفيتي.

وبعد أيام، وكنت أسير في سوق الحميدية، إذ بشاب يقترب مني ويخاطبني بهمس: سي محمد سي محمد، لاتتلفت وادخل في أول زنقة(١) على اليمين! التفت قليلا بطرف عيني فعرفت أنه (صالح) عينه. وانفتلت إلى أول شارع على يميني وهو يتبعني، ولما وجدنا الطريق خالياً أو يكاد ممن يسترقون السمع صافحته كمن تقابلا صدفة وسرنا نتحدث.

أخبرني ساعتها أن الفرنسيين الفيشيين حين استشعروا قرب الهزيمة وأعوزهم الجنود أخرجوا من كان عندهم في سجونهم من جنود موقوفين أو محكومين وأعطوهم سلاحاً وساقوهم إلى الجبهة ليقاتلوا وكان هو بينهم. ولما كان في الأصل متمرداً على السلطة الفرنسية التي أتت به برغمه إلى

سورية ليحارب شعبها العربي، والتي حكمت عليه بسبب موقفه الاستقلالي والقومي، فقد فر من الجبهة بسلاحه.

سألته ماذا أستطيع أن أفعله من أجلك؟ قال: أن لي أقارب في حلب أريد أن أسافر إليهم ويعوزني بعض المال، فهل تستطيع أن تساعدني؟ ثم سارع يقول مبتسماً وكأنه يشير إلى يوم أطعمني: لابالدراهم فانت لاتملك منها شيئاً يذكر، وانما ببيع بندقيتي والذخرة؟ لم أفكر ثانية قبل أن أقول له: لعينيك، حاضر! وكنت أعرف أن عملي مخاطرة ولكنني لم أدرك ساعتها كل مداها. اليوم أعرف أن من بعاون جندياً على الفرار بسلاحه من جيش أثناء القتال، ويشارك في بيع سلاحه، عقوبته الاعدام وهي عقوبة يملك أي قائد قوة منعزلة أن يقررها وينفذها فوراً في محكمة ميدانية.

ولكن حماسة الشباب وشعور التضامن القومي والنضالي بين عربيين يجمعهما موقف متشابه جعل استجابتي تفقز إلى فمي دون تردد. أخذته وذهبنا إلى الشاغور، ولي فيها صديق اسمه حامد أعرف شهامته واتصاله بكثيرين من الوطنيين. وكان الوطنيون في ذلك الوقت يتأهبون لمقاتلة الفرنسيين بعد أن بدأ نظام الاستعمار يتفكك، والسلاح مطلوب. طرقت الباب ولما خرج يستقبلني بادرته: حامد، الك والا للديب؟ أجابني: خسي الديب! قلت: هذا الشاب الذي معي صديق تعرفت عليه في السجن وعنده بارودة وجنادات فشك، هل من يشتريها؟ قال: أبشر. أين السلاح؟ التفت إلى صالح فقال انه أودعه لدى فلاح في بستان من بساتين القدم، واتفقنا على

خطة غاية في البساطة. فحامد له أخ برتبة كابتن في الجيش وعنده عسكري من الشاغور أيضاً. نأخذ العسكري إلى حيث الأمانة فيحمل السلاح كأنه سلاحه ويعود، ولا من رأى ولا من عرف.

ومضينا نحن الأربعة إلى بساتين القدم، حتى وصلنا إلى أرض فيها بيادر قمح. قال صالح: انتظروني قليلا، ومضى. بعد ربع ساعة عاد وفي رفقته فلاح ومعه مذارة تقدم نحونا بخطوات مترددة حذرة، فلما رآنا وعرف أننا أبناء بلد هدأ بعض الشيء، وأخذ يضرب في البيدر بالمذراة ليخرج الوديعة.

كنت أراقب وجهه وهو يتعرق لا من المجهود ولكن من القلق. كان يريد أن يتخلص من هذه الوديعة التي قبلها بسائق النخوة، ويخشى في نفس الوقت من النتائج، كما يخشى أن تكون فقدت أو سرقت. ولما دقت أسنان المذراة بجسم معدني، تنهد وأخرج البندقية وحزام الرصاص وقال:

خذوا، والله خفت أن تكون سطت عليها يد فترتابوا في أمانتي. وعرضنا عليه مالا فرفض، وحمل الجندي البندقية وافترقنا عنه في طريق العودة كأننا لانعرفه. صالح أخذ يومها / ١٢٥/ ليرة سورية وكانت ثروة. راتبي كمعلم مؤقت كان / ٢٥/ ليرة تذهب منها حصة الخزينة فيبقى لي / ٢٣/. وقد سافر، ولم أسمع به بعد ذلك، وظلت الحادثة في الكتمان ثمانية وثلاثين عاماً. ولكن صورة هذا الشاب التونسي التي بقيت في مخيلتي جعلتني في زيارات متعددة قمت بها إلى تونس في أعوام ١٩٦٢ و ١٩٧٣ و ١٩٨٧، كلما سرت في طرقات العاصمة البيضاء رحت اتفرس في

الوجوه لعلي ألمح رجلاً يقبل عليّ ليقول لي: سي محمد، سي محمد اعرفتني؟ أنا صالح صاحب البندقية! وأجيبه: ومن أطعمني من زوادته في المحكمة العسكرية!

ياللشباب ماأكثر اخلاصه وتهوره!

٢- انتحال صفة في فحص قبول للجيش الفرنسي

والمغامرة الثانية كانت عام ١٩٣٦ أي قبل ذلك بكثير. فقد كان لي زميل في الدراسة اسمه يسري المصري لم أره منذ ذلك التاريخ وحتى الآن، ففاجأني يوماً وهو يعرف قوتي باللغة الفرنسية بقوله: لي صديق اسمه عبد المجيد قرباش عنده امتحان قبول كمحاسب في جيش الشرق الذي يشرف عليه الفرنسيون وفحص آخر في الدرك بنفس الوقت. فهل تدخل أنت عنه في فحص الجيش؟ استجبت بسرعة مندفعاً بفكرة المعونة وبروح المغامرة. وقال لي أنا سأذهب إلى الفحص نفسه فتذهب معي، وعندما ينادون على اسم عبد المجيد تقول أنت (بريزان) أي حاضر، ولاأحد يعرفك. وكان ذلك في صباح اليوم المحدد ذهبت مع يسري إلى القشلة الحميدية - وهي مكان المبنى الرئيسي لكليةالحقوق اليوم - ووقفنا في الباحة الكبيرة، وجرى التفقد وصاح عريف في الجيش: عبد المجيد قرباش، وأجبت (بريزان) ودخلت الفحص، وكتبت الأجوبة وكانت غاية في السهولة. لكنني كنت وأنا قاعد قد بدأت (استحقها) كما نقول في دمشق، أي أحس بمدى المخاطرة. وصار رأسي: يكبر ويكبر حتى كاد يدق بالحيطان من الجانبين، وصرت أتمنى لو

تختصر الساعات إلى دقائق لأفر من هذه المغامرة. وسؤال بعد سؤال، وورقة بعد ورقة، ثم خرجنا ولكن أنا بلا لون، وماوصلنا إلى الخارج المبنى حتى أخذت أهرول ويسري يضحك علي لخوفي.

لو علقت يومها ، كنت أكلت نصيبي حبساً وتشريداً ومن يعلم ان كان هذا سيؤثر أيضاًعلى معنوياتي ومستقبلي؟! الأنكى أن عبد المجيد قرباش نجح في فحص الدرك حيث ذهب، ونجحت أنا عنه أو نجح هو بكتابتي في فحص المحاسبين، ويسري الذي كان الوسيط من أجله سقط. والأنكى أيضاً أنني لم أعرف وجه عبد المجيد قرباش لا قبل الحادثة ولابعدها.

ترى أين هو ؟ وأين صار؟ وهل استلم الوظيفة ، وهل هو حي الآن؟

٣- يوم زورت هويات وهربت مطلوبين

ومثل هذه الاعترافات لايدلي بها أحد في المعتاد حتى لاتؤثر على مستقبله فضلا عن أن تلحق به نتائجها. ولكن مادمنا نحكي الصدق، ومادامت هذه الأمور تقادمت، أي مر عليها الزمان، فأقول أنني في الماضي، في آخر الاربعينات ، احتاج الأمر إلى تدبير هوية سورية لرفيق لنا ملاحق ونريد تأمين سفره إلى لبنان. واستطعت الحصول على هوية من أحد الأشخاص وغيرت الصورة التي عليها، ونقلت الخاتم القديم على الصورة الجديدة بأسلوب بدائي ولكن محكم، وتم ذلك بسهولة ولم يكشفه أحد. وأنا بدلت في هويتي لأستطيع ان أعيش في لبنان أثناء فترة الملاحقة، وبدلاً

من محمد نجاة قصاب حسن صار اسمي محمد عجاج قصار وبقي الباقي على حاله. ولو أن هاتين الحادثتين اللتين اقتضاهما العمل السياسي والضرورة اكتشفا في وقتهما لكانت العقوبة جنائية ولاتقل عن الثلاث سنوات أشغالاً شاقة..

٤- واجتياز الحدود بصورة خفية

وحدث أن اجتزت الحدود مرتين بصورة (غير شرعية) أى دون المرور على المخافر وسيرا على الأقدام أو بوسائل قريبة من ذلك. وجلت في سورية ساحلها وداخلها على طريقة الأوتوستوب وكان اسلوبي يعتمد على قوة العصب، فبدلا من أن تجنب رجال الدرك، آتي إلى قربهم وأحدثهم بهدوء وأطلب منهم مساعدتي في الركوب بسيارة عابرة فلا يخطر ببال أحدهم أن هذا الذي يأتي فيحدثهم ويؤنسهم يمكن أن يكون ملاحقاً ومطلوباً.

من أصدقائي في السجن

رشاد عيسى

اعترف أنني تعلمت الكثير من رشاد عيسى، هذا الانسان العجيب في صفائة وتواضعه وأنه لايريد الاعتراف بأنه معلم كبير. كان رشاد عيسى (وهو من مواليد ١٩١٠) قد تخرج من كلية الحقوق في أوائل الثلاثينات وبعد أن قضى زمناً في الوظائف الادارية في مناطق نائية في الجزيرة العليا انتسب إلى نقابة المحامين، ولكن كان أقل مافيه - على صفاء ذهنه ومقدرته- هو المحامي

وأكثر مافيه الانسان الحكيم والمعلم المتواضع والرجل الخلوق المخلص إلى حد يفوق الزاهدين. مامن انسان على الاطلاق - على مطلق الاطلاق!- كرهه، وكل الناس يحبونه ويحترمونه ويقدرونه ويثقون به.

كان صورة الانسان المثالي في حياته، الجدلي في ذهنه القادر على الفهم والتوسع بالآخرين. وكان في عمله في المحاماة موضع ثقة المحامين جميعاً فجعلوه في كل الانتخابات المتتالية ممثلهم والقيّم على أدق شؤون النقابة من مالية وتقاعد فأدارها بدأب وتجرد ونزاهة حتى أربى عمره على الثمانين.

وقبل سنوات قليلة كان الضعف الجسدي قد أخذ منه مأخذه، وبعد أن مرض فترة بأزمات قلبية وتخاذل في القوى، توفي في المستشفى وكان له تأبين كبير شارك فيه الجميع من أعماق قلوبهم، ورثيته في الحفل لأنه كان معلمي.

فوزي الزعيم

وكذلك فاعترف بدور كبير في تربيتي للمرحوم فوزي الزعيم. وكان شاباً جميل الرجولة أسمر اللون فهيماً بالشعب وأخلاقه وعاداته، يعرف الناس ويزنهم بموازين صحيحة ودقيقة، وكان أبوه الشيخ صلاح الدين الزعيم من صفوة رجال الدين الوطنيين المحترمين الذين ناصروا الاتجاهات الشعبية مثله في ذلك مثل الشيخ محمد الأشمر.

احتواني فوزي الزعيم وعلمني بدقة وصبر كيف أسير وأسلك في المجتمع الدمشقي الصافي المعقد في آن واحد، وعلمني كيف احترم الطيبين

مهما كان اتجاههم وان احتقر السفلة ولاأقبل حتى بأن يلقوا عليّ السلام من بعيد. وكان هو الذي اطلعني على خصائص الحياة الشعبية في المجتمع الدمشقي بما في ذلك لغة الشعب وأمثاله وعاداته ومايحبه الناس ومايكرهونه. وكان فوزي من أبناء حي السمانة القريب منا، والناس كلهم يحترمونه ويجلّونه، جلساته حلوة وذكاؤه رفيع ويعرف كيف يبني النفوس ويشجع الناشئين. أشعر بعمق أنني أدين له بالكثير من تكويني السياسي والشعبي، وانحني باحترام وحنان أمام ذكراه المشرقة أبداً ولم تغب عني منذ توفي بالسكتة في أوائل الخمسينات.

ويؤلمني وأنا أختم هذه الصفحات أنني لا أستطيع لأسباب شتى أن أذكر الكثيرين من رفاقي الشجعان الأذكياء الذين عملت معهم في هذه الفترة، وكلهم شجاع وذكي ومخلص لشعبه ووطنه ولقضية الإنسانية، فليقبلوا مني هذه التحية كما لو كانت ذكراً لكل منهم بالاسم، ومؤكد أنهم كلهم نالوا احترام الجماهير التي حولهم ومحبتها لأن الاخلاص لا يخفى، وهو كالعطر لا يمكن اعتقاله.

الفهرست العـام للكتاب

مقدمة الطبعة الثانية .... آ

القسم الأول -القسم السياسي والنضالي........ -٥-

الباب الأول- سورية في ظل الحكم التركي .... -٩-

الفصل الأول -جولة تاريخية .... -٩-

الفصل الثاني -جمعيات عربية .... -٢٠-

الفصل الثالث -الثورة العربية .... -٢٩-

الفصل الرابع -خيانة الحلفاء للعرب .... -٣٤-

الفصل الخامس- المؤتمر السوري .... -٤٢-

الباب الثاني - سورية في المرحلة الأولى من الانتداب . . - ٦١-

الفصل الأول- تسلسل الأحداث في التواريخ المتعاقبة ... -٦١-

الفصل الثاني- الثورات .... -٧٥-

الفصل الثالث -عودة النضال السياسي ....-١٣٥-

الفصل الرابع -سورية والعالم أثناء الحرب العالمية الثانية . . -١٥٧-

القسم الثاني - التاريخ الثقافي و الأجتماعي . . . . -١٩٩-
الباب الأول -ذكرياتي عن مكتب عنبر . . . . -٢٠٢-
الباب الثاني - قصة التعليم في سورية . . . . -٢٦٤-
الباب الثالث - الحياة الأدبية في الثلاثينات . . . . -٣١٧-
الباب الرابع - أشهر المنتديات الأدبية في دمشق . . . . . . -٣٣٧-

القسم الثالث- ذكرياتي عن الأعلام في سورية. . . -٣٥٩-
الباب الخامس - ذكريات عن الاعلام في سورية . . . . -٣٥٩-
الباب السادس: - الموسيقا والغناء في سورية
في الثلاثينات ومابعدها . . . . -٣٩٥-
- الملامح العامة للمجتمع ونشاطاته
من الثلاثينات حتى الجلاء. . . . . - ٤٤٥-
الباب السابع - ذكريات السجن . . . . -٤٥٩-

ما كتبته بعض أديباتنا
عن الجزء الأول من المذكرات

... لقد استطاع قلمك المطواع ، الفكه ، الجاد ، الصياد الماهر ، اللاذع أحياناً ، والحنون دائماً وأبداً ، أن يعيد اليَّ صباي وطفولتي عن أحياء الصالحية وبين المدارس والمهاجرين ، وهذا ليس بقليل لمن كانت في عمري ...

... وأخيراً فمن أجدر من نجاة الدمشقي الأصيل بأن يكتب عن دمشقنا الأصيلة العريقة .

الفت الادلبي

... ان مذكراتك لوحة حيَّة لتاريخ دمشق وتقاليدها ومآثرها ومجتمعها في السنين الخاليات . وكنت أقرأ وكأنني أصغي اليك . فصلتني هذه القراءة عن الحاضر كلياً وانستني هرولة الساعة التي في يدي ...

... كنت أنت الحافز على هذه الرحلة الشيِّقة الى الماضي فشكراً لك .

سلمى الحفار الكزبري

... في كتاب الحنان والحنين يتزج صوت المدينة بأصوات المؤلف والناس الذين عرفهم وكانت وجوههم مرايا شعبية من الفسيفساء تنعكس عليها ملامح هذه السيدة الدهرية التي صمدت في وجه الفاتحين والغزاة ، دمشق التي ينبض قلبها بحق في ملايين البسطاء ، في أسلوب هو الوريث الشرعي لألف ليلة وليلة .

غادة السمان

مطابع ألف باء الأديب
دمشق